نهى الزيني

بلا وطن

رواية

بلا وطن

نهى الزيني

بلا وطن

رواية

الكرمة

الكرمة

لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © نهى الزيني ٢٠١٩
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب
بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

الزيني، نهى.
بلا وطن: رواية / نهى الزيني ـ القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٩.
٤٥٦ ص؛ ٢٠ سم.
١ـ القصص العربية.
أـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧٧٨٧ / ٢٠١٨

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: كريم آدم

إلى

الدكتور جلال أمين

بيت الفلسطيني

«أثر الفراشة لا يُرى، أثر الفراشة لا يزول»

محمود درويش

(١)

توقفت حرب أكتوبر ١٩٧٣، واندفع الطوفان...

حدث كل شيء في تلك السنوات.. التي حفلت بأجمل الأشياء، وبأسوأ الأشياء.

من وسط غيوم الخريف.. أطلت الفرحة، ولاح الشقاء.. وعلى أوراقه المتساقطة خُطت حكايتهم، وحكايتنا.

في أحد أيام ذلك الخريف، كانوا قادمين من ناحية جامعة القاهرة، مولِّين ظهورهم حديقة الأورمان عبر تقاطع شارع ثروت، عابرين الطريق تجاه شارع الدقي.

فتاة وشابان.

من نوع ملابسهم، فضلًا عن نقاء الجو، وتلك السحب الرمادية القليلة المتناثرة في السماء، وانعكاسات أشعة الشمس المائلة على أوراق الشجر القليلة الباقية فوق الأغصان، يظهر أنه عصر يوم دافئ أجبر الفتاة وأحد الفتيين على خلع بلوفريهما القطنيين.

يبدوان متشابهين في طوليهما المتوسطين، وبشرتيهما الخمريتين، وملامحهما المصرية، وشعرهما الأسود، لولا انسياب شعر الفتاة

طويلًا على ظهرها ملامسًا خصرها، بينما بدا الفتى الآخر مختلفًا بشكل لافت، فهو فارع الطول، أبيض البشرة، أشهب الشعر.

انعطف الثلاثة من شارع الدقي تجاه شارع عكاشة، وعند الناصية لاح محل صغير فوقه لافتة حائلة اللون كُتب عليها «عصائر زهرة الدقي».

تلبية لطلب الفتى الأسمر، أخرج عامل المحل ثلاثة أكواب زجاجية على صينية من الألومنيوم: كوبين من عصير المانجو تناولهما هو والفتاة، وشوبًا كبيرًا من عصير القصب برغوته الكثيفة تناوله الفتى الآخر، وقفوا يرشفون العصير ويتبادلون الحديث.

الناظر للفتاة يدرك للوهلة الأولى أنها تثق بنفسها وبجمالها، سمراء حنطية بلون العسل المصفى، متوسطة الطول، رشيقة تميل إلى بعض الامتلاء المحبب، ولجسدها بروزات أنثوية زادتها وضوحًا البلوزة البيضاء الضيقة التي تقف حافتها عند الخصر، والبنطلون الشارلستون الأسود المحزق من أعلى منسدلًا باتساع حسب الموضة التي انتشرت في تلك الفترة بين الشباب المصري من الجنسين، وقد علقت على إحدى كتفيها حقيبة جلدية كبيرة ذات يد طويلة من النمط الذي تفضله الجامعيات.

أول ما يلفت النظر إلى الفتاة شعر أسود فاحم لامع كثيف وطويل، يشكّل بلا جدال الجزء الأكبر من ثروتها الجمالية، وهي تشعر بذلك إذ تحرص على تركه حرًّا وراء ظهرها دونما بأس من الإطاحة به مع كل حركة رأس، ويزين وجهها الأسمر المستدير عينان سوداوان واسعتان تحيط بهما رموش كثيفة، وملامح مليحة في مجملها..

يمكننا القول إن الفتاة تتميز بجمال مصري جذاب، وبأنوثة من الصعب تجاهلها.

أما الفتى الذي يشبهها فهو قمحي اللون، له عينان سوداوان عميقتان، وقد فرق شعره من الجنب وأطال سوالفه قليلًا، وكان يرتدي قميصًا وبنطلونًا كلاسيكيين، ويحمل في يده كلاسيرًا ومسطرة طويلة على شكل حرف T.

وقد ارتدى كلاهما ملابس مصنوعة محليًّا، من ذلك النوع الذي كانت تعرضه محلات القطاع العام ومتاجر الأزياء الجاهزة بوسط البلد أو بميدان الدقي، والتي كانت تبيع في ذلك الوقت الملابس ذات الأنماط المتشابهة والأسعار المهاودة، وذلك على العكس من ملابس رفيقهما.

يتميز الفتى الأشقر بطول فارع، وبجسد رياضي متناسق، وبإطلالة أخاذة، وعلى الرغم من بشرته الوردية وشعره الكستنائي الفاتح المموج وعينيه اللتين تعكسان ألوانًا متباينة حسب درجة الضوء، فإن ملامحه الشرقية تستبعد من النظرة الأولى احتمال كونه أجنبيًّا، فهو مصري الروح والملامح غير أن جينات غربية خالطت جيناته الشرقية فأضفت عليه ذاك السمت الهجين، كما أن ملابسه لم تكن متداولة كثيرًا في مصر في تلك الفترة رغم بساطتها، فهو يرتدي قميصًا قطنيًّا بنصف كم متسع وبنطلونًا بلوجينز «ليفايز» مطويًّا من أسفل، وحذاءً جلديًّا خفيفًا بنعل كاوتشوك.

فتح أحدهم المذياع داخل محل العصير فانبعث صوت شادية تغني «يا حبيبتي يا مصر.. يا مصر».

تبادل الفتى الأشقر والفتاة نظرة باسمة، ثم التفتا إلى رفيقهما الذي كان يشرب آخر رشفة من كوبه متجهًا نحو مدخل المحل ليضعه فوق البار.

عند عودته عاجلته الفتاة ممازِحة:

ـ لماذا لم تطلب غلق الراديو كيلا تزعجك الأغنية؟

شوَّح بيده بحركة تدل على اليأس، فتحولت ملامح الفتاة من المزاح إلى الجد قائلة بنبرة هجومية:

ـ لا فائدة تُرجى منك، أنت تتجاهل حتى الفخر الوطني الذي نشعر به جميعًا.

ـ عن أي فخر تتحدثين؟ لقد عشت لحظات فرح لم أعشها طوال حياتي، وظننت أننا رجعنا إلى الطريق الصحيح، وأن مؤشرات النصر التي جاءت في البداية كانت جائزتنا الكبرى، لكن ها هي الحرب تنتهي قبل تحقيق أي نصر، وما الثغرة إلا اسم تدليل للهزيمة كما كانت النكسة تدليلًا لهزيمة ١٩٦٧.

ـ لن تتغير يا ابني.. لن تتغير، بأي منطق تتحدث؟ كل هذا النصر الذي أذهل العالم وحطم أسطورة خط بارليف وكسر الأنف الصهيوني، وأنت تتحدث عن هزيمة؟ ألن تتغير يا إسماعيل؟ ألن تنسى مراراتك؟

ـ ليست مرارات يا عزة، لكنه الوعي الذي لا يملكه إلا مَن يدفعون ضريبته...

واستطرد ضاحكًا:

ـ ثم إنكِ ناصرية متعصبة، فعلامَ فرحكِ بما تحقق على يد «السادات» وهو كما تقولون ما جاء إلا لتصفية ثورة يوليو؟!

لم تلتفت لممازحته، وانطلقت تتحدث بلهجة خطابية:

ـ الحقيقة يا صديقي أن «عبد الناصر» ما زال حيًّا بمبادئه، انظر فقط لقرار الأمس بوقف تصدير البترول العربي، تجده قرارًا ناصريًّا صميمًا يعيد لأذهاننا ما تربينا عليه من قِيم القومية العربية.. مَن كان يظن أن تقف السعودية هذا الموقف؟

ـ لا شك في شهامة الملك «فيصل»، المهم ألا يتم إجهاض هذا كله وينقلب الأمر كالعادة لدراما محزنة.

همت بالاسترسال، فقاطعها الفتى الآخر قائلًا بصوت هادئ:

ـ ألا تكفان عن هذا الجدل؟ لقد طيرتما كأس القصب من نافوخي.

أطاح أسلوبه الساخر بحماستها، فقالت غاضبة وهي ترفع قبضتها المفرودة أمام وجهه:

ـ اسكت أنت يا بول.

امتقع وجه الفتى ولم يُجب، بينما نظر إليها إسماعيل معاتبًا، ثم انصرفوا متجهين صوب ميدان المساحة، وقبل أن يصلوا إليه انعطفوا لشارع صغير مرتفع في بدايته ثم ينحدر لأسفل تجاه نهاية مغلقة، على ناصية الشارع فيلَّا صغيرة بجوار بابها الحديدي المشغول لافتة منحوت عليها «فيلَّا رءوف الملا».

عند الباب حيَّاهما الفتى الأشقر ثم دخل، بينما اتجه الآخران صوب منزل ذي أربعة طوابق يقع في نهاية الشارع المغلق، فبدا أن طريقهما واحد.

قال لها معاتبًا:

ـ ألا تعلمين أن مصطفى يغضب عندما يناديه أحد «بول»؟

قالت وهي تشير بيدها استهانة:

ـ أوَليس اسمه بول بالفعل؟ فما المشكلة؟

أجابها وهما يهمان بالمروق من فناء المنزل:

ـ هذا الاسم يضايقه، ومصطفى إنسان حساس، فأرجو أن تضعي هذا في اعتبارك.

(٢)

يتكون المنزل من أربعة طوابق: العلوي منها غير مكتمل البناء، مجرد أعمدة خرسانية وبعض الحوائط من الطوب الأحمر وهو على هذا الحال منذ سنوات بعيدة، أما الطابق الأول وله مدخل منفصل ملحق به حديقة خلفية مهجورة فيطلقون عليه «بيت الفلسطيني»، إذ مستأجره فلسطيني هاجر من مصر منذ سنوات واحتفظ بالشقة مغلقة مستغلًّا قانون الإيجار الذي يعامل الفلسطينيين معاملة المصريين، وقد حاول صاحب المنزل أن يستعيد الشقة بلا جدوى.

بقي الطابق الثاني، وتسكن فيه عائلة إسماعيل منذ نزوحها من الإسكندرية وهو في الخامسة من عمره، والطابق الثالث تسكن فيه عائلة عزة وهي الشقة التي تزوج والداها وأنجباها هي وإخوتها جميعًا فيها.

فتحت الشغالة الباب فسألتها عن والدها، ولما علمت أنه بالخارج اتجهت مباشرة لحجرتها وأغلقتها عليها من الداخل.

حجرة عزة عادية كمعظم حجرات نوم الطالبات في تلك المرحلة، وهي تستقل بها لأن شقيقتيها الصغيرتين التوأم ومعهما الشقيق الرضيع ينامون في الحجرة الملاصقة لحجرتها، وتشاركهم الأم الحجرة ذاتها في كثير من الأحيان عندما تهجر حجرتها لغضب من زوجها أو لمناورة تستهدف نقوده.

الحجرة صغيرة، تفتح كحجرة الشقيقتين على الصالة الموصلة لحجرة الطعام، ثم ردهتان صغيرتان واحدة توصل لحجرة نوم الوالدين وحمَّام، والمقابِلة لها من الناحية الأخرى توصل إلى المطبخ ودورة المياه.

ورغم صغر حجم الحجرة وتواضع محتوياتها، فإنها تمثل لعزة مملكتها التي لا ترى في الوجود مكانًا أفضل منها.. هي على كل حال تعشق الأمكنة وترتبط بها، وكما تعشق «مصر» وتؤمن في قرارة نفسها أنه لا يوجد على خريطة العالم بلد أعظم منها، فهي تحب الشارع الذي وُلدت وتربت في أحد بيوته وتؤمن بأن «شارع وهدان» المسدود آخره أفخم وأروع من شارعَي قصر النيل وسليمان باشا بوسط البلد، بل ربما أروع من شارع الشانزليزيه الباريسي الذي تقرأ عنه دون أن تراودها رغبة التجول فيه في يوم من الأيام.

لا تشعر عزة بالأمان الكامل إلا في حالين: حين تدخل حجرتها وتغلق بابها، وحين ترقد في حضن أبيها.

وأخيرًا، قبل أسابيع قليلة فقط ـ تحديدًا منذ يوم السبت ٦ أكتوبر ـ بدأت تستشعر أمانًا آخر له طعم مختلف منذ انتظامها في الصلاة، التي كانت لا تؤديها إلا في بعض أيام شهر رمضان وتحديدًا اليوم الأول

ثم العشر الأواخر، لكنها منذ أدائها صلاة الشكر على عبور الجنود المصريين قناة السويس ورفعهم علم مصر على الضفة الشرقية ـ حلمها الكبير الذي زرعه والدها في صدرها مذ كانت طفلة والذي بدا بعيد المنال ـ تدوي من حلوقهم صيحات «الله أكبر» مزلزلة قلوب الأعداء، منذ تلك الصلاة لم تتوقف عن أداء صلواتها المكتوبة حتى بعدما انصرم شهر رمضان، وعرفت لأول مرة لذة الخشوع بين يدَي الله شكرًا ولجوءًا وبحثًا عن أمان مفقود.

الغريب أنها أحاطت انتظامها في الصلاة بسياج من الكتمان، فحرصت على ألا يراها أحد وهي تصلي سواء من أسرتها أو أقربائها أو أصدقائها، حتى «منى» صديقتها المفضلة، التي زاملتها من المرحلة الإعدادية ثم الثانوية وشاركتها أحلامها في دراسة الإعلام لتصبحا صحفيتين شهيرتين، حتى منى نفسها أخفت عنها سر انتظامها في الصلاة وحرصها على مواقيتها.

سر آخر تخفيه عزة عن الجميع، وهو سر قديم ارتبط بواقعة ما لا تدري زمانها أو كنهها بالتحديد.. وهي لا تبوح بسرها هذا إلا لصفحات كراسة خواطرها.. تختلط في ذهنها صور بعيدة وأصوات صاخبة ودقات عالية صادرة من الطابق الأسفل، ونبرات والدتها تصيح بعصبية في الشغالة، ووالدها يتنقل بين الطابقين يحمل أشياء، وعينان خضراوان بلون العشب باكيتان كهيئة المطر، وصوت ناعم مفعم بالحنان، وفتاة حلوة بوجه حزين وضفائر طويلة، وطفل في مثل عمرها ينظر إليها في فضول وتنظر إليه، لذا كتبت يومًا في كراسة خواطرها «لا أتذكر من قبله شيئًا على

الإطلاق.. بدأ إدراكي يتفتح معه.. مع وجوده.. ومن ذلك الوجود انبثق وجودي».

❋ ❋ ❋

بمجرد أن فتح باب الشقة بالمفتاح، تناهت لأنفه رائحة عجين مقلي.. «لقمة القاضي»! صاح فرحًا وهو يقتحم المطبخ.. كانت هناك، تقف أمام البوتاجاز وبيدها مقصوصة التحمير تقلب بها حبات لقمة القاضي، التي تلفها بعناية على الملعقة الصغيرة وتلقي بها بخفة في طاسة الزيت المغلي.

وضع قُبلة على خدها، فجاوبته بابتسامة حانية أضفت على عينيها الخضراوين بريقًا مدهشًا.

ـ ما دامت هناك لقمة القاضي فهناك خالد، أليس كذلك؟

سألها بلهجة حذرة مخافة أن تجيبه بالنفي، كان ينظر إليها بحب وترقب وتمنٍّ لأن يكون قد لاح في الأفق ما يسعدها.. قال لنفسه: «ما أصعب إسعاد قوم سكن الحزن أعماقهم منذ زمن بعيد».

ـ ليس هنا، لكنه سيأتي على الغداء.

ـ وأين هي؟

ـ في حجرتها، ربنا يهدي النفوس يا ابني، مَن يصدق أن يصبح هذا حال خالد وإلهام؟! ربنا يجازي المفتري، ربنا على الظالم، الله المنتقم.

انقلبت الملامح الوادعة الرقيقة لملامح متنمرة قاسية.. قسوة المظلوم حين يدعو على ظالمه، والأم حين يُمس طفلها بسوء، والمرأة حين تفقد الرجل الذي أحبته.

حاول إسماعيل الاحتفاظ بحياد ملامحه أمام والدته، ثم وهو يدخل حجرة شقيقته بعد استئذان.

كانت مستلقية على فراشها، فاعتدلت جالسة وهي تجاهد نفسها على الابتسام.. ما أملحها! ورثت عن والديهما أجمل ما فيهما: وجه أمهما المستدير القسيم الوسيم، وعينيها الخضراوين اللامعتين، وطول أبيهما الفارع، ولونه القمحي الصافي، وشعره الأسود الناعم، فجاءت تحفة فنية ذات جمال لا تخطئه عين، ترنو إليها العيون وتهفو إليها القلوب، أما عيناها هي فلم ترنوَا إلا لرجل واحد، وأما قلبها هي فلم يهفُ لسواه.. مذ كان صبيًّا يلهو معها، ثم فتى يبادلها نظرات خجلى وابتسامات حذرة، ثم شابًّا ينتظره مستقبل مشرق ويقتسمان معًا الأحلام.. ابن خالتها رفيق صباها، ثم خطيبها الذي انتظرته طويلًا حتى سكن الحزن قلبها وقلب مَن حولها، ثم.. ثم زوجها.

ـ ستظل رائحة لقمة القاضي مرتبطة عندي بمجيء خالد، هل تذكرين يا إلهام تلك الأيام الجميلة؟ لقد كانت جميلة على أي حال.

نظرت إليه بحنان وابتسمت بمرارة، فشعر بغصة في قلبه، وقال محاولًا تغيير الموضوع:

ـ الجامعة تبدو مزدانة كعروس وهي تستقبل جيلًا جديدًا يسميه الأساتذة «جيل النصر»، مَن يدري ربما تغيرت الأحوال فعلًا.

ـ كل شيء قابل للتغيير لكن علينا بذل الجهد ومحاولة التغلب على مرارات الماضي.

فهم إشارتها، فأيقن أن محاولته غير مجدية، شعر برثاء لها.. لكليهما، لكنه حاول استبقاء نبرة التفاؤل:

- اعذريه يا إلهام ولا تنسي ما عاناه طوال الأعوام الماضية، لا تنسي كيف ضاعت زهرة شبابه وفقد أعز أحبابه وهو هناك في غياهب المجهول، لا تنسي مرارة الظلم وطعم الحرمان.

- لقد تغير خالد يا إسماعيل، أصبحت عاجزة عن استحضار ملامحه القديمة، أنا لا أقلل أبدًا من قدر معاناته، لكن الجميع عانوا ما عاناه وها هم يحاولون العودة للحياة من جديد وتعويض أهاليهم عما قاسوه في غيابهم، انظر إلى يسري الجوادي وعبد الرحيم هلال، لقد كانا مثله وفي نفس عمره عندما حدث ما حدث، فلماذا لم يستسلما لليأس مثله؟

كان مقتنعًا أنها محقة، لكنه حاول أن يضع نفسه مكان الطرف الآخر كيما يتلمس له العذر، ولكي يحاول أيضًا التخفيف عنها هي، قال بنبرة حانية:

- تعرفين كم كان خالد عاطفيًّا حساسًا، وكم كان مرتبطًا بوالديه اللذين فقدهما وهو...

قاطعته بنبرة عالية باكية:

- لكنه وجدني أنا في انتظاره، خرج فوجدني ما زلت على العهد أنتظر، أفلم يكن ذلك كافيًا لنبدأ حياتنا من جديد وليحاول تعويضي عن سنوات شبابي التي انقضت في انتظاره كما حاولت أن أعوضه؟

- خالد يحبك يا إلهام، لكن ربما هناك حسابات في ذهنه لا نفهمها،

فهو كان دائمًا مثالًا للذكاء وللرجولة، لذا أنا على يقين من أنه سيتخطى المحنة قريبًا، اطمئني يا حبيبتي لقضاء الله فإن قضاءه كله خير.

ـ ونعم بالله، لكن أين عمل الإنسان؟

قطع استرسالهما في الحديث صوت جرس الباب، فالتفت إسماعيل وراءه وهو يقول:

ـ ها قد جاء، أرجو أن تكوني رفيقة به وبنفسك، وأن تستمعي له هذه المرة.

* * *

التف الأربعة حول مائدة الطعام، وقد انتهوا من تناوله، وأخذوا يحتسون الشاي في صمت قطعه إسماعيل موجهًا حديثه لخالد الجالس في مواجهته بجوار إلهام:

ـ الغريب أنك ما زلت على حبك القديم للقمة القاضي رغم ما فعله القضاة بك.

كان يمزح، لكن خالد تجاهل ذلك وهو يقول بجدية ملؤها الأسى:

ـ هؤلاء لم يكونوا قضاة بل سفاحين، لقد كانوا يحققون معنا بينما تخرق آذانهم أصوات الصارخين والمستجيرين من العذاب، فيتجاهلونها رافضين أن يثبتوا في محاضرهم الملوَّثة بدمائنا ما نعرضه عليهم من آثار التعذيب.

(٣)

في طفولته كان يراه مثلًا أعلى، وكانت الإجازة الصيفية تعني بالنسبة له أن يذهب إلى خالد هناك في القرية ـ «عزبة الشهيد» من أعمال قطور بمحافظة الغربية ـ فيتعلم منه كل شيء بدءًا من الخطوات الصحيحة للوضوء، ومرافقته في صلواته بمسجد القرية، حيث ينظر إليه بانبهار حين يقدمه الشيخ ليؤم المصلين في بعض الفروض الجهرية فيرتل بصوت رخيم، ومتابعته في حفظ قصار السور، حتى كيفية القبض على لجام فرس الحاج علي بقوة ومناولته قِطع السكر برفق شفيق، ثم التدرُّب على حل مسائل الحساب للعام التالي كي يكون مهيًأ ليلتحق مثله بكلية الهندسة، حيث تبوأت في تلك الفترة التي شهدت اتجاهًا متزايدًا نحو التصنيع مكانًا في أعلى سلم الكليات الجامعية.

كان يكبره بتسع سنوات كاملة، وُلد في العام ١٩٤٦ بعد سبع بنات كبرن وتزوجن وأنجبن، وبعد أن وهن عظم الحاج علي واشتعل رأسه شيبًا وأوشك رحم الحاجة فاطمة على الجفاف.

وفي إحدى ليالي العطاء الإلهي، كان عائدًا من طنطا بعد أن زار الشيخ صالح العقاد زيارة محبة وأخوة في الله، وقضى معه ومع باقي الإخوان ليلة من الليالي الصافية المليئة بالخير والبركة، وعندما أمَّ الشيخ صلاة التهجد في الهزيع الأخير من الليل، وبدأ في القنوت وهم يُؤَمِّنون على دعائه، فاضت عينا الحاج علي بدمع سخين، وسجدوا فأطالوا السجود ودعا الله مخلصًا بدعاء زكريا: «رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ».

لم يُحرم الذرية، لكنه حُرم الولد الذكر الذي يحمل اسمه، ويُبقي في الحياة نسله ويرفع بين الأنام ذِكره، ويحمله على كتفيه ليطوف به بيت الله الحرام حين تطعن سنه، ويلقنه الشهادة ويغسِّله ويواريه التراب عندما يحين أجله.

حين عاد إلى بيته بعد تلك الليلة اغتسل وصلى ركعتين، ثم طلب فاطمة لفراشه فتعجبت وضحكت ومزحت وتمنعت، ثم لبَّت طائعة لزوجها وهي تضرب كفًا بكف: كبرنا على الكلام ده يا حاج وأصبحنا جدودًا لصبيان وبنات يملأون البلد!

لكن الله يرزق مَن يشاء بغير حساب، فلقد جاء نتاج تلك الليلة الأخيرة بينهما صبي كفلقة القمر، ليس في العائلة ولا في القرية كلها مَن يضاهيه حُسنًا ورواء، ثم عقلًا وذكاء وخُلقًا وقوة ومهارة.. يقولون ابن الكبر ضعيف.. مَن قال هذا؟ انظروا لخالد ابن الحاج علي هل تجدون له مثيلًا؟ عطاء الله.. بركة الشيخ صالح العقاد وما أدراك مَن هو؟ إنه التلميذ النجيب للأستاذ المرشد، ربَّاه على عينه ولقنه أصول العقيدة والدعوة إلى الله.. وكم دعا له الشيخ صالح بأن يرزقه الله ولدًا يكون ذخرًا للدعوة وزهرة فواحة في رياض الإخوان، فتقبل الله دعاء الصالحين وأفاض عليه من رزقه ما لم يخطر له على بال.

ويوم عرف أن فاطمة حامل وقر في قلبه أن المولود سيكون ذَكرًا، فكر أن يطلق عليه اسم صالح تيمنًا بالشيخ العقاد، بل فكر أن يطلق عليه اسم المرشد كاملًا «حسن البنا».. كم مولود في تلك الفترة تَسمى بذلك الاسم الميمون، لكن الشيخ صالح حين جاء ليبارك

بقدوم الوليد، أذَّن في أذنه اليمنى وأقام الصلاة في أذنه اليسرى، ثم قال: بارك الله لك يا علي في خالد.. الأخ خالد.. سيف الله المسلول على أعدائه بإذن الله.

وقد تألقت بوادر رجولته منذ نعومة أظفاره، شجاع مقدام ذو رأي لا يهاب أحدًا، يوقر الكبير ويهب لمعاونة الضعيف.. «ربنا يحميهولك يا حاجة فاطمة»، «اللهم لا حسد»، «يا ريت يا خالة فاطمة ربنا يعطيني مثله»، «الولد لا يرضى أن أُقبِّله»، «نفسي آخذه في حضني»، «أنا مثل أمك يا حبيبي»، جمال وحياء وفتوة.. وألقيت عليك محبة مني ولتُصنع على عيني.. سبحان الله يرزق من يشاء بغير حساب.

* * *

كانت حكمت على وشك أن تُزف إلى مَن جمع الحب بينه وبينها، واختارها من بين نساء الدنيا، وعاند من أجل حبها أهله الذين أرادوا تزويجه من شقيقة امرأة أخيه، ذات مال وجمال وأصل عريق، لكن الحب كان أقوى من كل الإغراءات ومن كل التهديدات.

وقع في هواها لحظة رآها لأول مرة في القطار المتجه من القاهرة للإسكندرية بصحبة أخيها، صديق طفولته وزميل دراسته الابتدائية والثانوية إلى أن فرقتهما الدراسة العالية، سحرته بنظرتها الخضراء الحانية الحيية.

ـ أختي حكمت.. صديقي وأخي محمد الطحاوي.. ما أخبارك يا محمد؟

ـ في سفرية عمل للقاهرة تتعلق بمصانع والدي وعائد إلى الإسكندرية، وأنت يا عادل؟

ـ سننزل في طنطا، ليتك تزورنا قريبًا.

ـ سأفعل، من المؤكد أني سأفعل.

نكست رأسها حياءً وهربًا من نظرته الباسمة.. تلقت الإشارة وانتظرت تنفيذ الوعد.. الرجال لا يتأخرون ولا يسوِّفون، و«محمد طول عمره راجل».

في أحضان شقيقتها الكبرى نشأت بعد يُتْم ذاقته صغيرة، لكن حنان فاطمة لم يشعرها أنها فقدت أمها، بينما أنزلتها رعاية الحاج علي منزلة لم تطلها أية فتاة من أترابها تحيا معززة في كنف أبيها، كانت الأخت الصغرى المدللة من الجميع، لكنها الابنة الأثيرة لفاطمة وعلي، وعندما وُلد خالد احتضنته بفيض أمومة فتاة توشك أن تتزوج، كانت تصر على أن ينام إلى جانبها في الفراش وتولت رعايته نيابة عن أمه المسنة المنهكة، وتعلق بها خالد أيما تعلق فكان يناديها «ماما حكمت» وظل يناديها بهذا الاسم حتى بعدما أصبحت أُمًّا لإلهام التي تصغره بثلاثة أعوام ولإسماعيل الذي يصغره بتسعة.

ويبدو أن الحب والتعلق يورثان كالملامح والصفات الشخصية، فقد تعلق خالد بإلهام منذ تفتح وعيه، وقر في قلبه أن هذه الصبية الحلوة التي يراها كل إجازة صيف وكل عيد وكل موسم حين تأتي وأسرتها من الإسكندرية لزيارتهم في العزبة ستكون زوجته.

كان يتهيأ لامتحان الشهادة الابتدائية، حين قالت له «ماما حكمت» ضاحكة: «شد حيلك يا خالد واحصل على مجموع كبير لنزوِّجك إلهام!».

دق قلبه.. شعر باضطراب وأحس أن الموضوع ليس لعبًا لكنه جد، كل شيء في حياتنا يجب أن ننظر إليه بجدية، هكذا تعلم من الشيخ صالح العقاد، «إن أردت أن تنول مرادك فعليك بالعمل، لا تكتفِ بالأحلام، لا وقت لدى الإخوان يضيعونه في الأحلام، اقرأ وتدبر واعمل، هذا هو شعار جماعتنا وشعار أمتنا، الأمة المجاهدة لا تعرف إلا الجد».. حتى هذا الحلم الطفولي الصغير كان يترجم في عقله إلى خطة عمل واجبة التنفيذ، وقد أعطته ماما حكمت المفتاح، إن أردت أن تحصل على إلهام فاجتهد.. هذا هو الطريق.

انظر إلى خالد يا إسماعيل وتتبع خطاه، هذه هي القدوة الحسنة، علم وأدب، خلق واجتهاد، نظافة وإيمان وتقوى وعمل صالح.. «نفسي أفرح بيك يا إسماعيل زي ما فرحت بخالد.. سنقضي معهم الإجازة الصيفية كلها، أعلم أنك تحبه، يا ضنايا، عرفت اليتم من صغرك مثل أمك»، عطف الحاج علي يكفي يتامى العالم.. يمسح على رأسه.. بكل شعرة صدقة.. يحمله على كتفيه وهو ذاهب إلى الغيط، يسلمه لخالد ليعلمه الصلاة وتلاوة القرآن، يصحبه معه في زياراته للإخوان.

يتعلق قلبه منذ الصغر بأوراد الجماعة، تتعلق عيناه باللوحة الوحيدة المعلقة في صالة بيت خالته داخل إطار ذهبي.. الوصايا العشر للإمام الشهيد: قم إلى الصلاة متى سمعت النداء.. لا تكثر الضحك فإن القلب الموصول بالله ساكن وقور.. لا تمزح فإن الأمة المجاهدة لا تعرف إلا الجد...

يتفتح وعيه على نوع من «المحبة السرية» يجمع بين أفرادها،

مَن يعرفهم ومَن لا يعرفهم، لا يلتقون إلا ليلًا، لا يعلم لماذا، يأتون لزيارة الحاج علي بعد أن يرخي الليل أستاره وينام الجميع، يستيقظ ليشرب أو ليقضي حاجته فتصل لأسماعه همهماتهم، يتبادلون الحكايا والنكات، يضحكون، يقيمون صلاة الليل، يقرأون ما تيسر من القرآن، كل ذلك في السر.

«جئتم يا بني في زمن لعين تُكمم فيه الأفواه ويهدد أولياء الله بالسجون، مَن يصدق أن يُقبض على الشيخ صالح العقاد ويُزج به في السجن.. الشيخ صالح عين أعيان طنطا.. لا يوقرون كبيرًا ولا يرحمون صغيرًا.. زمن انقلبت فيه الأوضاع وأصبح الأبيض أسود، عبد الناصر وزبانيته يحاربون الإسلام لصالح الشيوعية.. أسيادهم السوفييت.. عملاء.. جئنا بهم إلى الحكم.. رفعناهم فوق رؤوسنا وسلمناهم السلطة فغدروا بنا.. أفاعٍ.. لا ننتظر منهم خيرًا.. سيخربون البلد والشعب غافل يغني لجلاديه.. «ناصر كلنا بنحبك.. ناصر وهنمشي وراك..» إلى الهاوية.. إلى الهاوية!».

كان يظن اللازمة الأخيرة جزءًا من الأغنية الأصلية، حتى تلقى لكزة تحذير من والدته حين أنشدها بصوت مرتفع وهم جلوس في القطار.. عرف منذئذ أن هناك ما يقال وما لا يقال، أدرك أن هناك أغاني علنية وأخرى سرية. الله غايتنا.. الرسول زعيمنا.. القرآن دستورنا.. والموت في سبيل الله أسمى أمانينا.

(٤)

لن ينسى إسماعيل ذلك اليوم ما دام حيًّا.

في صيف عام ١٩٦٥ كان على وشك أن يتم العاشرة من عمره، ذهب بصحبة خالد إلى العزبة، بينما سافرت والدته وشقيقته إلى الإسكندرية لقضاء بعض الوقت مع أهل أبيه على أن تلحقا بهما فيما بعد.

أنهى خالد اختبارات العام الثاني بكلية الهندسة.. أولى ميكانيكا.. ونجح بتقدير مرتفع بينما هو لا يزال في مرحلة الدراسة الابتدائية، متفوقًا كابن خالته، ومتطلعًا لكلية الهندسة التي تلوح كالحلم غير بعيد من منزلهم في حي الدقي، الذي قطنوه بعد نزوحهم من الإسكندرية عقب وفاة أبيه.

طفل في العاشرة مستغرق في نومه، يفيق مذعورًا على ما يشبه لكمة، كان الظلام مخيمًا على المكان وضوء خافت ينبعث من سراج بالحجرة، ورجال غرباء يملأون المكان، أمسك أحدهم بخالد ليمنعه من الحركة.

فرك عينيه بارتعاب وقد ظن أنه يحلم.. أمسك أحد الرجال بذراعه وأطاح به من فوق الفراش، ثم انقض على الوسادة التي كان ينام عليها.. مصحف صغير اعتادت أمه أن تضعه تحت وسادته.. أمسك به الرجل وأخذ يفر أوراقه كأنه يبحث عن شيء ما، ثم ألقى به إلى حيث إسماعيل، الطفل المرتعب لا يدرك مما يحدث شيئًا.. جاليفر في بلاد العمالقة.. السندباد في بحر الظلمات.

صرخ مستغيثًا:

ـ خالد.

فأتته لكمة أخرى وصوت غليظ يصيح به:

ـ اخرس يا ولد!

انحشرت الكلمات في حلقه وجف ريقه، ماذا يحدث؟ مَن هؤلاء؟ ولماذا يمسكون بخالد هكذا؟

أتاه صوت خالته من خارج الحجرة في نوبة بكاء مكتوم صاحبت أصواتًا صاخبة، انفلت من بين أرجلهم ليستنجد بزوج خالته، فرأى في الخارج جمعًا مضاعفًا يحيطون بهم من كل مكان وقد قلبوا البيت رأسًا على عقب، مراتب الأسِرَّة والوسادات على الأرض، المقاعد قُلبت وشُقت بطونها، ورجال يعملون بهمة يخرجون كل ما في الخزائن وكل ما في الأدراج يلقون بها على الأرض ويحتفظون ببعضها، وهرج ومرج، بينما يقف الحاج علي بينهم صامتًا خافضًا رأسه ينظر إلى زوجته بين حين وآخر نظرات معناها أن تكف عن البكاء، ثم...

ثم يحملون الحاج علي وابنه في اللوري المنتظر بالخارج، ويمضون بهما مشيعين بصراخ الحاجة فاطمة وبكاء الصبي الصغير الذي لا يفقه مما يدور من حوله شيئًا.

ذهبا ولم يعودا.

وبدأت رحلة البحث عنهما، طوال الأعوام الثلاثة التالية كان البحث عن مكان المفقودين يشغل كل تفكير إسماعيل وأسرته، وبدأت الحقائق تتضح أمامه شيئًا فشيئًا.

قبضوا على جميع الإخوان، الرجال والفتيان وكثير من النساء، تصيح الحاجة فاطمة باكية شاكية لمن تزورها من النساء: «حتى الحاجة علية زوجة الحاج صالح قبضوا عليها! مَن يصدق أن يسجنوا النساء؟».

ثم تصرخ منادية زوجها وولدها، متضرعة لربها أن تهتدي لمكانهما كي يطمئن قلبها.. «ليتهم يقبضون عليَّ أنا الأخرى حتى أذهب إليهما». وتنهمر الدموع من عينيها وعيون جليساتها.

يشعر إسماعيل باليتم الحقيقي بعد اختفاء الحاج علي، ويضيع منه الرفيق والطريق مذ ذهبوا بخالد، وتطل من الرأس الصغير أسئلة لا تجد لها إجابات شافية.

لماذا قبضوا على زوج خالته، وقد كان قبيل مجيئهم مريضًا ملازمًا الفراش يعوده إخوانه كل حين؟ ولماذا حملوا معهم الفتى المليح الحبيب لقلب كل مَن يعرفه؟

تمر الأعوام وتنضاف لقاموسه مفردات جديدة عجيبة: «إرهاب»، الإخوان إرهابيون.. هكذا يقول مذيع التلفزيون.. «اعتقال»، اعتقلوا الإخوان واعتقلوا أُسرهم أيضًا.. «المؤامرة».. «الثورة المضادة».. «قنابل».. «تفجيرات».. هل يُعقل أن والدي الحاج علي كان يريد نسف القناطر الخيرية؟ ألم يخش أن تُغرق المياه زرعته؟ ولمَ أراد خالد تفجير كوبري أبو العلا؟ ولماذا هذا الكوبري بالتحديد؟ أنا أعرف هذه الزجاجة المصورة في الجريدة، إنها زجاجة دواء تركيب كانوا يعالجون به التهابًا جلديًّا أصاب رأسي وأخذها أحدهم معه يوم جاءوا، أصبحت في الجريدة زجاجة مواد حارقة لنسف أماكن تجمع المواطنين.

«هناك ما يقال وما لا يقال.. احذر أن تلقي هذه الأسئلة على أحد خارج العائلة.. أمسك لسانك في المدرسة.. الثورة حققت العدل المطلق.. احفظ مبادئ الثورة وإنجازاتها كي تجتاز الامتحان بنجاح.. لا بد أن تكون متفوقًا كخالد كي تلتحق مثله بكلية الهندسة.. حقق أمل أمك.. غدًا سيعود خالد ليصحبك في جولاته على الفرس الأبيض».

أما إلهام الزهرة اليانعة فتستسلم للذبول، تكسو نضرتها غلالة حزن لا تتزحزح، تستقبل مؤشرات أنوثتها التي تفرح لبلوغها الفتيات بيأس عميق يتشارك مع الهرمونات ومع السنوات في تشكيل كيانها الأنثوي فتبدو جميلة.. نعم.. بل رائعة الجمال، لكنه جمال سُجن في قالب حزن حديدي كما تُسجن أقدام الفتيات الصينيات في قوالب حديدية لتظل صغيرة بعدما يكبرن.

هكذا تم اعتقال ملامح إلهام، حتى بدت ابتسامتها ذات رداء حزين، فظلت في المدرسة رغم سمو أخلاقها عنصرًا كئيبًا غريبًا شاردًا عن تجمعات الفتيات المشرقات الحالمات الضاحكات الهادرات، وما أن تأتي الإجازة المدرسية حتى تهرع إلى القرية لتقبع بجوار خالتها التي زحفت الأمراض إليها سراعًا، كأنما تبحث عندها عن نبع تروي منه حزنها بالمزيد والمزيد من الأحزان.

وقد كانت تستعد لاجتياز اختبارات الثانوية العامة حين وقعت هزيمة يونيو ١٩٦٧ التي كانت إيذانًا بتغير هائل وعميق في التركيبة الوطنية، وعلى مستوى العائلة بدا أن النور يتهيأ للبزوغ من تحت جنح الظلام بعدما لاحت تباشير الإفراج عن بعض المعتقلين.

عاد الحاج علي ذات يوم إلى بيته، لكن عَوده لم يكن أحمدَ وإن ظلت ترانيم الحمد ترطب شفتيه حتى آخر نفس في حياته.

عاد وحيدًا دون فلذة كبده، فاقدًا القدرة على الحركة والبيان، مشلولًا قعيدًا تائه النظرات مشوش الكلمات لا يكاد يبين وهو الذي كانت مسامراته متعة للصحاب والأحباب، «لكنه السجن الحربي وما أدراك ما السجن الحربي؟».. هكذا كان الشيخ صالح العقاد يردد بأسى وهو يعود أخاه وتوأم روحه.. «أصيب الرجل بجلطة أعقبها شلل لكنهم لم يرحموه، كانوا يهينونه أمام إخوانه وأمام ولده كما أهانوا الجميع، حاول التجلد طويلًا، لكنه لم يتحمل لسعات السياط على جسد وحيده المحبوب.. ابن الكبر غالي، خالد زين الشباب يُسب ويُضرب ويُهان وتنهش جسده الكلاب ويُهتك عرضه أمام أبيه.. ثلاث سنوات طوال بَدَت كنفق مظلم لا نهاية له، وحين جاءت الهزيمة لاح ضوء الفجر.. مَن كان يصدق أن حريتنا ثمنها انكسار الوطن؟ هكذا شاءت العصابة التي حكمتنا طوال تلك السنين، وحتى هذه الحرية جاءت منقوصة، فلم يفرجوا إلا عن المرضى والمسنين ومَن كتبوا بدمائهم عرائض التأييد لشيخ المنسر، بينما نُقل الباقون لسجون أخرى، فقط من أجل إخلاء السجن الحربي ليستقبل رواده الجدد ممن تم تحميلهم وزر الهزيمة كأكباش فداء تقدم لجماهير خرجت تهتف لقاتليها بالروح والدم».

حملوا فاطمة حملًا لترى وحيدها في زيارة وحيدة لسجن أبي زعبل الذي نُقل إليه من السجن الحربي، لم يمر أسبوع على تلك الزيارة حتى لاقت ربها حزينة على رفيق حياة يرقد أمامها

جثة هامدة، وفلذة كبد لا تدري أتلقاه ثانية أم لا، وفي الزيارة التالية ذهبت إليه ماما حكمت وبمجرد رؤيتها أدرك الحقيقة فازداد انهيارًا على انهيار.

وتوالت الأحداث، فزارته إلهام مع والدتها وعادت شاحبة باكية تضرب كفًّا بكف وهي تردد: «أهذا كل ما بقي من خالد؟».

زاره إسماعيل في المرة التالية، تحدث إليه طويلًا وألقى عليه أسئلة لم يحصل على أي إجابات عنها.. ثم خفت القبضة الحديدية فتبادل الأحباب الرسائل، وحين أرسل خالد لإلهام يعفيها من الارتباط به شفقة عليها أن يطول انتظارها بلا طائل، تلقى جوابها بأنها تنتظر منه تحديد موعد عقد قرانهما في أقرب وقت.

حصلوا على موافقة رسمية وعُقد قرانهما وهو ما زال سجينًا، وفي حجرة المأمور تعانقت الأكف والنظرات، ووقف إسماعيل يرقبهما وقد حُفرت في تجاويف مشاعره تلك الصورة المفرحة الحزينة الباكية، وهو يسأل نفسه: «ألم يكُ خالد وإلهام جديرَيْن بأن تقام لقرانهما الأفراح، وأن يتوج حبهما الطاهر بلقاء يرويان فيه ظمأ فراق الأعوام الطوال؟».

عُقد القران في صيف عام ١٩٧٠، وفي الصيف ذاته كان موعد انعتاق روح الحاج علي فانطلقت إلى بارئها في ليلة صيف حانية، وتحجرت في عينَي إسماعيل الدموع وهو يُقبل جبين والده الحقيقي مودعًا، ثم انسابت على وجنتيه بعدما خرج من حجرته، ووقف ينظر من خلال غيوم عَبراته إلى تلك اللوحة المعلقة على الحائط داخل الإطار الذهبي القديم: لا تكثر الضحك فإن

القلب الموصول بالله ساكن وقور.. لا تمزح فإن الأمة المجاهدة لا تعرف إلا الجد.

غير أن تلك اللوحة لم تكن الوحيدة التي اعتاد إسماعيل أن يتسمر أمامها منذ طفولته ويستغرق في التفكير في مبناها ومعناها، بل كانت هناك لوحة أخرى معلقة في صالة الطابق الثالث بالدقي تخطف بصره كلما صعد للمذاكرة أو للعب مع رفيقة طفولته وصباه، هناك في بيت العم عبد المنعم كان يقف، كلما أتيح له ذلك، متأملًا بانبهار صورة «الزعيم».

(٥)

حكمت يا خضرا.. يا خضراء العين والقلب.. لم يعد لي عندكِ سوى كلمات مجاملة مما يتبادلها الجيران كلما التقينا مصادفة.. نسيتِ عبده ونسيتِ ما كان منه ومنكِ.

كأنما ما كان بالأمس القريب لم يزل، لم تطوه عقود ودهور وأحوال تبدلت وأحباء رحلوا.. أين عادل الإبياري رفيق الصبا.. شقيق زهرة البساتين وحلم مطلع الشباب؟ تسمت القرية كلها باسمه «عزبة الشهيد عادل الإبياري» من أجل عيونك ومن أجله هو أيضًا، الأخ الصديق الحبيب الشهيد.. استخدمت سُلطتي ومكانتي يوم كانت سلطة ومكانة لأخلد ذكراه.. شكرتِني وأنتِ تتجنبين النظر في عيني.. قلت لي: «كتر خيرك يا عبد المنعم بك!».

قلتِها كالآخرين متجاهلة شوقي لسماع اللفظة الحلوة ينطقها لسانك، كما نطقها مرة في ذلك الزمن البعيد، فحُفرت في تجاويف القلب حفرًا «عبده».

كنت أزور عادل في بيتكم، فخرجتِ لتسأليني عما تضيفينني به: «هل تشرب شايًا يا عبده؟»، قلدتِ شقيقكِ دون قصد فرميتِ سهمًا ما زال جرحه غائرًا في شغاف القلب، كنتِ صغيرة حلوة حيية خفيضة الصوت، تخطرين برفق على عتبة أنوثتكِ المبكرة.. وردة مفتحة لم تمسسها يد.. تعلق قلبي بكِ منذ ذلك اليوم، ونسجتُ في خيالي حواديت العمر.

التحقتُ بالمدرسة الحربية بعد عادل بعام، كنت أسير على خطاه نحلم بأن نصبح فرسانًا في الجيش المصري، هل تذكرين حين أتيتُ إلى بيتكم أول يوم لخروج المستجدين، ببدلتي البيضاء ذات الشريط الأحمر والجاكيت الكحلية بأزرارها الذهبية والطربوش الطويل المتوثب إلى السماء؟

لم تكن لأحلامي حدود، وأردت أن تكوني أول مَن يراني وأنا مشروع ضابط، أتيت إليكِ قبل أن أذهب لأمي التي كانت تترقب خروجي، استقبلني يومها الحاج علي، رحمه الله، بفرح صادق وطيبة قلب لم تفارقه أبدًا، أخذت أتلفت بحثًا عنكِ، ولما لم أجدكِ انصرفت ممرورًا بخيبة أمل، وقبل أن أصل لنهاية الطريق رأيتكِ قادمة برفقة إحدى بنات شقيقتكِ، ما زلت أذكر ابتسامتكِ الحيية وتلون وجهكِ وإطراقة رأسكِ خشية أن تلتقي عيوننا.

يا إلهي، كم كنت أحبك، وكم كنت في غفلة عما يحمله

الدهر، وهكذا مرت الأيام في حلم جميل أيقظني منه ظهور محمد الطحاوي.. يخيل إليَّ أني لم أكره في حياتي تركيبة اسمية كما كرهت هذه التركيبة «محمد الطحاوي».. مجرد اسم، لكنه حين يُنطق أمامي تتحول حروفه إلى سهام تخرج من فم قائلها مصوبة لصدري محملة بسموم القهر والخذلان.

حكمت يا ضيَّ العيون.. كيف لم تشعري بحبي لكِ، وما بالكِ إذ ألقيت قلبكِ بين يدي محمد وتحملت في سبيل حبه إهانات ذويه الذين استكثروه عليكِ؟ ما بالكِ رضيتِ بهذا وقد كنتِ قبلة المحبين وكعبة المشتاقين؟ أهو الحب؟ يا للجرح العميق وأنا أعلم أن نجمة السماء تتهاوى إلى الأرض لتشقى بحبها لغيري.. محمد الطحاوي.. ما الذي أغراكِ به ففضلتِه على كل رجال الدنيا، بل فضلتِه على نفسكِ فتحملتِ من أجله الكثير حتى نلتِ مرادكِ ونال مراده، فإذا بسهام القدر تصيبكِ في مقتل فيقضي تاركًا إياكِ زهرة في عنفوان شبابها، أرملة ذات طفلين تواجه العالم بمفردها مهما أحاط بها الأهل والأحباب؟

كم كان القدر قاسيًا معك ومعي، فمن الدنيا كان حظي «سهام»، وصدق من قال إن لكل من اسمه نصيبًا، فكما كان نصيبكِ من اسمكِ العقل والحكمة، فنصيبها من اسمها العنف والتسرع، وهكذا كان قدري، لم يلطفه ويربطني بها سوى مولد الحبيبة عزة.. أعز ما لديَّ في الوجود.

استقبلتها على يديَّ بعد أيام قلائل من وصول خبر استشهاد عادل في حرب السويس، حرب العزة والكرامة والإباء، حين كنا خلف

الزعيم نفدي الوطن بأرواحنا ونعيد مصر إلى صدر خارطة الدنيا، أطلقت عليها اسم «عزة» لتكون مثالًا للعزة والكرامة، وفي عينيها الجميلتين وجدت راحتي وسكني وعوضني القدر بها عن فقدكِ.

لكنكِ ظللتِ في القلب رابضة لا تتزحزحين، وحين اتفق محمود الطحاوي مع أشقائه على أن يتولى مسؤوليتكِ وأبنائكِ وأن تكوني بجانبه في القاهرة، ووافقتِ أنتِ لتبتعدي عن مواطن الذكريات، بذلت ما في وسعي لأزين لمحمود أن يستأجر لكم الشقة الخالية في الطابق الثاني، وهكذا التقينا ثانية بل جئتِ لتعيشي معنا في رعايتي، ورغم المشاكل السخيفة التي أثارتها سهام في البداية بسبب الغيرة واختياركِ الانصراف بكبرياء، فقد ارتبط الأبناء ارتباط الإخوة، وامتدت الرابطة أعوامًا كما لو كنا قد تزوجنا وأنجبناهم جميعًا، كل هذا رغم ابتعادكِ وانزوائكِ ورغم «عبد المنعم بك» التي تناديني بها كلما كان لقاء، ولكن...

هل يا ترى يرث أبناؤنا بعض أقدارنا، كما يرثون بعض ملامحنا وصفاتنا؟

رغم أني أحب ابنكِ وأعتبره منذ احتضنته ابنًا لي، فإني أخشى على ضنايا منه.. أخشى أن تكون عزة ورثت عني جينات عشق يرمي بها لنصيب قاسٍ كما كان نصيبي معكِ.

منذ أيام كنت أبحث في درج مكتبها عن شيء ما، فوقعت في يدي كراسة خواطرها التي خبأتها تحت الأوراق، ترددت في البداية قبل أن أفتحها، لكن قلب الأب ضعيف لا يخضع لحسابات.. لم تفاجئني كلماتها التي تناجي بها إسماعيل، فلم تغب عني اختلاجة

عينيها وارتعاشة شفتيها حين تلقاه، لكن ما أدهشني حقًّا هو مقدار ما تكنه له من عاطفة، فقد ظننت أن نشأتهما معًا كأخوين تبعد احتمال أن يتحول حبهما الأخوي إلى عشق، وهكذا ورثت ابنتي عشقي، فهل كُتب عليها أن ترث خيبة أملي أيضا؟

أعلم أن إسماعيل يحبها ويخاف عليها، لكني لا ألمح في عينيه اختلاجة كتلك التي ألمحها في عينيها، يخيل إليَّ أن ابن الطحاوي في وادٍ آخر، كأنه لا يهتم بالفتيات كأترابه من الشباب، ورغم أني توليته مذ كان في الخامسة من عمره إلا أن شخصيته تحيرني، فأحيانًا ينظر إلى صورة «ناصر» ويقول: «لقد كان بطلًا، حدَّثني عنه يا عمي عبد المنعم حين كنتم تحت قيادته في حرب فلسطين»، ثم يستمع منصتًا ومعجبًا ببطولاته، وحين أحكي له عن الشهيد عادل وعن إعجاب عبد الناصر به وعن ثقتهما المتبادلة، أجده يتأثر كأنما تلبسته روح خاله حتى أخالني جالسًا إلى عادل نفسه، ثم ينتفض فجأة قائلًا: «لقد كانوا خونة، باعوا البلد وسلموها لليهود». ولا يجدي معه عتابي ولا محاولات التفسير، فيتركني غاضبًا وهو يردد: «لقد انسحبتم عام ١٩٦٧ وتركتم البلد لليهود».

هذا الاندفاع يخيفني عليه وعلى ابنتي، وآخرها بالأمس حين كانت تصحب شقيقتها هناء لتشتري لها حذاء جديدًا، وتأخرتا في العودة مساء فطاردهما شاب عابث حتى اقتربت من الشارع فاستنجدت، فخرج لها مصطفى ثم تبعه إسماعيل فلقنا الشاب درسًا، ثم صعدا مع البنتين ليوصلاهما للشقة.

كنت بالبيت ولم أشعر بما حدث، حتى بدأ مصطفى يروي لي،

كانت عزة ترتجف من فرط الانفعال، لكن ذلك لم يمنع الطحاوي من أن يلاحقها باللوم لخروجها من البيت مرتدية فستانًا قصيرًا يكشف عن ساقيها! وما له يا أخي، البنت صغيرة وجميلة والبنات كلهن يلبسن على الموضة، ثم أنا والدها وموافق والبنت زي الجنيه الذهب، بنت راجل لا يمكن أن تعطي ريقًا حلوًا لأحد، بنتي وأعرفها أكثر منك.. لكني مع ذلك تركته يؤنبها كشقيق يخشى على شقيقته، فقط؟

نعم، فلم أشعر في نبرته غيرة رجل على أنثاه، ربما كان غضبه نوعًا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي طلع لنا فيه أخيرًا.. طيب يا سيدنا الشيخ الطحاوي، لكن رفقًا بنا، فنحن أيضًا مسلمون وموحدون بالله، لسنا كفرة، طول عمر نسائنا تلبس على الموضة، أمك نفسها هل كانت كافرة؟ هل تريد أن تغطي عزة رأسها وتخفي شعرها وتدفن نفسها كما فعلتم بإلهام الجميلة؟ لا، اترك بنتي لحالها.

لكن الحمارة كانت تنظر إليه وهو يتصايح ويعنفها أمامي ولم تنبس بكلمة، رسمت الغضب على محياها وهي تنظر إليه كبقرة تتطلع لثور هائج، يا إلهي الطف بها، أي حب هذا؟ هل كُتب عليَّ وعلى ذريتي أن نُذبح بأيدي الطحاوية؟ لمَ تخطئ القلوب اختياراتها؟

انظري يا غبية إلى مصطفى، شاب كالورد هادئ ورزين ومودرن، لولاه لظل الآخر يتصايح مؤنبًا البنت على أنها تسير عارية في الطرقات لتفتن الشباب.. يا للغباء! أي زمن هذا وأية أفكار؟ زمن السادات.. زمن الضحك على الذقون.. زمن تصفية الحسابات، فماذا يكون نصيبنا بعد؟

(٦)

حتى وهي غاضبة منه، تحرص على الاطمئنان على عودته من الكلية.. تحفظ جدول محاضراته عن ظهر قلب.. اليوم السبت لديه سكشن هندسة وصفية حتى الرابعة، أما هي فقد انتهت محاضراتها منذ الثانية، الساعة الآن الخامسة والنصف، لا بد أنه عاد.

مالت قليلًا خارج نافذة حجرتها فوجدت نافذته مغلقة.. اتجهت للمطبخ ومنه إلى الشرفة الخلفية المستخدمة كمنشر للغسيل.. من هنا يمكنها أن ترى إن كان جالسًا في مكانه المفضل.

عندما كانا صغيرين اعتادا الذهاب إلى الشارع الخلفي، ثم يضعان قالب طوب ويصعدان عليه ليقفزا من مكان متهدم في السور إلى الحديقة الصغيرة الملحقة ببيت الفلسطيني ليلعبا هناك بعيدًا عن رقابة الكبار، وبعدما انتهت مرحلة الشقاوة ظل إسماعيل يحرص على القفز من السور الخلفي ليجلس في الحديقة يذاكر دروسه، أو يقرأ كتابًا، أو يستضيف بعض أصدقائه، وظلت هي حريصة على الاطمئنان على عودته سالمًا، وما إن تجده حتى تستريح وتنصرف إلى مشاغلها كأم اطمأنت على وجود صغيرها في حجرته وأنه آمن بين ألعابه.

والحقيقة أنها رغم غضبها الظاهري من انفعاله عليها بالأمس أمام والدها وأختها وأمام مصطفى، إلا أنها أمضت ليلة ويومًا من أجمل ما يكون، نعم إن إسماعيل أنَّبها كثيرًا من قبل على ارتدائها ملابس قصيرة أو ضيقة، كما أنه يلفت نظرها دومًا لضرورة الالتزام

بالدين، وأن عليها أن تحتشم في ملابسها وتصلي بانتظام، إلى آخر هذه النصائح.. لكنها بالأمس فقط استشفت من صراخه غيرة عليها هي لا على الدين.. لقد غار من الشاب الذي رآه يغازلها، نعم هي على يقين من أن غضبته بالأمس كانت غيرة رجل لا غيرة «سيدنا الشيخ إسماعيل» كما يمازحه والدها.

لا تعرف حتى اليوم كيف وقعت في حبه، حين نزحوا من الإسكندرية كانت في نحو الرابعة من عمرها، وترتبط بدايات قدرتها على استرجاع الذكريات ببيتهم ارتباطًا وثيقًا: إسماعيل الذي يكبرها بسنة وإن كانا قد التحقا بالمدرسة في عام واحد، ولأنها ظلت وحيدة والديها حتى بلغت الحادية عشرة، فقد عدَّته وعدَّه كل مَن حولهما أخاها، يلعبان معًا ويذاكران معًا، ويتخانقان ويتخاصمان ويتصالحان ويتعاركان أحيانًا كأي أخوين بلا فرق..

تانت حكمت التي وجدت في أحضانها حنانًا وفهمًا لم تجدهما لدى أمها، وإلهام الأخت الكبرى لها ولإسماعيل، تحبها وتأنس إليها وتتعلم منها، وتستريح لرؤية وجهها الجميل رغم غلالة الحزن التي تغلف ملامحها، شاركتها سنوات انتظارها لخطيبها «خالد» الذي قالوا إنه سيأتي من مكان لا تعرفه، وحين علمت أنه سجين ذهلت وبعد مناقشة طويلة معهم استقر في ذهنها الغض أنه ما دام أن ناصر لا يمكن أن يظلم أو يسجن إلا الأشرار، فإن خالد من هؤلاء الأشرار الذين يريدون الانقلاب على الثورة، وقتل الزعيم، وإعادة الاحتلال الإنجليزي لمصر، لذا ظلت تحاول ـ دون جدوى ـ إقناع إلهام بأن تصرف النظر عن هذا الشرير، ويوم علمت أنهما تزوجا في السجن

انخرطت في البكاء ثم قالت لوالدها: «لقد سرق الإخوان إلهام وسيجعلونها إرهابية مثلهم»، ولما أجابها بأن الإخوان ليسوا كلهم إرهابيين وأن خالد ووالده الحاج علي سُجنا ظلمًا، انتابتها حيرة شديدة كتلك التي انتابتها حين حاورته بخصوص زميلتها منى قبل نحو عام.. لكنها لم تجرؤ على التشكيك ـ حتى بينها وبين نفسها ـ في وطنية وعدالة وعظمة وزعامة جمال عبد الناصر.

أما الحب، فقد ظل يخايلها، شعور حلو غامض يدغدغ مشاعر مراهقتها كلحن عذب ناداها من مكان مجهول، لا يمكنها أن تؤرخ له، ربما انساب مع دموعها الحارة على مصير فتاة بلزاك المسكينة «أوجيني جرانديه» وهي تستسلم لقدرها في صمت «إنه الحب.. الحب الحقيقي.. حب الملائكة.. الحب المترفع بالمعاناة حتى الموت» ربما كانت ابتسامة معلم الفرنسية الشاب وهي تقرأ أمامه أشعار بول أليار «محيط عينيكِ يرسم منحنى قلبي.. حلبة للرقص وللعذوبة»، تختال تحت نظراته الشقية بحسنها ينمو رويدًا وبعلامات أنوثة بارزة ريانة.

احتفظت بمشاعرها فلم تبح بها لأي من الأربعة الذين تأتمنهم على أسرارها الصغيرة: والدها وتانت حكمت وأخيها إسماعيل وصديقتها الأثيرة منى، وأفضت بمشاعرها إلى كراسة خصصتها لتدوين يومياتها، وتعودت منذ ذلك الوقت أن تخط فيها كل ما يعن لها من أفكار ومشاعر وأسرار وحكايات، كما بدأت منذ ذلك الوقت في كتابة الشعر، كانت قصائدها جميعًا تتناول موضوعًا واحدًا لا غير: الحب! وتدور حول موقف درامي واحد: فتاة

تنتظر فارسها كي يأتي ويخطفها من بين الفتيات ثم يغرقها في بحور غزل.. هكذا فقط!

لكن شيئًا ما حال بينها وبين أن تجد في ذلك المعلم فارسها: سيولته.. نعومته.. شقرته، تناقضت كلها مع تكوينها ومع ذائقتها، لذا ظل بالنسبة لها مجرد رافد يمدها بالثقة الأنثوية، بينما كان تطلعها لمثال آخر يختلف تمامًا: الشهيد عادل الإبياري، الذي تعرفه من حكايات والدها وتتجسد فيه صورة الفارس الشجاع، جمال عبد الناصر، الناصر صلاح الدين، أحمد مظهر، مصطفى كامل، حسنين هيكل، كل أولئك كانوا فرسانها في فترات مختلفة، يوحون إليها بخيالات مفرحة وبخواطر رومانسية تكتبها وتخفيها عن عيون الآخرين.

وظلت تهيم مع خيالاتها، إلى أن كان ذلك اليوم الذي نزلت فيه إلى الطابق الثاني لتشاركهم مشاهدة المسلسل التلفزيوني المسموح لها بمشاهدته خلال فترات الراحة من المذاكرة استعدادًا للثانوية العامة، لكنها فوجئت بأن إلهام ووالدتها ذهبتا لزيارة محمود الطحاوي فلم يبقَ بالمنزل سوى إسماعيل.

قبل بدء المسلسل طلب منها أن تعد له كوبًا من الشاي بالحليب، كان الأمر معتادًا وتكرر كثيرًا، لكنه حين دخل المطبخ ذلك المساء ليتناول الكوب من يدها، اقتحمها شعور غريب فارتعشت يدها كأن قلبها قفز من بين ضلوعها ليستقر في يده مع كوب الشاي الساخن، وحين جلست إلى جواره ليتابعا المسلسل كان قلبها ما زال يخفق بعنف داخل صدرها، فلم تستطع متابعة الأحداث وانصرفت بعد

قليل متعللة بالمذاكرة، ومنذ ذلك اليوم لم تعد هي عزة ولم يعد هو إسماعيل وإنما تغير شيء عميق.

داخَلَها في البداية شعور بالإثم كأنما وقعت في حب أخيها بالفعل، إلا أنها تمكنت بمرور الوقت من التغلب على ذلك الإحساس بالذنب، على الأقل من الناحية العقلية، فأخذت تردد بينها وبين نفسها أنه ليس أخاها ولا حتى من قراباتها، فكل ما يربطهما أن والدها ابن بنت عمة الحاج علي زوج خالة إسماعيل وأنه كان صديقًا لخاله عادل، لكنها ظلت مع ذلك على خجلها وخوفها من أن ينكشف أمرها، لذا دأبت على افتعال المشاحنات الطفولية معه كلما شعرت أن وجهها أو نبرات صوتها توشك أن تفضحها.

ولم تحاول طوال الفترة التي أعقبت اندلاع شرارة الحب في قلبها أن تلفت نظره أو أن تختبر حبه لها، فقد كان لديها شعور يقيني أن إسماعيل يبادلها الحب وأن حبه لها يفوق حبها له، وأن تصرفًا ما ندَّ عنه أشعل عواطفها، غير أنه ربما لا يحسن التعبير عن مشاعره، أو أن تدينَه يمنعه من الاعتراف لها، فاعتبرت مشروع البوح بينهما مشروعًا مؤجلًا إلى حين مكتفية بصداقتهما الظاهرية.. لكن ما حدث بالأمس أيقظ داخلها تلهفًا أنثويًا على تلك اللحظة التي انتظرتها، والتي توشك أن تنقلها لعالم سحري غريب تتوق إليه دون أن تدرك كنهه، إذ اعتبرت أن غيرته عليها إلى حد العراك أمام أسرتها منحتها حقًا سيعينها في مهمتها القادمة وهي كسر الحاجز الوهمي الذي يحول بينه وبين البوح لها.

وقفت في شرفة المطبخ تنظر إليه، كان يجلس في حديقة

الفلسطيني ومعه يسري الجوادي وشاب آخر لا تعرفه.. كانوا يتحاورون بصوت لا يصل إلى سمعها، أخذت ترقبهم قليلًا، فرأت يسري يهب واقفًا بعصبية ويهم بمغادرة المكان إلا أن إسماعيل قام فأمسك بذراعيه وأجلسه.. وبعد برهة إذ بإسماعيل يشير بيده تجاه شرفتها وهو يحادث الشاب الآخر، ثم إذ به يلتفت ناحيتها على حين غرة فتلمح شبح ابتسامة على شفتيه.

أسقط في يدها وشعرت بالخجل، لكن تعجُّبها من إشارته نحوها غطى على شعورها بالحرج من موقفها، وهي التي تتظاهر منذ الأمس بمخاصمته، فانفلتت داخلة وثمة تساؤلات حائرة تدور في رأسها.

* * *

هب يسري الجوادي واقفًا وهو يقول بانفعال:

ـ لقد وصل الحوار إلى طريق مسدود، لا فائدة، فقد اجتاحت هذه الخزعبلات رؤوسكم.

أطرق وائل محمود برأسه إلى الأرض، وقد ارتسمت على طرف فمه شبه ابتسامة ساخرة ضاعفت من غضب يسري فالتفت تجاه السور متهيئًا للانصراف، لولا أن نهض إسماعيل من مكانه فأمسك بذراعيه برفق وأعاده إلى مجلسه وهو يقول:

ـ استهدِ بالله يا أخ يسري، لا بد أن تتسع صدورنا لبعضنا البعض، ربما لا يقصد وائل ما فهمته، فلندعه يكمل وجهة نظره.

أجاب يسري وهو يعود لمجلسه، وقد خفت حدة لهجته قليلًا:

ـ لقد سئمنا هذه المناظرات البيزنطية التي أرهقت أعصابنا وتسببت في تحميلنا أعباء فوق الأعباء التي تحملناها «هناك».

رفع وائل رأسه بتؤدة ونظر إليه وهو يقول بنبرة رزينة واثقة:

ـ ها قد نطقت بالحق، فرفضكم لهذا الفِكر لم يكن له سوى سبب واحد أنه فِكر له أتعابه وله ضريبته التي لا تريدون دفعها، حسنًا! فلمَ لا نكون صرحاء ونعترف؟!

قاطعه الآخر، وقد عاوده انفعاله:

ـ اتقِ الله، أأنتم تُزايدون علينا وقد قضينا زهرة شبابنا في السجون وفقدنا من الشهداء ما فقدنا؟ أين كنتم حين كنا نُجلد بالسياط ونصعق بالكهرباء ونضحي بمستقبلنا في سبيل دعوتنا؟ ها أنت الآن في نهائي هندسة، ولولا تضحياتنا لكنت أنا اليوم طبيبًا وكان خالد مهندسًا.

عاد وائل إلى إطراقته، بينما وجَّه إسماعيل حديثه ليسري قائلًا:

ـ لا يمكن لأحد أن ينكر تضحياتكم ولا سبقكم في الدعوة وتحملكم في سبيلها ما لا يتحمله بشر، لكنه مجرد خلاف فكري لا ينبغي أن يفسد للود قضية.

قال يسري:

ـ الأمر ليس مجرد خلاف فكري كما تظن يا إسماعيل، فهذه الأفكار الشاذة هي التي صنعت محنة ١٩٦٥ وهي التي أدت إلى انقسام الإخوان في السجون إلى فئات تكفِّر كل منها الأخرى.

إسماعيل:

ـ لا أظن الأمر يصل لحد تكفير الإخوان، الحقيقة أن كلام الأخ وائل لم يحمل هذا المعنى على الإطلاق، أليس كذلك يا وائل؟

فتح وائل فمه ليجيب، لكن يسري سبقه قائلًا:

ـ المسألة مسألة مبدأ، فإذا كان من السهل أن تُخرج حاكمًا مسلمًا من الملة فإن تكفير باقي المسلمين سيكون أسهل.

عند ذلك لم يتمالك وائل نفسه، فزايلته النبرة الهادئة التي حاول الاحتفاظ بها وهو يقول باستنكار:

ـ تعني أن «جمال عبد الناصر» كان حاكمًا مسلمًا؟ فلِمَ خرجتم عليه إذًا؟

أجابه يسري بتلقائية:

ـ نحن لم نخرج عليه، بل هو الذي خرج علينا.

ابتسم وائل في سخرية ناظرًا لإسماعيل بطرف عينه كأنما يقول له: «انظر، ألم أقل لك؟»، فضحك إسماعيل ضحكة حاول بها تلطيف الجو وهو يشير لأعلى قائلًا:

ـ انتبهوا فلدينا هنا عشاق لعبد الناصر، هل تريدون أن يقتلنا عم عبد المنعم؟

في التفاتته التلقائية لمح عزة واقفة بشرفة المطبخ، فاتسعت ابتسامته وداخَلَه ارتياح وقد عرف أنها حرصت على الاطمئنان عليه رغم ما كان بينهما بالأمس وتظاهرها بمخاصمته.

قال يسري:

ـ الأمر جد خطير، وهذا المنطق التكفيري لن يؤدي إلى خير للدعوة.

فتساءل وائل باستنكار:

ـ أية دعوة يا أخ يسري؟ لقد نفض الإخوان أيديهم من الدعوة

فأجابه يسري بإصرار:

ـ هذا ليس صحيحًا.

فقال وائل متحديًا:

ـ بل هذه هي الحقيقة التي جعلتكم الآن تلجأون إلى التشكي مما عانيتموه داخل السجون كي تستجْدوا تعاطف الرأي العام، لكن ثق أن التعاطف معكم باعتباركم مظاليم شيء، والالتفاف حول الدعوة بتضحيات أصحابها شيء آخر.

ـ جاحد مَن ينكر تضحيات الإخوان، مَن الذي ضحى إذًا؟ مَن كانوا خارج السجون ينعمون بحياتهم؟

ـ لا، بل تلك الطائفة الصامدة التي قبضت على دينها كالقابض على الجمر، إخوانكم الذين ذاقوا منكم الأمرَّين لا لشيء إلا لأنهم رفضوا أن يبيعوا قضيتهم وثبتوا كالجبال، فكان جزاؤهم الحصار بينكم وبين أولئك المجرمين.

فقلب يسري كفيه لأعلى دلالة التعجب، ونقل بصره بين إسماعيل وصديقه قائلًا:

ـ مَن أدخل في عقولكم هذا الكلام؟ لقد كان مَن تسميهم الصامدين يكفروننا لأننا رفضنا آراءهم الشاذة، ووصل الأمر إلى أن المدعو شكري كان يرفض هو وشرذمة معه أن يُصلوا مع أحد خارج مجموعتهم، حتى شيوخنا العلماء الأفاضل تطاولوا عليهم ورموهم بالكفر.

كان إسماعيل يتابع الحوار صامتًا، غير أن اسم «شكري» الذي كان يسمعه لأول مرة أثار انتباهه، فتساءل:

فأجابه يسري بإصرار:

ـ هذا ليس صحيحًا.

فقال وائل متحديًا:

ـ بل هذه هي الحقيقة التي جعلتكم الآن تلجأون إلى التشكي مما عانيتموه داخل السجون كي تستجْدوا تعاطف الرأي العام، لكن ثق أن التعاطف معكم باعتباركم مظاليم شيء، والالتفاف حول الدعوة بتضحيات أصحابها شيء آخر.

ـ جاحد مَن ينكر تضحيات الإخوان، مَن الذي ضحى إذًا؟ مَن كانوا خارج السجون ينعمون بحياتهم؟

ـ لا، بل تلك الطائفة الصامدة التي قبضت على دينها كالقابض على الجمر، إخوانكم الذين ذاقوا منكم الأمرَّين لا لشيء إلا لأنهم رفضوا أن يبيعوا قضيتهم وثبتوا كالجبال، فكان جزاؤهم الحصار بينكم وبين أولئك المجرمين.

فقلب يسري كفيه لأعلى دلالة التعجب، ونقل بصره بين إسماعيل وصديقه قائلًا:

ـ مَن أدخل في عقولكم هذا الكلام؟ لقد كان مَن تسميهم الصامدين يكفروننا لأننا رفضنا آراءهم الشاذة، ووصل الأمر إلى أن المدعو شكري كان يرفض هو وشرذمة معه أن يُصلوا مع أحد خارج مجموعتهم، حتى شيوخنا العلماء الأفاضل تطاولوا عليهم ورموهم بالكفر.

كان إسماعيل يتابع الحوار صامتًا، غير أن اسم «شكري» الذي كان يسمعه لأول مرة أثار انتباهه، فتساءل:

ـ مَن هو شكري؟

أجابا في صوت واحد:

ـ «شكري مصطفى».

ثم استطرد وائل موجهًا حديثه ليسري:

ـ لا أنكر أن له فكرًا غريبًا وتخريجات لا أعرف من أي مصدر استقاها، أنا لم أكن أتحدث عنه، لكني سمعت من إخواننا عن رجولته وصموده أمام جبروتهم، وأنه كان يواجه زبانية السجن والمباحث العامة بمفرده ويهددهم بالويل والثبور، بينما كان الشباب الذين يماثلونه في العمر ينهارون ويتساقطون.

نكس يسري رأسه قائلًا بنبرة أسى كأنها آتية من عمق سحيق:

ـ لا يعلم مَن لم يتعرض لمحنة هل يصمد إذا ما تعرض لمثلها أم لا.

شعر وائل بالحرج، فتبادل مع إسماعيل نظرة ذات معنى، ثم أردف قائلًا:

ـ ما قصدت الحديث عن الصمود المادي، ولا أنكر أن المحنة كانت قاسية، وبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصمدوا أمام محن مشابهة وظلوا مع ذلك من كبار الصحابة، لكني أتحدث عن الفكرة، عن التشبث بعقيدة سليمة تصلح لأن يقوم عليها الإسلام من جديد.

ظهر على وجه يسري الضجر، وزفر قائلًا:

ـ عدنا للحديث ذاته، فلتعلم يا أخ وائل أن الإخوان المسلمين

إصلاحيون وليسوا تكفيريين، فقد أسس الإمام الشهيد ـ عليه رحمة الله ـ جماعتنا ليكونوا دعاة لا ليكونوا قضاة يفتشون في قلوب الناس ليحكموا عليهم بالكفر أو بالإيمان.

تنهد وائل بدوره يائسًا وهو يقول:

ـ لشد ما تظلمون شهيدكم يا أخي.

أخذت عتمة المغيب تتسلل رويدًا إلى المكان، فبدأوا يتحركون تمهيدًا للانصراف، وعند الشارع الخلفي صافح وائل يسري قائلًا:

ـ أسعدتني معرفتك يا أخ يسري، وأرجو أن يكون لنا لقاء قريب، ثق أني ما أردت من حديثي سوى النصح لإخوة لنا لا ننكر فضلهم وسبقهم في الدعوة.

فأجابه يسري متهكمًا:

ـ شكر الله سعيكم يا أخي.

وحين التفت ليعانق إسماعيل مودعًا جاءه صوت وائل من خلفه وهو يقول:

ـ وغفر الله ذنبكم يا إخوان.

❋ ❋ ❋

انفلتت عزة عائدة إلى حجرتها، ولما يزايلها شعور الحرج أن لمحها واقفة تنظر إليه، وإن حملت ابتسامته إليها نسمات سكن ومودة وثقة في أنها تستحوذ على مشاعره كما يستحوذ على مشاعرها، غير أنها كانت قد أضمرت في نفسها أمرًا، فما عادت تتحمل البقاء أسيرة تكهنات، وإن كانت تبلغ لديها حد اليقين فقالت لنفسها: بل لا بد أن يكون يقينًا خالصًا لا يداخله شك، وسأعرف كيف أحل عقدة لسانه.

وقفت أمام المرآة تتأمل قوامها بإعجاب بالغ، وقد ارتدت بيجامة منزلية وردية اللون بدانتيل رقيق على الصدر وأساور الأكمام، وعقصت شعرها المبلل في شكل شينيون أعلى رأسها.. استدارت برشاقة مباعدة ما بين ذراعيها كأنها عارضة أزياء، ثم لفت رأسها إلى الوراء في كبرياء، وبخفة خلعت البانتوفل من قدميها وارتفعت على أطراف أصابعها كأنها ترتدي حذاءً بكعب مرتفع، ثم مدت يدها إلى الأمام في حركة تمثيلية وأرخت عينيها متخيلة شابًّا وسيمًا منحنيًا أمامها يُقبل يدها الممدودة في ولهٍ.. إسماعيل؟ لا! قالتها بصوت مسموع، واجتهدت أن تحذف من خيالها ـ مؤقتًا ـ تلك الصورة الثابتة، ثم عادت إلى وقفتها التمثيلية وقالت موجهة حديثها لذلك الشاب الافتراضي المنحني في حضرتها: «هاللو بول!».

(٧)

لولا لولو لما مكث في البيت إلا ريثما يأخذ حمَّامه ويبدل ثيابه ويتناول طعامه، ليس لسوء علاقة بأبيه وزوجته، فعلاقته بهما على خير ما يرام، هي علاقة هادئة.. هادئة لحد الفتور، أو إن شئت فقل لحد الملل وهو لا يتحمل الشعور بالملل.

والده مشغول بعمله، وبأصدقائه، وبملذات الحياة يعب منها قدر ما يستطيع قبل الرحيل، هذه هي فلسفته التي يلخصها في جملة

واحدة: «الحياة قصيرة، فلا يجب أن نترك لحظة واحدة فيها دون أن نتمتع لأقصى حد»، وها هو يفعل!

وقد أعانته طبيعة عمله على وضع فلسفته موضع التطبيق، فحياته كصحفي فتحت أمامه أبواب التنقل والسفر والسهر ومخالطة أنواع لا تحصى من المشاهير: رجال سلطة وشخصيات عامة وأدباء وفنانين ونجوم رياضة.

أما زوجة أبيه راندا أو «روني»، كما اعتاد أن يناديها تأسيًا بأبيه، فهي تمثل الملل مجسدًا في امرأة: رصينة هادئة متكلفة صامتة مترفعة كئيبة ـ على النقيض تمامًا من أبيه المرح صاحب النكتة الحاضرة ـ حتى جمالها الأرستقراطي يمثل في رأيه ذلك النوع من الجمال «الواقف» الخالي من الروح، وكثيرًا ما تساءل بينه وبين نفسه ما الذي جذب أباه لها فارتبط بها بعد انفصاله عن والدته رغم البون الشاسع بينهما الذي يبلغ حد التناقض، غير أنه بمرور الزمن أدرك أن هذا التناقض هو في ذاته السبب في ارتباطه بها، وأن الهدوء البارد الذي يسود علاقتهما بمثابة وسادة صدمات تحميه من صدمة أخرى يحذرها عقله الباطن، لذا اختار أن تكون زوجته الثانية على النقيض تمامًا منه ومن زوجته الأولى؛ حبه الحقيقي وأم ابنه «بولا».

أما لولو، فهي بالنسبة له فرح دائم، فبمجرد دخوله البيت يبحث عنها ويعانقها ويُقبلها، وعندما كانت صغيرة كان يحملها بين ذراعيه، أما الآن فقد امتلأ جسدها لحد السمنة وأصبحت ثقيلة للغاية، يلصق أنفه بأنفها ويحركه بحنان وهو يغني لها: يا لولو يا لولو يا حلوة يا لولو! فتقهقه ضاحكة وتصيح بصوت مرتفع: طفا طفا.

ولولو قصيرة سمينة، وجهها مستدير تمامًا لونه أبيض كالحليب، وعيناها ضيقتان مسحوبتان كعيون الآسيويين، وأنفها مفلطح، وفمها متسع تتحدث أو تضحك أو تأكل ملء فيها، وهي طيبة نقية لا تحمل ذرة من خباثة، وتحب الناس جميعًا وتفرح بهم، لكنها تحب مصطفى/ طفا أكثر من كل الناس، بل أكثر من مربيتها التي تنادي عليها في كل وقت بصوتها الحاد المرتفع: دادا دادا.

وعندما تغضب تبحث عن مصطفى لتدفن رأسها في صدره وتبكي صارخة بصوت مرتفع وهي تدق الأرض بقدميها دقًّا عنيفًا، فيحملها على ساقيه، ثم يمضي مسرعًا إلى حجرته ويعود فاتحًا ذراعيه يدعوها للبحث في جيوبه لتجد حبات البونبون وقِطع الشوكولاتة التي يحتفظ بها دائمًا لتتلهى بها عما أغضبها، ولا ينصرف عنها إلا وقد اطمأن إلى أنها هدأت ونامت محتضنة عروستها المفضلة أو خرجت للتنزه بصحبة مربيتها.

ومصطفى لا يرى لولو ـ على العكس من والديها ـ محنة امتحنهما بها القدر، بل يراها منحة، ودائمًا ما ردد أمام عزة وإسماعيل أن لولو جاءت للحياة مثلما جاءوا، لذا فإن لها نصيبًا في هذه الحياة مثلهم تمامًا، وهو وإن عد نفسه مسؤولًا عن أن يوفر لها حياة هانئة وأن يقف أمام أي محاولة لإغضابها أو حتى لتهميشها، فإنه يعتقد في قرارة نفسه أنها تدرك الأمور مثلهم تمامًا ولكن على طريقتها، كما يؤمن بأن لولو ومَن على شاكلتها لم يولدوا عبثًا أو زيادة عن الحاجة، وإنما لهم دور مهم في الحياة كغيرهم من الأسوياء، لذا فإن شعوره بالمسؤولية تجاهها لا ينبع من مجرد عطف على أخت محرومة من

حياة سوية، وإنما من شعور عميق بالواجب تجاه الناس جميعًا لا يمكنه في كثير من الأحيان تحديد سببه أو مصدره بينما يظل إحساسه بالتقصير في هذا الواجب يؤرقه على نحو غير مفهوم.

اليوم ٥ مارس ١٩٧٤ عيد ميلاد لولو التاسع، وهم يحرصون على الاحتفال به، حيث تزدان فيلّا رءوف الملا، ويحضر المدعوون الذين لا تتغير أشخاصهم عامًا بعد عام: من الأقارب سلوى شقيقة راندا وخالة لولو وزوجها الصحفي الشهير زهير عبد الله تصحبهما ابنتهما التي تصغر لولو بعام واحد، ومن الجيران وأصدقاء مصطفى: إسماعيل وعزة وشقيقتاها هناء ورجاء اللتان تصغران لولو بأكثر من عامين، ومحمد عبيد ومايكل نصيف صديقا مصطفى الأنتيم، وأحيانًا يأتي الدكتور عبد الحميد شتا ليمكث بعض الوقت ريثما يسلم على لولو ويقدم لها هديتها، وفي وجود المدعوين تُطفأ الشموع وتقدم الحلوى ويرقص مَن يريد وأولهم بالطبع لولو.

في حوالي السادسة والنصف مساء وصلت عزة مصطحبة شقيقتيها التوأم، وهي تحمل في يدها لفافة مغلفة بورق هدايا مزين برسومات خاصة بالأطفال، لم يكن في وسع أحد أن ينظر إليها وهي تسير في الطريق قادمة من منزلها في نهاية شارع وهدان إلى فيلّا رءوف الملا دون أن يقف مأخوذًا ببهائها، حقيقة أن جمالها ليس من النوع المطابق لمقاييس الجمال المعروفة، غير أن ملاحة لا تنكر، وجاذبية لا تقاوم، ورونقًا أخاذًا، وأنوثة مغوية، فضلًا عما تزخر به الليلة من أناقة رفيعة، كل ذلك جعل منها لوحة فاتنة تخطف الأبصار، وقد كانت أول نظرة إعجاب طالعتها هي التي أطلت بها على صورتها

بعدما ارتدت ملابسها وتهيأت للخروج، فاستدارت عدة مرات أمام المرآة وتحركت جيئة وذهابًا واستعانت بمرآة يد صغيرة لتطمئن على جمالها من جميع الزوايا.

ارتدت فستانًا جديدًا من اللون الأصفر الفاقع الذي يبرز لون بشرتها الخمري، وقد عقدت العزم على أن تبدو في أجمل صورة ممكنة، فأحسنت اختيار الموديل من أحدث كتالوج «بوردا» الموسمية لشتاء وربيع ١٩٧٤، الفستان ميني جوب يلتصق بالجسم تمامًا ويترك الساقين عاريتين إلا من كولون شفاف يكشف عن بشرة ناصعة لساقين أنثويتين مدملجتين، وقد ارتدت مع الفستان حذاء «دبابة» حسب الموضة، وطلَت أظافرها بطلاء فاتح مناسب للون الفستان، وصففت شعرها الأسود الطويل اللامع على أحدث طراز انتشر في مصر أخيرًا، فأخذت بضع خصلات رفعتها لأعلى ثم ربطتها بمجموعة من الشرائط المجدولة متعددة الألوان: أصفر وأزرق وفوشيا وتركتها تنسدل على شكل ذيل الحصان لتلاحق باقي الشعر المنسدل حتى الخصر.

أما اللمسة السحرية التي وضعتها قبل خروجها من المنزل مباشرة فكانت بضع قطرات من عطر «فيدجي»، ورغم أنه من العطور القديمة إلا أن الزجاجة الأصلية منه يبلغ ثمنها عشرة جنيهات، وهو ثمن باهظ لطالبة جامعة، غير أن هناك محلًّا صغيرًا في زقاق متفرع من شارع الشواربي يبيع العطور المقلدة في عبوات صغيرة بقروش معدودة ويجد إقبالًا منقطع النظير من الطالبات والموظفات الشابات، وقد ذهبت إليه عزة قبل نحو شهر، وأخذت تجرب عدة أنواع حتى وقع

اختيارها على فيدجي الذي شعرت أنه يناسبها وأنه «سيعجبه»، ولم تفتح عبوة العطر حتى جاء اليوم الموعود، يوم تكتمل أناقتها في أول مناسبة تجمعهما خارج البيت، وقد كانت هذه المناسبة هي عيد ميلاد لولو.

يبدأ الحضور عادة منذ الخامسة، وهو الموعد الذي كانت عزة تلتزم به طوال السنوات الماضية، غير أن أمرًا استجد هذا العام حملها على تأخير حضورها حتى السادسة والنصف، ذلك هو انتظامها في الصلاة منذ السادس من أكتوبر الماضي وحرصها على أدائها في مواقيتها، لذا كان عليها أن تؤدي صلاة المغرب قبل أن ترتدي ملابسها وتذهب لحفل عيد الميلاد، وقد لبثت عقب الصلاة فترة ابتهلت فيها إلى الله أن يوفقها فيما هي مقدمة عليه، وأن تستحوذ على قلب إسماعيل حتى لا يتمكن من الصمود فينهار معترفًا لها بحبه، كانت تدعو الله بخشوع وأضمرت في نفسها أمرًا كأنها تأخذ بالمثل الشعبي «اسعى يا عبد وأنا أسعى معاك»! فقررت السعي لتحقيق أملها وقالت لنفسها: «الغيرة مفتاح إسماعيل، فإن تمكنت من إشعال غيرته الليلة فلن يفلت من يدي أبدًا».

وقد بدا تأثير فتنتها على الجميع منذ لحظة دخولها البهو الرئيسي.

كانت لولو تجلس في منتصف الكنبة على يمين الداخل، تحيط بها من الجانبين مربيتها وابنة خالتها، بينما تحلَّق الشباب حول مائدة مستديرة في أقصى يسار البهو وُضع عليها جهاز التسجيل، وفي المواجهة كان باب حجرة الاستقبال مفتوحًا على مصراعيه فبدا الأربعة الكبار ـ رءوف الملا وزهير عبد الله وزوجتاهما ـ جلوسًا

يتسامرون وقد وُضِعت أمامهم زجاجتا «بيرة ستيلا» محلية الصنع وأكوابها الخاصة وأطباق صغيرة مليئة بالفول السوداني المملح.

كان ظهور عزة عند الباب الرئيسي بفتنتها وأناقتها وشبابها الزاهر وحضورها الألق نقطة التقاء جميع الأنظار في لحظة واحدة، ومن المؤكد أن أي أنثى تملك داخلها حاسة سادسة تمكنها من التقاط نظرات الإعجاب حتى لو جاءتها من الخلف، لذا فقد استقبلت عزة بأنوثتها الدافقة حزمة الأشعة الذكورية الوالهة فعكستها على أصحابها توهجًا واختيالًا وتبخترًا وثقة بالنفس أضفت على جمالها جمالًا.

تجاهلت بمناورة أنثوية الجمع المتحلق يسارًا متجهة إلى حيث تجلس لولو، فقبَّلتها ومنحتها هديتها، وبدأت الصغيرات يهللن ابتهاجًا بلقاء بعضهن البعض وتلهفًا لفتح الهدية، فأخذن يتصايحن في حبور فيما لوَّحت عزة بيسراها للشباب بدلال مصطنع وهي تمر نحو الصالون لتحية الكبار، ورغم أنها لم تلتفت ناحيتهم، إلا أن شعورًا داخليًّا انتابها بأنهم يتطلعون إليها بإعجاب ولهفة، وأن مَن تتطلع هي إلى نظراته غير موجود!

قاموا لمصافحتها فبدأت من اليمين: تانت سلوى، تانت راندا، أونكل زهير ـ شعرت بعدم الارتياح لنظراته لها ـ ثم أخيرًا أونكل رءوف الذي جذبها ناحيته مُصرًّا على أن يُجلسها فوق ركبتيه، فتملصت منه برفق وهي تتضاحك، فقال لها:

ـ إيه يا بنت الحلاوة دي كلها؟ لكن مهما كبرتِ فستظلين بالنسبة لي زوزًا الصغيرة التي كنت أحملها بين ذراعيَّ وأطوحها في الهواء.

قالت ضاحكة وهي تجلس على حافة الكنبة:

ـ خلاص يا أونكل، زوزًا الصغيرة «بح»، الآن هناك عزة مشروع صحفية.

تساءل زهير وهو يتطلع إليها من فوق نظارته:

ـ برافو، هل التحقتِ بقسم الصحافة؟

ـ قسم صحافة إيه يا أونكل، أنا الآن طالبة في كلية الإعلام على سن ورمح.

ـ كلية الإعلام؟ آه.. تقصدين معهد الإعلام.

ردت بإصرار:

ـ بل كلية الإعلام، لقد أصبحتْ كلية من هذا العام.

قلب شفتيه امتعاضًا، ثم ترك نظراته تصعد وتنحدر على جسدها، وهو يقول:

ـ عمومًا الصحفي الجيد لا يحتاج شهادة لا في الصحافة ولا في غيرها، المهم الموهبة التي تصقلها الثقافة والخبرة...

ثم أردف، وقد علت شفتيه ابتسامة لزجة:

ـ وأنا أرى أن الموهبة الصحفية بادية عليكِ: شجاعة وثقة بالنفس وروح اجتماعية مرحة، وهذه أهم مواصفات الصحفي الناجح.

تلقت ملاحظته بترحاب مصدره ثقتها بأنه نطق بالحق فيما يتعلق بموهبتها، وإن لم يزايلها عدم الارتياح له والتقزز من نظراته المتصابية المتلصصة، لذا التفتت عنه باسمة لتنصت باهتمام لرءوف الذي اضطجع في الفوتيل وبيده كوب البيرة، وهو يقول مؤمنًا على كلام زهير:

ـ هذا حق! فمَن يصدق أن زهير عبد الله الصحفي اللامع تخرج في كلية العلوم؟!

ثم وهو يضرب على صدره بطريقة فكاهية تعبر عن الشعور بالعظمة:

ـ ورءوف الملا الصحفي اللامع أيضًا يحمل ليسانس الحقوق، وأكثر كبار الصحفيين لم يتخرجوا في قسم الصحافة، فعلي أمين مهندس، وأحمد بهاء الدين محامٍ، وإحسان عبد القدوس يحمل أيضًا ليسانس حقوق، حتى أنيس منصور لم يكن في قسم الصحافة لكنه درس الفلسفة، أما الأستاذ الكبير فلم يكمل تعليمه أصلًا ومعادلة نجاحه = موهبة + خبرة.

أدركت مَن يقصد بعبارة «الأستاذ الكبير»، فاتسعت ابتسامتها، وتضاعف اهتمامها، فيما تقلصت ملامح زهير وأشاح بوجهه بردة فعل فطرية قائلًا:

ـ نسيت يا رءوف أهم عناصر المعادلة: الفَشْر وادعاء العظمة الكاذبة.

كأنما لطمتها جملته، فالتفتت إليه بكُليتها وهي تقول بانفعال غاضب:

ـ مَن تقصد بهذه الكلمات؟ هل فهمت «حضرتك» عمن يتحدث أونكل رءوف؟

ـ أقصد هيكل بالطبع، فلا أستاذ غيره اشتهر بمرض الشعور بالعظمة، بينما كتاباته لا تحمل سوى أكاذيب، ولولا تكميم الصحافة وخنق حريتها طوال السنوات الماضية لما بلغ

أي منصب ولما حقق أي نجاح، فنجاحه الذي تتحدثون عنه ليس له غير سبب واحد هو احتكاره معرفة الأسرار السياسية لمدة عشرين عامًا.

كان الأمر فوق احتمالها، فأجابت بصوت متهدج من فرط الانفعال:

ـ مَن قال هذا؟ لقد كان هناك صحفيون كبار بدأوا قبل الأستاذ هيكل لكنه تفوق عليهم بذكائه وبعلاقاته برؤساء الدول وبكبار السياسيين في العالم كله، وهذا هو سبب ثقة الزعيم به.

بدت كلماتها بالنسبة له مثيرة للسخرية والازدراء، غير أن ساقيها الأنثويتين المدملجتين العاريتين شفعتا لها، فاحتفظ بهدوئه وهو يقول:

ـ أنتم يا ابنتي جيل وُلد وتربى في ظل شعارات خادعة بعيدة عن الحقائق، وقد كان لهيكل وصبيانه اليد الطولى في تضليلكم.

أجابته بلهجة متحدية متهكمة في آن:

ـ وأين كنتم أيها الكُتاب الكبار حين كان هيكل يخدع جيلنا بالشعارات الزائفة، ولماذا لم نقرأ لأحدكم نقدًا عن تلك الفترة إلا بعدما تغيرت الأوضاع؟

كان رءوف ينصت لتحاورهما، وقد ملأ فمه بحبات الفول السوداني، فبدت نبراته مضحكة وهو يقول ساخرًا:

ـ لقد عاش جيلنا بأكمله ـ صحفيين وغير صحفيين ـ تحت الترابيزة، ولم يكن بوسع أحد أن يقول إلا آمين، والشطارة أن يقولها بحرفية وليس بغباء.

ما كان في وسعها أن تثور عليه، فقد كانت تحبه، ولا تنسى أنه الذي زين لها مهنة الصحافة، ولطالما حدثها عن أهمية الإعلام ودوره في صناعة الدول المتقدمة، فالتفتت إليه قائلة بنبرة زايلتها الحدة والتحدي:

ـ لم يكن هذا بسبب الدكتاتورية كما يحاول البعض أن يوهمنا، وإنما بسبب أن جيلكم الذي خضع للمستعمر وللإقطاع وللملك الفاسد كان قد تعوَّد من قبل الثورة أن يقول آمين.

شجع هدوء نبرتها سلوى أن تخرج عن صمتها، فوجهت كلامها إليها متسائلة باستنكار:

ـ وكيف حكمتم على جيلنا بهذا الحكم القاسي، هل قرأتم وتعمقتم في البحث أم اكتفيتم بما قُدم لكم من معلومات مغلوطة؟

تحمست ـ كعادتها ـ للرد إلا أن رءوف سارع بتناول طرف الحديث قائلًا:

ـ لا شك أن لكل جيل عيوبًا وأخطاء، لكن أن يتم قطع صلة جيل بأكمله عن ماضيه وتلقينه أن تاريخ مصر لا يبدأ إلا من يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأن ما قبل ذلك كله كان تاريخًا مخزيًا فهذه هي الجريمة بعينها، أين إذًا تاريخ الوطنية المصرية ومقاومة المحتل وشهداء الحرية؟

ثم استطرد ضاحكًا وهو يشير إلى حيث يجلس الشباب في البهو:

ـ ربما كان الكشف عن الحقائق هو الميزة الوحيدة لالتحاق هذا المخبول بقسم التاريخ بكلية الآداب، مَن يصدق أن تقتنع عزة

بكلامي عن أهمية مهنة الإعلام، بينما أعجز عن إقناع ابني بها، فيلتحق بقسم ربات البيوت في كلية الستات!

انفجر الجميع ضاحكين، فيما قال زهير:

ـ مَن شابه أباه فما ظلم.

فهز رءوف رأسه علامة الموافقة، ثم أفرغ في فمه ما تبقى من كوب البيرة.

* * *

كان مصطفى الملا الكبير عالمًا أزهريًّا ومحققًا للمصنفات التراثية، كما شغل منصب قاضٍ شرعي، غير أنه ظل متمايزًا عن النمط التقليدي للأزاهرة، فعلى الرغم من اعتزازه بزيه الأزهري والتزامه به حتى آخر حياته، إلا أنهم يروون الكثير عن عقليته المتفتحة وآرائه المتحررة، قياسًا بعصره وببيئته المحافظة التي تنحدر من أصول صعيدية فضلًا عن ثقافته الشرعية، وإن كان هو نفسه القائل بأن الإنسان كلما تعمق في دراسة علوم الدين ازداد انفتاحًا على الأفكار الأخرى واستعدادًا لتقبلها، لذا ما كان يرى في الحضارة الغربية شرًّا محضًا كغيره من العلماء بل كان يرى فيها الخير الكثير.

ويقولون إنه كان دائم الاطلاع على الترجمات العربية لنتاج العقل الأوروبي، ما بين فلسفة وأدب وفن، وكثيرًا ما ردد أن السير على نهج السلف الصالح لا يعني إلغاء عقولنا، وأن أسوأ ما تمخضت عنه الخلافة العثمانية هو غلق باب الاجتهاد، مما تسبب في حصار المسلمين داخل فقه لم يعد صالحًا للزمان الذي يعيشون فيه، أما أشد ما أعجبه في الثقافة الأوروبية فهو المكانة التي توضع فيها المرأة

قياسًا على وضعها في الشرق فقال: «إن تعليم المرأة كانت أولى به المسلمة»، لذا حرص على تعليم بناته الثلاث حرصه على تعليم ولديه، حتى إن شقيقة رءوف الصغرى التحقت بالجامعة وأكملت دراستها بعد الزواج.

أما طموحه لولديه فقد تركز في رؤيتهما قاضيين بالمحاكم الحديثة، فالتحقا واحدًا إثر الآخر بكلية الحقوق وتفوقا في دراستيهما، وبينما سلك أكبرهما طريقه إلى النيابة العامة ثم القضاء، اختار الأصغر ـ رءوف ـ طريقًا مختلفًا يتفق مع ميوله لتعلم اللغات والتنقل بين البلدان والانفتاح على عوالم أخرى غامضة بدت له إذ ذاك شديدة الإبهار، ولم يكثر والده مجادلته في اختياره الالتحاق بالسلك السياسي، وإن كان عز عليه أن يغترب عنه أحد أبنائه على تعلق شديد بهم، لكنه جاهد مشاعره محاولًا الاتساق مع عقليته المتحررة التي تؤمن بحق الأبناء في اختياراتهم.

وقد كان من الممكن لرءوف أن يصبح دبلوماسيًّا ناجحًا، ولو استمر في مهنته لكان قد وصل لدرجة سفير، غير أن أمرين عطَّلا مسيرته التي بدأ خطواتها الأولى كملحق في السفارة المصرية بروما: أولهما نفور شديد لازمه منذ الصغر من القيود والرسميات، بعدما اكتشف أن العمل الدبلوماسي ليس له علاقة بالسفر للتسكع الحر في البلدان، وإنما هو عبارة عن مجموعة من القيود عليك أن تلتزم بها في كلامك وملبسك ومأكلك وكافة تصرفاتك، ثم جاءت ثورة يوليو وما تبعها من تغيرات جذرية في هياكل السفارات المصرية بالخارج وفي طبيعة ما تُكلف به، فانضافت مساوئ العمل المخابراتي

إلى مساوئ العمل الدبلوماسي لتقضي على كل رغبة لديه في إكمال المسيرة، وكان الأمر الثاني الذي أخذ بتلابيبه قاذفًا إياه بعيدًا وللأبد عن الحياة الدبلوماسية هو وقوعه في الحب.

كان والده قد رشح له فتاة من أسرة كريمة كي تكون رفيقة له في الغربة وتقرر أن يراها في أول إجازة له بمصر، إلا أن فتاة صغيرة لم تجاوز السادسة عشرة من عمرها، شقراء فاتنة من ميلانو خطفت بصره منذ أول لقاء، ثم استولت على قلبه وغيرت مسار حياته للأبد.

بعد انفصال والديها اقتسما كل شيء حتى الأبناء، وكانت هي ـ الابنة الوسطى ـ من نصيب أبيها، فبينما اختار شقيقها الأكبر الانفصال عن أسرته وإكمال حياته بعيدًا، واختارت الشقيقة الصغرى البقاء مع والدتها في ميلانو، فضلت «بولا» الرحيل بصحبة أبيها إلى العاصمة التي كانت تلوح لها بأحلام براقة، وهناك افتتح الأب متجرًا للبقالة ملحقًا به ركن صغير لصناعة الكعك على مسافة قريبة من السفارة المصرية، أصبح خلال فترة قصيرة قِبلة عشاق «بانيتون تورتا» الميلانية الشهيرة.

كان رءوف أحد عشاق الكعكة الشهية المصنوعة بالزبيب ونكهة الليمون، لكنه وبسبب تردده على محل «دينو تيزوني» وقع في عشق صانعتها، فتعددت زياراته للمحل بشكل لفت نظرها، ثم دعاها للخروج بصحبته أيام الآحاد ليجول بها أحياء روما التي لا تعرفها، وابتاع لها الملابس الأنيقة والهدايا الثمينة ـ إذا ما قُورنت بدخلها المحدود ـ فانجذبت بدورها لذلك الشاب الأسمر الوسيم، ذي الملامح الشرقية الرجولية، والجسد الرياضي

الفارغ، والعواطف المتأججة، والكرم العربي، حتى أصبح الطريق مهيَّأً كي تصحبه إلى شقته وتقضي معه ليلة عشق بعدما تأججت حواسهما في أعقاب نزهة ليلية وزجاجة من نبيذ «الأمارون الأحمر» تناولاها مع العشاء.

منذ طفولته كان عصيًّا على الالتزام بالفروض الدينية، فلم ينتظم في صلاة ولا صيام طوال حياته، كما عرف لذة الخمر منذ بدايات دراسته الثانوية، وتعرف معها على فنون مرافقة الفتيات ومغازلتهن واصطحابهن للمراقص ومعابثتهن وتقبيلهن، لكنه كان يتوقف دائمًا عند فعل الزنا فلم يجرؤ على الاقتراب منه رغم سخرية أصدقائه واتهام بعض الفتيات الأجنبيات اللواتي اعتاد مصاحبتهن في مطلع شبابه في القاهرة له بالتخلف، إلا أن كوابح داخلية حالت بينه وبين ذلك الفعل، ربما كان بعضها دينيًّا من بقايا مترسبة في أعماق تعاليم تلقاها عن والده تحمل غير قليل من الترهيب من مغبة معاشرة النساء في الحرام «عفُّوا تعف نساؤكم»، فالأمر يتعلق بالحفاظ على عرض أمك وأختك فلو فعلتها لفُعلت بمحارمك، وهكذا حالت غيرته ذات الجذر الصعيدي دون أن يعرض محارمه لخطر، غير أن نفورًا فطريًّا من الزنا ضاعف من قوة الكابح الداخلي لديه، نفورًا ارتبط بحبه للنظافة في جميع الأشياء، المادية والمعنوية، كما ارتبط باحترامه للمرأة ككائن مساوٍ له وهو احترام موروث عن والده، لذا كان يوجه لبعض أصدقائه الذين ربطوا بين الحب وممارسة الجنس مع الحبيبة سؤالًا استنكاريًّا: «كيف وأنت تدعي حب الفتاة أن تمتهن كرامتها في فراش زنا؟».

كان ولعه ببولا حَريًّا أن يدفعه في تلك الليلة للاستجابة لإغرائها ـ بل لتحريضها إياه صراحة ـ على اصطحابها لشقته، وكانت قد بدأت التخطيط للانتقال من منزل أبيها بعد تفاقم خلافاتهما بسبب العمل ولعدم رغبتها في الاستمرار كصانعة كعك، حيث بدأت تبحث لنفسها عن عمل أقل مجهودًا وأوفر دخلًا، وجدته بالفعل كنادلة في ملهى ثم كتايبست في مكتب للمحاماة، إلا أن مشاجرات أبيها واتهامه لها بأنها ورثت أنانية أمها أجَّل مشروع انفصالها عنه، حتى جاءتها الفرصة مواتية حين وقع رءوف في هواها، فقد رأت أن مشاركته الحياة في شقته تحت ستار الحب سيوفر لها وضعًا ماديًّا مريحًا وحياة أكثر استقرارًا ولو إلى حين، فإذ به يفاجئها في تلك الليلة بطلب الزواج.

ظنته في بداية الأمر مازحًا، فاستغرقت في الضحك حتى تنبهت لجدية العرض، فسألته:

ـ ولِمَ؟

ـ لأني أحبكِ وأريدكِ.

ـ وما دخل هذا بذاك؟ أنا على استعداد للمبيت معك الليلة في شقتك.

ـ لكني لست على استعداد، فذلك لن يكون إلا ونحن زوجان.

أطار سَير المناقشة أثر الخمر من رأسها، فقالت وقد استعادت بعضًا من اتزانها:

ـ لا بد أنك تمزح يا رءوف، فإن ما بيننا لا يصلح أساسًا لزواج ناجح، وأنا لست على استعداد لتكرار تجربة والديَّ.

ـ لكني أحبكِ يا بولا، وظننت أنكِ تبادلينني المشاعر.

ـ هذا أمر آخر يا عزيزي، لا يوجد مانع أن أعيش معك تحت سقف واحد، أما الزواج فمسؤولية مختلفة وأولاد و...

قاطعها:

ـ لا، بل يوجد مانع من أن نعيش معًا دون زواج، فأنا أرفض ارتكاب فعل الزنا.

انفجرت في ضحكة عالية مفتعلة، سرعان ما قطعتها وهي تقول له بنبرة تأنيب:

ـ ظننتك مثقفًا عصريًّا فإذا بك تردد أقاويل اندثرت منذ العصور الوسطى، يبدو أنك حملت الشرق في داخلك وأنت قادم لتعيش في أوروبا.

ـ ليس للشرق دخل فيما أقول، فهو والغرب سواء في هذا الأمر، لكني أرفض أن أنام مع فتاة أحبها وأحترمها دون زواج.

أحست بالحرج من كلامه، ففترت رغبتها واستعادت ما بقي من اتزانها، فقالت وهي تتصنع المرح لتخفي حرجها:

ـ إذًا فلتتفضل بتوصيلي للمنزل الآن، ولنلتقِ صباحًا للذهاب للكنيسة والمشاركة في قداس الأحد.

وجد مزاحها سخيفًا، فأطرق برأسه مجاهدًا نفسه للتخلص من رغبة ملحة في ضمها لصدره وتقبيلها بقوة، فقد خاف أن يزيد ذلك من اضطرام شهوته فينتهي بهما الأمر في الفراش، لذا أسرع بتوصيلها ثم قضى ما تبقى من ساعات الليل هائمًا على وجهه في طرقات باريولي الهادئة، وحين أشرق الصباح كان قد أضمر في نفسه أمرًا.

فمن خلال عمله توطدت علاقته بعدد غير قليل من الصحفيين،

سواء الإيطاليون أو الأجانب، الذين كانوا يلجأون للسفارة المصرية لتغطية الأحداث المتصاعدة في مصر في أعقاب ثورة يوليو وطرْد الملك وإعلان الجمهورية، وما تبع ذلك من أحداث جعلت مصر في بؤرة الاهتمام الإعلامي العالمي، كما تعرف على كبار الصحفيين المصريين الذين تزايد نشاطهم الخارجي خلال تلك الفترة، وكان أكثرهم مبعوثين بتكليفات مباشرة من مجلس قيادة الثورة للقيام بمهام ذات مظهر إعلامي وحقيقة مخابراتية، ونظرًا لإتقانه عدة لغات أجنبية منها الإيطالية، إلى جانب تميزه في اللغة العربية بتأثير والده الأزهري، فقد اعتاد أن يكتب بعض التقارير الصحفية نيابة عن الصحفي المكلف بالمهمة لضمان أن تخرج التصريحات التي تحويها في صورة دقيقة، وقد وجد في هذا متعة عظيمة جاءته دونما تخطيط، فلفتت انتباهه إلى أن العمل الصحفي هو تمامًا ما كان يبحث عنه، وأن ما ظن أنه ملاقيه في العمل الدبلوماسي، مثل التسكع في البلاد والانفتاح على الحضارات الأخرى والتعرف على تباينات الشعوب وجمع المعلومات من مصادرها الأصلية، لم يجده إلا في العمل الصحفي.

ثم جاء لقاؤه بـ«مصطفى أمين»، حين اصطحبه في جولة بروما ليومين كاملين للقاء بعض المسؤولين، شعر خلالها بمتعة لا مثيل لها، توَّجَها الصحفي الكبير قائلًا بلهجته المحببة وابتسامة ودود تسطع على وجهه: «أنت يا رءوف لم تُخلق إلا لتكون أحد السدنة في بلاط صاحبة الجلالة الصحافة».

كان يعرف أن عليه التقدم باستقالته من وزارة الخارجية إذا ما

تزوج الفتاة الإيطالية، لكن في تلك الليلة ـ وعلى الرغم من رفضها السخيف لعرض الزواج ـ اختمرت في ذهنه فكرة الاستقالة والاتجاه للعمل الصحفي الذي أَحبه ووجد نفسه فيه وبدأ بالفعل يتحسس موضع قدميه، وما هو إلا أسبوع واحد حتى اندلعت مشاجرة عنيفة بين بولا وأبيها، فلجأت إليه عارضة عليه ـ هي هذه المرة ـ الزواج!

توالت الأحداث بسرعة، فاصطحبها إلى مصر حيث عقدا قرانهما بعد ممانعة يسيرة من والديه، ثم تقدم باستقالته وعاد إلى روما ليلتحق بالعمل في صحيفة «ألتو اديج»، ويتعاون مع «كورييرا دولاسيرا»، بينما كان يراسل في الوقت ذاته جريدة «الإثنين»، ثم جريدة «الأهرام» بالرسالة الشهيرة «رسالة إيطاليا من رءوف الملا»، قدم من خلالها تحليلات سياسية مميزة حتى ارتبطت الأخبار القادمة من إيطاليا عند القارئ المصري باسمه ارتباطًا وثيقًا، وتضاعفت شهرته بعدما قرر الملك السابق «فاروق» الاستقرار في إيطاليا التي كان مغرمًا بها، فكُلف رءوف بمهام خطيرة ـ قليل منها ذو طابع إعلامي ـ تعاون من خلالها مع زملائه السابقين في السفارة المصرية، ومع بعض العسكريين الذين أقاموا في روما خلال تلك الفترة وحتى عودته إلى مصر.

استقرت الأحوال برءوف وبولا، وزاد تعلقه بها لدرجة كبيرة، ثم أنجبا ابنهما الوحيد الذي أطلق عليه اسم «مصطفى»، وفاءً لذكرى أبيه الذي وافته المنية قبل مولد حفيده، على أن يصبح اسمه غير الرسمي «بول» تيمنًا بوالدته بولا، وحتى تتمكن هي وأهلها وأصدقاؤهما من نطقه بسهولة، لذا كان اسم بول هو الاسم الذي عرفه مصطفى عن

نفسه حتى بعدما التحق بالمدرسة، فقد ظل معلموه وزملاؤه ينادونه بهذا الاسم تلبية لرغبة والدته، وكُتب اسمه «بول رءوف» على حقيبته ودرج مكتبه وجميع لوازمه المدرسية، فلم يعلم أن اسمه الحقيقي مصطفى إلا بعدما رحل إلى مصر ليستقر في حضانة والده بشكل نهائي.

ما زال مصطفى يذكر ذلك اليوم القاتم، وذلك الصراخ المرعب الذي انفصل والداه على أثره، واحتاج الأمر سنوات طويلة ليعلم أن علاقة حب جمعت بين أمه والمحامي الذي عملت في مكتبه وأنها صممت على الطلاق من أبيه لتتزوج من ذلك الرجل ماتيو كاربونيللي أو «زيو ماتيو» كما اعتاد أن يناديه، منذ انتقل مع والدته إلى منزله وعاش معهما عامين، قضاهما محتفظًا باسمه الإيطالي «بول»، قبل أن يتفق والداه على أن يستقر بمصر مع والده الذي اختار العودة لوطنه ليستقر به المقام، حيث عُين في قسم الأخبار بجريدة الأهرام ويرأسه الأستاذ زهير عبد الله الذي أصبح عديله، بعدما تزوج راندا شقيقة زوجته، وهي سيدة جميلة من أسرة راقية طُلقت من زوجها لرغبته في الإنجاب فيما فشلت محاولات حملها طوال فترة زواجهما التي امتدت عشرة أعوام، إذ رأى زهير أن خير زوج لها هو رءوف الخارج من تجربة زواج فاشلة والأب لطفل يتوق إلى ضمه لحضانته ويحتاج لذلك إلى أم بديلة.

وبالرغم من برودة العلاقة بينهما وتلاشي الأمل في أن يقع أحدهما في حب الآخر، فقد استقر زواج رءوف وروني كنوع من الزواج التقليدي المحترم، وبذل ما في وسعه لتحقيق رغبتها في

الإنجاب، فعرضها على جميع الأطباء المتخصصين، حتى تعرَّفا على الدكتور عبد الحميد شتا الأستاذ العبقري الذي ذاعت شهرته في معالجة الحالات المستعصية من العقم، وقد تمكن بالفعل من معالجة راندا حتى تحقق حلمها أخيرًا فقضت أجمل شهور حياتها حاملًا تنتظر اليوم الموعود، ثم جاءت لولو لتربط بينها وبين زوجها وابنه برباط أبدي نُسج من محنة إنسانية واجهها كل منهم بطريقته: رءوف بنظرته المتفلسفة المرحة، ومصطفى بحب عميق مشبع بإحساس بالمسؤولية، بينما واجهتها هي بكآبة معتمة وحزن مقيم وأمومة مجروحة ويقين مستقر في أعماقها منذ الصغر بأنها سيئة الحظ.

حين جاء إلى مصر عام ١٩٦٣ كان في السابعة من عمره، لذا أدهشه أن اسمه الحقيقي مصطفى وليس بول، وهو ما زال يعد ذلك التحول من أكبر تحولات حياته، ومن الطبيعي أن يكون هذا الأمر قد سبَّب له ضيقًا بالغًا، إذ يرتبط الطفل باسمه منذ بدايات وعيه حين يسمع نداء والديه له فيستقر في قرارة نفسه ارتباطه بالاسم ارتباطًا يصعب التخلص منه بعد ذلك، لذا كان على بول/ مصطفى أن يصمم على التخلص من كل ذكرى تعلقت باسمه الإيطالي كيلا يشعر بانفصام داخلي، فأصر أن يناديه الجميع باسمه الحقيقي، حتى والدته وزوجها ثم ألبرتو ـ أخوه لأمه ـ إذا ما هاتفوه أو سافر إليهم لقضاء شهرَي يوليو وأغسطس من كل عام، كان الأمر صعبًا عليهم في البداية ثم تعودوا مناداته «موستافا».

وبقيت القوى القاهرة التي تصر على مناداته بول ولا يملك

حيالها دفعًا: الفرير في مدرسته «دولاسال» الذين كانوا يصرون على مناداته بول، وقد استسلم حيال ذلك خاصة أن أفضلية في المعاملة يمكن رؤيتها بالعين المجردة ارتبطت بهذا الاسم، وعزة التي تلجأ إلى مناداته «بول» كلما أرادت إغاظته جادة أو على سبيل المزاح.

❋ ❋ ❋

ـ Alberto! Come stai? Io sto bene.. Grazie, grazie mille…

توثبت نظراتها تجاه البهو، ولم تكُ بحاجة لأن ترهف السمع، فقد كان مصطفى يصيح في سماعة الهاتف محاولًا إيصال صوته لأخيه الذي اتصل من روما مهنئًا بعيد ميلاد لولو عبر شبكة اتصالات دولية بدائية في ذلك الوقت، التفتت للجالسين قائلة بثقة:

ـ يمكنني فهم الإيطالية بسهولة...

ثم بأسف:

ـ وإن كنت لا أتمكن من التحدث بها.

سألها زهير:

ـ تخرجتِ في مدرسة فرنسية، أليس كذلك؟

ـ نعم، درست في ليسيه الحرية.

قالت سلوى مجامِلة:

ـ ما دمتِ تتقنين الفرنسية فيمكنكِ تعلم الإيطالية بسهولة، حيث إن أصل اللغتين واحد وهو اللاتينية، أليس كذلك يا رءوف؟

لم تنتظر لتتابع حوار الكبار حول اللغات اللاتينية، إذ كانت قد تسللت بالفعل من مجلسهم لتنضم للشباب مستسلمة لرغبة قوية في

تلبية النداء الساحر لـ«كلود فرانسوا» المنبعث من جهاز التسجيل، فخرجت للبهو وجسدها يتمايل على إيقاعات راقصة.

استقبلتها نظرات الإعجاب وهي تلقي عبارة التحية بالفرنسية.. ابتسم مصطفى بتلقائية صريحة لا تعرف الموارية كأنه يقول: «يسعدني انضمامكِ إلينا»، واتسعت عينا محمد وهو يتفحص انحناءات جسدها المتمايل بنظرات جريئة، بينما كان يتمايل هو الآخر على نغمات الموسيقى متقدمًا تجاهها خطوة ومتباعدًا خطوة، داعيًا إياها من خلال حركات جسده لمشاطرته الرقص، أما مايكل فقد وقف متسمرًا مكانه وهو يرد تحيتها بالفرنسية أيضًا بنبرات هامسة، بينما عيناه تدوران بينها وبين رفيقيه في تردد حذر، كأنما يخشى أن يُضبط متلبسًا بالإعجاب بها، ثمة شعور مستقر داخله أن إعجاب الشاب المسيحي بفتاة مسلمة هو نوع من الجرم الذي تُخشى عواقبه، بصرف النظر عن مدى التزام كل منهما بتعاليم دينه أو حتى اهتمامه بمعرفة تلك التعاليم.

بحركة خاطفة مباغتة، مدت عزة يُسراها فرفعت صوت المسجل، بينما كانت يُمناها تقبض على كتف مايكل، ثم سحبته من مكانه إلى منتصف البهو وهي تتمايل بحركات مدروسة لتضبط انثناءات جسدها مع إيقاع الموسيقى، وخلال لحظات كوَّنا معًا دويتو بديعًا استقطب أنظار الجميع كبارًا وصغارًا، كانت الأرجل الأربع تتحرك برشاقة، والجسدان يتمايلان بخفة يانعة تأخذ بالألباب، وبدا أن كلًّا منهما يملك أذنًا موسيقية مرهفة، فما شذت من أيهما حركة عن الإيقاع.

وبينما الجميع ـ الراقصان والمتفرجون ـ في غاية من الاندماج والاستمتاع وقد بدت عزة في قمة ألقها الأنثوي، متجسدًا في توحد

فني بين حركاتها والإيقاع الصاخب لأغنية «Le lundi au soleil» الذي أطار خصلاتها الكثيفة لترخي سدولها على المحيط، بينما ترجرج ثدياها الناهدان في اقتدار، وتطاير شذا عطرها مقتحمًا أنف مايكل ليطيح بحذره القبطي الموروث ويدفعه للتقافز أمامها في بهجة بلا حدود.. إذ وصل إسماعيل.

لا، لم تأخذها المفاجأة ولا هي أوقفت رقصها ولا تراجعت، بل على العكس.. فيمكن اعتبار اللحظة التي أدركت فيها دخوله لحظة أورجازم معنوي، حيث تصل النشوة إلى ذروتها مع غفلة تامة عما يعقب اللحظة الآنية.

لم تلتفت إليه، بينما توجه هو ناحية مصطفى، ثم تحرك بخطوات سريعة بين البهو وحجرة الاستقبال المفتوحة ليسلم على الجميع متجاهلًا وجودها ومايكل تمامًا، ثم اصطحب مصطفى إلى الخارج بعيدًا عن صخب الموسيقى ليتمكن من إسماعه اعتذاره عن عدم تمكنه من البقاء في الحفل لارتباطه بالمذاكرة استعدادًا لاختبار مهم.

فوجئت عزة بمصطفى يعود إلى البهو وحيدًا، فأدركت أن إسماعيل قد انصرف، حينها بدا الرقص بمثابة وسيلة وحيدة للصراخ، فأخذت تتطوح كالمجنونة وتضرب الأرض بقدميها في انفعال، فعاود مايكل ارتباكه وضاع منه الإيقاع.

عاد إلى مقعده وهو يقول لنفسه: إنه لا يعرف كم تحبه المسكينة، ومن المؤكد أنه لا يدرك قيمتها.. أخذ ينظر إليها وهي تتمايل لتخفي ألمها، فبدت له في رقصتها كأميرة شامخة تؤدي صَلاتها في معبد فرعوني، وكأنما استراحت نفسه لهذا الخاطر فاسترخى في مقعده

وهو يقول: «إنها حتشبسوت سيدة النبيلات»، غير أن روح الدعابة غلبته ـ حتى وهو مستغرق في تأملاته الصامتة ـ فضحك وهو يتخيل مايكل الكاهن الأكبر لمعبد الإله آمون!

التفتت إليه وهي تجاهد ألمًا ناشبًا بأعماقها، فغاظها أن تراه مفتر الفم عن ابتسامة واسعة بلا سبب، فأشارت لجانب رأسها بحركة دائرية تترجم لعبارة: «أنت مجنون!»، حينئذ انفجر مصطفى ضاحكًا.

(٨)

صافح مصطفى ثم مضى باتجاه المنزل، إلا أنه توقف فجأة في منتصف الطريق واستدار عائدًا، ثم أسرع الخُطى نحو شارع عكاشة ومنه لشارع الدقي.

كان يهرول بخطوات مستقيمة متعجلة حتى أوشك على الاصطدام ببعض المارة، لولا أن انزاحوا من طريقه، بدا كما لو أنه تذكر فجأة موعدًا هامًّا فانطلق ليلحق به، لكن الحقيقة أن داخله كان يموج بانفعال حاد متصاعد يرغمه على الإسراع فرارًا من الواقع الصادم، أو إلى محاولة تفريغ شحنة غضبه المشتعل.

الحقيرة! هكذا وقفت ترقص كعاهرة والعيون تحملق فيها، ومع مَن؟ مع ذلك القبطي لتكتمل النجاسة.

إذًا فقد أحسن الظن بها فوق ما تستحق، لكنها ضربت عرض الحائط بكل نصائحه لها ووقفاته الحازمة أمام تصرفاتها ومحاولاته

إصلاح اعوجاجها باللين وبالشدة، لكن لا فائدة! فموقفها الليلة يؤكد أنه لا خير يُرجى منها وأنها تزداد ضلالًا بمرور الزمن.

شعر بحنق شديد تجاه مصطفى، كيف يسمح لها أن ترقص شبه عارية مع صديقه المسيحي، وهل كان يسمح لها بذلك لو أنها أخته؟ وإذا لم يكن تدينه كافيًا، فأين الغيرة وأين الرجولة وهو مَن يتباهى بأصوله الصعيدية؟ لكنه في النهاية نصف خواجة.. بول.. هه!

كان ينهب الأرض بقدميه وذاكرته تستعيد أحداث عام مضى، ذلك اليوم الذي مكث في البيت وحده يستذكر دروس الثانوية العامة، وجاءت هي كعادتها لتشاركهم مشاهدة المسلسل التلفزيوني، حتى ذلك اليوم لم يكن يشعر نحوها إلا بشعور الأخ تجاه أخته أو الصديق تجاه صديقه، غير أن تلك اللحظة التي دخل فيها المطبخ ليتناول من يدها كوب الشاي بالحليب كانت لحظة حاسمة، إذ تغير شيء عميق في إحساسه تجاهها، كانت ترتدي ثوبًا طويلًا أحمر اللون بأكمام «جابونيز» واسعة، لحظة فارقة وعجيبة تلك التي أضاءت في ذاكرته المطموسة صورة قديمة مظلمة، قد يرجع تاريخها إلى طفولته المبكرة.. ربما جمعت بين والديه في لقطة مشابهة توهجت ثم انطفأت في لحظة فبدلّت مشاعره، خُيل إليه أنها غضت بصرها وتورد وجهها، وعندما جلست إلى جواره ليتابعا المسلسل كان قلبه ينبض بعنف.

ظن أنها تبادله المشاعر، لكنه اليوم تأكد من خطئه، فهي لا تشعر إلا بنفسها وبرغبتها في لفت الأنظار والاستحواذ على إعجاب الشباب، شعر بالأسى وهو يتذكر كم كان دائم التفكير فيها خلال

الشهور الماضية حتى أخذ يتخيلها زوجة له، وتمنى لو حقق لها ما فشل خالد في تحقيقه لإلهام، وعبثًا حاول أن يقنعها بالالتزام في مظهرها وتصرفاتها وبالمواظبة على أداء الصلاة، غير أنه يدرك الآن أن مشاعره ضلت الطريق.

كان قد اقترب من ميدان الدقي، فأخذ يهدئ سرعته وبدت ملامحه أكثر استرخاء، قال لنفسه: نعم، لقد أخطأت الاختيار، فعزة لا تصلح زوجة لي على الإطلاق.

اتجه نحو دكان صغير للسجائر والخُردوات فأخرج من جيبه قطعة نقود معدنية وضعها على طاولة الهاتف، تناول السماعة ثم أدار رقمًا فجاءه الرنين الدال على أن الخط مشغول، أعاد المحاولة مرات إلا أن الخط ظل مشغولًا، فوضع السماعة وتناول قطعة النقود وانصرف.

أوشك أن يعود أدراجه، إلا أن هاتفًا داخليًّا ألح عليه، فعبر الطريق للناحية المقابلة ومضى متجهًا إلى محطة الأتوبيس فوقف ينتظر بوجه يعكس شعورًا بالرضا والارتياح، وهو يقول لنفسه إنه في هذه اللحظة بالذات في أشد الحاجة لتلك النفحة العلوية من المشاعر الراقية التي ما عاد يجدها إلا معه هو.

نزل في ميدان لاظوغلي، ومن هناك سار على قدميه حتى وصل شارع الناصرية، ثم سلك في دروب ضيقة حتى بلغ منزلًا قديمًا ذا ثلاثة طوابق أسفله ورشة دوكو ولحام، فشق طريقه بين هياكل السيارات حتى مدخل البيت، ثم ارتقى في سلم ضيق مظلم تشبعت حوائطه المتهالكة بمزيج من روائح التقلية المنبعثة من الشقق ومياه المجاري الطافحة ودوكو السيارات، الغريب أن هذا المزيج الذي

يبدو للوهلة الأولى منفرًا يدعو الصاعد إلى كتم أنفاسه حتى يبلغ مبتغاه ارتبط لديه بمرور الوقت بلقاءات المحبة الدافئة الوضيئة التي افتقد نكهتها منذ ذلك اليوم البعيد الذي ذهبوا فيه بخالد، فأصبح يشعر بلذة خاصة حين يقتحم هذا المزيج أنفه.

عندما وصل الطابق الأخير تذكر أنه جاء دون موعد، فتردد لحظة ثم تجاوز حرجه وضغط على الجرس، انفتح الباب عن فتاة سمراء في نحو الرابعة عشرة ترتدي ثوبًا طويلًا وتضع على رأسها إيشاربًا معقودًا أسفل ذقنها، أطرق برأسه وهو يقول:

ـ السلام عليكم.

أجابت بصوت هادئ:

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

ـ الباشمهندس وائل موجود؟

ـ نعم، تفضل!

انزاحت من أمام الباب، فدخل صالة صغيرة يجلس فيها الأبوان، تبادل معهما التحية وهو ما زال واقفًا بجوار باب الشقة المغلق، وفي لحظات خرج وائل من الحجرة المقابلة مُرحبًا، فعانقه بحرارة ثم أخذ بيده تجاه الحجرة فيما كان إسماعيل حريصًا على أن يشرح له محاولته الاتصال عدة مرات قبل المجيء، فقال وائل بمودة صادقة:

ـ على الرحب والسعة في أي وقت يا أخي، فهذا بيتك ولست في حاجة للاستئذان قبل المجيء.

حين دخلا الحجرة كان بها فتى جالس موليًا ظهره للباب، وظل

على هذا الوضع فلم يلتفت للداخلين حتى أغلق وائل الباب ثم تنحنح، فاستدار الفتى نصف استدارة وهو يقف ليصافح الضيف القادم بتحفظ شديد زاد من شعور إسماعيل بالحرج لحضوره دون موعد، إلا أن وائل كان يحاول التظاهر بأن الموقف طبيعي، فابتسم وهو يقدم إسماعيل:

ـ الأخ إسماعيل الطحاوي زميلنا في هندسة القاهرة، لكنه ما زال بالقسم الإعدادي.

ثم مشيرًا للفتى:

ـ الأخ كارم.. صديق قديم.

جلس ثلاثتهم وقد انتابت إسماعيل مشاعر ضيق بالغ، إذ لم يَفُته أن وائل قدمه للآخر باسمه الكامل وبصفته كطالب، بينما اكتفى بتعريف الآخر باسمه الأول فقط مع التغطية على صفته، فأدرك أن ثمة شيئًا «سريًّا» غير مسموح له بالاطلاع عليه.

مرت الدقائق بطيئة في حسه حتى طُرق الباب، ففتح وائل وإذ بشقيقته التي استقبلته منذ قليل تطل من جديد مناولة أخاها صينية الشاي.. وقعت عيناه على وجهها فغضهما سريعًا وهو يقارن بين مظهرها المحتشم وبين منظر عزة الكريه بثوبها القصير وانثناءاتها المتهتكة.. هز رأسه كأنما يطرد صورتها من ذهنه وهو يقول لنفسه: «لقد انتهت عزة تمامًا، لا ينبغي أن أفكر فيها أو أقارن بينها وبين أي شخص آخر».

وهما يتناولان من يده أكواب الشاي، قال وائل دون مقدمات موجهًا حديثه لكارم:

ـ على فكرة إسماعيل إخواني قديم!

نظر إليه الآخر بدهشة مشوبة باهتمام، فاستطرد وائل ضاحكًا:

ـ أقصد أنه من أسرة إخوانية، تلقى تربية إخوانية، وقد تعرض للضرب وهو طفل صغير حين هاجموا بيت عائلته أثناء اعتقالات ١٩٦٥.

أدرك إسماعيل أن وائل أراد بهذا الحديث غير الممهد أن يرسل لكارم إشارة طمأنة تجاه هذا القادم على غير انتظار، فتضاعف شعوره بالحرج، ولم يلبث كارم ـ الذي كان حتى هذه اللحظة يقف ويجلس مواربًا جانب وجهه ـ أن استدار بكُليته تجاه إسماعيل كأنما تلقى الإشارة وقد بدا عليه الارتياح، ما شجع وائل على إرسال مزيد من إشارات الطمأنة وتزكية القادم، فقال:

ـ بدأت أُخوتنا في مسجد الكلية منذ بداية العام الدراسي، وهو يداوم معنا على حفظ القرآن الكريم، ويشرفني بالزيارة من حين لآخر لنتدارس معًا حقائق ديننا وواجبنا تجاه ما يحدث حولنا.

ثم استدار ناحية إسماعيل وهو يقول:

ـ كارم الآن في العام الدراسي الأخير بالكلية الفنية العسكرية.

عقب كارم مبتسمًا بمرارة:

ـ «الفانية» العسكرية.

فقال إسماعيل متعجبًا، وقد زايله شعور الحرج:

ـ ولمَ؟ إنها كلية المتميزين علميًّا بلا جدال، وقد سمعت أن عددًا من أساتذتها من أهم خبراء أوروبا الشرقية المتخصصين في الصناعات الحربية.

ـ هذا حق، وأساتذتها المصريون كذلك درسوا في أكبر معاهد الاتحاد السوفيتي، مما تسبب في هذا المد الشيوعي الإلحادي الذي نراه حولنا في كل مكان، والكلية الفانية أحد مستودعات هذا الوباء الذي صدمني منذ بداية التحاقي بها.

هز إسماعيل رأسه قائلًا:

ـ من المؤسف حقًّا أن يكون ثمن حصولنا على أسرار التقدم العلمي والعسكري هو فتح الباب أمام جراثيم الشيوعية والإلحاد.

وائل متنهدًا بعمق:

ـ ومع ذلك فهم لا يعطوننا أبدًا أسرار التقدم العلمي، بل فقط الفتات كي نظل في احتياج دائم لهم، فالمعادلة خاسرة.

قال إسماعيل:

ـ صدقت يا وائل...

ثم موجهًا سؤاله لكارم:

ـ ألم يتغير الحال الآن عن ذي قبل؟

حرك كارم رأسه يَمْنة ويَسْرة علامة النفي، وهو يجيبه:

ـ لقد تشبعوا بمبادئ الإلحاد لدرجة ما كانت تخطر لأحد على بال، مِن تطاول على الذات الإلهية إلى تجرؤ على الحرمات والاستهزاء بها، إلى اضطهاد الملتزمين، لدرجة أن الصلاة عندهم جريمة لا تغتفر وأصبحت سببًا لتعرض مَن يؤديها لاستهزاء ومضايقات الطلبة الشيوعيين وتنكيل الأساتذة به.

قال وائل موجهًا كلامه لإسماعيل:

- لقد أحالوا «كارم الأناضولي» لمحاكمة عسكرية لمجرد أنه يداوم على الصلاة.

كانت المرة الأولى التي ينطق فيها باسم صديقه كاملًا، فداخل إسماعيل ارتياح مكنه من التفرس في وجه الفتى وهو يتحدث، فطالعته ملامح هادئة مشرقة بنور رباني، وعينان صافيتان صادقتان، وشعر في نبرات صوته القوية الحاسمة بإخلاص لا مثيل له، فأنصت إليه باهتمام وهو يقول:

- لقد وصل الأمر أن مدير الكلية اللواء «إبراهيم عبد النبي» كان يحذر زملاءنا صراحة من الاختلاط بنا لمجرد أننا نداوم على الصلاة، فهل أصبحت الصلاة جريمة؟ ثم جاءت إحالتي للمحاكمة العسكرية بتهمة أنني أُشكل خلية من الإخوان المسلمين داخل الكلية، ولم يثبت هذا بالطبع لأن كل دليلهم كان رفضنا التعامل مع زملائنا الشيوعيين.

قال إسماعيل مستعيدًا أصداء نصائح والدته له وهو صغير:

- علينا أن نجتهد ونتفوق ولا نبالي بهؤلاء، فلهم دينهم ولنا ديننا.

تناول وائل طرف الحديث قائلًا:

- ومَن قال إنهم سيتركوننا وشأننا إن تركناهم؟ لا تتصور يا إسماعيل كم يغيظ الحق قوى الباطل حتى وإن كان بعيدًا عنها، فتسعى للخلاص منه وممن يحملونه.

قال كارم وهو يهز رأسه مؤمِّنًا على كلام وائل:

- إنهم لا يكفون عن التحرش بنا حتى في الناحية العلمية، فها أنا أُجبر الآن على المشاركة في المشروع النهائي للتخرج مع

طالبين من زعماء الماركسية وبإشراف مُعيد مسيحي معروف بالتعصب.

عقَّب وائل:

ـ ولن يكفوا عن هذه المضايقات إلا إذا أعلنت اتفاقك مع مبادئ الإلحاد التي يمثلونها.

فتمتم كارم وإسماعيل بصوت واحد: «والعياذ بالله»، ثم تساءل إسماعيل في حيرة:

ـ ما العمل إذًا؟

تبادل وائل مع كارم نظرة ذات معنى قبل أن يجيب عن تساؤل إسماعيل:

ـ البدريون!

ـ ماذا؟

ـ لن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، وما قامت دولة الإسلام الأولى إلا بعدد قليل من الصحابة حملوا رؤوسهم على أكفهم في غزوة بدر ليغيروا واقع العالم من الكفر إلى الإيمان.

قال إسماعيل بنبرة تحمل في طياتها من الحيرة أكثر مما تحمل اقتناعًا:

ـ هذا ما حاوله الإخوان المسلمون منذ ما يزيد على أربعين عامًا، فانظر النتيجة.

شوَّح وائل بظهر يده علامة الاستهانة، ثم قال بنبرة حاول الاحتفاظ بهدوئها:

ـ الحقيقة يا أخ إسماعيل أن الزمن تجاوز حركة الإخوان، وتجاربها المريرة لم تنضجها بما يكفي، فما زال هدف الوصول إلى السلطة

بعيدًا عن تطلعاتهم، مع أنه السبيل الوحيد لتغيير الواقع الذي تعيشه الأمة.

أجاب إسماعيل بثقة استمدها من اعتياده القراءة في رسائل الإمام الشهيد:

ـ إن هدفهم هو التغيير خطوة خطوة، ببناء الفرد المسلم ثم الأسرة المسلمة ومنها تتكون أمة مسلمة تغير الواقع وتطبق...

قاطعه كارم وقد أضاءت وجهه ابتسامة إشفاق:

ـ ومَن الذي سيتركهم يكملون سياسة الخطوة خطوة التي بدأوها منذ ما يقرب من نصف قرن وما زالوا كما هم محلك سر.

ـ تعني أنه لا بد من ثورة؟

هكذا تساءل إسماعيل بلهجة استنكارية، فخطف وائل السؤال مجيبًا بحسم:

ـ هذا بالضبط ما نعنيه، فلا يمكن لأي فكر أن يتحول إلى واقع أو إلى دولة دون أن يمسك أصحابه بالسلطة، وهذا ما فعلته حركة ضباط يوليو وحركة البعثيين والقوميين العرب.

تساءل إسماعيل:

ـ ألا توجد طريقة سلمية للوصول إلى السلطة؟ وهل المطلوب أن يعيد أصحاب الفكر الإسلامي مآسي الانقلابات العسكرية التي عانت منها شعوب المنطقة؟

أجابه كارم فيما يشبه العتاب:

ـ أنت تتحدث عن أيديولوجية مختلفة، فلا مجال لتكرار الأخطاء مع حركة هدفها إقامة شرع الله.

واستطرد وائل قائلًا:

ـ ثم إنه لا سبيل آخر للتغيير في دول العالم الثالث المحكومة بدكتاتوريات عسكرية، ودعنا نَعُد ثانية إلى تجربة الإخوان، فماذا جنوا سوى المشانق والسجون والتعذيب؟ هل علينا أن نستمر في تقديم خيرة الشباب المسلم لهؤلاء الوحوش الذين لا ترويهم إلا دماء المؤمنين؟

هز إسماعيل رأسه وقد تضاعفت حيرته، فأكمل وائل:

ـ ربما في بعض الدول الغربية يستطيع مَن يريد التغيير الوصول إلى السلطة عن طريق البرلمان مثلًا، لكن انظر إلى ما حدث في بلد كإندونيسيا التي تطبق نظام الأحزاب الغربي، فقد وصل حزب ماشومي الإسلامي إلى البرلمان عن طريق انتخابات حرة حصل فيها على أغلبية شعبية فإذا بالجيش يتدخل لوقف هذا كله.

زم إسماعيل شفتيه بحركة تعبر عن اليأس، ثم قال:

ـ معك حق، فما أسفرت تجربة الإخوان إلا عن فشل ذريع، استشهد خيرة قياداتهم وخرج الباقون من السجون هياكل آدمية محطمة.

ربَّت وائل على كتف إسماعيل مشجعًا وهو ينهض متجهًا نحو صينية الشاي ليصب المزيد، وبينما يقلب السكر في الأكواب، إذ بكارم يقول لإسماعيل بلهجة حميمية ودون مقدمات:

ـ ليتك تحضر لقاء الدكتور صالح مع الشباب يوم الجمعة القادم.

ابتسم إسماعيل وهو يهز رأسه برفق علامة عدم معرفته بالرجل، فقال وائل وهو يناوله كوب الشاي:

ـ الدكتور «صالح سرية» مناضل فلسطيني، كان قائدًا لجيش التحرير الفلسطيني في العراق، ويعمل الآن في الجامعة العربية، وقد انضم فترة لإخوان العراق لكنه عانى من سوء تقديرهم للأمور، سأحدثك عن ذلك فيما بعد، لكنا ندعوك لحضور درسه بعد صلاة الجمعة بمشيئة الله.

أجاب إسماعيل مرحبًا:

ـ بكل سرور، وسوف أمر عليك لنذهب معًا.

فتح وائل درج مكتبه وأخرج رزمة من الأوراق المطوية دفعها لإسماعيل قائلًا:

ـ اقرأ هذه الأوراق قبل لقائنا، وسوف نتناقش حولها.

بسط إسماعيل الأوراق المطوية، فوجدها عبارة عن مجموعتين صغيرتين تضم كل منهما عدة وريقات مكتوبة على الآلة الكاتبة ومنسوخة بورق الكربون ما جعلها باهتة اللون متآكلة الحروف وقد جُمع كل منها بدبوس، المجموعة الأولى معنونة «جيل قرآني فريد»، أما المجموعة الأخرى فكانت بلا عنوان ولكن خُط بقلم رصاص على الهامش الجانبي لها عبارة «من رسالة الإيمان»، وهناك عدة خطوط بألوان مختلفة تبرز مجموعة من الفقرات وتدل على تنقل هذه الرزمة بين أكثر من يد وأكثر من قارئ.

* * *

فتح باب الشقة بحذر كيلا يزعجها، إذ كان الليل قد انتصف، لكنه

فوجئ بأنوار الصالة مضاءة وهي جالسة في ركنها المعتاد ترتل في المصحف.

حين أحست به أنهت قراءتها وردت تحيته، ثم سألته بإشفاق:

ـ خير يا إسماعيل؟ لم تخبرني أنك ستتأخر.

أجاب وهو يطبع قُبلة فوق كفها المفرودة على حافة المقعد:

ـ آسف يا ماما، ذهبت لوائل ولم أقدِّر أني سأتأخر حتى الآن.

تساءلت في حيرة:

ـ أنت تقريبًا لم تمكث عند مصطفى، أليس كذلك؟

ـ نعم، انصرفت سريعًا عقب تهنئة لولو بعيد ميلادها...

ثم مستدركًا:

ـ كيف عرفتِ؟

ـ أرسلنا لاستدعائك وعزة بعد خروجك بقليل، فلم نجد سوى عزة فقط.

تطلع إليها متعجبًا، فأكملت:

ـ أصابت عمك عبد المنعم أزمة قلبية أخرى، وكنا جميعًا حوله طول الليل حتى طمأننا الطبيب.

سألها بفزع حقيقي:

ـ وكيف حاله الآن؟

ـ قال الطبيب إن الأزمة مرت بخير، لكن عليه أن يلزم الفراش ويلتزم بالعلاج لفترة قد تكون طويلة.

ـ لقد قضى ما يقرب من عام في الفراش حين جاءته الأزمة أول مرة قبل ثلاث سنوات.

أومأت برأسها قائلة:

ـ لم يتحمل المسكين آنذاك خبر فصله من الجيش ومحاولات تشويه سمعته ممن كانوا رفاقًا وأصدقاء له من قبل.

قال بلهجة ساخرة:

ـ نعم، أكذوبة مراكز القوى وثورة التصحيح، وما هي سوى عصابات يُصفِّي بعضها بعضًا.

فقالت محذرة:

ـ تنبه يا إسماعيل، أعتقد أن حالته لن تسمح بالحديث في السياسة.

ـ طبعًا يا ماما أُدرك هذا جيدًا، ربنا يجيب العواقب سليمة.

ـ مسكينة عزة كادت تموت هلعًا على أبيها.

فسألها بمرارة ساخرة:

ـ وهل جاءت إليه من هناك بثوبها العاري؟

كأنما أدركت سبب انصرافه المبكر من الحفل، فابتسمت قائلة:

ـ إنها الآن في أشد الحاجة إلى وقوفك بجوارها والرفق بها.

أومأ برأسه موافقًا ولم ينبس، فقامت من مكانها متجهة لغرفة نومها، وقبل أن تصلها استدارت إليه كأنما تذكرت أمرًا:

ـ اتصلت إلهام من العزبة وأخبرتني أنها ستأتي غدًا.

سألها بلهجة مَن يتوقع الإجابة:

ـ وحدها؟

نكست حكمت رأسها، وهي تقول بأسى:

ـ يبدو أنها مُصرة هذه المرة على الطلاق.

(٩)

يرتبك حين يباغته مرآها، بل هو شيء يفوق الارتباك، إن شئت فقل انتصاب.. نوع من الانتصاب المادي والمعنوي، فكل ذرة في كيانه تنتصب لها.. يفزُّ من مجلسه وتنتفخ أوداجه وتحتقن أذناه بدفقة دماء متصاعدة تزيدهما صلابة، وما خفي كان أعظم.

تأجج عاطفي وسخونة جنسية خصبة متوارثة في جينات تنتقل عبر آلاف السنين نقية بلا اختلاط، ضاربة بجذورها في أعماق أرض بكر ترقد هناك، في حضن سلسال جبلي شامخ وصامد يحتضن منذ القدم واديًا أجدب رغم انشطاره بمجرى نهر جاحد، لا يلقي بخيراته إلا بعيدًا على ضفاف شمالية لينعم بنتاجها غرباء، وردوا على مر السنين من كل حدب وصوب، فلا يتبقى لأهل الجنوب ـ أصل العطاء ـ سوى فتات ممزوج بمرارة الصبر الطويل.

من «كودية النصارى» ينزح الجد تاجر الغلال الجائل حاملًا معه فقرًا دكرًا وزوجة وطفلًا، يأتي روفائيل حنًّا إلى مصر، أم الدنيا، باحثًا عن الرزق في خضم الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت العالم مع مطلع ثلاثينيات القرن العشرين، فيدله أحد بلدياته المخلصين على كنز سليمان «الكامب الإنجليزي»، يفضلون التعامل مع التجار الأقباط.

يستقر به المقام في القاهرة، ولا تغيب لحظة ذكريات الصعيد بحلوها ومُرها، هناك في ديروط حيث قبور تضم رفات آباء رحلوا.. يأتي حاملًا في خلاياه تراثًا روحيًا عامرًا بالألم.. حضارة فراعنة تحتفي بالموت وتجعل للأموات كرامة فوق كرامة الأحياء، ومرارة

قبطية تختلط فيها نظرية الألم المسيحي بواقع حال يجذر في داخلهم شعور الاضطهاد.

لا أحد يعرف لمَ انقسمت الكودية إلى كوديتين: كودية النصارى، وكودية الإسلام، أصابع الكبار من الطرفين تشير إلى الاحتلال.. أي احتلال فيهم؟ منذ القدم واحتلال يسلمنا لاحتلال! وبقيت في الذاكرة حقائق وأساطير عن ثورة أهل ديروط في وجه الإنجليز وقتلهم عساكرهم حتى أطلقوا على ديروط بالإنجليزية «Die Road ـ طريق الموت»! يسميها بعض رجال السلطة «شيكاغو مصر» حيث تنتشر الأسلحة بين أهلها ـ غنيهم وفقيرهم ـ على نحو مفزع، ويزيدهم الفقر شراسة تجاه عدو مشترك ـ حكومة أو احتلال أو قُطاع طرق من العربان ـ يتلاحمون جميعًا في مواجهته، وحين يزول الخطر يتفرغون لمشاكسة بعضهم البعض.

ورث عن أبيه مهنة تجارة الغِلال، يتنقل بين القرى يبيع بالأجل بمقابل من المحاصيل أو الماشية ونادرًا من النقود، ويزيد في المقابل بمقدار الأجل ثم يعود في موسم الحصاد أو عند ميسرة ليُطالب بحقه.

ما زال ـ حتى بعد نزوحه إلى القاهرة ـ يتحسس جرحًا غائرًا أسفل رقبته، قبيل الرحيل، كاد يفقد حياته ويتيتم ولده، باع غِلالًا بأجل لأحد فلاحي «كودية الإسلام» وحين حل موعد السداد طالبه فماطل وماطل حتى ضاق به فاصطحب قريبًا له وراحا يُهددانه إن لم يدفع، فما كان من المسلم إلا أن اتهمه بأنه يبيع بالفايظ ولجأ إلى إمام الجامع مولولًا مستنجدًا به وبالمسلمين من المرابي النصراني الذي اقتحم عليه داره وتعدى على حريمه.

ونشبت المعركة...

وشارك أهل الكوديتين، واستُخدمت الفؤوس والبنادق والأسلحة البيضاء، وسرعان ما تحول الخلاف المالي لحرب دينية مقدسة، فرفع الأقباط صلبانهم واستغاثوا بالمسيح الحي، وتصايح المسلمون على المنابر يطالبون بالثأر من الكفرة الملحدين الذين اقتحموا الكودية لينجسوها وليخرجوا أهلها من دينهم، ووقع الضحايا من الجانبين.

في ذلك اليوم كاد يُذبح كعجل ليس له صاحب، ثم تدخل الأمن وأعيان البلد وتم الصلح وانفضت المعركة وعادت الأمور إلى مجراها، لكن جرح رقبته امتد إلى صدره فضاق بالعيش في الكودية الملعونة واعتزم الرحيل.

ما عُدم عند رحيله مبررًا دينيًّا يساند حاجته لرزق أوفر ولحياة أفضل، وقف يذرف الدمع عند شجرة مريم في «دير الأنبا صرابامون» بديروط الشريف، لعله آخر عهده بذلك الدير الحبيب، لكن ما عساه يفعل وهو المظلوم المطارد من الأشرار كما طوردت العائلة المقدسة من قبل، واختمرت في أحشائه فكرة الهروب كفكرة روحية مرتبطة بالألم المسيحي، «الصدِّيق يبصر الشَّر فيَتوارَى» هكذا قال له أبونا القس، فليتوارَ عن هؤلاء الظالمين، وليحمل الشجرة وسيدتها في قلبه أينما حل، وليجعل صلاته في هذا الدير المقدس آخر عهده بديروط كلها، وليترنم مع المترنمين:

«مريم أم الإله شفيعة الأنام.. يسوع المسيح مُخلِّصي...».

وليدعُ ببكاء صادق: «يا مريم يا أم النور صلي لأجلنا».

بعد سنوات من توريد الغِلال للكامب الإنجليزي، يتبدل حال

روفائيل حنَّا ـ المعلم روفائيل ـ فيلبس الجبة الجوخ والعمة واللاسة الحرير، ويتلألأ في بنصره الخاتم البندقي الضخم منقوشًا عليه صورة العدرا تحمل الطفل، وساعة ذهبية تلف معصمه ولا تُخفي وشم الصليب الأزرق المدقوق منذ الطفولة، وبفضل محبتك يا أم النور انفتح الطريق.

صار أكبر تاجر غِلال بالساحل، وبيت مِلك في المنيرة، ورزقه الرب ولدًا آخر فحرص على أن يتلقى ولداه أفضل تعليم، حيث تخرج الأكبر (نصيف) صيدليًّا، والأصغر (عادل) مهندسًا.

ـ ليس أمام أبنائنا سوى التجارة أو الأعمال المهنية، أما وظائف الحكومة فلا يطمع قبطي في تولي منصب كبير في الدولة مهما كان مجتهدًا.

هكذا قال له يومًا الدكتور ملاك صاحب «صيدلية ملاك» بالفلكي، بلدياته الذي هجر أبوه الكودية منذ زمن طويل، رجل حكيم، فرغم ثقافته لم يقامر بماله ولا بمستقبل أبنائه من أجل سياسة متقلبة، قال له في إحدى مسامراتهما:

ـ اسمع! لا مكرم عبيد ولا فخري عبد النور يمثلان الأقباط، هذه حالات استثنائية تؤكد القاعدة، ثروة القبطي عزوته الحقيقية التي تجعل له مكانة يعمل لها الجميع حسابًا.

تحسس جرح رقبته وهو يهز رأسه موافقًا.

وقبل أن يرقد على رجاء القيامة، يكون قد حمل بين يديه حفيده مايكل بعد أن نجح مسعاه في تزويج بكريه نصيف من الفتاة الحلوة الراقية والثرية ماجدة ابنة صديقه الدكتور ملاك.

لكنها أفعال الرب، أن يأتي مايكل وسيمًا كأمه، بينما ترث شقيقته ماريان ملامح أبيها: بدنًا قصيرًا ممتلئًا، بشرة جنوبية داكنة، ومنخارًا عظيمًا أفطس يُجبر الحروف على أن تخرج من فمها ممزوجة بخنفة واضحة على نحو يثير الشفقة أو الاشمئزاز ويضاعف لديها شعور الحنق والإقصاء.

* * *

حين لمحها مقبلة من بعيد تتأبط ذراع صديقتها منى وتتهادى على العشب الأخضر بجسدها الريان ووجهها البدري يحوطه ليل حالك طويل، متجهة نحو جمعهم المتحلق حول طاولة مستديرة أمام كافتيريا كلية آداب القاهرة، انتفض منتصبًا مسفرًا عن ابتسامة وضيئة ازدان بها وجهه الأسمر المخضب بحمرة الخجل، ولمعت عيناه السوداوان أسفل أهداب مضطربة، وبدا لها على البعد وسيمًا أنيقًا محبًّا والهًا فأقبلت نحوه تدفعها فطرة أنثوية ممغنط قطبها دومًا تجاه الوالِهين.

تجاهل كلاهما ـ بينما كان يستبقي نعومة كفها للحظات في قبضته اللهفى ـ غمزات محمد لمصطفى محاولًا لفت نظره للموقف الرومانسي، وبدوره تجاهل مصطفى إشاراته فتبادلا التحية مع القادمتين، فيما قال مايكل بصوت خفيض موجهًا الكلام لمعشوقته:

ـ وصلتُ هنا مبكرًا، لكني ظننت أن أمامكما ساعة أخرى لتحضرا.

أجابته منى وهي تتخير مقعدًا لها قريبًا من مصطفى:

ـ كان أمامنا بالفعل محاضرة أخيرة لكن عزة صممت على «كنسلتها».

قالت عزة بضيق:

ـ لم أعد أطيق محاضرة نظريات الإعلام، فلا أستفيد منها غير الملل...

ثم استطردت وهي تنظر لمنى بحدة:

ـ أنا لم أجبركِ على مغادرة المدرج، فقد كان بإمكانكِ متابعة المحاضرة إن شئتِ.

تورد وجه منى وقالت كالمعتذرة:

ـ النظريات مهمة حقًّا لكن أستاذة المادة لا تُحتمل.

قالت عزة بحماستها المعهودة:

ـ لقد تأكد لي، بعد مرور عام دراسي كامل، أن الإعلام لا علاقة له بالدراسة في كلية الإعلام، فما تعلمته من مناقشاتي مع أونكل رءوف وأونكل زهير، وحتى من مجرد متابعة الصحف والمجلات أهم بكثير من هذا الكلام الفارغ الذي يصدعون به رؤوسنا في المحاضرات.

فقالت منى بلهجة بذلت جهدها لتجعلها محايدة خشية استفزاز صديقتها:

ـ لكن لا بد من حضور المحاضرات واجتياز الامتحانات بنجاح حتى نحصل على الشهادة التي تؤهلنا للعمل بالصحافة.

زمت عزة شفتيها وهزت رأسها بحركة تدل على اللامبالاة، فسألها مصطفى:

ـ كيف حال أونكل عبد المنعم اليوم؟

ـ أفضل كثيرًا، الدكتور زكريا يمر عليه يوميًّا، وطمأننا أن الأزمة مرت بسلام، لكن ما زال يُلزمه بالبقاء في الفراش.

ـ وهل الزيارة ما زالت محظورة؟

ـ أمس فقط سمح بالزيارة، لكنه حذرنا من إرهاقه خصوصًا في المناقشات السياسية وما جرى وما كان، فالدكتور زكريا صديقه من أيام الجيش ويعرف ما تعرض له من ظلم.

قالت منى بنبرة ممرورة:

ـ الجميع في هذا البلد معرضون للظلم بشكل أو بآخر!

* * *

كان الفارق بين تجربتيهما عهدين مختلفين، فبينما أُنهيت خدمة العقيد عبد المنعم عياد من الجيش مبكرًا باعتباره أحد العناصر الموالية لمراكز القوى فيما أُطلق عليه «ثورة التصحيح» في مطلع عهد السادات، فإن القاضي محسن رجب فُصل بقرار صدر في نهاية العهد الناصري عقابًا له على كلمة تحمل اعتراضًا تفوه بها في حديقة نادي القضاة غداة صدور قرارات فصل القضاة، فيما أُطلق عليه وقتها «قوانين إصلاح القضاء» قبل أن يعدل الاسم إعلاميًّا في العهد الساداتي إلى «مذبحة القضاء».

وعلى الرغم من تناقض الأيديولوجية التي أدت إلى وقوع أسرة كل منهما ضحية لقرار بالإبعاد وفقدان المركز الاجتماعي المرموق فضلًا عن التضييق المادي، فإن ذلك التناقض لم يَحُل دون تعاطف كل منهما مع مأساة الأخرى، فبينما صُدمت عزة تلميذة الإعدادية لقيام ناصر بفصل القاضي والد صديقتها الأثيرة، ما حدا بها إلى مناقشة طويلة مع والدها تلقت خلالها تبريرات من عينة: التضحية بالفرد ولو كان بريئًا لصالح المجموع.. ضرورة حماية مكاسب الثورة

من أعدائها.. ظروف الحرب التي تحتم توجيه كل الطاقات لتحرير الأرض المحتلة، فإن تلقي منى بعد عامين من تجربتها الشخصية المريرة خبر قيام السادات بطرد والد صديقتها وصديقه القديم من الجيش ولَّد لديها قناعة بأن أي شخص في هذا البلد معرض للظلم ولضياع حقوقه أو تشريد أسرته في أي وقت ودون سبب، وقد كان هذا أحد أسباب كفرها بالعدالة التي آمن بها والدها فلم تستطع حمايته من بطش سلطة غاشمة.

قال مايكل متجاهلًا سير الحديث ومحاولًا الإفلات من الحوار السياسي الذي لا يحبه:

ـ على أي حال أمامنا أكثر من ساعة ونصف على موعد حفلة الثالثة.

ثم تساءل بإشفاق وهو يردد النظر بين عزة ومحمد:

ـ أما زلتما تُصرَّان على أن ندخل فيلمًا عربيًّا؟

أجابه محمد ساخرًا:

ـ وهل تريدنا أن ندخل فيلمًا هنديًّا مثلًا؟

ـ لم أقل هذا بالطبع، لكنْ هناك فيلم أمريكي...

قاطعه محمد بلهجة حادة:

ـ هل يعني التحاقك بالجامعة الأمريكية أن علينا من الآن فصاعدًا أن نتابع أفلام الويسترن البلهاء؟

قالت عزة كأنما تذكرت شيئًا:

ـ يبدو أنك كنت محقًّا يا مايكل في إصرارك على دخول الجامعة الأمريكية، فها هي الحكومة توافق أخيرًا على الاعتراف بشهادتها.

قال مايكل بلهجة جمعت بين الفخر باعترافها وبين الحياء الطبيعي فيه:

ـ إنها جامعة المستقبل بلا جدال، حقيقة أنني التحقت بها بناء على نصيحة عمي عادل لتكون وسيلة لتسهيل الهجرة إلى أمريكا فيما بعد، لكني أؤكد لكم أنه في يوم من الأيام ستصبح هذه الجامعة من أهم جامعات مصر، ويكفي فقط أسلوب التعليم الذي لا يعتمد على حفظ الدروس بل ترك حرية البحث للطالب نفسه.

أغاظت ثقته محمد، فقال بأسلوبه الساخر:

ـ لعلك التحقت بقسم الاقتصاد لتصبح بعد الهجرة من رجال الأعمال الأمريكيين الذين نراهم في الأفلام.

تناول مصطفى طرف الحديث، ليس لرغبة فيه وإنما لاعتياده التدخل سريعًا لوقف الملاحاة بين الصديقين اللدودين، فقال موجهًا حديثه لمحمد:

ـ الاقتصاد من أهم العلوم الحديثة ولا يمكن أن تتم عملية إصلاح سياسي في بلد دون إصلاح اقتصاده.

فسألته عزة بلهجة معترضة متنمرة:

ـ تقصد أن علينا تطبيق الرأسمالية من أجل إصلاح البلد؟

فأجابها بابتسامة مسالمة:

ـ كنت أتحدث عن علم الاقتصاد وليس عن نظرية بعينها، فلكل تجمع إنساني في زمن معين ما يصلح له من تطبيقات، وأنا عمومًا أكره النظريات الجامدة والجاهزة للانتقال من مجتمع إلى آخر دون مراعاة الظروف، وما ينطبق على الاقتصاد ينطبق

على السياسة، حيث ثبت تاريخيًّا فشل النظريات المعلبة سابقة التجهيز التي يتم تصديرها من بلد نجحت فيه لبلد آخر يختلف عنه حضاريًّا.

لم يفت محمد تعلق عينَي منى بمصطفى وانتباهها لحديثه بكُليتها، وقال لنفسه إنه يبدو وحيدًا بين زوجين من العشاق، لكن شيئًا ما بداخله بدا مستريحًا لفكرة أن كل عاشق هنا له معشوق لا يشعر به، فهنأ نفسه مقدمًا على حُسن حظه الذي سيتيح له أن يتابع عن قرب مأساتين عاطفيتين في وقت واحد، لذا قال بغتة وهو ينظر لمنى بخبث:

ـ ما رأيكم في فيلم «حب وكبرياء»؟ لعل المواقف الرومانسية تخرجنا قليلًا من جو الامتحانات الذي هلت روائحه.

بدا الضيق على وجه مايكل، ونظرت منى إلى مصطفى تنتظر اختياره لتوافق عليه، بينما رفع مصطفى كفيه لأعلى علامة الحيرة، فقالت عزة:

ـ لا مانع، فنحن نشاهد الأفلام في التلفزيون والمهم هو الفسحة نفسها، لا تنسوا أنها آخر خروجة لنا قبل الامتحانات.

عادت لمايكل ابتسامته وهو يُمنِّي نفسه بساعات ممتعة يقضيها بصحبة المحبوبة، فيما رمقه محمد بغيظ وهو يتحسس قفاه بحركة اعتادها منذ سنوات بعيدة.

* * *

لم يقصد عم عبيد البقال بالظاهر أن يتلقى ابنه الوحيد ـ على بنات ـ تعليمه بالفرنسية، لكن محمد كان طفلًا صغيرًا يلهو في دكان أبيه عندما وصل الأب جورج إلى المدرسة التي افتُتحت على

مقربة من الدكان بعدما أضيف إليها المبنى الشرقي والكنيسة، ولم ينسَ الإخوان «الفرير» أن أول إرسالية تعليمية لهم في مصر أنشأت مدرستها بغرض تعليم أبناء الفقراء والمحتاجين، لذا أبقوا على نسبة معقولة من الأماكن بالمجان بعدما أصبح التعليم بمدارسهم مقابل مصروفات يدفعها أبناء القادرين.

وقد بدت فرير الظاهر منذ أعيد افتتاحها تحفة فنية، ودأب عم عبيد على التطلع إلى تلاميذها الممتلئين صحة ونشاطًا وهم خارجون منها في نهاية اليوم الدراسي بهدوء ونظام، وقد ارتدوا ملابسهم النظيفة وراحوا يصعدون إلى الباصات بغير هرج ومرج كباقي تلاميذ المدارس الحكومية المحيطة، لذا لم يتردد لحظة حين جاءه الأب جورج مقترحًا عليه إلحاق ابنه بالمدرسة، بل بدا سعيدًا بتصور ابنه الوحيد مزاملًا لهؤلاء التلاميذ المؤدبين المتحضرين، وأنه، علاوة على ذلك، لن يدفع مليمًا واحدًا كما قال له الأب سواء في مقابل تعليمه أو زِيه المدرسي، فضلًا عن تناوله وجبتين مجانًا بالمدرسة لخمسة أيام في الأسبوع.

أما أم محمد فقد لطمت وجهها وهي تصيح:

ـ هل جننتَ يا رجل حتى تسلم الواد الحيلة لرهبان الكنيسة؟

تقلصت ملامحه الحادة وهو ينظر لملابسها البلدية المتسخة باشمئزاز، وقال:

ـ جِني لما يجنك يا ولية يا مجنونة، مالنا ومال الكنيسة؟ إنهم سيأخذونه إلى المدرسة لتعليمه وتنظيفه، ألا ترين كيف يبدو تلاميذهم كأبناء الباكوات؟

قالت بنبرة باكية مستعطفة:

ـ أبناء باكوات الأقباط، هل تريد يا أبو محمد أن ينصِّروا ابنك؟

صاح بصوت مَن فرغ صبره:

ـ ماذا تقولين أيتها الجاهلة؟ وهل لم يجدوا سوى محمد لينصِّروه؟

ثم إن أكثر تلاميذ المدرسة مسلمون كما تأكدت بنفسي من عبده سائق الباص.

نكست رأسها مستسلمة، لكنه عز عليه أن يدعها في أمان فقال متهكمًا وهو يصفق باب الشقة خلفه:

ـ وليته يتنصر يا اختي، على الأقل يصبح مثل الخواجات ويتزوج منهم ولا يخيب خيبة أبيه.

لذا لم تشعر أم محمد بالاطمئنان عليه منذ التحاقه بالمدرسة، ورغم زهوها أمام أقربائها وجاراتها بعدما بدأ محمد «يرطن» بالإفرنجي، إلا أنها ما فتئت تزرع في داخله بذور الشك والتنفير من الرهبان ومن زملائه النصارى، فرغم فقرهم وفرح أبيه بتغذيته مجانًا في المدرسة، إلا أنها أخافته من أكل اللحوم هناك خشية أن تكون لحوم خنازير فيسخطه الله خنزيرًا إن أكلها وهو المسلم، كما حذرته من تناول أي طعام أو شراب يقدمه له زميل مسيحي، وقصت عليه قبل النوم حكايات عن الأشرار الذين يذهبون بأطفال المسلمين إلى الكنيسة ليذبحوهم ويصنعوا من دمائهم الخمر الأحمر الذي يشربونه.

وهكذا شب محمد تتنازعه حكايا أمه وتحذيرات استقرت في وجدان غض فصنعت حاجزًا وهميًّا بينه وبين أناس يراهم بوعيه نقيضًا للصورة التي رسمتها لهم.

حتى كان ذلك اليوم، وهو في العام الخامس من دراسته الابتدائية، إذ بينما يلهو في فناء المدرسة ممازحًا زميله بطرس ساخرًا من أنفه المفلطح المرفوع لأعلى وهو يقول له إنه أصبح يشبه الخنازير بسبب أكله لحومها، إذ بصفعة رهيبة مدوية لا مثيل لها تهوي على قفاه فتطيح به لعدة أمتار قبل أن يسقط على وجهه، ثم يلتفت فيجد الأب جورج المخيف بنفسه وبصحبته فرير جون الذي ينقض عليه فيرفعه من الأرض بقوة ويكتف ذراعيه من الخلف بينما يوالي الأب صفعاته القاسية على خديه دون توقف، وتتناثر من فمه بازدراء جميع الألفاظ المستخدمة في السب واللعن والتجريح مصحوبة بفاصل من المن عليه وعلى أهله الذين لم يشكروا فضل مَن آواهم وعلمهم وأطعمهم وكساهم.

انتهت وصلة الضرب والإهانة بانصراف الراهبين وهما يتوعدانه بالويل والثبور إن عاد لمثلها، بينما وقف «الخنزير بطرس» ينظر إليه وعلى وجهه ابتسامة تحدٍّ وتشفٍّ لا تُنسى.

وقد اكتمل القالب الذي حدد ملامح شخصيته بعد العلقة الساخنة التي ذاقها في الليلة نفسها من أبيه، بعدما أخبره الأب جورج بجريمة ابنه! إذ إن ما حدث ذلك اليوم كان كفيلًا بأن يشعل في قلبه الغض حقدًا تجاه «النصارى» الذين أذلوه وأهانوا كرامته لمزحة بريئة مزحها مع زميله، فعلمته التجربة إخفاء مشاعره الحقيقية خوفًا من هؤلاء الأقوياء، وانتظارًا للحظة انتقام تبدو له كحلم غامض يتمنى تحقيقه في يوم ما.

ومن عجب أنه طوال سنوات دراسته بالفرير دأب على مصاحبة المسيحيين دون المسلمين، كأنما أراد، بغير وعي، أن يثبت لشخص

ما «غير معروف» أنه ليس متعصبًا ولا متخلفًا كما نعته الأب جورج، وبردة فعل باطنية تعلق باللغة الفرنسية وتميز فيها تميزًا فاق به أقرانه حتى مَن كان منهم فرنسيًّا أو نصف فرنسي، ما جعله مصممًا على الالتحاق بالقسم الفرنسي بكلية الآداب ليعمل يومًا بالخارجية أو بإحدى الهيئات الأجنبية ليثبت لذلك الشخص «غير المعروف» أنه لا يقل عنه تحضرًا ورُقيًّا.

وفي السياق ذاته تعلم الرقص الغربي بأنواعه، واجتهد لمتابعة الموضات الفرنسية، كما اقتصرت ذائقة مراهقته على الشقراوات فأصبح لا يرى في الفتاة سوى لون بشرتها، ولا يقتنع بأنه من الممكن أن توجد فتاة سمراء وجميلة في آنٍ.

أما مصطفى، فهو صديقه الحقيقي الوحيد، وقد وجد فيه الحل لمعضلة حياته، فهو مسلم بنكهة مسيحية، هو مصطفى وبول، هو مصري بملامح صعيدية أشقر كالأوروبيين، وقد زاده محبة لمصطفى وتعلقًا به ما تميز به الأخير من روح مرحة واستعداد دائم لمؤازرة أصدقائه والوقوف إلى جانبهم وقت المحن وتجاوز أخطائهم، بل وتحمل مسؤوليتهم كأب حنون.

* * *

كانت الساعة تشير إلى السابعة حين وصلوا ميدان سليمان باشا، ساندوتشات من «إكسلسيور»، وكابتشينو من «البن البرازيلي»، وفيلم رومانسي في «سينما مترو»، نزهتهم الأخيرة قبل الامتحانات، بدوا كمَن يودعون مسافرًا لن يعود قبل وقت طويل فحاولوا التمتع لأقصى حد متاح.

أرخى الليل سدوله، وشعرت عزة في داخلها بوخزة ضمير لفوات وقت صلاة المغرب.

تفرقوا عند ميدان التحرير، فاستقل ساكنو الدقي الثلاثة سيارة النقل العام المتجهة إلى هناك، بينما ساير محمد مايكل مترجلَيْن باتجاه جاردن سيتي.

قطع عليه صمته بصفارة استحسان:

ـ كانت اليوم رائعة الجمال!

بدا أن مايكل لم يفق من شروده بعد، فردد جملته بلا تفكير وبنبرة مفعمة بشجن الوداع:

ـ آه.. نعم.. رائعة الجمال.

تنبه الآخر لأزمته فقال متخابثًا:

ـ غلبت الجميع، حتى ميرفت أمين.

ـ مَن؟

نطقها كما لو أن شيئًا وخزه فأفاقه من شروده.

ـ نجلاء فتحي بالطبع، هل كنت تقصد أحدًا آخر؟

ـ لا لا، نجلاء فتحي، نعم كانت الليلة في أحلى أدوارها.

ـ لكنك لم تكن متنبهًا للفيلم بدرجة كافية.

أشاح بوجهه في حركة تدل على عدم الاستعداد لخوض هذا الموضوع، لكن هيهات، فقد غيَّر محمد نبرته الساخرة قائلًا بجدية:

ـ أنت تحبها يا مايكل، فلمَ تنكر ما هو ظاهر كالشمس؟

بدا على وجهه الفزع، فاستدار إليه قائلًا برجاء:

ـ ماذا تقصد؟ هل ما زال في جعبتك المزيد من المزاح؟

ـ لست أمزح، ونحن صديقان منذ سنوات، فلماذا تُخفي عني هذا الأمر كأنك لا تثق بي؟

استعاد تماسكه وقرر أن يناور وهو يقول:

ـ ليست مسألة ثقة، لكني حقيقة لا أعرف مَن تقصد.

ـ أقصد عزة، هل تعتقد أن ارتباطكما ممكن؟

استفزه السؤال الاستنكاري، فأجاب بنوع من التحدي:

ـ وما المشكلة؟ إذا كنت تقصد اختلاف الدين فأنت تعرف أن كلينا غير متدين ونعيش حياة اجتماعية متشابهة، أنا شخصيًّا أعرف حالات مماثلة وارتباطهم ناجح.

عز على الآخر أن يفوت عليه غرضه، فقال بنبرة قاسية:

ـ الحقيقة أنني لم أقصد هذا، وأظن أنها مثلك لا تهتم بالدين وإنما تهتم بشيء آخر.

ـ ماذا؟

ـ إسماعيل!

ـ ماذا قلت؟ إسماعيل؟ هل تعني أن عزة يمكن أن تخاف من هذا الشخص؟ أنت إذًا لا تعرفها جيدًا.

ـ أنا لم أذكر سيرة الخوف، ولكن «اللي ما يشوفش م الغربال يبقى أعمى» كما تقول خالتك أم محمد.

مايكل ضاحكًا بعصبية وقد تقلصت شفته السفلى من فرط التوتر:

ـ ما أوسع خيالك يا صديقي، لماذا لا تمتهن كتابة أفلام للسينما؟ فأنا أتوقع لك نجاحًا باهرًا في هذا المجال.

كانا قد وصلا إلى مفترق طريقهما، فقال محمد ساخرًا وهو يتحسس قفاه:

ـ «بكره نقعدع الحيطة ونسمع العيطة» كما تقول خالتك أم محمد أيضًا.

* * *

ـ ما رأيكِ في شوب عصير قصب قبل الذهاب؟

ـ أُفضل المانجو كما تعلم.

ـ لكنكِ لم تجربي القصب، وكل ما ليس مجربًا فهو مجهول.

ـ لا أحب التجارب، أُفضل ما تعودت عليه خاصة ما يتعلق بالمزاج.

ـ إذا كانت مشاعر الإنسان قابلة للتغير، كما رأينا في فيلم الليلة، فمزاجه من باب أولى.

ـ خيانة المحبوب هي التي جعلت البطلة تكرهه، لذا كانت مشاعرها مهيأة لاستقبال شخص آخر.

ـ إذًا التغيير ممكن بصرف النظر عن السبب.

ـ لكن المانجو لم يسئ لي وهو مشروبي المفضل.

ـ للقصب فوائده الكثيرة ولن تندمي إن جربتِه.

ـ لا يعجبني منظر رغاوي القصب الفائرة أعلى الكوب، ربما يعجبكَ شبهه بالبيرة.

ـ لكني لا أشرب البيرة.

ـ لذا تجد في القصب تعويضًا.

ـ ولست في حاجة لتعويض، فشُرب البيرة وباقي أنواع الخمور متاح لي كما تعلمين.

ـ لماذا إذًا تفضل عصير القصب؟

ـ لأنه لذيذ.

ـ المانجو أيضًا لذيذ.

ـ بينهما فرق السماء والأرض.

ـ عجيب يا بول، ذوقكَ بلدي رغم أنك نصف إيطالي.

ـ بون نوي زوزًّا.

ـ بون نوي بول.

(١٠)

ضمهم ظاهريًّا مكان واحد، غير أن صمتًا عميقًا خيم عليهم، فانصرف كلٌّ بفكره إلى عالم بعيد عن جليسيه.

جلست حكمت على المقعد يمين الداخل، متكئة بظهرها إلى المسند، وعيناها ترنوان لمدخل الردهة الموصلة لحجرة المريض، بينما جلست عزة على المقعد المقابل، مرتكزة بمرفقيها على فخذيها حاملة رأسها المنكس بين راحتيها، أما إسماعيل فقد وقف موليًا إياهما ظهره متسمرًا كعادته أمام الصورتين المعلقتين في منتصف حائط الصالة.

كانت سهام مع الطبيب في حجرة المريض المغلقة، بينما قبع الصغار في الداخل فلفَّ المكان صمت ضاعف الإحساس بطول فترة الانتظار.

تمتمت بصوت غير مسموع: يا رب سلم! عكست ملامحها قلقًا متصاعدًا خاصة أنها كانت تزوره لأول مرة منذ ليلة ضربته الأزمة.. ربنا لا يحرمنا منك يا عبد المنعم.. يا عبده! رغم كل المحيطين فأنت الأقرب، السند الحقيقي بعد رحيل محمد، الرجل الشهم الذي ما مرت بنا أزمة إلا وجدته بجواري، الوالد الأحن على ولديَّ اليتيمين من كل الأعمام والأخوال.. لو كانت قلوبنا بأيدينا يا عبده.. أشعر بما سببته لك من أحزان لكننا لا نختار أقدارنا.. لو أنك انتظرت قليلًا.. لكن مهلًا، فسهام رغم عصبيتها طيبة القلب وتحبك وها هي أهدتك ثلاث عرائس جميلات وعادل الصغير.. آه يا عبده ما أشد إخلاصك! عادل عبد المنعم عياد، على اسم الحبيب الشهيد، شب الأبناء معًا تحت رعايتك وكنت دومًا الأب الذي يتابع ويوجه ويقدم في المدارس ويحضر مجالس الآباء وحفلات التخرج، وقفت كحائط صد ضد نوائب الزمان حتى أصابتك النائبة بجراحها فترنحت وسقطت صريعًا.. مسكين يا عبده فطعنات الغدر كانت قاسية وما أشد وطأتها على المخلصين.. ربنا يسلم لنا عمرك يا غالي.

رفعت رأسها من بين راحتيها فوجدت الآخرين ما زالا على صمتيهما، فعادت لوضعها الأول وهي تتنهد.. أعرف كم يحبكِ ويستريح في حضورك.. هذا الحنان المنسكب من عينيك وأمومة تلف الجميع.. كم غبطتُ إلهام وإسماعيل عليك وأنا أفتقد الفهم والاحتواء.. أشب فلا أجد غير أوامر ونواهٍ لا تحتمل المناقشة فأفر لحضنك الدافئ حيث يتدفق نهر عطاء لا ينضب.. عبير وجودك سيساعده على الشفاء فلا تتخلي عنه.. تُرى ماذا كان من أمركما

قديمًا؟ سألته ممازِحة ذات يوم فزجرني زجرة حنان حاسمة كزجرك ولدَيْك، لشد ما تتشابهان، تُرى هل يجمعني بهذا الصامت المتصلب كصخرة شبه ما؟

تعلقت عيناه بالصورتين المعلقتين على الحائط، تلك الصورة القديمة للزعيم وقد وُضع على حافتها العلوية شريط أسود، وصورة أصغر علقت منذ سنوات أسفل منها تضم العقيد عبد المنعم عياد وقد وقف مشدودًا رافعًا يُمناه بالتحية العسكرية للقائد الأعلى للقوات المسلحة، بينما ينظر إليه ناصر وقد علت وجهه ابتسامة الزعامة الواثقة، «قول ما بدا لك إحنا رجالك ودراعك اليمين، عبد الناصر يقول».. الزعامة لا تُباع ولا تُشترى، كاريزما طاغية لا يختلف عليها اثنان ولا يجادل فيها عدو أو صديق.. ما أروعك يا دكتور صالح، ما زلت أستشعر كلماتك القوية الحاسمة وأفكارك المحددة الواضحة تزلزل كياني وتضعني أمام مسؤولية جسيمة قُدر لي أن أهبها ما بقي من عمري، ها هو الهدف يتجسد أمامي واضحًا لا لبس فيه.

رفع عينيه إلى الصورة العتيقة التي طالما تطلَّع إليها صغيرًا، كنتَ على حق، فلا بديل عن حركة من داخل الجيش تمسك بمقاليد السلطة لكن لتقودها ـ هذه المرة ـ في الطريق الصحيح، لقد صححتم الوسيلة، أما نحن فسوف نصحح الوسيلة والغاية معًا.

خرج الدكتور زكريا من الحجرة تتبعه سهام، فالتفوا حوله مستفسرين عن تطورات الحالة، ولما طمأنهم وانصرف دُعي الضيفان لزيارة المريض.

صعدتْ إلى الوجه الشاحب دفقات دماء طازجة، فتبسمت عزة بارتياح وهي تأخذ مكانها بجانبه في الفراش، بينما جلست حكمت على مقعد بجوار السرير، وجلس إسماعيل على كرسي صغير في مواجهة المريض.

مرت دقائق المجاملات التقليدية قبل أن يأتيهم صوت بكاء عادل الصغير طالبًا رضعته، فاستأذنت سهام في الذهاب ليتنفس اثنان منهم على الأقل الصعداء، قالت بنبراتها الندية وهي تبتسم بإشفاق:

ـ ها هو الدكتور يؤكد مرة أخرى أن سبب الأزمة هو الانفعال الزائد مع الأحداث.

أومأ برأسه موافقًا وهو يقول:

ـ لعلها ضريبة الإخلاص كما قال لي يومًا.

تورد وجهها واتسعت ابتسامة عزة، فالتفت هو إلى إسماعيل متسائلًا بلهجة مختلفة:

ـ كيف حالك يا إسماعيل؟ أظنك وقد أوشك العام الدراسي على الانتهاء قد حددت التخصص الذي تنوي دراسته العام المقبل.

أجاب بسرعة حاسمًا الأمر كعادته:

ـ قسم كهرباء إن شاء الله يا عمي.

ـ عدلتَ إذًا عن إكمال الطريق الذي اختاره خالد قديمًا لدراسة الميكانيكا؟

ـ نعم، فالمستقبل مفتوح أكثر لتخصص الكهرباء، وقد استهوتني القراءة الحرة في موضوعات الإلكترونيات والاتصالات، فسرعان ما تحدد الهدف أمامي وقررت الالتحاق بقسم الكهرباء.

كانت تتابعه وهو يتحدث بلهجته الحاسمة، وفي لحظة صمت تناولت طرف الحديث قائلة دون مقدمات وعلى غير انتظار:

ـ حدث بالأمس شيء غريب جدًّا حين كنا في السينما!

تطلعت إليها الوجوه فأكملت:

ـ بمجرد ظهور السادات على شاشة الجريدة المصورة انتفض أكثر جمهور الصالة وقوفًا ودوت القاعة بتصفيق حاد.

رمقتها حكمت بنظرة عتاب، إلا أن عبد المنعم قال بهدوء وبنبرة ساخرة:

ـ طول عمره ممثل قدير، فلعل هذا الإحساس انتقل للناس الذين ذهبوا لحضور فيلم سينمائي فإذا بهم أمام فيلم واقعي أكثر إثارة.

ضحكوا جميعًا، فشجع ذلك عزة على أن تقول:

ـ لا شك أن انتصار أكتوبر غيَّر كثيرًا من رؤية الناس له فحل الإعجاب والانبهار محل الاستخفاف القديم.

كانت تفهم أباها، وتعرف أنه لا يكره السادات بشكل شخصي، وأن أفراح النصر العسكري أزالت من نفسه الأثر السيئ الذي خلفته أحداث عام ١٩٧١ فأرادت بحديثها أن تنقله إلى تلك الحالة المعنوية الرائعة التي عاشتها معه في أكتوبر الماضي.

غير أن لهيبًا حارًّا خرج من صدره وهو يتنهد بأسى، ثم يعلق على كلامها:

ـ الجماهير لا ترى عادة إلا ما يُراد لها أن تراه، أما ما يجري في كواليس السياسة حاليًّا فإنه يسحب البساط من تحت أحلامنا الوطنية ليعيد البلد لنقطة الصفر من جديد.

أشفقتْ عليه من الاسترسال في حديث السياسة فهمَّت بتغيير الموضوع، إلا أن ابنها اندفع متسائلًا باهتمام بالغ:

ـ ماذا تقصد يا عمي؟

ـ أقصد جريمة فك الاشتباك، فمَن يصدق أن يوافق القائد الأعلى للقوات المسلحة على أن يسحب، ودون أي تنازلات من جانب العدو، جميع الوحدات المدرعة من شرق القناة دفعة واحدة بعد كل العناء والتضحيات التي قدمتها قواتنا لعبورها؟ لقد أخبرني اللواء عزوز حين زارني صباح اليوم كيف انهمرت دموع كبار القادة وهم يتلقون الأمر الأحمق بالانسحاب.

تمتم إسماعيل غاضبًا:

ـ خيانة جديدة.. خيانة جديدة.

فاسترسل عبد المنعم وقد عكست ملامحه يأسًا مريرًا:

ـ الأصابع الأمريكية بدأت تلعب من وراء الستار، والظاهر أن مجيء «هنري كيسنجر» لمصر كان مخططًا له منذ وقت طويل، ربما حتى من قبل حرب أكتوبر!

تذكر إسماعيل ما سمعه من بعض الإخوة أن الدكتور صالح أبلغهم قبل شهور من الحرب أن هناك مفاوضات سرية تتم بين السادات والأمريكان عن طريق «حافظ إسماعيل» مستشار الأمن القومي، فبدأت الصورة تتضح أمامه، إنها الخيانة على جميع الجبهات، سيناء والضفة والجولان، الشعوب تصفق فرحًا والخونة يقبضون الثمن.

أفاق على صوت عبد المنعم وهو يقول:

ـ محكمة التاريخ لن ترحم.

همَّ بالتعليق فأخرسته نظرة خضراء صارمة، وإذ عادت سهام إلى الحجرة تحمل رضيعها فقد آنَ للحوار أن يأخذ مسارًا آخر، فالتفت عبد المنعم إلى حكمت متسائلًا:

ـ كيف حال إلهام؟

ـ بخير والحمد لله، تُبلغك سلامها حتى تصعد لزيارتك.

فسألتها سهام:

ـ هل قررا بالفعل السفر إلى السعودية؟

ـ الأمور تسير في هذا الاتجاه، وإن كان خالد ما زال مترددًا بين الموافقة إرضاء لها وبين رفضه لأن يرحل بعيدًا عن مصر بل حتى عن العزبة.

قال عبد المنعم:

ـ أنا متفق تمامًا مع خالد، ولا أفهم سبب رغبة إلهام في السفر للسعودية، فكيف يترك الإنسان بلده وأهله ليعيش في الغربة بين قوم يختلفون عنه في عاداتهم وتقاليدهم ونمط حياتهم؟

فقالت سهام بحدة:

ـ الجميع يسافرون للعمل ثم يعودون إلى بلادهم محملين بالمال الوفير، وهل سيهرب البلد إن سافرنا لعام أو عامين؟

ثم استطردت بعتاب خارج عن سياق الحديث:

ـ لو كنتَ وافقت على العرض الذي جاءك للسفر إلى ليبيا بعد خروجك من الجيش لما ظل حالنا كما هو الآن.

تقلصت ملامحه وأشاح بوجهه عنها صامتًا، وامتقع وجه عزة، بينما قالت حكمت للتغطية على حرج الموقف:

ـ على العموم سوف يزورنا الليلة الشيخ صالح العقاد ليجلس معهما حتى يصلوا لحل، وأعتقد أن وجوده سيحسم الأمر، فهو في مكانة الوالد بالنسبة لخالد، كما أن إلهام تحبه وتثق في رأيه.

أومأ عبد المنعم برأسه وقد أغمض عينيه قليلًا، فتضاعف في حسه الفارق الهائل في نبرة الصوت بين المرأتين.

* * *

يتعانقان عناق التربة الخصبة لنبتة ريانة انبثقت للتو عنها، تضرب بجذورها في أعماقها بينما يتطلع أعلاها إلى السماء.

يتشمم فيه عبق طفولته، ونسائم الحاج علي بزمانه السخي وحنانه المتدفق، وذلك العبير الطيب الغامض لرياح محبة تهب من مكان علوي فتستكين لها الأرواح وتأنس القلوب، وذكريات نُقشت على صخرة طفولة لا تُمحى للقاءات ندية، وتلاوة آيات قرآنية ليست ككل تلاوة ولو صدرت عن مذياع في بيت طنطا العتيق، فهي إذ تلقى قلوبًا خاشعة ونفوسًا مطمئنة وعزائم متوثبة فإنها لا تبقى مجرد حالة صوتية بل تصبح تنزيلًا حيًّا تشعر معه كأن الوحي يتنزل اللحظة على أفئدة المتلقين، ما زالت تتردد في أحضانه الفسيحة أصداء تلك الأوراد القديمة ومأثورات الرسائل، شكلت وجدانه وكونت خلفية ثابتة لصور متجددة.

أما الشيخ صالح، فيرى في إسماعيل امتدادًا لدعوة وَلُودٍ لا يغيض ماؤها، وفرعًا غضًّا نديًّا في بستان دعوة وقودها الشباب، كما كان يقول الإمام الشهيد، وكم أوصاهم ـ طيب الله ثراه ـ بالشباب، وهو إذ يحتضنهم ويتواصل معهم فإنما يمدهم ويستمد منهم القوة الحقيقية للإخوان: الامتداد.. الامتداد.

تجمعوا في حجرة الاستقبال المفتوحة يرحبون بالضيف الأثير، بدت إلهام مشرقة على غير عادتها في الفترة الأخيرة، وقد ارتدت فستانًا طويلًا فستقي اللون ولفت حول رأسها إيشاربًا من الشيفون الأخضر بلون عينيها زادها حسنًا، وأخذت تتنقل بنشاط بين المطبخ والصالون لتقديم الحلوى والمشروبات.

احتل الشيخ صالح مكانه في منتصف الكنبة الرئيسية المواجِهة للباب، يحوطه من الجانبين خالد وإسماعيل، بينما جلس يسري الجوادي على مقعد إلى يمين خالد وأخذت حكمت مكانها في الجهة المقابلة، وقد تُركت النافذة خلفهم مفتوحة فلاحت ظلمة المساء، وهبت نسائم منعشة أزاحت عن صدورهم ما تسلل إليها خلال ساعات النهار من أتربة خماسينية أبريلية خانقة.

بدت الجلسة ودودًا مبهجة، خاصة بعدما وافق خالد أخيرًا على السفر للعمل في شركة يملكها أحد قدامى الإخوان الذين هاجروا من مصر في أواخر الخمسينيات، حيث استقر في الرياض وحصل على الجنسية السعودية.

وها هو الشيخ صالح يجيب عن سؤال أحدهم بشأن تطورات تشطيبات الشقة التي ابتاعها حديثًا بمدينة نصر، فعلق يسري قائلًا:

ـ المنطقة جميلة رغم أنها ما زالت بِكرًا قليلة الخدمات، لكن شوارعها الواسعة تبهج النفس، حتى بدأت أفكر في الانتقال إليها هربًا من زحام الجيزة وضوضائها.

الشيخ صالح مؤمنًا على قوله:

ـ أعتقد أنه لن يمر وقت طويل حتى تستكمل المنطقة مبانيها

ومَرافقها لتصبح رئة جديدة للقاهرة التي أصبح الزحام فيها خانقًا.

ابتسمت حكمت برضا، وهي تقول:

ـ أجمل ما في الموضوع أنك ستكون قريبًا منا يا عم الحاج...

ثم متسائلة وقد تذكرت أمرًا:

ـ لكن كيف وافقت الحاجة عليَّة أن تترك بيتها في طنطا لتستقر هنا؟

أجابها وهو يضحك حتى اهتزت لحيته البيضاء الكثيفة:

ـ حملها على الموافقة رغبتها في القرب من الأبناء والأحفاد ومن الأطباء أيضًا، لكنها اعترضت طويلًا في البداية وظلت تردد: هل اشتقنا يا ربي لأيام السجن الحربي حتى لا نجد مكانًا للسكنى إلا في جواره؟

سأله إسماعيل مندهشًا:

ـ السجن الحربي؟

ـ نعم يا بني، فسبحان مَن له الدوام، لقد شاءت أقدار الله أن يخرج الإخوان من المعتقل الرهيب الذي لاقوا فيه أهوال العذاب وأن يصبحوا مُلاكًا للأراضي المحيطة به، وما عمارة الأخ المتولي التي شاركناه فيها إلا واحدة من العمائر التي سيبنيها الإخوان في المنطقة لكي تصبح شهادة للتاريخ عمَّن بنى وعمَّر ومَن خرَّب وعذَّب وأباد.

هز خالد رأسه معتبرًا، وقال:

ـ لعلها إحدى حسنات حكم السادات.

همَّ إسماعيل بالاعتراض، لكنه عدل في اللحظة الأخيرة إشفاقًا

أن يفسد عليهم صفاء جلستهم، بينما أمَّن الشيخ صالح على ملاحظة خالد قائلًا:

- الحقيقة أن الرجل منذ توليه الحكم وهو يحاول قدر الإمكان أن يمحو آثار جرائم ذلك الهالك البائد.

قال يسري:

- لعله يريد أن يكفِّر عن خطايا نظام كان جزءًا منه بشكل أو بآخر، المهم أنه ينحو ناحية الإصلاح.

إسماعيل معلقًا على قول يسري بلهجة متخابثة:

- وهل يمكن أن يتم إصلاح نظام فاسد بنفس العناصر التي ساهمت في إفساده؟

أجاب الشيخ صالح بأسلوبه المبسط وبأريحية تجاهلت قصد المشاغبة الكامن وراء استفسار إسماعيل:

- يمكن يا بني إن صلحت النوايا، ولا تنسَ أن السادات نفسه عانى من المجرمين الذين أذاقونا الويل، وقد حاولوا الانقلاب عليه وتصفيته بعد شهور قليلة من توليه الحكم لولا عناية الله التي نصرته عليهم.

زمَّ إسماعيل شفتيه مستيئسًا، بينما قال يسري كأنه يُكمل جملة الشيخ صالح:

- وها هو يغلق السجون ويفتح للناس أبواب البحث عن لقمة العيش الشريفة وأن يتنفسوا ويعبِّروا عن دواخلهم بعد سنوات الكبت الطويلة، وتكفي شهادة له المقالات الصحفية والكتب التي تروي أهوال السجون والمعتقلات والتي سمح بنشرها دون غضاضة.

قال إسماعيل وقد نفد صبره:

ـ لكن يا أخ يسري، ألا ترى وراء كل تصرفاته هدفًا واحدًا هو تصفية نظام عبد الناصر الذي قرر الانقلاب عليه بصرف النظر عن المستفيد من هذا الانقلاب؟

كانت إلهام تتهيأ للجلوس بعد أن ناولت الشيخ فنجان قهوته، فقالت ضاحكة وهي تعلق على ملحوظة إسماعيل:

ـ يعني عدو عدوي صديقي، أليس كذلك؟

أجاب إسماعيل بلهجة متوثبة:

ـ تمام، فهو يحاول أن يجمع حوله أكبر عدد من ضحايا عبد الناصر بصرف النظر عن انتماءاتهم أو توجهاتهم أو تاريخهم أو حتى عداوته السابقة لهم.

هز الشيخ صالح رأسه موافقًا، ثم قال:

ـ هذا واضح يا إسماعيل، ونحن لا ننتظر ملائكة من السماء لنتعامل معهم، لكن إذا كانت الظروف مواتية فما على الإخوان إلا أن يقتنصوها ليُكملوا مشوار دعوتهم.

تساءل خالد بنُبل ساذج:

ـ لكن ألا يُعد هذا نوعًا من التحالف مع الشيطان كما يقولون؟

رد الشيخ صالح بلهجة عتاب حانية تستهدف الاحتواء:

ـ لا يا بني وإنما هو التعامل مع الواقع دون إفراط أو تفريط، والإخوان لم يكونوا يومًا طلاب دنيا أو منافع شخصية، وإنما عملنا لوجه الله وخير الناس، وهناك فارق كبير بين التحالف مع شخص أو هيئة من الهيئات والعمل لحسابها، وبين التعاون بغرض الإصلاح.

حاول إسماعيل أن يسيطر على نبرات صوته وهو يوجه كلامه للشيخ متسائلًا:

ـ وكيف ترى يا عمي وسائل تحقيق هذا الإصلاح؟

أجابه الشيخ بلهجة صبور متأنية، ولمَّا تزايل الابتسامة الهادئة شفتيه:

ـ بالتعاون مع الجميع وبذل النصح والإرشاد.

لم ينبس إسماعيل، وقفزت لذهنه في تلك اللحظة جملة كررها «صالح سرية» أكثر من مرة: «لو أن معي مائة فرد لهم إيمان أهل بدر لكان هذا كافيًا لتغيير النظام».

لمحت حكمت تغير ملامحه، فأسرعت باختطاف الحديث قبل أن ينطق لتنطلق به إلى وجهة بعيدة أرادتها هي:

ـ على كل حال لقد خرج الإخوان من السجون والحمد لله، وها هم يعودون للحياة من جديد وكثير منهم ترك البلد بما لها وما عليها.

تنبهت إلهام لمقصد أمها، فأسرعت تقول:

ـ وصلتني رسالة من زوجة الأخ عبد الرحيم هلال تمتدح الحياة في الرياض، وقد أدوا فريضة الحج هذا العام مع مجموعة كبيرة من المصريين المقيمين هناك.

شعر خالد بالقلق لانحراف الحديث نحو هذا الموضوع رغم حسمه، ولما أحس يسري بما اعتراه قال مطمئنًا:

ـ المدن السعودية أصبحت الآن كأنها مدن مصرية تمامًا، فأكثر العاملين بها مصريون وقد سمعت أن المصري يمضي أعوامًا

هناك فلا يحتاج للتعامل إلا مع مصريين من أطباء ومدرسين وتجار وعمال، مما قضى على شعور الغربة الذي عاناه مَن فروا إلى هناك خلال سنوات الخمسينيات والستينيات.

تساءلتْ حكمت باستنكار:

ـ وهل يشعر بالغربة مَن يجاور بيت الله الحرام ومدينة رسوله صلى الله عليه وسلم؟

رددوا بصوت واحد صيغة الصلاة على رسول الله، وهبت من النافذة المفتوحة نسمات ليل أبريل الندية فسرى بينهم شعور بالسكينة والارتياح.

وفي لحظة صمت تنبه إسماعيل إلى صوت طرقات خفيفة متقطعة على باب الشقة، فقام ليفتح.

ـ وائل؟ تفضل يا أخي.. تفضل بالدخول.

وضع الشاب الواقف بجوار الباب بعيدًا عن أعين الناظرين إصبعه على شفتيه محذرًا، ثم ابتعد أكثر مشيرًا لإسماعيل أن يتبعه صامتًا، فأغلق الأخير الباب وراءه متجاهلًا نظرة يسري المتسائلة حين التقت أعينهما، وهبطا السلم مسرعَيْن حتى وقفا معًا في بئر السلم المظلم، فهمس وائل:

ـ أنصت إليَّ جيدًا فالوقت ضيق، عليك أن تحرق كل الكتب والأوراق وأرقام التلفونات الموجودة لديك، وأن تمتنع تمامًا عن زيارة أي فرد من الجماعة أو الاتصال به.

كان يتحدث بسرعة وبنبرات لاهثة، ولما همَّ إسماعيل بالضغط على مفتاح نور السلم قبض وائل على يده بقوة ليمنعه، فسأله إسماعيل بفزع:

ـ ماذا هنالك يا وائل؟
ـ قبضوا على المجموعة كلها!
ـ مَن؟
ـ كارم وطلال والهلاوي والجميع.. الجميع.

صرخة مكتومة انطلقت من صدر إسماعيل وهو يسأل متخوفًا من الإجابة:

ـ والدكتور صالح؟
ـ لا أعرف، لكن من المؤكد أنهم سيقبضون عليه وعليَّ أنا أيضًا ربما خلال ساعات، لذا جئت لأحذرك كي تعدم كل الأوراق وتكون مستعدًّا لإنكار أي علاقة لك بأفراد الجماعة، وإذا اتصل بك شخص تلفونيًّا باسم أحدنا فعليك أن تتظاهر بعدم معرفته، لأن أحدًا منا لن يتصل خلال المرحلة المقبلة بالآخرين تلفونيًّا، فهمت يا إسماعيل؟
ـ نعم يا وائل فهمت، لكن ماذا ستفعل أنت الآن؟
ـ لا أعرف.. لا تسأل! في هذا الموقف يصبح على كل منا أن يكون همه النجاة بنفسه وحماية الآخرين بكل وسيلة.

همَّ إسماعيل بالحديث، فبسط وائل كفه على فمه قائلًا:

ـ ليس الآن يا أخي، أستودعك الله.

أسرع نحو الباب، فأسرع إسماعيل في عقبه وقبض على كتفيه محاولًا استبقاءه قليلًا، فربت الآخر على يده وهو يتملص منه، ولما همَّ إسماعيل باحتضانه مودعًا، قال وائل بلهجة حاسمة باردة:

ـ لم يعد هناك وقت...

ثم استطرد بنبرة ودود:

ـ أوصيك يا أخي بتقوى الله، وإلى لقاء لنا على هذه الأرض أو هناك.. هناك.

قالها وهو يشير بإصبعه لأعلى، ثم انطلق مسرعًا.

تابع إسماعيل بنظراته خطوات الراحل حتى لفه ظلام مطبق وهو يبتعد مستظِلًا بجدران المنازل خشية العيون، تسمر في مكانه طويلًا وقد تعلقت عيناه بآثار قدميه على الطريق ففاضت بدمع ساخن غزير.

اغتراب

«الطريق مُظلم حالِك، فإن لم نحترق أنا وأنت فمَن سيُنير الطريق؟»

آرنستو «تشي» جيفارا

(١)

يبدو للوهلة الأولى كأن شيئًا لم يتغير.

ها هي ساعة جامعة القاهرة تدق معلنة تمام العاشرة والنصف صباحًا، أفواج من الطلبة والأساتذة والباحثين تدخل وتخرج من الباب الرئيسي الكبير، وها هي عزة تتأبط ذراع صديقتها منى خارجتين من الباب، ثم مهرولتين عند عبورهما شارع الجامعة وسط طوفان من السيارات المسرعة في الاتجاهين.

لكن مهلًا...

الظاهر أن شيئًا ما قد تغير! فليس رأس منى وحده المغطى بإيشارب يلتف حول عنقها، وليست الوحيدة التي ترتدي جونلة طويلة ينتهي طرفها عند كاحليها، بل إن رؤوسًا وأجسادًا عديدة لطالبات الجامعة مغطاة.

يمكن بسهولة ملاحظة أن ما يزيد على نصف عدد الطالبات يرتدين إما رداء على نمط غربي كالذي ارتدته منى مع تغطية تامة للرأس والذراعين والساقين، وإما جلبابًا طويلًا فضفاضًا مع خمار سميك يغطي الرأس والصدر ويقف عند الخصر أو أسفل منه قليلًا، وإما

إسدالًا أسود اللون مع نقاب وقفازين وجوربين أسودين فلا يظهر مما ترتديه سوى العينين فقط.. إنها بالفعل ثلاثة أنماط من الألبسة ما كان لها وجود قبل سنوات.

عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ ظهر على استحياء إيشارب هنا أو هناك في كلية الطب أولًا، ثم أخذ ينتشر في سائر الكليات ببطء، على نمط مشابه لذلك الذي كانت ترتديه نساء الإخوان منذ أربعينيات القرن العشرين - إيشارب صغير وفستان أو جونلة تقف في منتصف الساق مع جورب داكن طويل - ومع تزايد النشاط الإسلامي داخل الجامعة وإقامة العديد من الندوات الثقافية التي حاضر فيها بعض علماء الشريعة وقيادات الإخوان بعد خروجهم من السجون، فضلًا عن معارض الكتب الإسلامية وأشرطة الكاسيت والملابس التي أقامتها الجماعة الإسلامية داخل الجامعة، فقد انتشر الزي الشرعي بين الطالبات انتشارًا واسعًا، ومعه انتشرت اللحية الطويلة بين الطلبة.

بدا الأمر في البداية مدهشًا، ثم ما عادت أي من الظاهرتين تسترعي الانتباه.

ربما كانت كلية الإعلام هي آخر كليات جامعة القاهرة شهودًا لهذه الظاهرة، وربما كانت منى هي أول مَن ارتدت الحجاب في الكلية، فبدا منظرها مثيرًا للفضول بل وللرفض الصريح داخل كلية يتأهل طلبتها للعمل في الصحافة والتلفزيون.

عبَرت الصديقتان شارع الجامعة، ومضتا باتجاه تمثال نهضة مصر.

كان الجو شديد البرودة في تلك الساعة المبكرة، وأخفقت شمس

الصباح في إرسال أشعتها الدافئة خلال سرب الغيوم الداكنة المتراصة في سماء تنذر بالمطر.

أغلقت منى أزرار الجاكيت الصوفي الذي ارتدته فوق الجونلة الطويلة وأحكمت ربط الإيشارب فوق رأسها خشية أن تطيح به الرياح الباردة، كانت ترتدي إنسامبلًا أنيقًا من الصوف البني الفاتح، وغطاء رأس حريريًّا منمنمًا بدرجات البني والوردي أبرز طفولية ملامحها ونصاعة بشرتها، أما عزة فقد ارتدت بنطلونًا بلوجينز ملتصقًا بجسدها، فوقه بلوفر هاي كول مزخرفًا بدرجات اللونين الأزرق والرمادي، وجمعت خصلاتها الطويلة خلف رأسها على شكل ذيل الحصان بتوكة فضية جميلة.

لا يحتاج الأمر سوى نظرة واحدة لملاحظة أن ملابس الصديقتين الأنيقتين مستوردة من الخارج، بل إن نظرة إلى الشارع تكشف أن عديدًا من السلع المستوردة ـ ليس الملابس فحسب ـ عرفت طريقها إلى شعب اكتفى لنحو عشرين عامًا بما يصنعه محليًّا، باستثناء بعض السلع التي كان يجلبها العاملون بالخارج في إجازاتهم أو تلك المهربة من الجمارك بمعرفة «تجار الشنطة» والتي كانت تباع في أماكن معلومة وبدت وقتها كاستثناء على قاعدة «صنع في مصر»!

ـ اليوم هو الأخير لي في الكلية، وسأكتفي بالمذاكرة حتى موعد الامتحان.

هكذا قالت عزة وهي تحشر يديها في جيبَي بنطلونها طلبًا للدفء، بينما طوَّحت حقيبتها السوداء المعلقة على كتفها إلى الخلف، ولم يبدُ

على منى اكتراث بمقولة صديقتها، إذ اعتادت هذه التصريحات المتسرعة التي تعقب عادة إحساسها بالملل من بعض المحاضرات النظرية الجافة، لذا سألتها بهدوء:

ـ وماذا عن لقاءات الطلبة بكبار الكُتاب؟

أجابت عزة، وقد تبدلت لهجتها الملول فداخَلَها بعض حماس:

ـ هذا بالطبع شيء آخر، فلقاء مع «مصطفى أمين» مثلًا يساوي مائة محاضرة من التي يصدعون بها رؤوسنا.

قالت منى مدفوعة بالرغبة في الثرثرة أكثر من رغبتها في إقناعها بشيء ما:

ـ لكن غير معقول أن تنقطعي عن المحاضرات قبل الامتحان بخمسة أشهر، خاصة ونحن في العام النهائي.

عزة بلا مبالاة:

ـ لقد اجتزت امتحانات الأعوام الثلاثة الماضية بنجاح، ثم إن عملي في المجلة يحتاج الساعات التي أجلس فيها كبلهاء أمام محاضرين لا يعلمون شيئًا عن الصحافة الحقيقية ولا يستطيعون إجراء تحقيق صحفي بشكل سليم.

منى متضاحكة:

ـ لقد ضمنتِ العمل سواء حصلتِ على البكالوريوس أم لا بفضل إعجاب زهير عبد الله الذي توسط لكِ في أهم مجلة مصرية.

لم تكن عزة راغبة في مسايرة مزاح صديقتها، فتنهدت بعمق وهي تقول بنبرة حزينة:

ـ الحقيقة يا منى أن هذا العمل جاء في الوقت المناسب، فحاجتي

للمال لا تقل عن حاجتي للتدريب الصحفي، ورغم قلة المكافأة التي أحصل عليها فإنها تكفي لشراء الكتب وبعض الملابس لأخفف العبء عن بابا مع الارتفاع الرهيب في أسعار كل شيء.

أنصتت منى إليها دون تعليق، فقد أظهر العامان الأخيران فروقًا ملحوظة في الحالة المالية لأسرتيهما، إذ فضلًا عن امتلاك والد منى قطعة أرض زراعية في قريته تدر عليه دخلًا إضافيًّا كان داعمًا له في السنوات الأولى التي تلت عزله من القضاء، فإن ذلك العزل ـ الذي بدا أول الأمر بمثابة كارثة اجتماعية واقتصادية ـ فتح أمامه أبواب الكسب الواسعة من عمله في المحاماة، حتى إنه لما حصل على حكم قضائي بعودته للعمل فيمَن عادوا رفض ترك المحاماة التي حقق فيها شهرة ونجاحًا مكتفيًا بالحصول على التعويض المالي الذي حكم له به القضاء.

أما العقيد عبد المنعم عياد فقد رفض الاستفادة من فرص العمل التي أتاحها الرئيس الليبي «معمر القذافي» لضحايا السادات لعدم قدرته نفسيًّا على مغادرة معشوقته «مصر» إلى أي مكان آخر في العالم، واكتفى في البداية بأن يرأس إدارة الأمن بالنادي الأهلي، وهو المكان الذي هيأته له صداقته القديمة بأحد أعضاء مجلس الإدارة، غير أنه بمرور الوقت شعر باكتئاب شديد لأن يُحال بينه وبين حلم حياته في حماية أرض الوطن اكتفاء بحماية أعضاء النادي ولاعبيه، فأخذ يتذبذب بين رغبته في ترك هذا العمل وبين احتياجات أسرته ووقوف سهام له بالمرصاد، حتى سقط مريضًا فوجد في مرضه مهربًا أراحه نفسيًّا من عمل يكرهه ويزدريه وإن كان قد ضيق على

الأسرة ماليًّا بشكل كبير، فالمعاش وحده دون أي دخل إضافي لم يعد كافيًا لإعالة أسرة مكونة من ستة أفراد يعتمدون اعتمادًا كليًّا عليه، لذا وجدت عزة في عملها بمجلة «صباح الخير» ملجأ حقق لها بعض الاكتفاء المالي الذي مكنها من تخفيف العبء قليلًا عن والدها، وكان ذلك ـ إضافة لعشقها مهنة الصحافة ـ دافعًا لها للإبداع في عملها حتى لفتت الأنظار.

* * *

ـ ما رأيكِ في كرواسان ساخن من سميراميس؟

هكذا اقترحت منى بعدما عبرتا شارع شارل ديجول متجهتين صوب كوبري الجامعة، وقد بقي وقت كافٍ قبل موعد عودتهما للكلية لحضور اجتماع مجلس تحرير «صوت الجامعة»، وبدا اقتراحها مغريًا لعزة كأنها تشممت رائحة الكرواسان الساخن في هذا الجو البارد، فأجابتها فورًا بشهية مفتوحة:

ـ فكرة رائعة، لكنكِ ستكونين مضطرة لدعوتي لأني مفلسة حتى آخر الشهر.

أومأت منى برأسها كأنها تقول «طبعًا»، فاسترسلت عزة ضاحكة:

ـ هكذا يجب أن يساعد ضحايا «المذبحة» الذين رُد إليهم اعتبارهم أبناءَ «مراكز القوى» القلة القليلة المنحرفة أعداء الشعب.

كانت تتحدث مستخدمة تعبيرات السادات مقلدة بشكل كاريكاتوري طريقته في الحديث، فانفجرت منى ضاحكة ثم قالت:

ـ الجميع ضحايا في هذا البلد، وها هي الأسعار ترتفع بقرارات رسمية مرة أخرى لتقصم ظهور الناس بلا رحمة.

ـ كان يتحدث عن آخر الحروب مع إسرائيل ويبشرنا بالرخاء، فإذا بهم يرفعون أسعار جميع السلع الأساسية، أما الحرب فقد بدأت أمس في بيتنا حين صرخت ماما وهي تقرأ الصحف قائلة إنها لن تمسك مصروف البيت بعد ذلك وطالبت بابا بالتصرف، ماذا يفعل المسكين؟

نطقت الجملة الأخيرة بتأثر شديد، فقالت منى:

ـ لم يعد بإمكان أحد فعل شيء، فهي فوضى ستعم الجميع...

ثم أشارت إلى النيل وهما تسيران فوق الكوبري بمحاذاته:

ـ ربما كان الحل هو الهجرة من هذا البلد كما يريد مايكل.

عزة بحماسة:

ـ وهل نصبح مثل الفئران التي تقفز من السفينة إذا بدأت في الغرق؟ ومَن يُصلح هذا الوطن إن هرب منه الجميع؟

ثم وهي تشير بإصبعها بقوة علامة الرفض:

ـ بل سنبقى هنا في أرضنا وسنقاوم الفساد الزاحف إلينا كما قاومنا الاحتلال من قبل، وسيكون النصر في النهاية للشعب.

كانتا قد اجتازتا كوبري الجامعة مقتربتين من مباني الكليات الطبية حين تناهى إلى سمعيهما أصداء صيحات آتية من بعيد مرددة هتافات غير واضحة، فتساءلت منى:

ـ ما هذه الهتافات؟

أرهفت عزة السمع، ثم هزت كتفيها باستهانة قائلة:

ـ يبدو أنه ماتش كرة قدم.

كانت أصوات الهاتفين تقترب، بينما تقطعان المعبر الصغير

المواجه لبوابة قصر العيني، فلم تميزا من الهتافات سوى «يييه يييه يييه...».

هبت ريح ثقيلة، فأمسكت منى بغطاء رأسها بكلتا يديها خشية أن يطير، فتبسمت عزة وهي تقول ممازحة:

ـ دعيه يطير واتركي شعركِ المسكين يتحرر من هذا القيد الذي سجنتِه داخله بلا مبرر.

منى مستنكرة:

ـ بلا مبرر؟!

ـ الحقيقة أنني أشك كثيرًا أن الله أراد إلزام النساء برداء معين، ولنفرض أن هذا صحيح كما أقنعتكِ «هي»، فهل طبقنا كل الفروض والتزمنا بكل شيء فلم يبقَ إلا الحجاب لتكتمل به فضائلنا؟

كانت عزة قد أعلنت ما أخفته في البداية من التزامها بالصلاة، ساعدها على ذلك التغيرات الكبيرة التي حدثت في الجامعة، حيث تم تخصيص أماكن للصلاة داخل الكليات، فتمكنت من أدائها في أوقاتها وفي جماعة في بعض الأحيان، والغريب أن منى لم تكن تصلي بانتظام حتى العام الدراسي المنصرم، إلا أنها في وسط الامتحانات وبشكل مفاجئ ارتدت الحجاب، وانتظمت في صلاة الفروض والنوافل، كما أصبحت تستخدم تعبيرات من عينة «السلام عليكم»، «بأمر الله»، «جزاكم الله خيرًا»! وهي تعبيرات كانت جديدة عليها وعلى مسامع عزة، التي أخذت تمازحها وتسخر منها وتتهمها بالتقليد الأعمى لصديقتها الجديدة ماهيتاب أو «الدكتورة بعبع» كما أطلقت

عليها منذ أن التقياها في الطريق مصادفة قبل عدة أشهر وعرَّفتها عليها منى كجارة وصديقة.

قالت منى معلقة على جملة «كما أقنعتكِ هي»:

ـ لا أحد يستطيع أن يؤثر على شخص خارج قناعاته، والدليل أنكِ لم تتمكني لفترة طويلة من إقناعي بالانتظام في الصلاة، لكن الله يهدي مَن يشاء.

ضربت عزة كفًّا بكف، وهي تقول متعجبة:

ـ وهل كل مَن لا تغطي شعرها تكون في ضلال أو تصبح كافرة؟ هل الدكتورة بعبع هي التي أقنعتكِ بذلك؟

ضحكت منى للتعبير، ثم قالت معاتبة:

ـ أنتِ تظلمينها، ولو عرفتِها عن قرب فستجدينها إنسانة في منتهى الرقة والدماثة والجمال.

ـ الجمال؟! هل هناك إنسانة بها مسحة من جمال أو تعرف شيئًا عن الجمال ثم ترضى أن تختفي داخل هذه الخيمة السوداء التي لا تظهر منها شيئًا، حتى عيناها تخفيهما بنظارة سوداء، لمَ كل هذا يا ربي؟

ـ إنه الالتزام بأوامر الله سبحانه وتعالى و...

ـ اسمعي.

كانتا قد وصلتا إلى منتصف شارع قصر العيني حين صكت مسامعهما ـ عن قرب هذه المرة ـ أصوات الجماهير الزاعقة بهتافات واضحة المعالم:

سيد مرعي يا سيد بيه.. كيلو اللحمة بقى بجنيه..

هما بياكلوا حمام وفراخ.. وإحنا الجوع دوخنا وداخ..
مش كفاية لبسنا الخيش.. جايين ياخدوا رغيف العيش..
سيد مرعي يا سيد بيه.. كيلو اللحمة بقى بجنيه.. بيه بيه بيه...

ـ ما هذا؟

ـ مظاهرات.. مظاهرات!

هكذا نطقتها عزة بانفعال امتزجت فيه البهجة بالعجب بالفضول الصحفي، التفتت وراءها فوجدت أنه لا يفصلها عن الجماهير الغاضبة سوى أمتار قليلة، فأمسكت بيد منى وهما تسرعان السير باتجاه «مخبز وحلواني سميراميس» في منتصف شارع قصر العيني، غير أن الجماهير كانت أسرع، فقبل وصولهما المحل غرقتا وسط طوفان هائل من البشر الهائج الغاضب الهادر بشعارات ثورية عنيفة:

يا حاكمنا من عابدين.. فين الحق وفين الدين..
يا حرامية الانفتاح.. الشعب جعان مش مرتاح...

صاحت منى مذعورة حين ارتطمت بها أجساد الغاضبين، فسحبتها عزة من يدها محاولة الخروج من وسط الطوفان، كانتا قد وصلتا إلى المخبز، ففوجئتا بالباب الزجاجي مغلقًا وقد حشرت بداخله كتل بشرية يبدو أنها فرت من خضم المظاهرات، طرقت عزة الباب بقوة فلم يلتفت لها أحد، لكنها لمحت صاحب المخبز اليوناني فنادته بصوت مبحوح غطت عليه أصوات المظاهرة:

ـ نيكولا.. نيكولا.

التفت نيكولا عفوًا فرآها تدق الباب، فأسرع يفتحه بحذر،

وسحبهما إلى الداخل، ثم أغلقه سريعًا خشية اقتحامه كما فعلت سائر محلات الشارع:

ـ ماذا تفعلين هنا يا مدموازيل؟

ـ كنا في طريقنا إليكم لشراء كرواسان، وداهمتنا المظاهرة في الطريق.

ـ المحل تحت أمركما، لكن لا تحاولا الخروج قبل أن تنتهي هذه الهيصة.

كان الجميع داخل المخبز يتحدثون بصوت واحد عن موضوع واحد، هو هذه المظاهرة المهتاجة التي عاش جيل بأكمله دون أن يرى مثلها.

قال عامل المحل الشاب ببهجة غامضة، وهو يرقب الطريق:

ـ هناك أفواج أخرى قادمة من ناحية الملك الصالح متجهة لوسط البلد.

فتساءل رجل جاوز الخمسين:

ـ هل قُدِّر لنا أن نعيش لنرى حريق القاهرة مرة أخرى؟

وصاحت سيدة بدينة حُشرت وسط الواقفين حشرًا:

ـ لقد أصابت الزيادات الأخيرة الناس بالجنون، فمَن يصدق أن يقفز سعر رغيف العيش إلى قرش صاغ كامل.

ـ ستصبح مجاعة.

ـ يريدون التخلص من الشعب.

ـ وأنبوبة البوتاجاز، أصبحت رسميًّا بخمسة وستين قرشًا.

ـ أي أن عليك أن تدفع جنيهًا كاملًا لتطبخ طبختين.

ـ ويطلقون على الزيادات «ترشيد الأسعار»، أليس هذا تزويرًا يفوق تزويرهم في الانتخابات الأخيرة؟

وتساءل رجل ساخرًا:

ـ أين هو الرئيس المؤمن؟

ـ يستقبل يا سيدي زواره في قصره العامر بأسوان.

ـ يقضي الشتاء في أسوان كالملوك مستمتعًا بشمسها الدافئة، والناس هنا يقتلها البرد والجوع.

ـ أنور خان.

ـ الشاهنشاه المؤمن أنور السادات.

صاح نيكولا محذرًا:

ـ يا جماعة من فضلكم لا داعي لهذا الكلام.

* * *

كان النهار قد انتصف، واختفت من الشارع أصوات المتظاهرين، حين فتح العمال الباب ليخرج الناس إلى الطريق، ونسيت الصديقتان الغرض الذي قَدِمتا من أجله فلم تبتاعا شيئًا، خاصة وقد أذهبت حرارة الزحام والحوارات لسعة البرد التي فتحت شهيتهما صباحًا للكرواسان الساخن، فانطلقتا إلى الطريق، وعزة تقول:

ـ لن أحضر اليوم مجلس التحرير، أُفضل متابعة أخبار المظاهرة من الراديو والتلفزيون.

ثم بعد لحظة صمت:

ـ لا أظن الإذاعة المحلية ستنقل الأحداث، سينتظرون الأوامر كعادتهم حتى يصبح الخبر قديمًا.. متابعة البي بي سي أكثر جدوى.

أومأت منى برأسها علامة الموافقة، وهي تقول:

ـ تعالي لتناول الغداء معي في المنزل، ونتابع الإذاعة البريطانية هناك.

ـ حسنًا، هيا ولنركب من أمام مديرية أمن الجيزة.

قريبًا من بوابة قصر العيني وقفت أمامهما سيارة مرسيدس حمراء تقودها سيدة منتقبة، نادت بصوت هامس:

ـ منى.. منى.

صاحت منى بفرح:

ـ ماهي، ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

ـ بل ما الذي أتى بكما وسط هذه المظاهرات؟ هيا اركبا بسرعة.

قفزت منى للمقعد الأمامي، بينما ترددت عزة لحظة قبل أن تفتح الباب وتجلس في المقعد الخلفي، انطلقت السيارة ومنى تقول موجهة كلامها لعزة:

ـ الدكتورة ماهيتاب عبد الحميد.

ـ آه.. نعم.. أهلًا.. لقد تعرفنا من قبل.

قالت ماهيتاب بلهجة ودود:

ـ الصحفية عزة عياد، أليس كذلك؟ ما زلت أذكر وجهكِ الجميل منذ التقينا المرة السابقة.

ابتسمت عزة في صمت، ولم تشعر بأي رغبة في مجاراة الفتاة في مجاملتها، بل أحست بالقلق وهي تراقب من مقعدها جسدها المغطى بالكامل بقماش أسود كثيف ويديها القابضتين على مقود السيارة بقفازين أسودين وجانب النظارة السوداء التي ترتديها في

هذا الجو الغائم، تمنت لو أنها لم تركب مع هذه المرأة الغامضة، وشعرت في داخلها بسخرية التناقض بين هيئتها العجيبة والسيارة المرسيدس أحدث موديل التي تقودها، وحمراء أيضًا؟

ـ إلى أين؟

تساءلت ماهيتاب وهي تلتفت تجاه منى، التي أجابتها:

ـ إلى المنزل، وستأتي عزة معي.

ـ مرحبًا بكما.

ساد صمت طوال الطريق إلا من بضع كلمات تبادلتها منى وماهيتاب، أما عزة فأصرت على التزام الصمت فلم تجب عن أي سؤال وُجه إليها سوى بردود مقتضبة لا تشجع السائل على الاسترسال.

حين توقفت السيارة أمام إحدى العمارات بحي المهندسين، اندفع سائس الجراج فناولته ماهيتاب المفتاح ثم اتجهن ناحية المدخل، وفي المصعد قالت وهي تضغط أحد الأزرار:

ـ يسعدني أن تشرفاني بالزيارة قليلًا.

ابتسمت منى بترحيب، وهزت عزة رأسها موافقة وقد داخَلَها فضول أن ترى شكل هذا «البعبع» من داخل الخيمة، وأن تدخل بقدميها إلى المغارة التي تسكن بها، خلعت ماهيتاب نظارتها السوداء فتلألأت من شق الرداء الأسود عينان كقطعتَي زمرد أخضر، نظرت إليهما عزة بدهشة وبمزيد من التوجس والقلق والفضول.

أدارت الفتاة المفتاح في الباب، وعند المدخل الصغير الموضوع به جزَّامة أسفل كونسول مذهب أنيق خلعت حذاءها وكذا فعلت منى فحذت عزة حذوهما وهي تتطلع إلى الداخل.

لم تكن هيئة المكان غريبة عليها، فهي تعرف جيدًا شقة منى في الطابق الأسفل، لكنها وبمجرد دخولها إلى الريسبشن الواسع المفتوح أدركت الفارق غير المتوقع في مستوى الأثاث الذي يعبِّر ـ هناك ـ عن نمط محافظ ينتسب إلى الشريحة العليا من الطبقة الوسطى، بينما داهمها ـ هنا ـ من النظرة الأولى واقع الانتماء إلى الطبقة الأرستقراطية القديمة «أولاد الذوات» بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. أثاث أوروبي أصلي فاخر.. سجاد عجمي عريق.. كريستالات فرنسية.. قِطع عملاقة من السيفر الثمين وسيرما يدوية في كل ركن، فضلًا عن ذوق راقٍ يفوح أريجه في جنبات المكان فلا يدع مجالًا للشك في انتماء أصحابه لفئة محدثي النعمة.

استبدت الحيرة بعزة وهي تخطو بحذر داخل المكان، وازداد شعورها بالتوجس تجاه هذه المرأة الغامضة المليئة بالمتناقضات، وقبل أن تجلس على الفوتيل الذي اتجهت إليه، إذ بماهيتاب تخلع قفازيها ثم تنحني قليلًا وتمسك بطرف ثوبها، وفي حركة واحدة خلعت عنها الإسدال والنقاب وهزت رأسها برفق، فانفجر شلال ذهبي رائق انطلق يعدو في كل مكان، ثم يهبط بطول قامة هيفاء وقوام سمهري رشيق تحتضن خصلاته الحريرية وجهًا أقسمت عزة فيما بعد إنها لم ترَ له مثيلًا في الجمال ولا بين نجمات هوليوود.

بدت ماهيتاب أمام عزة في تلك اللحظة كقبسة نور حي أشرق من وسط الظلمات، والحقيقة أنه من الصعب سرد تفاصيل مثل هذا الجمال، إذ كل قطعة منه جديرة بالتوقف عندها، وكل ملمح جدير وحده بأن يسم بالجمال أية امرأة تحوزه، فإن اجتمعت الملامح

واكتملت على هذا النحو، فحري أن نترك للخيال مهمة إكمال الصورة.

يُعبر المثل الشعبي بأن المرأة جميلة لدرجة أنها «ليس بها غلطة واحدة»، والحقيقة أن ماهيتاب كانت أكثر من ذلك بكثير.

(٢)

ـ هل يمكن للمسيحي هناك أن يتزوج مسلمة دون تعقيدات؟

بُهت عادل للسؤال المفاجئ الذي ألقاه عليه ابن أخيه، بينما كان يحدثه عن التسهيلات الإجرائية للعمل وإنشاء الشركات في الولايات المتحدة.

كانا يجلسان في الشرفة المربعة الملحقة بحجرة نوم مايكل والمطلة على شارع عبد الرحمن فهمي، يتناولان شاي العصاري، وقد تخللت شمس فبراير المتأهبة للرحيل حراشف الجازورينا الخضراء التي تدلت فروعها على حافة الدرابزين الحديدي المشغول فعكست لألآت ضوئية أشبه بلألأ الألماس.

بقي يومان على عودة عادل إلى «أورلاندو» بعدما قضى أكثر من شهرين في مصر في أطول زيارة له منذ هجرته قبل اثني عشر عامًا، وربما كان ضيق الوقت المتبقي هو ما دفع مايكل إلى تحويل دفة الحديث مع عمه المحبوب، كأنما أراد دون وعي أن يبوح له ببعض مكنونات نفسه.

ـ هل تحب فتاة مسلمة يا مايكل؟

سأله عادل مبتسمًا ومحاولًا الاحتفاظ بحيادية نبراته ليدفع الفتى إلى مزيد من البوح.

كان يحمل له حبًّا وإعجابًا لا يُضاهَيان، بل لعل محبته لشقيقه الوحيد وأسرته هي المحبة الحقيقية التي ظل يحملها في قلبه طوال سنوات الغياب، خاصة أن علاقاته في الغربة اقتصرت على زمالات العمل وبعض العلاقات الجنسية العابرة، حتى قارب الأربعين دون زواج، فعدَّ مايكل وماريان ابنَيْه وحرص على دعوتهما لزيارة أورلاندو والتجول في جنبات ولاية فلوريدا بشكل منتظم، فلم يمر عام منذ هجرته وهما بعدُ طفلان دون أن يلتقياه سواء في مصر أو في أمريكا.

تخضب وجه مايكل بالدماء وهو يومئ برأسه علامة الموافقة، فسأله عادل:

ـ أعرفها؟

هز الآخر رأسه بالنفي، ثم قال:

ـ هي صديقة مصطفى رءوف، أنت تعرفه يا أونكل.

فكر عادل لحظة ثم قال:

ـ مصطفى.. آه، إنه صديقك الإيطالي أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ هو شخص لطيف وذكي، لعلها «مخلَّطة» مثله؟

ـ لا، بل مصرية صميمة، وهي سمراء تشبه ملكات الفراعنة المرسومات على جدران معابد الأقصر.

ضحك عادل للتشبيه وللحماس الذي وصف به مايكل فتاته، لكنه استدرك بلهجة جادة خشية أن يجفل الفتى الخجول من ضحكته:

ـ لقد أحببت بدوري فتاة مسلمة كانت زميلتي في كلية الهندسة بداية الستينيات.

اتسعت عينا مايكل وتطلع بفضول إلى عمه، الذي ألقى برأسه للوراء حتى لامس حافة حاشية فوتيل البامبو الجالس عليه، ثم تطلع بعينيه إلى السماء كأنما يستدعي ذكريات بعيدة، وأكمل بنبرة ملؤها الحنين:

ـ كانت سمراء أيضًا، ذات عينين عسليتين ساحرتين وشعر أسود قصير تشبه نفرتاري ملكة جمال الفراعنة، وكانت غاية في الحيوية والذكاء، كنا أصدقاء من شلة واحدة، ظللت أهيم بها وأستوحي منها لوحاتي الفنية التي رسمتها طوال سنوات الدراسة.

صمت عادل، فسأله مايكل مستحثًّا إياه على إكمال الحكاية:

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ تزوجتْ رمسيس الثاني...

ثم استطرد ضاحكًا:

ـ أقصد أنها تزوجت زميلًا آخر من نفس الشلة.

سأله مايكل بلهجة مشفقة حذرة:

ـ مسلم؟

ـ طبعًا.

ـ ولِمَ طبعًا، هل كانت متعصبة دينيًّا؟

ـ لا علاقة للدين بهذا الموضوع، إنها التقاليد البالية التي تمنع

الفتاة أن تتزوج من خارج القبيلة أو العائلة حتى لو من نفس الديانة، ثم.. ثم اتضح أنها كانت تحبه هو منذ البداية.

روَّعت الإجابة مايكل، فتقلصت شفته السفلى من فرط توتره، وسأل بصوت فرغ تمامًا من النبرات:

ـ وماذا فعلتَ أنت؟ هل استسلمتَ للأمر الواقع؟

تنبه عادل لأزمة الفتى، فاعتدل في جلسته وهو يقول برفق:

ـ الأمر كان مختلفًا، فهي لم تبادلني الحب أبدًا، بل ولم تعرف يومًا أني أحبها، ربما كانت تراني معجبًا بها كباقي شباب الدفعة، ولا أعتقد أنها كانت ستبادلني الحب لو اطلعت على حقيقة مشاعري فقد اختارت أكثر فتيان الشلة وسامة.

ثم استطرد وهو يضحك ضحكته الصاخبة المميزة:

ـ إنها لعنة روفائيل حنًا، لحُسن حظك أنك ورثت الوسامة عن فرع ملاك وليس فرع روفائيل.

ضحكا معًا حتى زال التوتر عن مايكل، ما شجع عادل على العودة للموضوع، فسأله بلهجة مغايرة:

ـ هل تبادلك الحب؟ ما اسمها؟

ـ عزة.

ـ اسم جميل، هل تحدثتما صراحة في الموضوع؟

هز مايكل رأسه بالنفي، فمال عادل ناحيته وهو يقول بجدية:

ـ أفضِّل الصراحة في مثل هذه الأمور، خصوصًا أن تفكيرك اتجه إلى الزواج، دعني أقُلْها لك: إذا كانت الفتاة تحبك فسوف تفعل أي شيء من أجل البقاء معك.

ـ لكن من الصعب مفاتحتها في هذا الأمر.
ـ ولـمَ؟ أليست فتاة مودرن، أم أنها من اللواتي يرتدين الخيام ويضعن فوق رؤوسهن هذا «الطاجن» البشع...
ثم استطرد بلهجة مَن تذكر شيئًا:
ـ عندما زُرت مصر المرة الأخيرة في أعياد الميلاد عام ١٩٧٤ لم تكن هناك تقريبًا مَن ترتدي هذا الرداء، اليوم أرى الشارع المصري مليئًا بالطواجن.
ضحك مايكل لتشبيه عمه، وقال:
ـ عزة فتاة مودرن إلى أبعد حد، فهي ترتدي آخر الموضات وتحرص على تعلم أحدث الرقصات، كما أنها تنفر بشدة من هذا الرداء الغريب الذي انتشر في مصر السنوات الأخيرة.
ـ حسنًا، إذًا لا مشكلة، سأقولها لك ببساطة: دعها تحبك.. أقصد ادفعها لكي تحبك، وخلاص!
ضحك مايكل وهو يقول مقلدًا طريقة عمه في الكلام:
ـ كيف أدفعها لكي تحبني وخلاص؟
ـ أنت وسيم يا مايكل ومن الصعب على أية فتاة أن تقاوم جاذبيتك، يبقى أن تعلم عزة أنك تحبها وأن تشعر باهتمامك.
ثم توقف برهة كأنما طرأت على ذهنه فكرة، واستطرد:
ـ اعلم أن قلب أي فتاة في أذنيها، فعليك بكلمات الغزل، وتقديم الهدايا كرسل محبة حتى تصل إلى القُبلة، التي إن منحتها لك فمعنى هذا أنك ملكتَ قلبها، المهم أن تمهد لذلك بفعل أي شيء تعلم أنه يرضيها ويقربك منها دون أن تتطرق لمسألة الارتباط.

ـ لماذا؟
ـ حتى لا تضعها في مواجهة مع التقاليد قبل أن يتمكن حبك منها، أما بعد ذلك فإن التراجع سيكون صعبًا عليها، ويمكنك حينئذ أن تقرر ما الذي تريده منها بالضبط، فإذا أحبتك فتاة فإنها تصبح أداة طيعة في يدك.
بدت ملامح مايكل مستريحة وعيناه متألقتين بالثقة وبالشوق لما وصفه عمه، الذي استطرد مغيرًا لهجة الإغواء إلى ما يشبه التحذير:
ـ لكن انتبه، فأنت تعرف جيدًا عقلية أبيك وطريقته في ربط كل شيء بالدين.
فتر سرور مايكل، فانعكس ذلك على ملامحه وهو يقول:
ـ أعرف، ولشد ما تختلفان.
ـ كنا كذلك منذ الصغر، نشأ هو كوالدنا مرتبطًا بالكنيسة لا يفوته قداس في أي مناسبة ويحرص على صيام الأيام التي تقررها الكنيسة، أما أنا فكانا يرمياني دائمًا بالهرطقة ويحذراني من جحيم لم أقتنع أبدًا بوجوده.
ابتسم مايكل، فاستطرد عادل ضاحكًا:
ـ ويبدو أن الرب أراد أن يكافئه على إيمانه به فأظهر له نعمته في إنجابه ولدًا هرطوقيًّا كارهًا للكنيسة كعمه.
انفجر مايكل ضاحكًا وهو يقول:
ـ ليس ابنه فقط وإنما زوجته أيضًا، فلطالما اتهم ماما بأنها تحمل أفكارًا بروتستانتية منحرفة أو أنها على وشك الأسلمة.
ـ الأسلمة؟

ـ تصور! ربما كان ذلك لتمسكها بصديقاتها المسلمات من أيام الدراسة.

سكت لحظة، ثم أكمل كأنما لاحظ شيئًا للمرة الأولى:

ـ هل تعلم أن جميع صديقات ماما فعلًا إما مسلمات وإما بروتستانتيات وليس لها أية صديقة أرثوذكسية.

هز عادل كتفيه باستهانة وهو يقول:

ـ وهل يجب أن نختار أصدقاءنا أيضًا وفقًا للمقاييس الدينية؟ ربما كان أفضل ما لدى البروتستانت الذين يعتقد أبوك أنهم مطرودون من الملكوت أنهم لا يقدسون رجال الدين، هل تعلم يا مايكل أن سبب نفوري من الدين هو ما شاهدته وأنا طفل صغير ولا أنساه أبدًا: كنت ألعب مع أولاد الجيران ببيت المنيرة وأنا مختبئ منهم في بئر السلم المظلم رأيت القس الذي يأتي إلى بيتنا ليصلي لنا ويباركنا يختلي بجارتنا أم بيشوي ويفعل بها فعلًا قبيحًا في الظلام، لم يشاهدني أحد ولم أخبر أحدًا بما رأيت، كنت أخشى التكذيب وعقاب جدك، لكني من وقتها بدأت رحلة شك طويلة في كل شيء انتهت بي إلى الإيمان الذي اعتنقته بعد ذلك.

ـ الإيمان! أي إيمان؟

ـ إيماني بالعلم وبالإنسان الذي خلق هذا العلم، الإنسان الحر الشجاع الذي لا يقول كلامًا علنيًّا ويفعل نقيضه في السر، هذا الإنسان هو وحده الجدير بالعبادة؛ لذا فإنه وحده الجدير بحرية المعبود لا بقيود العبيد، وهي الحرية التي تتيح له أن يختار

ما يشاء وما يرى صحته بعقله دون محاذير دينية أو استسلام لخرافات تدفعه إلى النفاق الذي يمارسه رجال الدين ومَن سار على خطاهم.

أنصت مايكل لعمه صامتًا، ثم سأله بعد تردد:

ـ وهل هذا الإيمان هو الذي جعلك تحجم عن الزواج حتى الآن؟

ـ ربما كان أحد الأسباب، فنحن نعشق وفقًا لتعاليم ديننا الخاص، أي كما تمليه علينا عقولنا أو أحاسيسنا أو رغباتنا الجنسية، أما الزواج فنخضع فيه لأحكام قساوسة الظلام الذين يفرضون علينا وجهًا واحدًا نعاشره طول العمر ولا نستطيع منه فكاكًا، فحتى لو دبت الكراهية بين الطرفين وأصبح أحدهما لا يطيق وجه الآخر فعليهما البقاء رهن قيد واحد رغمًا عن إرادتهما لمجرد أن هذه إرادة الكنيسة.

غشيت ملامح مايكل غلالة كآبة وهو يضيف مستوحيًا أزمته الخاصة:

ـ وعلينا أيضًا أن نتزوج بواحدة من نفس الدين والمعمودية بصرف النظر عن المشاعر وإلا كان مصيرنا الطرد من الملكوت.

شوح عادل بيده كأنه يطرد شيئًا، وهو يقول:

ـ لا تصدق يا مايكل أن هناك ملكوتًا آخر خارج قلوبنا، فإن ما نصنعه داخلنا ومن حولنا هو الملكوت الحقيقي والـ...

تنبه لصوت باب الحجرة يُفتح، فصمت وهو ينظر حيث ظهرت ماريان لتبلغهما بوصول خالها مجدي وابنه بيتر وساندرا زوجة بيتر.

* * *

تحلقوا في حجرة الاستقبال الواسعة المفروشة بكاملها على طراز

«لوي كانز»، بما فيها البار الصغير المزينة ضُلفه الخشبية بحليات بارزة مذهبة مماثلة لتلك الموجودة على قوائم الأرائك والمقاعد والطاولات الموزعة فوق قِطع صغيرة من السجاد العجمي، تظهر من بينها الأرضية الباركيه اللامعة ذات التعشيقات الكلاسيكية، التي ظلت طابعًا مميزًا في التشطيبات المعمارية لمساكن «جاردن سيتي»، منذ جرى تخطيطها على نمط «نيو باروك» في بدايات القرن.

جلس الدكتور نصيف على الكنبة الرئيسية، التي ظهرت حلياتها المذهبة من خلفه بفضل قصر قامته، وإلى جواره جلست ماريان مرتدية بلوزة مقفولة من الصوف الأحمر الخفيف وجونلة بيضاء «بليسيه» أبرزت سمنة جسدها، وجمعت شعرها للوراء، فظهر وجهها المكتنز بأكمله يتوسطه منخار عظيم أفطس يحتل بجدارة دور البطولة في هذا الوجه الخالي تمامًا من أي أثر للجمال، وقد بدا الأب وابنته ـ لولا اختلاف العمر والملابس ـ كأصل ونسخة مكررة، أتراها لهذا السبب اختارت الالتحاق بكلية الصيدلة بعدما رفض شقيقها تحقيق رغبة أبيه في الالتحاق بها؟

أخذت ماريان تختلس نظرات، لم تنجح في إخفاء دلالتها، إلى ساندرا التي استغرقت في حديث جانبي ضاحك مع عادل ومايكل ووالد زوجها مجدي ملاك، الذي انضم إليهم وهو يحمل في يده زجاجة «جاك دانيالز» وضعها بعناية على الطاولة الجانبية الصغيرة، بينما كان بيتر يعاون عمته في رص الأطباق الصغيرة التي حوت تشكيلة شهية من الكانابيه المحشو بشرائح لحم الخنزير وقطع جاتو سواريه منوعة الألوان والطعوم.

كانت ساندرا تختلف في هيئتها اختلافًا كليًّا عن ماريان، فهي

طويلة رشيقة، منحتها أصولها الشامية بشرة بيضاء شفافة وشعرًا كستنائيًّا ناعمًا، قصته «كاريه» على أحدث موضة مما أبرز جمال ملامحها، وكانت ترتدي بدلة خضراء بجاكيت مقفولة قصيرة تقف عند خصرها دون أن تبرز أي أثر لترهل في البطن رغم أنها متزوجة منذ ما يقرب من عشرة أعوام وأم لطفل.

بعد فاصل من الضحك الجماعي، قالت ساندرا موجهة حديثها لعادل:

ـ ليتك تستطيع تأجيل سفرك قليلًا لتحضر عيد ميلاد برتي الأسبوع المقبل.

هز عادل رأسه علامة الأسف، وهو يجيبها:

ـ كنت أتمنى، لكنها أطول إجازة حصلت عليها منذ سفري، كم عمره الآن؟

ـ سيبلغ الثامنة يوم ٢٠ فبراير.

كانت ماجدة تضع طبقًا مشكلًا إلى جوارهما، فسألتها:

ـ لماذا لم تصحباه معكما الليلة؟

أجابها بيتر، وهو يتناول من الطبق قطعة من الكانابيه ويرفعها لفمه:

ـ لديه تمرين جودو في الكنيسة.

ـ ماذا قلت؟ جود... الـ... الكنيسة؟

هكذا صاح عادل بدهشة مشوبة بالفزع، فأجابه بيتر بهدوء وهو يزدرد اللقمة ويتأهب للجلوس:

ـ يهمنا أن يمارس برتي نشاطًا رياضيًّا بجانب دروسه، وهو قد أحب رياضة الجـ...

قاطعه عادل بلهجة حادة:

ـ نعم نعم.. الرياضة مهمة جدًّا له، لكن لماذا في الكنيسة وليس في النادي؟

ضحك مجدي ملء فيه، وهو يقول مشيرًا بيده إلى ابنه وزوجه:

ـ يفضلان يا سيدي الاشتراك لابنهما في أنشطة الكنيسة الفنية والرياضية، ولا أدري هل قررت الكنيسة ترك مهامها الروحية والتفرغ لرعاية الأنشطة الاجتماعية؟!

قالت ساندرا موجهة كلامها لعادل الذي ما زالت ملامحه تعلوها دهشة:

ـ الحقيقة أنها كانت فكرة بيتر ولم أتحمس لها في البداية، إلا أن التجربة نجحت، لأننا بدأنا نشعر بالاطمئنان أكثر على برتي وهو بين أقرانه المسيحيين عكس ما إذا تركناه وسط مجتمع مفتوح قد يتعرض فيه لأذى من بعض المسلمين المتعصبين.

تساءل عادل، وهو ينقل بصره بين ساندرا وبيتر:

ـ هل يوجد متعصبون بين الأطفال؟

فأجابه نصيف بلهجة توكيدية، متجاهلًا ما حمله تساؤله من سخرية واضحة:

ـ المتعصبون الآن في كل مكان، ونشكر ربنا أن كنيستنا تقوم بواجبها في حماية شعبها فتحاول أن تصبح مركزًا لحياتهم اليومية بالإضافة إلى ممارسة الشعائر الدينية.

وكأنما كانت ماريان تنتظر حتى يتفوه والدها لتلحق بأثره، فقالت:

ـ لقد رفضت الكنيسة أن تترك شعبها للذئاب وتحملت في ذلك الكثير، لذا لا بد أن نرد لها الجميل وأن يقدم الأقباط كل ما لديهم لدعمها ولتقوية أعمالها في مواجهة الأعداء.

نظر إليها عادل وهي تتحدث بنبرة أبيها المخنفة، فغلبته محبة الدم التي تعاونت مع شفقته على هذه الفتاة المحرومة من كل مسحة جمال أو جاذبية لتمنعه من إبداء المعارضة لها، فاكتفى بزم شفتيه ورفع حاجبيه لأعلى علامة الحيرة، أما مايكل فكان يتمتم بصوت هامس مرددًا بعض كلماتها مثل: «الذئاب!».. «الأعداء!» كنوع من الاحتجاج شبه الصامت على ما تقول.

عاد نصيف للحديث، مؤيدًا كلام ابنته:

ـ لا يستطيع سوى جاحد أن ينسى ما فعله سيدنا عندما حرقوا كنيسة الخانكة، فقد أرسل أكثر من مائة كاهن لكي يصلوا بالكنيسة المحترقة، وأمرهم لو أطلقت الشرطة نيرانها عليهم أن يفترشوا الأرض ويستشهدوا، ولولا أنهم منعوه من قيادة المظاهرة لذهب معهم.

عادل ساخرًا:

ـ هل المفروض أن يخرج الكهنة من كنائسهم لقيادة المظاهرات السياسية؟ وأين قول المسيح الذي يرددونه ليل نهار: «مَملكتي لَيستْ مِن هذا العالَم».

بيتر محتدًّا:

ـ وهل معنى هذا أن تتخلى الكنيسة عن شعبها وتتركهم لهؤلاء البدو الهمج يصنعون بهم ما يشاءون؟

ثم مخففًا من حدته قليلًا:

ـ هجرتك إلى أمريكا يا عادل جعلتك تنسى الاضطهاد الذي يتعرض له أقباط مصر، كما أنه عندما رحلت لم يكن السادات قد جاء للحكم ولم تكن الصفقة التي عقدها مع الإخوان المسلمين قد أُبرمت بعد.

ـ أية صفقة تقصد؟

ـ عقد السادات منذ بداية حكمه صفقة مع الإخوان الذين أفرج عنهم من السجون بأن يسمح لهم بممارسة نشاطهم الديني في البلد مقابل الوقوف معه في مواجهة أصحاب الميول الماركسية والناصرية، وطبعًا سيزيد هذا التعاون بعد مظاهرات ارتفاع الأسعار التي حركها اليساريون الشهر الماضي.

هز عادل كتفيه وقلب شفته علامة الاستهانة، وهو يقول:

ـ وما لنا وكل هذا؟ إن الغالبية العظمى من الأقباط ليبرالية بطبعها، ولم يعتنق إلا الندرة الفكر الماركسي أو العروبي.

علقت ماريان على ملاحظة عمها بنبرة متباكية:

ـ أنت لا تعرف يا أونكل ما الذي تَرتب على هذا الاتفاق، لقد انطلقوا كالوحوش في كل مكان وأصبح همهم هو أسلمة مصر والقضاء على الوجود القبطي بها بكل وسيلة، ومثال واحد على ذلك كلية الصيدلة التي كانت منذ نشأتها تكاد تقتصر على الأقباط، فها هم الآن يسيطرون عليها سواء في اتحاد الطلبة، الذي أصبح إخوانيًا خالصًا، أو حتى في اختيار المعيدين فهم يتآمرون لمنع تعيين الأقباط المتفوقين ولو وصل الأمر

لاستخدام القوة والتهديد، ومثل هذا يحدث في الطب وغيرها من الكليات.

لم يُبدِ عادل ـ كعادته ـ اعتراضًا على قولها، بينما تحدث مجدي لأول مرة في الموضوع الذي يكره الجدل حوله، قائلًا:

ـ الحقيقة أن ما يحدث الآن ليس صراعًا بين الأقباط والمسلمين كما يحلو للبعض أن يراه، وإنما هو صراع بين المصريين الأصحاء عقليًّا ونفسيًّا وبين المصريين المتعصبين من الطرفين، لأن التعصب داء يصيب الروح والعقل معًا، وما تفعله الكنيسة هو الوجه الآخر لما يفعله الإخوان من استغلال هؤلاء المرضى لتحقيق أهداف دنيوية بعيدة كل البعد عما ينادون به من تعاليم روحية.

نزلت كلمات مجدي بردًا وسلامًا على نفس عادل كما كانت تنزل دائمًا، تطلع إليه بإعجاب وقد قفزت إلى ذهنه جملة قرأها قديمًا لتشيكوف: «ينبغي أن تكون كل الأشياء في الرجل جميلة: وجهه وملابسه وروحه»، هكذا هو مجدي ملاك عازر منذ الأزل.

كان يكبره بأكثر من عشر سنوات.. ها قد جاوز الخمسين، وزاده الشيب الذي غزا شعره جمالًا على جمال، في مطلع شبابه كان وفديًّا متحمسًا محبًّا للنحاس غاضبًا على مكرم كارهًا للملك وللإنجليز، لكنه لم يفرح بالثورة فقد آمن منذ بداياتها أنها جاءت لترسي نظامًا فاشيًّا متعديًا على كرامة الإنسان وحريته، مختزلًا انطلاقته الواسعة الجديرة به إلى قوالب سابقة التجهيز تقزم إنسانيته وتلغي حريته الفردية لصالح المجموع، وقد كان توقه للحرية أبرز سماته، لذا أصر

باستماتة بدت حينها مخالفة للمنطق على الالتحاق بكلية التجارة بدلًا من الصيدلة التي كان والده يصر عليها ليرث من بعده صيدليته الكبرى.

وما زال عادل يذكر تلك المناقشة الحامية التي دارت بين مجدي وأبيه على مسمع من الجميع، وعادل لم يجاوز بعد السادسة من عمره، لذا لم يعِ منها سوى تلك الجُمل التي ظل مجدي يرددها بإصرار:

«هل قُدِّر على الأقباط أن يظلوا دائمًا صيادلة مصر؟».

«لماذا ينبغي أن نبقى أسرى فرز طائفي نصنعه بأنفسنا ثم نتشكى منه؟».

حفظ عادل الكلمات رغم عدم إدراكه لمعناها، لكن الزمن وصحبته لمجدي سنوات طويلة جعلته يدركها ويؤمن بها، بل يتجاوزها أيضًا حتى تمنى سقوط أسطورة الدين لتتحرر الإنسانية كلها من ذلك القيد الذي يعوق حركتها دون داعٍ، بينما ظل مجدي على توازنه فهو مؤمن بعقيدة الخلاص المسيحيّة، مؤمن بالتوحيد والتثليث دون أن يمارس طقوسًا، فلا يحرص على الاعتراف أو التناول ولا يصوم أو يذهب للكنيسة إلا في مناسبات الزواج والوفاة وبعض الأعياد الدينية الرئيسية، وهو يحترم مكانة الكهنة دون أن يعبأ بتعاليمهم، أما قناعته التي رسختها الأحداث المتلاحقة فهي ضرورة فصل الدين عن الدولة وأن يبقى الدين علاقة بين الإنسان وربه لا دخل له بما يحدث في الحياة ولا بعلاقات الناس بعضهم ببعض التي يجب أن تحكمها المصالح السياسية والاقتصادية

والاجتماعية دون نظر للانتماء العِرقي أو الديني، كان يؤمن أن هذه الصيغة وحدها هي التي ستُخرج مصر من تخلفها لكي تلحق بمركز متقدم في العالم هي جديرة به، بتاريخها وبجغرافيتها وبنبوغ أبنائها، لذا كان يراقب بفزع حقيقي مظاهر التطرف الديني التي اجتاحت الشارع المصري في الفترة الأخيرة حتى وصلت إلى عقر داره.

كان بيتر يحادث ماريان:

- ما تقولينه كان لفترة محدودة في التاريخ، فالواقع أن الأقباط لم يكن لهم أي عصر ذهبي وإنما اضطهدوا عبر كل العصور بداية من الرومان حتى الاحتلال العربي، وما يفعله الإخوان اليوم هو استكمال لسلسلة متصلة من أفعال الشر والاضطهاد، لذا فالعزلة كانت دائمًا هي الخيار الأفضل لنا لننجو من الذوبان وفقدان الهوية.

أنصتت إليه ماريان بوجه كأنه وجه روفائيل حنَّا المهاجر قديمًا من كودية النصارى حاملًا همومه وأحزانه، الحقيقية منها والوهمية، بينما قال مجدي معلقًا على كلام ابنه:

- هذا ليس صحيحًا، فقد تمتع الأقباط بحقوقهم كاملة خلال العصر الليبرالي قبل انقلاب العسكر، فكان منهم رؤساء وزارات ووزراء خارجية وحربية ومالية وتبوأوا جميع الأماكن في الحكومة بلا استثناء وبلا تردد، عندما تقلص دور الدين على الساحة السياسية واستطاعت الدولة أن تطبق شعار «الدين لله والوطن للجميع» على أرض الواقع.

قال نصيف:

ـ لكن هذا كان استثناء على قاعدة اضطهاد الأقباط ومحاولة تذويبهم في المجموع الغالب من المحتلين.

فعقب مجدي:

ـ ولماذا تعتبره استثناء وليس القاعدة التي يمكن أن تتحقق كلما عادت مصر إلى ليبراليتها وحَكَمها علمانيون متنورون مثل سعد زغلول ومصطفى النحاس؟ وهذا تحديدًا ما ينبغي أن نسعى له بدلًا من الهروب إلى الكنائس والانعزال الذي لن يكون في صالحنا بأي حال من الأحوال.

لفظ الجملة الأخيرة ناظرًا إلى بيتر نظرة ذات معنى أدركه الأخير، فقال متحديًا:

ـ وهل نُعرض أنفسنا وأبناءنا وديننا للخطر حتى يأتي اليوم الذي يتغير فيه النظام ويصبح ليبراليًّا؟

ـ الأنظمة لا تتغير من تلقاء نفسها يا بني، لكنها تتغير بجهد الشعوب ووعيها وأحيانًا بثورتها ضد الطغاة، وهو ما حدث عندما قامت ثورة ١٩١٩ بالتحام الشعب المصري بكل طوائفه فأقامت نظامًا دستوريًّا حرًّا كان نموذجًا يمكن استعادته في كل وقت.

قال عادل وهو يصب كأسَي ويسكي له ولمجدي:

ـ ثم إن انعزال الأقباط عن المجتمع وارتباطهم بالكنيسة سيزيد أزمتهم لأنه يجعل منهم مجتمعًا طائفيًّا منغلقًا أشبه بالجيتو الذي يسهل تصفيته.

فقالت ساندرا:

ـ لا تنسوا أننا مسيحيون، لذا فالعالم المسيحي بأكمله يقف معنا لأننا جزء منه.

ضحك عادل حتى كادت الكأس تنسكب من يده، ثم قال بلهجة لا تخلو من مرارة:

ـ ما تتصورينه وَهْم ياعزيزتي، فنحن أقباط أرثوذكس أي أتباع كنيسة شرقية مارقة، ولا ينظر إلينا أحد في الغرب على أننا مسيحيون، بل مجرد شرقيين أفارقة متخلفين، لذا يضطر المصري في الخارج، بصرف النظر عن دينه، لأن ينحت الصخر بأظافره ليصل إلى المكانة التي يريدها.

فسأله مايكل باهتمام مَن يخطط للهجرة:

ـ تقصد أن كونك مسيحيًّا لا يمنحك أفضلية في أمريكا؟

ـ إطلاقًا، فأنت هناك مصري مهاجر بصرف النظر عما إذا كنت تؤمن بيسوع أو بمحمد أو بأي عفريت.

ضحكوا جميعًا باستثناء نصيف وابنته التي قالت بفخر:

ـ لذا سيذهب قداسة البابا إلى أمريكا ليمنحهم بركة الكرسي المرقسي.

نظر إليها عادل صامتًا وهو يتعجب بينه وبين نفسه من قرابة الدم تلك القادرة على الاحتفاظ بالمحبة وبالمكانة الحميمة لبعض الأشخاص الذين نثق تمامًا أنهم لا يزيدون كثيرًا عن الدواب، بينما قال مجدي بنبرة حذرة:

ـ أخشى أن تكون وراء هذه الرحلة أسباب سياسية وليست رعوية،

حتى لو كانت تحت غطاء تدشين كنيسة، وحينها لن تكون الرحلة المناسبة للرجل المناسب.

حدقت فيه الأعين، وسأله مايكل:

ـ ماذا تقصد يا أونكل؟

فأجاب مجدي:

ـ أقصد أنه وإن كان الاتصال بأمريكا كدولة عظمى وزعيمة للعالم الحر أمرًا مهمًّا، إلا أنه ينبغي أن يتم عن طريق رجال السياسة لا رجال الدين، خاصة أنني سمعت أن البابا سوف يلتقي هناك بالرئيس الجديد «جيمي كارتر».

قال عادل:

ـ هذا صحيح، والحقيقة أن الإدارات الأمريكية المختلفة تحاول دائمًا استخدام الدين كورقة سياسية خصوصًا في دول العالم الثالث، والدليل على ذلك أن ولايات كثيرة منها فلوريدا مليئة بالإخوان المسلمين الذين هاجروا من مصر في الخمسينيات والستينيات أو بعد الإفراج عنهم من السجون منذ سنوات وهم هناك يقدمون لهم كل التسهيلات الممكنة لممارسة أنشطتهم التي كانوا يمارسونها في مصر.

صاح نصيف بفزع:

ـ الإخوان المسلمون؟

فأجابه عادل بتوكيد:

ـ نعم يا أخي، فهذه الدول لا تعرف مثلنا لغة العواطف وإنما

تحكمها المصلحة فقط، لذا تتعاون مع مَن يخدم مصلحتها بصرف النظر عن انتمائه أو عقيدته.

ـ وما الذي يمكن أن تفيده دولة عظمى كأمريكا من جماعة دينية متخلفة كالإخوان.

ـ محاولة أمريكا لتحجيم النفوذ السوفيتي في المنطقة يجعلها تتعاون مع كل الأطياف السياسية والدينية التي لها أرضية شعبية قوية، ولها أيضًا مصلحة في محاربة التمدد الشيوعي في البلاد التي ينتمون لها.

فاندفع مجدي قائلًا:

ـ هذا منطقي، وها هي تبدأ بالإخوان وتنتهي بقداسة البابا.

فضحكوا ثانية، باستثناء نصيف وابنته اللذين بقي وجهاهما متجمدين يعكسان اعتراضًا صامتًا، إلا أن بيتر انبرى قائلًا:

ـ ولنفرض أن لأمريكا مصلحة معنا فلتكن المصلحة متبادلة، لأن علاقة الكنيسة والشعب القبطي بالحكومة الأمريكية سوف تنقذنا من شبح قوانين الإسلام التي يريدون فرضها علينا بالقوة.

صاح به مجدي:

ـ أية قوة يا بني؟ كل ما في الأمر أن هناك مشروعًا به بعض أحكام الشريعة الإسلامية القابلة للتطبيق وسوف يقدم إلى مجلس الشعب كمشروع قانون يمكن قبوله أو رفضه.

نصيف ساخرًا:

ـ هل تصدق يا مجدي أن أحدًا يمكنه رفض ما يريده الرئيس المؤمن زعيم دولة العلم والإيمان؟

أجابه مجدي ضاحكًا:

- بفرض حدوث هذا، فما يضيرنا أن يطبق علينا كأي قانون سواء أكان مستمدًّا من الشريعة الإسلامية أو من أي مصدر آخر؟

صاحت ساندرا بفزع:

- هذا معناه أن يسجنوا المسيحيات داخل خيام كما يفعلون الآن بالمسلمات، وأن يجلدوا المذنبين ويقطعوا أيديهم ورقابهم بالسيوف كما هو مكتوب في قرآنهم.

فقال مايكل بثقة:

- لا لا لن يحدث هذا، قليلون فقط من المسلمين مَن يؤمن بهذه الخرافات، أما الأكثرية فلا يمكنها أن تقبل بهذه الوحشية أو توافق عليها، لأنه إن حدث فسوف تكون معاناتهم أكبر لأنهم الأغلبية التي ستطبق عليها هذه القوانين.

فعاجلته ماريان بلهجة جمعت بين التحدي والتشكي:

- نحن نرفض مبدأ أن تُطبق على الأقباط أحكام عقيدة أخرى غير التي يؤمنون بها، فإذا كانوا يصرون على أحكام الشريعة الإسلامية فليطبقوا علينا نحن أحكام الشريعة المسيحية.

نظر إليها عادل من خلال زجاج كأسه وتساءل بينه وبين نفسه:

هل من المنطقي أن نظل نحب أقرباءنا حتى لو تيقنا تمامًا من أنهم مجرد أبقار؟

بينما أجابها مجدي بلهجة ودود:

- لا يوجد ما يمكن أن نسميه الشريعة المسيحية باستثناء الأحوال الشخصية وهي ما نطبقه بالفعل، أما باقي الأحكام فقد خضع

الأقباط طوال عمرهم لقوانين خارجة عنهم سواء أكانت رومانية أو بيزنطية أو فرنسية.

فقال بيتر موجهًا كلامه لماريان، وكأنما ظفر من خلال كلمات أبيه ببغيته:

- ألم أقل لكِ؟ لقد كان الأقباط مضطهدين طوال تاريخهم ولم يُسمح لهم أبدًا بأن يطبقوا شريعتهم حتى على أنفسهم.

فسأله مجدي بلهجة من نفد صبره:

- وما هي أحكام شريعتنا التي تريد تطبيقها علينا وقد أمرنا المسيح أن نعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله وقال: «مَملكتي لَيستْ مِن هذا العالَم»؟

فقال عادل ساخرًا، وقد بدأت الخمر تداعب رأسه:

- لعله يقصد أن نطالب بقانون يجعل مَن يُضرب على خده الأيمن يدير خده الأيسر ليُضرب عليه.

فأكمل مايكل ضاحكًا متشجعًا بصمت أبيه:

- أو نصدر قانونًا ينص على براءة كل مَن يَقتل أو يَسرق لأن المسيح قال: «لا تَدِينوا لكي لا تُدَانوا».

فضج الجميع بالضحك باستثناء نصيف وابنته، ولما صمتوا قال مجدي بأسى:

- المشكلة أننا ندور مع المسلمين في حلقة مفرغة، فكلما طالبنا بشيء ديني اعترضوا، وكلما طالبوا بشيء ديني اعترضنا؛ لذا لا بد من نهاية لهذه المهزلة وأن نوفر طاقتنا لإعادة بناء الدولة المدنية العلمانية التي دمرها العسكر.

فقالت ماريان:

ـ وكيف نفعل هذا والإخوان ينتشرون في كل مكان وكل همهم القضاء على الأقباط أو أسلمتهم.

فأجابها بلهجة مترفقة:

ـ وهل الحل يا حبيبتي أن نصنع مثلهم فيصبح هناك الإخوان الأقباط في مواجهة الإخوان المسلمين ليتمزق البلد بين الفريقين؟

ثم توقف لحظة كأنه تذكر شيئًا فقال موجهًا حديثه للشباب:

ـ هل تعلمون أن هذا حدث بالفعل مع أوائل حركة يوليو وكادت تقوم ثورة قبطية لولا أن ربنا سلم.

هتف الأربعة ـ مايكل وماريان وبيتر وساندرا ـ في صوت واحد:

ـ ثورة قبطية؟

ـ نعم، كانت ثورة مسلحة على «الأنبا يوساب» بطريرك الأقباط وقتها.

فتهلل وجه مايكل، وظل بيتر وساندرا على دهشتيهما، بينما قطبت ماريان حاجبيها استنكارًا، ولوح نصيف بيده كأنما يريد إغلاق الموضوع، فاسترسل مجدي قائلًا:

ـ كانت ثورة خائبة، قادها شباب سموا أنفسهم «جماعة الأمة القبطية» واعتقلوا البطريرك لإجباره على التنازل عن البابوية.

فسألته ماريان بلهجة حذرة:

ـ لماذا؟

ـ لأنه كان يعارض توجهاتهم وأهدافهم، فأرادوا إجبار المجمع

المقدس على اختيار بطريرك جديد يؤيد أفكارهم الشاذة التي انتهت لحُسن الحظ في وقتها.

سألته ساندرا، رغبة في مسايرة حديثه الذي تأنس له دون أن يدفعها فضول حقيقي لمعرفة مصير الجماعة أو البطريرك:

ـ وهل استجاب لهم المجمع المقدس؟

أشار مجدي بيده نافيًا وهو يتوجه ناحية طاولة المنتصف، ثم قال وهو يتناول بيده ملقاط الثلج:

ـ انتهى الموضوع سريعًا بالقبض على المجموعة التي خطفت البطريرك، وهرب الباقون ثم أُعيد البابا إلى مقره.

عادت ماريان تتساءل بمزيد من الحذر وكثير من الفضول:

ـ وماذا كانوا يريدون بالضبط؟

فأجابها والدها بنبرة جمعت بين الحماسة والأسف:

ـ كانوا يريدون تحرير مصر.

فارتسمت على وجه مجدي ابتسامته المشرقة، وقال وهو عائد إلى مكانه بعد أن وضع قطعتَي ثلج في كأسه الفارغة:

ـ نعم، كانوا يريدون تحريرها من المسلمين...

ثم استرسل، رافعًا صوته ليُسمَع وسط ضحكات عادل الصاخبة:

ـ وكانوا أيضًا ينادون بشعارات يقابلون بها شعارات الإخوان المعروفة، فكانوا يهتفون: «الإنجيل دستورنا» و«الموت في سبيل المسيح أسمى أمانينا».

تزلزلت جنبات المكان من صخب ضحكاتهم جميعًا باستثناء نصيف الذي قطب جبينه اعتراضًا، وماريان التي واصلت محاولاتها

الإلمام بذلك التاريخ المدهش الذي أطل برأسه من زوايا النسيان، فأعادت طرح أسئلتها على خالها:

ـ وهل تم القبض على الجماعة كلها؟

ـ لا، قُبض على قياداتها فقط وتمت محاكمتهم، وهرب الباقون إلى الخارج أو إلى الأديرة.

ـ ترهبنوا؟

ـ بعضهم ترهبن ثم دخل في السلك الكهنوتي.

فقال عادل بنبرة هادئة لها وقع التنميل بتأثير الخمر وقد استرخى تمامًا في مقعده فبدا كأنه نصف نائم:

ـ وكان منهم الراهب أنطونيوس السرياني.

انطلقت من صدارة المجلس صرخة خنفاء هائلة:

ـ عاااااااااااااادل.

انتبه عادل إلى ما نطق به، فزم شفتيه وكمش رقبته بين كتفيه إشفاقًا وهو ينظر ناحية مجدي الذي اكتفى بابتسامة خفيفة، وخيم التوتر على المكان حتى خرجت ماجدة عن صمتها الذي لزمته منذ بداية الحوار محاولة ـ كعادتها ـ إرضاء الجميع، وفي الوقت نفسه إنهاء الجدل حول هذا الموضوع الشائك بإعادته لنقطة البداية لتمضي به بدبلوماسية نحو منعطف آخر، فقالت بصوت ناعم وبنبرة هادئة:

ـ على أي حال فالكنائس تقوم منذ زمن طويل بأنشطة اجتماعية عديدة، وعندما كنا ندرس في الأمريكان كوليدج كان للكنيسة

الإنجيلية دور خيري كبير نشارك فيه جميعًا مسيحيات ومسلمات أيضًا.

رمقها نصيف بغيظ، فأكملت وهي متجهة ناحية طاولة البيك آب لتختار أسطوانة تصلح كخلفية ممتعة لسهرة عائلية أصرت ألا تدعها تنقلب إلى شقاق بين الأخوين اللدودين:

ـ وكانت أكثرنا مساهمة في الأنشطة الكنسية باكينام خوشتم، حتى إنها ظلت تساهم بعد تخرجنا وزواجها من الدكتور عبد الحميد شتا.

تعلقت بها الأعين، وثمة تغير واضح حدث في الوجوه بمجرد أن نطقت باسم «باكينام»، فتألق وجه مجدي بابتسامته الحلوة الرائقة، ورقَّص عادل حاجبيه استحسانًا، حتى نصيف تلاعبت مُقلتاه من أعلى زجاج نظارته الطبية وتسلل لحافة شفتيه الرفيعتين الممسوحتين شبح ابتسامة ما، بينما تطلع الشباب باهتمام لمجدي وهو يقول في إعجاب:

ـ هي ابنة مظفر باشا خوشتم، كان من أغنى رجال الخاصة الملكية لكنه كان شريفًا محترمًا ولم يكن فاسدًا كأغلب رجال الخاصة.

فأومأ عادل برأسه مضيفًا:

ـ وكانت باكينام أجمل سيدة في مصر وأشيك حتى من أميرات العائلة المالكة.

فهزت ماجدة رأسها وهي تقول بأسى:

ـ ربنا يرحمها، لقد عانت سنوات من المرض اللعين قبل وفاتها.

فسألها مجدي باهتمام:

ـ ما أخبار ابنتها الجميلة؟

ـ ماهيتاب؟ الرب يعوضها كتير، فقد كانت شديدة التعلق بأمها التي ورثت عنها جمالها الأخاذ، لكني لم أعد أعرف أخبارها منذ ليلة عزاء أمها.

فقال بيتر بلا اكتراث:

ـ قابلتها من حوالي عامين في إدارة النادي ونحن نسدد الاشتراك السنوي، كانت ترتدي ملابس طويلة وغطاء رأس ثم اختفت تمامًا من النادي بعد ذلك.

فتح عادل مُقلتيه إلى أقصى حد وهو يسأل بيتر:

ـ ماذا تقصد بغطاء الرأس؟

ـ يبدو أنها تحجبت هي الأخرى.

فلم يتمالك عادل نفسه، إذ كانت زجاجة الويسكي قد نفدت تمامًا وبدا كل شيء أمامه مترنحًا، فترك رأسه يسقط على صدره ثم طوح يديه حوله وأخذ يخبط بهما على رأسه في حركة فكاهية وهو يردد بلكنة صعيدية قحة وبطريقة روفائيل حنًّا جُملًا مقطعة منغمة كأساليب الندب في مآتم الكودية:

ـ ماهيتاب اتحجبت.. لبست الطاجن يا بوييي.. البت المليحة لبسوها الخيمة وطاجن ستييي.. يا وجعة سودة يامَّه.. يا وجعتك المجندلة يا مصر.

انفجر الجميع ـ بلا استثناء ـ في ضحك صاخب متواصل.

(٣)

تقع عمارة الأخ المتولي عند تقاطع شارع الطيران مع شارع محمد مندور، وتشكل مع غيرها من أبنية المنطقة مربعًا إخوانيًّا بامتياز، يمكن تتبع أضلاعه بدءًا من زاوية «مسجد رابعة العدوية» وصولًا إلى الأمن المركزي، ثم ينفرج باتساع الحيين السابع والثامن، حتى يصل إلى شارع الدكتور أحمد فخري، مرورًا بشارعَي عباس العقاد ومكرم عبيد، حيث تنتشر في الشوارع الرئيسية والفرعية لهذه المنطقة مجموعة من الأبنية السكنية والمعارض والشركات التي أنشأها الإخوان المسلمون بدءًا من سبعينيات القرن العشرين.

ورغم أنه تم التخطيط لإنشاء «مدينة نصر» منذ منتصف الحقبة الناصرية، من خلال برنامج للتوسع العمراني استهدف إيجاد امتداد لحي «مصر الجديدة» في شرق صحراء العباسية، فإن سكان القاهرة لم يُرحبوا كثيرًا بالنزوح إليها لعدة أسباب، أهمها عدم توفير خطوط كافية ومُيسَّرة للمواصلات العامة، في زمن اقتصر فيه استخدام السيارات الخاصة على طبقة اجتماعية مستريحة ماديًّا ليست هي المستهدفة بحال من إنشاء هذه المدينة الجديدة، لذا ظل السكن فيها يكاد يقتصر على العاملين بالقوات المسلحة من العسكريين والمدنيين الذين حصلوا على أراضٍ ووحدات سكنية بأسعار تشجيعية، فضلًا عن أبناء الجيل الجديد من سكان مصر الجديدة الذين تعذر عليهم العثور على مساكن مناسبة في الحي الذي نشأوا فيه.

أما التعمير الحقيقي لمدينة نصر، فقد تزامن مع الطفرة النفطية

لدول الخليج وهجرة المصريين للعمل بها، فضلًا عن الإفراج عمن تبقى من الإخوان داخل السجون، آخرهم مَن أتم مدة السجن المؤبد المحكوم بها في قضية المنشية عام ١٩٥٤ ونزلاء «زنازين شمال» من معتقلي تنظيم ١٩٦٥ الذين رفضوا التوقيع على بيانات التأييد للنظام الحاكم التي وقَّع عليها سائر الإخوان، وأكثر هؤلاء المفرج عنهم في الفترة من ١٩٧١ حتى ١٩٧٤ لحقوا بمَن سبقهم من الإخوان للعمل في دول الخليج أو حصلوا على توكيلات لمؤسسات تجارية يملكها في الغالب إخوان تجنسوا منذ الخمسينيات والستينيات بجنسيات عربية وأجنبية، وحققوا نجاحات عملية وثروات كبيرة ثم عاودهم الحنين للاستثمار في الوطن بعد أن اطمأنوا لاستقرار الأوضاع السياسية والاقتصادية، خاصة بعدما طبق السادات سياسة الانفتاح الاقتصادي عقب إعلانه أن حرب أكتوبر هي آخر الحروب المصرية الإسرائيلية.

كانت لافتة «شقة للإيجار» قد اختفت تمامًا من الشارع المصري منذ بداية الستينيات، وبدأ مُلاك العقارات يتحايلون على التدني الإجباري لقيمة إيجارات المساكن خلال فترة المد الاشتراكي عن طريق تقاضي مبالغ مالية من الراغبين في استئجار الشقق اصطلح على تسميتها «خلو رِجل»، ومع تعرض المُلاك لحملات القذف الإعلامي والملاحقات القضائية نتيجة هذا التصرف المخالف للقانون، فقد تجمدت لسنوات حركة البناء الأهلي وعانت الطبقة الوسطى من أزمة سكن طاحنة عصفت بثبات قِيَمها المتوارثة وأثرت بشدة على بِنيتها الاجتماعية، نتيجة اشتراك عدة أُسر لأجيال متعاقبة في شقة واحدة أو

لجوء الأسر الحديثة إلى السكن المفروش باهظ التكاليف والمؤقت بطبيعته، واستمر الوضع حتى بدأ نظام تمليك الشقق السكنية دون حصة في الأرض المبنية أو مع حصة مشاعة فيها، وهو نظام لم يكن معروفًا في مصر من قبل، فانقشع ضباب الأزمة خاصة بالنسبة للعاملين في الخليج حيث أصبح بمقدورهم بعد سنوات قليلة من الغربة أن يتملكوا وحدات في العمارات السكنية الحديثة، وقد كانت مدينة نصر نظرًا لامتدادها الهائل كأكبر أحياء القاهرة آنذاك مجالًا رحبًا للاستثمار العقاري أحد أهم أنواع الاستثمار الذي اتجه إليه إخوان الداخل والخارج.

تُعد عمارة الأخ المتولي نموذجًا معماريًّا للمنطقة ولغيرها من المناطق الحديثة الممتدة على أطراف القاهرة، فبينما كانت العمارة التراثية الإسلامية هي النمط المعماري للأحياء القديمة كالفسطاط والقاهرة الفاطمية، ساد النمط الأوروبي النيوكلاسيك المزينة واجهاته بالزخارف الثرية الفاخرة أحياء القاهرة الخديوية الممتدة من الأزبكية ـ وسط البلد وغيرها من أحياء الطبقة المستريحة قبل الثورة كالزمالك وجاردن سيتي والدقي، وقريبًا منها بلمسة شرقية مميزة المعادي ومصر الجديدة، ثم ساد النمط المعماري الاشتراكي البسيط الخالي من الزخارف والتفاصيل معظم الأحياء التي أقيمت خلال الخمسينيات والستينيات، مثل مدينة الضباط ومنشية البكري وبعض مناطق الهرم والمنطقة الأولى لمدينة نصر فضلًا عن الأحياء الشعبية النمطية، فإن الطابع المعماري الذي سيسود أحياء القاهرة بدءًا من منتصف السبعينيات هو ما يمكن أن نطلق عليه «اللانمط»، حيث

تم استخدام العديد من الأشكال المعمارية دون تنسيق، حتى أصبح بالإمكان مشاهدة إحدى العمارات الفارهة ذات الطابع الحداثي وقد غلب على واجهتها استخدام النوافذ الزجاجية وألواح الألوميتال كأنها منقولة بالكامل من نيويورك أو إحدى العواصم الخليجية الحديثة، يجاورها مبنى له طابع إسلامي بألوانه الهادئة ودهاناته المدببة ومشربياته الخشبية المنمنمة، وغير بعيد منها يقع مبنى قرر مالكه أن يزين واجهته بزخارف الباروك العتيقة، بل إن المبنى الواحد قد تزخر واجهته بعدة أنماط تختلف باختلاف مُلاك وحداته وتتباين بتباين أذواقهم كاشفة عن تمايز حاد في الخلفية الاجتماعية والثقافية لسكان المنطقة الواحدة على نحو لم تشهد الأحياء القديمة ـ الراقية منها والشعبية ـ له مثيلًا، فما عاد النمط المعماري لهذه الأحياء الحديثة معبرًا عن نزوة خديوي أراد نقل النموذج الباريسي إلى مصر، أو عن حلم زعيم بإلغاء الفوارق بين الطبقات، وإنما أصبح انعكاسًا صادقًا لواقع الاغتراب المادي والروحي، الداخلي والخارجي الذي أصاب الشخصية المصرية في تلك المرحلة.

لم تعرف القاهرة لعقود طويلة طقسًا حارًّا رطبًا خانقًا على غرار ما عرفته في صيف عام ١٩٧٧، إذ بدا كما لو أن العاملين بدول الخليج عادوا في إجازاتهم الصيفية مصطحبين معهم قِطعًا من لهيب الصحراء، حتى إن أجهزة تكييف الهواء التي كانت إلى ذلك الحين مجرد نادرة خليجية بدأت تعرف طريقها إلى النوافذ المصرية، ومن ثَمَّ ظهرت هنا وهناك متاجر متخصصة في هذا النوع الجديد من السلع الاستهلاكية التي لم يعرفها المصريون من قبل، بل إن

بعض السيارات الحديثة التي انطلقت تجوب شوارع القاهرة في الآونة الأخيرة كان مثبتًا بداخلها أجهزة تكييف صغيرة الحجم.. فمَن كان يتخيل؟

لاح جهاز تكييف معدني مستطيل الشكل على البعد أسفل إحدى نوافذ الطابق الخامس حيث تقع شقة الشيخ صالح العقاد، كان الجهاز يعوي محدثًا جلبة بينما قطرات الماء تتساقط منه على الرصيف، وبدا مساء ذلك اليوم الجهنمي كما لو كان يُنذر بجو أقسى لهيبًا من نهاره، وإذ ذاك كان طالب ثالثة كهرباء يفكر في أنه لو استمر تزايد استخدام أجهزة التكييف على هذا النحو فسيؤدي إلى ارتفاع أشد في درجات الحرارة وإلى تفاقم الإحساس بالرطوبة خارج المنازل.

كان إسماعيل يحث الخُطى نحو بيت الشيخ صالح، قادمًا من طريق الأوتوستراد، حاملًا في يده علبة حلوى كبيرة ملفوفة بورق مفضض، وقد ابتل جبينه ومؤخر عنقه وأعلى قميصه بحبات العرق المتساقطة بلا توقف، كان يرتدي بنطلونًا رصاصي اللون يقف ذيله أعلى كاحل القدم وقميصًا من القطن الأبيض بكمين طويلين، وقد أغلق أزراره حتى الرقبة وأسدله واسعًا خارج البنطلون، وبدا شعر رأسه حليقًا لأقصى حد وقد حف شاربه وأعفى لحيته سوداء كثيفة.

لم يكُ مظهره وحده هو الذي تغير، فقد تلاشى ـ أو كاد ـ ذلك الحنين للماضي الذي كان يواكب خطواته نحو ملتقى الإخوان، فيستدعي على البعد مكنون ذكريات معطرة بعبق أخوة ثمين وبوصايا ومأثورات رسائل لا يُمحى صداها وبصور أحبة لا تغيب أطيافهم، توارى ذلك كله إلى ركن قصي من لا شعوره، بينما انداحت في

وعيه صورة شائهة لجماعة ضلت الطريق منذ زمن بعيد، جماعة لم تكتف باستسلام مخزٍ وبإمضاءات مدممة على قوائم تأييد مهينة.. لم تقنع بالتبرؤ من أنقى عناصرها وبالتنكر لأنصع صحائف تاريخها.. لم تروها دماء ضحايا سُفكت بين مطرقة جبروت كافر وسندان غدر سافر، بل انطلقت سادرة في غيها تبرم الصفقات مع طواغيت الأرض متآمرة معهم على الفئة القليلة المؤمنة مغبرة وجهها على أعتابهم بمهزلة «نبذ العنف»! فيا لحسرة الإمام الشهيد لو قُدر له أن يرى أشواك غراسه وقد برزت كرؤوس الشياطين تريد أن تلتهم كل نبتة طيبة في فكاك لا تشبع، تطحن ما تخرجه الأرض من شباب صالح فلا تلفظه إلا مضغة مائعة تعافها النفوس.

كان يحث الخُطى، يريد قضاء واجب بات على النفس ثقيلًا بعدما تأخر عن تأديته منذ أُجريت للشيخ جراحة دقيقة، حتى دفعه عتاب أمه فمضى طائعًا لها معرضًا عن كل لذعة حنين خفية تدفعه نحو الرجل الذي ظل طويلًا منغرزًا في شغاف القلب.. الحمد لله الذي أبدلنا خيرًا منهم أحبابًا وأوطانًا.. عامان قضيناهما في الإسكندرية بعد ضربة الطاغوت التي شتتت شمل الجماعة، ثم عدنا لنلتقي في القاهرة ولنبدأ من جديد.

اجتاحته ذكريات السنوات الثلاث المنصرمة فتقلصت ملامحه كأنه ينوء بحملها، لشد ما تغير ولشد ما تغير الآخرون.

داهمه شعور غربة ثقيل بينما كان يمد يده ليضغط على جرس الباب وحين فتح له حسن العقاد وقد لاح وراءه يسري الجوادي بابتسامته المصطنعة.

ما كان في حاجة إلى شيء من فراسة ليدرك أنهم يترقبون وصول شخصية مهمة.

جلسوا في قاعة داخلية فسيحة اصطفت فيها الأرائك الضخمة والمقاعد الوثيرة بدا أنها مهيأة لاجتماعات الإخوان، وقد استرخى الشيخ الناقِه على أريكة جانبية مريحة وفي مواجهته جلس إسماعيل وحسن ويسري وأحمد ابن حسن التلميذ بالمرحلة الإعدادية والذي ظهر واضحًا أنه قريب شبهًا وروحًا من جده وأنه أثير لديه.

ما كان في جعبته سوى عبارات المجاملة التقليدية، فقد عزم على التزام الصمت وعدم المشاركة في أي موضوع يخوضون فيه، واكتفى حسن بسؤاله عن أخبار الدراسة خاصة أنه عاد منذ بداية العام الدراسي إلى هندسة القاهرة، أجابه بتحفظ متجنبًا الإشارة لظروف تحويله لجامعة الإسكندرية عقب اجتيازه السنة الإعدادية، وتجنب الآخرون بدورهم التطرق لتلك المرحلة.

وصل أولًا الأخ محمود مجاهد، وهو رجل من الرعيل الأول الذين عاصروا الإمام حسن البنا وقضى عشرين عامًا في السجن بعد إدانته بالاشتراك في محاولة اغتيال عبد الناصر في ميدان المنشية ثم أُفرج عنه قبل سنوات، كانت المرة الأولى التي يلتقي فيها به وإن كان قد سمع عنه الكثير وظل يُكن له ولأمثاله ممن قضوا زهرة شبابهم وراء القضبان شعورًا خالصًا بالاحترام وبالاعتراف بالجميل، إذ مثلت تضحيات هؤلاء خصوصًا قدوة حية أدت إلى تشبث شباب جيلهم بالنهج الإسلامي، إنهم على الأقل لم يشاركوا في انشقاقات وانهيارات ١٩٦٥ كما أن أكثرهم

من أعضاء «النظام الخاص» الذي دأب الإخوان على الإساءة له في كل مناسبة.

بعد وصول الأخ محمود بدقائق، وصل الوفد المرتقب الذي هب كل مَن في القاعة لاستقباله بترحاب مُبالغ فيه، وبتوقير لا يتناسب مع مظهرهم الذي يدل على أنهم طلبة جامعيون لا يزالون، وهم خمسة من الشباب حديثي السن يتقدمهم أحدهم، تدل هيئته على أنه أكبرهم سنًّا وأنه قائدهم على نحو ما.

كان ضياء الدين عبد الفتاح، أو الدكتور ضياء كما تم التعريف به، رغم أنه ما زال طالبًا بنهائي الطب، طويلًا فارع الطول نحيفًا سريع الحركة حتى ليبدو كالسهم المنطلق لتوه من قوسه، حليق الشعر ذا لحية قصيرة مشذبة، أما ملامحه فتجمع على نحو لافت بين براءة طفولية وحدة مفرطة، يفرض حضوره شعورًا بالزعامة فله مهابة إن سكت وله قبول إن تحدث، ولأمر ما لم يشعر إسماعيل نحوه بالارتياح، أما زملاؤه الأربعة فقد بدوا كما لو كانوا مجرد انعكاسات ظلال للقائد الذي استحوذ على اهتمام الجميع كبيرهم وصغيرهم، وظهر واضحًا من سياق الحديث أن لقاءات سابقة جمعته بالأخ محمود مجاهد إلى أن جاء اليوم الذي يتم فيه توسيع دائرة التعارف بين الطرفين: الإخوان من ناحية يمثلهم محمود مجاهد، وصالح العقاد وابنه حسن ويسري الجوادي، والجماعة الإسلامية من ناحية أخرى يمثلها الدكتور ضياء وأقرانه وكلهم أعضاء باتحاد طلاب جامعة القاهرة.

تمنى إسماعيل لو أنهم تأخروا قليلًا في الحضور لما بعد مغادرته،

إذ استشعر حرجًا في الانصراف بمجرد قدومهم فقرر أن يجالسهم قليلًا دون أن يغريه أي فضول لكشف أبعاد هذا اللقاء المدهش بين الطرفين، إذ كان قد تعرف على عديد من أعضاء الجماعة الإسلامية بجامعتَي الإسكندرية والقاهرة فلم يجد لديهم سوى خواء فكري كخواء الإخوان، وسذاجة متناهية تُصور لهم أن بإمكانهم إقامة دولة الإسلام بالهتافات الرنانة الفارغة والعروض والرايات والندوات التي يقيمونها بالتنسيق مع إدارة الجامعة، فلا يجدون مَن يدعونه للمحاضرة فيها سوى إخوان نبذ العنف!

كان الأخ محمود مجاهد يتحدث بانفعال واضح حتى اختنق صوته، وهو يوجه كلامه للشباب:

- بارك الله فيكم وفي جهدكم العظيم، لقد مرت علينا سنوات داخل السجون اعتقدنا فيها أننا سنخرج فنجد الإسلام قد انتهى تمامًا من مصر وأننا لن نجد شابًّا ملتزمًا ولا امرأة محجبة، فإذا بنا نخرج بفضل الله فنجد كل هذا التغيير الذي يؤكد صدق مقولة نبينا صلى الله عليه وسلم إن الخير في أمته إلى يوم الدين.

هز ضياء رأسه بحركة عكست رضًا شديدًا عن النفس، فيما قال أحد الشباب:

- هذا غراس أياديكم الكريمة وما قدمتموه لنا من قدوة صالحة، فلكل دعوة وقودها وكنتم أنتم وقود دعوتنا بتضحيات السنين الطوال، حتى تقدمنا على نبراسكم لنُكمل المسيرة ولنحقق بإذن الله الرسالة التي نادى بها الإمام الشهيد.

قال يسري وهو يرمق إسماعيل من طرف خفي:

ـ لقد كادت الدعوة تنحرف عن مسارها بأفعال متعجلة حمقاء لولا أن قيض الله لها شبابًا صالحًا يكمل المسيرة على النهج الذي اختطه إمامنا.

أدرك إسماعيل ما يقصده يسري بتلميحاته لكنه تشبث بصمته متجاهلًا فحوى الرسالة، وإذ بضياء يعقب بثقة طفولية:

ـ لا شك أن تنظيم الفنية العسكرية كان يضم شبابًا مخلصًا عرفت بعضهم، كان منهم زميلنا مصطفى علوي نحسبه على خير، لكنه كان طيبًا بسيطًا؛ لذا تمكنوا من إقناعه بهذا الفكر الساذج الذي يرى الحل في عمل انقلاب للسيطرة على الدولة.

لاح شبح ابتسامة ساخرة على جانب فم إسماعيل، فيما قال يسري بانفعال ضاعفه وجود إسماعيل:

ـ هذا لم يكن فكرًا ساذجًا بل فكر خطير، لا يؤدي فقط إلى فشل تكتيكي لكنه كفيل بضرب قواعد رسالة الإخوان لأنه في الأصل فكر تكفيري إقصائي.

بدأ صدر إسماعيل يضيق بالاستماع لهذا الغثاء، ولم يكن الجدال في نيته ولا في مقدوره.

كان قد هرب إلى العزبة بعد كشف التنظيم والقبض على قياداته، ولما اطمأن إلى عدم دخوله في دائرة الاشتباه، استعان بنفوذ أحد أعمامه للتحويل لهندسة الإسكندرية مبررًا ذلك بحالة نفسية انتابته تستدعي تغيير المكان، أخفى عن الجميع علاقته بأعضاء التنظيم، لكن شكوك يسري الجوادي ظلت تحوم حوله لمعرفته بعلاقته بوائل محمود أحد الذين أُدينوا في القضية.

قال حسن العقاد بلهجة قاطعة:

ـ المهم أن التحقيقات وقتها أثبتت عدم وجود أي علاقة بين هذا التنظيم وبين الإخوان، خصوصًا أن رفض الإخوان للفكر الانقلابي بات أمرًا واضحًا ومؤكدًا لدى المسؤولين وأجهزة الأمن.

غشي إسماعيل شعور مزدوج بالقهر والازدراء، وعقَّب الشيخ صالح بصوته الواهن مؤكدًا:

ـ هذه الأفكار الشاذة كلها طرأت أثناء محنة ١٩٦٥ وتأثرت بكتابات سيد قطب لكنها كانت غريبة عن الفكر الأصيل للإخوان وعن المنهج الذي وضعه الإمام الشهيد للتحرك بالدعوة، لذا كان رد الأستاذ الهضيبي رحمه الله حاسمًا في مواجهتها...

ثم مستدركًا وهو يوجه كلامه للشباب:

ـ هل قرأتم بعض ما جاء في وثيقة «دعاة لا قضاة»؟

أجابه ضياء:

ـ نعم وصلتنا مَلازم منها وقمنا بتصويرها وتوزيعها على أغلب الأعضاء، أفكارها تعتبر في رأيي بمثابة تأكيد على ما تضمنته الرسائل.

أومأ الشيخ صالح برأسه علامة الرضا، بينما أخذ إسماعيل يتأمل وجه الشيخ وهو يسائل نفسه متعجبًا: كيف كان يرى انعكاسات الطيبة والنقاء وإشراقات الإيمان على صفحة هذا الوجه الذي لا يطالعه اليوم إلا بملامح تعكس العداء والتآمر على كل ما يعتنقه ويؤمن به ويهبه حياته كلها؟ يتهم فكر «البدريين» النقي كنقاء تجربة السابقين الأولين

إلى الإسلام بأنه فكر شاذ، ويدين «سيد قطب» بسفاهة منقطعة النظير على مسمع من «زعماء الطلبة» المتحالفين بجهالتهم مع طواغيت العصر، كان قلبه يعتصر ألمًا بين ضلوعه تحت ضغط اضطراره لأن يلوذ بالصمت بينما تُهان ذكرى أعظم رجال العصر، الشهيد الذي أرسله الله على رأس مائة عام ـ كنبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ليجدد للناس أمر دينهم، الرجل الذي وقف صامدًا كجبل أشم يأبى التراجع عن حرف واحد مما خطته يداه تبيانًا للحق ونصرة لدين الله حتى لقي ربه شهيدًا.. أين أنتم منه أيها الجبناء المتخاذلون الموقعون بدمائكم الباردة على وثيقة تأييد الكافر وعصابته.. أين أنتم منه أيها المنافقون يا مَن تبرأتم منه ساعة المحنة وما زلتم تُسيئون إليه في مجالسكم الخاصة، بينما تدَّعون على صفحات مطبوعتكم الخائبة «الدعوة» أنه منكم لتضيفوا لرصيدكم زورًا مَن فاصلكم بناصع فكره وباتباعه سبيل الحق، وفاصلتموه بخَوركم وبصفحات اعترف مرشدكم علنًا دون حياء أن المباحث العامة راجعتها ووافقت عليها.. دُعاة لا قضاة.. بخٍ بخٍ يا إخوان المباحث العامة!

شعر باختناق وبصهد يتصاعد من رأسه رغم اعتدال جو الحجرة بفعل جهاز التكييف، وأخذ يترقب انقطاع الحوار بلحظات صمت ليتمكن من الانصراف دون أن يشعر أحد بشيء مما يدور في نفسه.

كان محمود مجاهد يقول بنبراته العميقة الهادئة المطمئنة:

ـ لقد تسبب نشر أدبيات الإخوان على نطاق واسع في تغيير الصورة المشوهة التي حرص الشيوعيون والملاحدة على الادعاء بأنها هي حقيقة الإخوان، فأصبح بعض أعداء الأمس

يطالبون اليوم بتمكين جماعة الإخوان من العودة لممارسة نشاطها علانية.

قال يسري مصدقًا على كلامه:

- نعم يا فضيلة الأستاذ، فمَن كان يصدق أن يعترف «كمال الدين حسين» داخل مجلس الشعب بأن الإخوان المسلمين هم مَن سيقدمون الدعم الحقيقي لمبادئ الثورة؟

حسن العقاد بانفعال المنتصر:

- الرجوع للحق فضيلة، فها هو واحد من قيادات حركة يوليو يعترف بفضل الإخوان الذي جحدوه طوال سنواتهم السوداء.

فقال صالح العقاد بنبرة واهنة:

- هذا الرجل «حقاني»؛ لذا عانى من جبروتهم ما عاناه، أعتقد أن عمله في المجلس مع رجال مثل الشيخ «صلاح أبو إسماعيل» والدكتور «محمود شعبان» سيجعله يرى الحقائق بصورة أوضح.

محمود مجاهد بنبرة يقينية:

- وهذا كان منهجنا دائمًا، ألا نبارز أحدًا بالعداء، ولكن بالصبر على المكاره وتبيان الحقائق حتى نتمكن من إقناع الناس أن جماعة الإخوان كانت دائمًا وستظل في خدمة الإسلام وخدمة هذا البلد.

فلتنتظروا نصف قرن آخر أيها البلهاء حتى يقتنع الناس بأن الإسلام هو الحق، وها هو زعيم الطلبة يدلي بدلوه هو الآخر، فلتلزم الصمت يا أبا السباع وحسبه جهادًا في سبيل الله.

قال ضياء بنبرة لم تخلُ من زهو مَن يستشعر الفضل في جهود شباب الحركة:

ـ العمل الإسلامي تمكن بفضل الله من الوصول إلى مناطق لم تكن مهيأة من قبل لإنبات بذور الدعوة، وحسبنا تزايد عدد الطيارين الذين رفضوا نقل الخمور على طائراتهم رغم موقف «مصر للطيران» المخزي بتوقيع الجزاءات عليهم وفصلهم من الخدمة.

فعقب أحد الشباب قائلًا:

ـ لا شك أن موقف نواب الشعب من تعسف الشركة مع هؤلاء الطيارين شجع عددًا منهم على أن يسفر عن وجهه الإسلامي الرافض للتعامل مع الخمور والبقية ستأتي بمشيئة الله.

وهل هذا هو تطبيق شرع الله على الأمة؟ خطوة للأمام وخطوتان للخلف، مقال شارد في صحيفة تعج بالموبقات وطلب إحاطة في برلمان شِركي وكلمات خائبة عن ثقافة الأمة كأنها تتسول من أعداء الله أن يتعطفوا فيتركوا لنا شعيرة نمارسها أو جزءًا من شريعة نطبقه برضاهم حتى حين؟ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟

انبرى شاب ثالث قائلًا بلهجة خطابية:

ـ نقطة البداية في رأيي لا بد أن تكون بتغيير الثقافة التي تقدم للشباب والارتفاع بمستواهم الفكري، وهذا دورنا الأهم في الاتحاد لأن التردي الفكري والتخبط بين أفكار الشرق والغرب يحول بين الشباب وبين التعرف على الإسلام كحل وحيد لجميع مشاكله ومشاكل الأمة.

أومأ محمود مجاهد برأسه في رضا عميق، بينما قال يسري محذرًا:

ـ لكن انتبهوا لكيلا يتسرب الفكر التكفيري إلى التكوين الثقافي للشباب لأن له إفرازًا كالسم المدسوس في العسل...

ثم بلهجة متوددة، وهو يشير بيده لمجموعة الشباب:

ـ لكني أثق أن القيادات الطلابية الإسلامية أول مَن يدرك خطورة هذه الأفكار ويحذر منها.

فأجابه ضياء وهو يحرك كفه يَمنة ويَسرة علامة الرفض القاطع:

ـ قضية التكفير ضلال في ضلال، والذين يزعمون أن بلادنا الإسلامية هي دار حرب يريدون تسليمها غنيمة سهلة للأعداء، لكن اطمئِنوا فشبابنا والحمد لله مدرك لخطورة هذه الدعاوى ويرفضها تمامًا لأننا نعلم أنها طارئة ودخيلة، وأن رسالتنا هي دعوة الناس إلى الإسلام ومد اليد لهم لمساعدتهم على الهداية وليس الحكم عليهم بالكفر.

تحيَّن إسماعيل فرصة انشغالهم بتناول ما قُدم من شاي وحلوى، فسارع بارتشاف ما في كوبه، ثم نهض مستأذنًا فودعه الجميع بودٍّ دون أن يحاول أحدهم استبقاءه، وحين كان يهم بفتح باب الشقة يصحبه حسن العقاد مشيعًا سمع من الداخل صوت يسري يقول بنبرة غيَّرها امتلاء فمه بقطعة الحلوى:

ـ يجب أن يعلم الجميع أن الإخوان المسلمين طلقوا العنف طلاقًا بائنًا لا رجعة فيه.

هبط الدرج قفزًا كالهارب من عدو، وقادته قدماه للطريق فأخذ يحث الخُطى مبتعدًا عن المكان قدر استطاعته وهو يملأ صدره

بالهواء كأنما يطرد عنه آثار الجو المكيف الصناعي الخانق الذي لبث فيه ساعات.

❊ ❊ ❊

كانت الساعة تدور حول الحادية عشرة مساء، بينما السيارة هوندا الزرقاء موديل ١٩٧٧ تقطع كوبري قصر النيل باتجاه كوبري الجلاء، وقد هدأت حركة المرور إلى حد سمح لهما باستشعار جمال ليل القاهرة ونسائم صيفية منعشة تطارد فلول ذلك اليوم القائظ الذي بدا لهيبه عصيًّا على الإطفاء.

تطلعت عزة من خلال نافذتها المفتوحة، فداعبت عينيها انعكاسات أنوار تتلألأ على صفحة النيل، وأنعشتها نسمات حانية عطرة صافحت وجنتيها وعبثت بخصلات شعرها المنسدلة على جبينها وحول رقبتها بينما رفعت باقي شعرها أعلى رأسها على شكل شينيون، أسندت رأسها إلى مسند المقعد المرتفع وهي تأخذ نفَسًا عميقًا.

لفَّهما صمت لطيف مذ غادرا الهيلتون، لزمت الصمت فسكت هو، ثم اقترح سماع بعض الموسيقى من خلال كاسيت السيارة فأومأت برأسها موافقة، فشغَّل «سوناتا ضوء القمر» التي أكملت نغماتها العذبة الإطار الرومانسي المحيط بهذه الليلة الهادئة العجيبة.

بدأ عجبها منذ الأمس حين هاتفها تلفونيًّا طالبًا أن يلقاها في اليوم التالي ليتحدث معها في أمر ما، وافقت واتفقا على اللقاء في الثامنة مساء أمام مقر المجلة بعد أن تنهي عملها، والحقيقة أنها تعجبت من موافقتها دون تردد أكثر مما تعجبت من طلبه أن يلتقيا منفردَيْن لأول مرة.

وهي لا تعرف حتى هذه اللحظة لمَ حرصت على ارتداء الإنسامبل الأنيق الذي ابتاعته حديثًا بمبلغ كبير لترتديه في المناسبات المهمة، وجدت نفسها تضعه قبل خروجها من البيت متوجهة للمجلة في ظهيرة ذلك اليوم القائظ، تأملت صورتها في المرآة بافتتان، بدت في قمة جمالها وأناقتها وهي ترتدي إنسامبلًا أبيض بجوب «شانيل» ضيقة وجاكيت مزينة بخياطات سوداء بارزة وحذاء بكعب مرتفع من اللونين الأبيض والأسود معه حقيبة يد صغيرة بذات اللونين.

ترددت وأوشكت أكثر من مرة على استبدال ملابسها، بل أخرجت من الدولاب قميصًا قطنيًّا وبنطلونًا من النوع الذي ترتديه في العمل خاصة في هذه الأيام الحارة، لكنها ظلت مترددة ثم أقنعت نفسها في النهاية بأنها تريد استطلاع رأي زميلاتها في الإنسامبل الجديد قبل أن ترتديه في أي مناسبة!

ساورها شعور بالضيق حين توجهت إلى حجرة أبيها لتُقبله كعادتها قبل خروجها من المنزل، قرأت في عينيه ما يشبه التساؤل وشعرت أنه يقرأ أعماقها ككتاب مفتوح، أخبرته أنها ستتأخر الليلة في العمل وسألته إن كان يريد أن تحضر له شيئًا من الخارج فأجابها بالنفي وهو يطبع قُبلة على جبينها، فأحست بوخزة ضمير سرعان ما تجاوزتها وهي تقول لنفسها: إنه مايكل ولا شيء أكثر من ذلك!

هذا الفتى الخجول الذي تجمعها به صداقة مذ كانا في مرحلة الدراسة الإعدادية، كم خرجوا ـ كشلة ـ معًا إلى النوادي ودور السينما، كم تنزهوا في منطقة الهرم ونزلة السمان أو ركبوا الأتوبيس النهري ليتجولوا في ساحات الكنائس الأثرية بمصر القديمة، كانوا يغرقون

في الضحك حين يسخر مايكل من الكهنة وما يفعلونه داخل الكنائس، أو عندما يقلد طقوس المناولة بشكل فكاهي، ويضحكون أكثر حين يجاريه محمد في سخريته فيغضب مايكل ويمتقع وجهه كأن لسان حاله يقول: «إنهم قومي ومن حقي أنا فقط أن أسخر منهم!»، وكم كانت هذه المفارقة تُحيرها خاصة حين تبدأ بين الصديقين اللدودين ملاحاة تنقلب شجارًا إن لم يتدخل مصطفى كأنه الأخ الأكبر.

نعم كان مصطفى كذلك بالنسبة لنا جميعًا، لماذا لم أخبره برغبة مايكل في اللقاء بي بمفردنا؟ أوف! ما أسخف هذا.. الفتى يريد أن يتحدث معي ونحن صديقان فما المشكلة؟ ثم إنه مايكل ولا شيء أكثر من ذلك!

لماذا إذًا أخفيت أمر اللقاء عن الجميع حتى عن منى؟ وهل أنا مضطرة لأن أقدم كشف حساب للآخرين عن خط سَيري؟ إنني اليوم صحفية «بجد» وقد بدأ اسمي ينزل على بعض التحقيقات التي أشارك فيها.. عزة عياد.. ع ع، أعتقد أنني قادرة على التصرف الحكيم بمفردي، ثم إنه مايكل ولا شيء أكثر من ذلك!

وإسماعيل؟ تدفقت الدماء إلى وجهها فشعرت بما يشبه الاختناق، مدت رأسها خارج النافذة تتلمس نسمات منعشة، فيما السيارة تجاوز كوبري الجلاء وتمضي متباطئة تجاه شارع التحرير.

كان يخفف ضغطة قدمه على دواسة البنزين ما استطاع، في محاولة للاستزادة من اللحظات التي يقضيها بجانبها.. يكفيه أنه يتنفس هواءً داعب خصلاتها وقبَّل شفتيها قبل أن يتسلل إلى أحشائه.. لو أسعده زمانه فارتشف يومًا من شفتيها، إذًا لتحققت معجزة الخلق واكتمل

سِفر التكوين، ثم يأتي بعد ذلك سِفر الخروج أو لا يأتي، المهم أنها وافقت على لقائه منفردَيْن، هذه هي الخطوة الأولى.

قال لها بعدما أخذت مكانها بجواره في السيارة إنه حرص على أن تكون أول مَن يركب سيارته الجديدة، تهيأ له أن وجهها تورد لحظة، بدت له الليلة أجمل بكثير مما توقع، وتساءل بينه وبين نفسه: هل هي معتادة على الذهاب إلى عملها بكل هذه الأناقة أم أنها تزينت اليوم من أجله هو؟ أوه! لو كان أونكل عادل هنا لسألته.. «ادفعها لكي تحبك وخلاص».. ما زالت كلماته تتردد في أعماقه كترانيم صلاة.

تردد كثيرًا قبل أن يُقدِم على هذه الخطوة وفي النهاية حسم أمره، عندما وافقت على أن تقابله كانت الخطوة التالية أيسر، دعاها لتناول العشاء في أي مكان تختاره فاختارت بيتزريا «فندق هيلتون»، قالت إنهم يقدمون فيها بيتزا إيطالي شهية، حسنًا! كان يريد مكانًا أكثر هدوءًا وشاعرية أو مكانًا يتاح له فيه أن يراقصها، فليكن في المرات القادمة، وما دامت وافقت في المرة الأولى فقد انفتح الطريق أمامه بالفعل.

كم يستشعر دفء وجودها.. لِمَ هي بالتحديد؟ تعلق قلبه بها منذ أول لقاء بينهما في بيت مصطفى، كانوا مجرد تلاميذ في المرحلة الإعدادية، لم تكن أجمل البنات اللواتي عرفهن، لكنها بدت له كما لو أنها أجمل بنت في العالم، وعلى خريطة جسدها رُسمت أولى تضاريس مراهقته، عندما جاءت سنوات البلوغ المرهقة ارتبطت صورتها بلحظاته الحميمية القاسية المبهجة والمغرقة في عوالم

غامضة من الأسرار التي تتعرى أمامه تباعًا، تغير كل شيء بمرور الزمن وانكشاف الحقائق إلا هذه الصورة القادرة وحدها حتى اليوم على أن تضرم في جسده نيران الشهوة والتي استسلم لها تمامًا بعدما باءت كل محاولات استبدالها بالفشل.

لمَ لا تتحدث؟ الحوار بيننا منقطع تقريبًا منذ بداية اللقاء إلا من بضع كلمات تبادلناها خلال العشاء ثم ساد صمت مخيف، هي لا تكف عن الكلام حين يكون مصطفى معنا.. مصطفى؟ ماذا قلت؟ أقصد الشلة، أوه.. حسنًا! هذا طبيعي فالتواجد وسط شلة يختلف عن لقاء يضم اثنين، يكفيني الليلة استشعار بهجة وجودها ولسوف يتغير الوضع في المرات القادمة.. داهمته شكة ألم في صدره وانسابت نغمات السوناتا نحو الحركة الختامية فنقلته لحالة شجن عميق.

ليت مصطفى كان معنا الليلة.. لمَ مصطفى وحده؟ ليت الشلة كلها كانت هنا لتكتمل متعة السهرة.. مايكل طيب ومؤدب وصديق قديم مخلص لكني لا أشعر بالراحة.. ماذا حدث؟ إنها ليلة وانتهت فلا تَدَعي الأوهام تسيطر عليك.. ماذا لو شاهدَنا أحد بمفردنا وقد قارب الليل على الانتصاف؟ مَن تقصدين؟ أقصد بابا طبعًا فلكم أشعر تجاهه بتأنيب ضمير، كان يردد دومًا على مسامعي: «لقد منحتكِ يا عزة حرية بلا حدود لأني أثق بكِ وأثق أنكِ لن تُسيئي استخدام هذه الحرية أبدًا». وهل أسأت استخدامها؟ لماذا تبالغين في مشاعركِ السلبية تجاه حدث صغير؟ وهل بإمكانكِ أن تخبريه بهذا الحدث الصغير؟ أوه! إنها ليلة وانتهت ولن تتكرر مرة أخرى.. وإسماعيل؟ آه ما أشد الأحزان.

تتحرك الأعوام لتزيد الهوة بيننا اتساعًا، ويزيدني مرور الزمن عجبًا.. ما تلك القوة الخفية التي تربطني به فلا أستطيع منه فكاكًا؟ هكذا غاب دون تمهيد.. عامان كاملان رغم محاولات أمه لإثنائه وتساؤلات أبي التي لم يتلقَّ عنها جوابًا.. رغم صرخات قلبي الذبيح يستعصي عليها اللسان فتفر لخزان دموع تُفتح أبوابه حين آوي إلى وحدتي قبل وبعد ذلك الرحيل الغادر.. ومحاولات نسيانه البائسة الفاشلة.. ثم عاد كأن شيئًا لم يكن.. لمَ رحل ولمَ عاد؟ لا أحد يعلم.

ولكن هل عاد إسماعيل حقًّا؟ أم أن شخصًا آخر هو الذي ألقاه أحيانًا حين يأتي لزيارة أبي أو حين يجمعنا بالمصادفة مدخل العمارة أو الطريق، فيشيح بوجهه وهو يتمتم بكلمات غامضة ثم يسرع بالفرار من أمامي، وتلاحقه عيناي وأكاد أصرخ مستعطفة: أنا عزة يا إسماعيل فهل نسيت أيامنا؟ وهل تراك تفر مني أم تفر من كل ما يحيط بنا؟ زياراته لبابا أصبحت قليلة متباعدة، يأتيه كأنما يحمل واجبًا في عنقه عليه أن يسرع بالخلاص منه ويظل صامتًا طوال الزيارة رغم محاولات بابا استدراجه للحديث، دخلت عليهما يومًا فوجدته صامتًا مطرقًا إلى الأرض بينما بابا المسكين مسندًا رأسه على الوسادة الموضوعة خلفه مستغرقًا في نوم عميق.

وذلك الحلم يتكرر كثيرًا على مدى الأعوام الثلاثة الماضية: كأني أقف معه في مكان متسع مضيء ثم يعم الظلام ويضيق المكان ويحاول إسماعيل الاعتداء عليّ فأصيح مستنجدة وأنا أهرب من أمامه، وأظل أعدو حتى أجدني في أحضان رجل آخر كأنه حضن أبي لكنه ليس أبي بل هو شخص آخر لا أرى وجهه أبدًا فأشعر

بالراحة، ثم أصحو من نومي فأتمنى لو أني نظرت إلى وجهه في الحلم فوجدته إسماعيل! ورويت تفاصيل منامي لإحدى السيدات المنتقبات اللواتي ألقاهن بانتظام في بيت ماهيتاب، كانت تفسر الرؤى للسيدات، فأخبرتني أن محاولة ذلك الشخص ـ إسماعيل ـ الاعتداء عليَّ في الرؤيا إنما هو خير يحاول أن يوصله لي لكنني أفر منه.. ومَن هو الشخص الذي يفتح ذراعيه فأحتمي بأحضانه؟ أجابت بنبرة غريبة: «خيرًا إن شاء الله.. خيرًا إن شاء الله».

* * *

عندما وقفت السيارة أمام المنزل كان إسماعيل قد اجتاز المدخل لتوه فلفت انتباهه صوت كابح السيارة فالتفت خلفه، وفي اللحظة التي استدار فيها مايكل تجاه عزة ليصافحها قبل أن تنزل وجد إسماعيل في مواجهته كأنه شبح انبثق فجأة من وسط الظلام الدامس المحيط بالمكان، وفي اللحظة التالية كان إسماعيل قد فتح باب السيارة المجاور لعزة داعيًا إياها بلهجة حاسمة للنزول والصعود للبيت فورًا، ثم ركب مكانها وأغلق الباب من الداخل بقوة.

حدث هذا في ثوانٍ معدودات، فأسرعت عزة تعدو على الدرج بلا تفكير كأنها تفر من خطر داهم وقلبها يخفق بعنف حتى تكاد تسمع دقاته متخللة صوت أنفاسها اللاهثة.

أما مايكل، فقد انسحبت روحه من الرعب وتقلصت شفته السفلى بقوة وجحظت عيناه حتى تغير شكل ملامحه تمامًا، بينما ظل متسمرًا في مكانه متطلعًا إلى الأمام صوب نقطة واحدة غير مرئية كأن أحدًا لم يقتحم للتو سيارته ويركب بجواره.

كان إسماعيل في قمة الغضب والتوتر نتيجة المشهد الليلي المفاجئ، لكنه حاول السيطرة على انفعاله حتى تخرج كلماته واضحة باترة، نظر لجانب الوجه المتقلص وسأله بصوت حرص على أن يظل منخفضًا كيلا يلفت الأنظار:

ـ ما الذي أتى بك إلى هنا في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

ظل الفتى على وضعه كأنه لم يسمع شيئًا، فأعاد إسماعيل السؤال بصوت أعلى قليلًا وبنبرة أكثر حدة، فالتفت مايكل بوجهه ناحيته قليلًا دون أن ينظر إليه، بينما ظل وضع جسده كما هو متجهًا للأمام، وأجاب بصوت مرتبك وبنبرات متلعثمة:

ـ لقد.. لقد.. لقد كنت أوصل الآنسة عزة إلى البيت.

صاح وقد استفزته نبرات مايكل المائعة:

ـ ما لك أنت وعزة لتوصلها أو لا توصلها؟ وما الذي يجعلك أصلًا على اتصال بها لتعرف ما إذا كانت في حاجة لتوصيلة أم لا؟

كاد يفتح فمه ليقول كلمات لها علاقة بحرية عزة في التصرف أو بشيء من هذا القبيل، لكن المعاني اختلطت في ذهنه ولم تُسعفه الكلمات فصدرت عنه همهمات غير واضحة ضاعفت من استفزاز إسماعيل، فأخذ يخبط كفه بقوة على تابلوه السيارة أمام الفتى المرتعب وهو يصيح بصوت أفلتت نبراته الغاضبة من محاولات السيطرة فتلاحقت كلماته دون حرص:

ـ اسمعني جيدًا.. أنت صاحب مصطفى وهو حر في أن يختار أصحابه من أي مزبلة شاء، لكن حذار ثم حذار، فنحن قادرون على صد أي محاولة للاقتراب من بناتنا وأعراضنا، ولن نسمح

لأي نجس منكم بتجاوز الحد الذي يجب أن يقف عنده طائعًا مذعنًا.

كان إسماعيل يتحدث بصيغة الجمع سواء عن نفسه أو عن الآخر، ما ضاعف من ارتباك مايكل فالتفت إليه كأنما ليتأكد من أنهما ما زالا منفردَيْن وأن أحدًا لم يقتحم عليه السيارة لينضم لإسماعيل في هذا الموقف المخيف والمهين في آنٍ...

أكمل إسماعيل دون أن توقفه التفاتة مايكل، بل إنه حاول في هذه اللحظة أن يرشق نظراته المتحدية في نظرات الآخر الهاربة في كل اتجاه، قال بصوت ما زالت حدة نبراته تتصاعد بانفعال:

ـ إنها المرة الأولى والأخيرة التي يحدث فيها هذا الموقف، لن أتحدث إليها هي لكني «آمرك» أن تبتعد عن طريقها إن كنت تريد أن تنجو بنفسك، وأنا أعرف أن أمثالك من الجبناء لا يهمهم سوى النجاة بأنفسهم؛ لذا سأعطيك الفرصة هذه المرة للفرار، ثم والله الذي نعبد لإن علمت أنك اتصلت بها مرة أخرى لترين مني ما يجعلك تندم على اليوم الذي ولدتك فيه أمك.

قال جملته الأخيرة وهو يفتح باب السيارة وينزل منها، ثم صك الباب بأقصى قوته وظل واقفًا في مكانه على الرصيف، بينما مايكل يحاول أن يلملم شتات نفسه وهو يقبض بقوة على عصا الفتيس ليحركها إلى وضع مارشاريير حتى صدر عن السيارة صفير مزعج، ثم حاول أن يوازن قدميه على دواستَي البنزين والدبرياج والسيارة تتقافز منه وهو يتحاشى النظر ناحية الشاب الواقف أمامه.

بدا خروج السيارة من الشارع أشبه بخروج الفراشة من شرنقتها،

فكاد ينطلق بها لكنه أحس ببلل أسفل منه، نظر في خزي إلى حِجر البنطلون المبلول، ثم أخرج رأسه فجأة من نافذة السيارة وبصق تجاه المارة بكل قوته وهو يصيح بصوت كعواء الذئب الجريح: فلتذهبوا جميعًا إلى الجحيم.. فلتذهبوا جميعًا إلى الجحيم!

(٤)

إن ما يطلق عليه اليوم «حي المهندسين»، وهو المنطقة المحيطة بنادي الصيد والممتدة من نهاية سور المتحف الزراعي وشارع البطل أحمد عبد العزيز حتى شارع أحمد عرابي من جهة، وشارع السودان من جهة أخرى، وميدان لبنان من الجهة الأخيرة، هذه المنطقة التي تضم عددًا من الشوارع والميادين الشهيرة والتي تعد من أغلى وأرقى أحياء العاصمة، ما هي إلا جريمة حضارية نُسجت خيوطها مع مستهل ثورة يوليو واكتملت بشكل شبه نهائي خلال سبعينيات القرن العشرين.

إذ تم إنشاء مدينة سكنية على أنقاض مساحة كبيرة من أخصب الأراضي الزراعية التابعة لوزارة الأوقاف، حين اتجه التفكير مطلع الخمسينيات إلى إنشاء امتداد عمراني محدود لحي الدقي مجاور للمتحف الزراعي، فكانت «مدينة الضباط» التي قسمت بشكل تعاوني لقِطَع أراضٍ خُصصت لضباط الجيش كان منهم من أعضاء مجلس قيادة الثورة: كمال الدين حسين وزكريا محيي الدين وحسين الشافعي

وبقيت فيلَّاتهم الصغيرة نموذجًا للنسق المعماري الذي ساد المنطقة بأكملها حتى مطلع السبعينيات.

ثم توالى ـ خلال الخمسينيات والستينيات ـ تقسيم أراضي المنطقة وتخصيصها لكبار موظفي الدولة وأعضاء النقابات المهنية، فكانت مدينة القضاة والأطباء والمهندسين والصحفيين والدبلوماسيين، وغيرها من التقسيمات التي اقتصر البناء فيها على فيلَّات وعمائر قصيرة لا تجاوز بحال الأدوار الأربعة، تميزت بنمط معماري بسيط عَكَسَ طبيعة المرحلة الاشتراكية وثقافة الطبقة الوسطى التي سكنتها خلال تلك الفترة.

وظل الاسم الغالب على الحي بأكمله حتى نهاية الستينيات «مدينة الأوقاف»، باعتبار أصله، مع تسمية المناطق بأسماء الجمعيات المهنية التي باع كثير من أعضائها أراضيهم بعد سداد أقساطها التعاونية لفئات أخرى، حتى غلب اسم «المهندسين» على سائر المنطقة، ربما لأن فئة المهندسين المقاولين هي التي قادت عملية التحول المعماري الدراماتيكي بعد حرب أكتوبر ومع تطبيق سياسة الانفتاح الاقتصادي، حيث بدأت إزالة الفيلَّات الأنيقة والمباني القصيرة المتسقة مع الشوارع الضيقة الهادئة واستُبدلت بها مبانٍ ضخمة بأنماط معمارية حديثة غيرت تباعًا المعالم الثقافية والاجتماعية للمنطقة، التي ستضم اعتبارًا من تلك الفترة تركيبة ديموجرافية عجيبة صبغت المنطقة بطابعها الخاص.

فقد انضم لمجتمع «المهندسين» ـ إضافة للشريحتين المتوسطة والعليا من الطبقة الوسطى وهم المُلاك الأصليون ـ شرائح أخرى،

أكثرها انتشارًا أثرياء الانفتاح السبعيني والطفرة النفطية من التجار والمقاولين والعاملين بدول الخليج، الذين نشأوا بعيدًا عن العاصمة أو في أحيائها الشعبية ووجدوا في شراء وحدات سكنية بالحي الجديد وسيلة للانتقال لمجاورة النخبة القديمة، يضاف إلى ذلك ما تسبب فيه السماح قانونًا للعرب بتملك وحدات سكنية في مصر من انضمام مجموعة من أثرياء الخليج إلى هذا المجتمع، تبعهم بالضرورة انضمام موسمي للطبقة الخليجية الأقل ثراء ولطلبة الجامعات المصرية من الخليجيين عن طريق استئجار شقق مفروشة خلال المواسم الصيفية أو أثناء العام الدراسي، وهو ما ترك بصماته واضحة على الوجه الحضاري والقيمي للمنطقة.

ربما كان تواجد «نادي الصيد» ـ الذي أُنشئ في نهاية ثلاثينيات القرن العشرين وارتاده الملك وطبقة النبلاء والأرستقراطية المصرية قبل الثورة والذي اقتصرت العضوية فيه حتى نهاية الستينيات على مجموعة محدودة من الأسر المحافظة ـ هو الذي حقق نوعًا من التوازن الاجتماعي للمكان رغم اجتياح طبقة الأثرياء الجدد، فقد انضم للمنطقة أيضًا بعض الشخصيات الفنية والأدبية المرموقة التي أضفت عليها طابعًا ثقافيًّا وإعلاميًّا خاصًّا شجع على انتقال بعض أبناء الطبقة الراقية القديمة من أحيائهم التقليدية لمنطقة حديثة بغرض امتلاك وحدات سكنية بديلة لوحداتهم المستأجرة.

ومن هؤلاء كان الدكتور عبد الحميد شتا، الذي تنازل في مطلع السبعينيات عن شقته الفاخرة بعمارة «ليبون» بالزمالك مقابل مبلغ مالي كبير، بعدما وجد في حي المهندسين بديلًا مناسبًا مكّنه من بناء

عمارة سكنية ضخمة عند تقاطع شارع جامعة الدول العربية مع شارع شهاب، إضافة لمستشفى غير بعيد ما زال يُعد مستشفى الولادة ومركز التخصيب الأشهر في مصر.

والحقيقة أن مرونة الدكتور عبد الحميد وقدرته على مسايرة تقلبات الزمن هي إحدى أبرز سمات شخصيته التي ورثها عن والده الشيخ عبد الغفار شتا، الذي كان من مُلاك الأراضي الزراعية المتوسطين «الأعيان» في إحدى قرى السنبلاوين بالدقهلية.

فقد تنافس الشيخ طويلًا مع أبناء عمومته على منصب العمدة فغلبهم وغلبوه، غير أنه أدرك منذ مرحلة مبكرة أن جاهه الحقيقي لن يأتي من تلك العمودية النكدة، وإنما مما أنعم الله به عليه من نجابة الأبناء - خمسة ذكور وأنثى - ظهر نبوغهم منذ نعومة أظفارهم، والبداية كان بكريه محمد الذي أنهى دراسته الثانوية بتفوق والتحق بكلية طب قصر العيني، ثم تلاه أحمد مفضلًا بدوره الدراسة الطبية التي نبغ فيها كأخيه، وهنا قرر الشيخ عبد الغفار أن ينتقل بأسرته إلى القاهرة كيلا يترك الولدين بمفرديهما، وقد أدرك بذكائه الفطري أن ما ينتظرهم هناك أهم بكثير من العمودية، فتخلى عنها طواعية لابن عمه وزاد بأن خطب ابنته لبكريه «مشروع الدكتور»، فوطد علاقة طيبة بينهما تحافظ على أرضه وتضمن له منها إيرادًا ثابتًا وفر لهم مستوى جيدًا من الحياة في البيت المتسع الذي انتقلوا إليه بحي العباسية.

لم يخيب الأبناء ظنه، وما غادر الدنيا قبل أن يرى أسماءهم وقد تألقت في سماء العمل الطبي داخل مصر وخارجها، فالدكتور محمد

شتا هو اليوم عَلَم من أعلام طب الباطنة وأحد مؤسسي كلية طب المنصورة، والدكتور أحمد الأستاذ الشهير بمعهد القلب القومي، والدكتور عبد الوهاب أستاذ جراحة القلب المفتوح بمركز تكساس الطبي بهيوستن، والدكتور عبد الحميد رئيس أقسام النساء والتوليد بقصر العيني وعبقري علاج العقم، والدكتور عبد الغني أستاذ الأنف والأذن، والدكتورة رضا أستاذ التحاليل الطبية بطب المنصورة.

وقد تميز الأبناء جميعًا ـ فضلًا عن نبوغهم العلمي ـ بوسامة ورثوها عن الأب والأم معًا، إلا أن عبد الحميد كان أكثرهم جمالًا بلا جدال، كما كان منذ طفولته شخصية محبوبة شديدة الجاذبية له قدرة فائقة على التأثير فيمَن حوله، إذ كان ظهوره في أي مجتمع كافيًا لكي يصبح النجم الساطع ومركز اهتمام الكبار والصغار، وفي مطلع شبابه ظهر بوضوح الشبه الكبير بينه وبين نجم هوليوود «كلارك جيبل»، الذي عُدَّ خلال تلك الفترة الرمز الحي للرجولة وللجمال، وحرص عبد الحميد على تأكيد هذا الشبه عن طريق الشارب المميز وقصة الشعر اللامع المفروق ونمط البدل الأنيقة فأصبح محط أنظار النساء وملتقى أفئدتهن، إذ كانت تكفي نظرة صامتة من عينيه السوداوين العميقتين إلى أية فتاة لتشعر بأن قلبها انساح بين جنبيها، وقد ضاعف هذا التأثير تخصصه في أمراض النساء مما منحه مواهب إضافية في فهم المرأة ونقاط ضعفها وكيفية تدليلها والعناية بها وإشعارها بأهميتها حتى يسيطر عليها تمامًا دون أن يؤثر فيه هو نفسه أي شيء.

أدرك عبد الحميد منذ بداية مشواره العملي أن نجاحه المهني

أو ارتباطه بفتاة من أسرة كريمة، كما فعل إخوته الكبار، لن يرتفع به عن سقف الشريحة العليا من الطبقة الوسطى لا يجاوزه، وقد كان طموحه أكبر من ذلك، إذ رأى في نفسه القدرة على أن يجاوز هذه الطبقة ليلحق بالطبقة الأرستقراطية أو حتى بطبقة النبلاء.. ولِمَ لا؟

لذا أجَّل مشروع الارتباط حتى تزوجت شقيقته ثم شقيقه الأصغر، وكان على وشك السفر إلى إنجلترا لإكمال دراساته العليا حين التقاها.

في خريف عام ١٩٥٠ تلقى عبد الحميد دعوة لحضور حفل خيري ساهر كبير تقيمه جمعية الهلال الأحمر وتفتتحه «الأميرة فائقة»، بعد عودتها من أمريكا وموافقة شقيقها الملك على التصديق على زواجها من الدبلوماسي «فؤاد صادق»، وكان مصدر الدعوة صديقه من أيام الدراسة الدكتور عزت تيمور الذي كان ينافسه في الوسامة والتأنق، فبدا كلاهما تلك الليلة كنبيلَيْن من النبلاء الذين غص بهم الحفل.

ما إن ظهرت الأميرة فائقة وسط مرافقاتها حتى تجاوزتها عينا عبد الحميد وصاح منبهرًا:

ـ ما هذا؟

ابتسم عزت بخبث وسأله:

ـ ماذا دهاك؟

ـ ألا ترى ما أراه؟

لم يكن الأمر بحاجة لمزيد من التخابث، فقد استقرت نظرات جميع مَن في الحفل ـ رجالًا ونساء ـ على ذلك الوجه بارع الجمال يحمله قوام فارع ممشوق وتلفه أناقة نبيلة وكبرياء ملكية، همس عزت:

ـ باكينام خوشتم، ألم ترها من قبل؟
ـ لا، إنها المرة الأولى، قلت باكينام...
ـ ابنة مظفر باشا خوشتم، هي تلميذة في الأمريكان على ما أعتقد.
ـ خوشتم باشا؟ أهو ذلك الألباني ناظر الخاصة الملكية؟
ـ هو الآن أحد أعضاء مجلس البلاط وزوجته الجركسية كانت وصيفة للملكة نازلي، لكنها على النقيض منها تمامًا.
ـ ماذا تعني؟
ـ الرجل مشهور بالغيرة الشديدة، فرغم ما يروون عن جمال زوجته الذي لا مثيل له فإن أحدًا لم يرها فهي لا تكشف وجهها إلا أمام أقربائها وخاصتها ولا تظهر أمام العامة إلا وهي محتجبة باليشمك.
عبد الحميد ضاحكًا:
ـ ها هو أحد تجليات ذلك الجمال يغدو أمامنا ويروح.
ـ إنها صغرى بناته، وخلفته كلها بنات وكلهن تبارك الله، حتى لَيطلقون على بيته «معمل الحلوى».
تمتم عبد الحميد كأنه يخاطب نفسه:
ـ «العينة بينة»، ما رأيت في حياتي مثل هذا الجمال.
كانت الخطوات التالية صعبة لكن عبد الحميد تمسك بمقولة: «لا مستحيل تحت الشمس»، وكانت خطته للوصول إليها تعتمد على وسيلتين: التقرب إلى «فؤاد صادق» زوج الأميرة فائقة حتى أصبح صديقًا له فضمن تأييد الأميرة التي أحبت وتزوجت رجلًا من عامة الشعب، أما الوسيلة الأخرى فكانت التربص للفتاة في

كل مظان وجودها حتى نجح في لفت نظرها، وإذ تخضب وجهها بحُمرة الخجل وغضت بصرها وهي تُلملم أطراف ابتسامة تسللت إلى شفتيها، أدرك عبد الحميد بخبرته أنه بلغ مراده وأن الفتاة التي اقترنت أخواتها بنبلاء من الأسرة العلوية وبأبناء باشوات الإقطاع والطبقة الأرستقراطية في مصر والآستانة ستصبح زوجة لابن الشيخ عبد الغفار شتا عمدة البلامون دقهلية.

منذ شهورها الأولى معه أثناء بعثته الدراسية في إنجلترا، أدركت باكينام بفطرتها، رغم حداثة سنها وانعدام خبرتها بالرجال، أن عبد الحميد لا يكتفي بها وأن له علاقات أخرى خارج فراش الزوجية.

انكسر قلبها الرقيق وكتمت بكبرياء نبيلة آلامها داخل صدرها، ثم انصرفت عنه مولية جل اهتمامها لوليدتها الجميلة «ماهيتاب» التي جاءت كفلقة القمر، وقد ورثت الذكاء والجاذبية الشديدة من أبيها، والجمال الفائق من أمها، بل من جدتها، حيث أجمعت خالاتها على أنها أشبه بنات العائلة بجدتها الراحلة التي لم تبلغ إحداهن ـ على جمالهن ـ مبلغها في الفتنة والجمال المتفرد.

وما بين إنجلترا والولايات المتحدة، التي انتقلوا إليها ليكمل عبد الحميد دراساته في علم الأجنة، نشأت ماهيتاب ابنة وحيدة لم ينجبا بعدها، حيث اكتنفت علاقتهما مشاعر جليدية استعصت على الذوبان، فانصرف كل منهما إلى حياته محافظَيْن على الصورة الخارجية المثلى لزوجين سعيدين سواء أمام طفلتهما أو أمام المجتمع المحيط.

كانت التغيرات التي حدثت بعد ثورة ١٩٥٢ قد ألقت بظلالها على الجميع، ورغم أن مظفر باشا تُوفي قبل الثورة ولحقت به زوجه في

مستهلها، إلا أن اللجان التي أنشئت لمصادرة أملاك أسرة محمد علي طالت عديدًا من الأسر التي تجمعها بها صلات النسب والمصاهرة، ومنها أسرة مظفر خوشتم والأسر التي ارتبطت بها، فتفرقت بناته وأزواجهن ما بين سويسرا وإيطاليا وأمريكا، وظلت فترة إقامة باكينام مع زوجها في الخارج فرصة للتواصل مع أخواتها، فتنقلت بابنتها بين بيوتهن في مختلف البلاد وقضت معهن أوقاتًا اختزنتها ذاكرة ماهيتاب ككليبات طفولية زاهية ملونة محاطة بالود والتدليل وبمؤثرات الحياة الغربية بمرحها وبساطتها واستقامتها، حتى قرر عبد الحميد العودة للقاهرة مع نهاية عقد الخمسينيات، وماهيتاب في نحو الثامنة من عمرها بديعة المنظر تخطف بجمالها وبراءتها الأبصار والقلوب.

تذكر ماهيتاب مدى تعلقها بوالدتها وحرصها على ألا تفارقها ليلًا أو نهارًا، عدا ساعات المدرسة التي كانت كثيرًا ما تنتظرها أمامها بالسيارة لتصحبها إلى المنزل أو إلى «نادي الجزيرة»، إنها المدرسة ذاتها التي تخرجت فيها باكينام ولها فيها أجمل الذكريات، وما زالت صديقتاها الحميمتان هما زميلتيها من أيام المدرسة: ثريا علوي التي تزوجت دبلوماسيًّا راحت تتنقل معه بين البلاد، وماجدة ملاك التي تزوجت الصيدلي نصيف حنًّا وعرفتها ماهيتاب منذ طفولتها كصديقة النادي الأنتيم لوالدتها، حيث كانت تأتي مصطحبة ابنها اللطيف مايكل الذي يصغرها بعدة أعوام والذي كانت تحرص على اصطحابه لحديقة الأطفال لملاعبته فوق المراجيح، وهو أمر لم تفعله مع شقيقته الصغرى ماريان التي كانت طفلة نافرة دائمة البكاء.

أمر آخر ما زالت ماهيتاب تذكره بحنين وهو نشاط والدتها الخيري

مع «جمعية الشابات المسيحيات»، حيث اعتادت أن تصحبها منذ طفولتها، ما طبع في قلبها محبة الأطفال الفقراء من المرضى والأيتام والمعاقين، كما تعودت على التضحية بأشيائها الصغيرة لأجل مساعدتهم، وربما كان ذلك التأثير العميق للنشاط المسيحي الإنجيلي هو ما دفعها إلى التخصص في طب الأطفال فيما بعد.

أما افتقادها لخالاتها وأبنائهن الذين قضت معهم بواكير طفولتها فلم يعوضه سوى تعلقها بعمها أحمد، صحيح أنها تحب أعمامها جميعًا لكن السبب الحقيقي في تعلقها ببيت العم أحمد هو زوجته صافي، التي كانت ووالدتها تأنسان إليها وترتبطان بها أكثر من باقي أفراد العائلة، وقد لاحظت ماهيتاب منذ طفولتها اختلاف صافي عن الجميع، فهي لا تخرج من بيتها إلا وقد وضعت «تيربون» فوق رأسها يخفي أكثر شعرها، كما أنها لا ترتدي سوى فساتين تحت الركبة بأكمام طويلة حتى في تلك السنوات التي لم تكن القاهريات يرتدين فيها ـ على اختلاف أعمارهن ومستوياتهن الاجتماعية ـ إلا ملابس مكشوفة الذراعين تقف أعلى الركبة في أغلب الأحيان.

ورغم اختلاف صافي عن نموذج والدتها وخالاتها الذي شكَّل في وجدانها المبكر نموذج المرأة الأنيقة الراقية، ورغم انتمائها هي ذاتها لهذا النموذج، إلا أن علاقتها الحميمة بزوجة عمها وإعجابها بها كان واضحًا، حتى كانت تعمد إلى الصيام في اليوم الذي يخصصه العم أحمد لدعوتهم لتناول إفطار رمضان في بيته، وكأنها تريد أن تكون صادقة وهي تتناول إفطارها معهم حاذية حذوهم في الدعاء بالمأثورات عند الإفطار، بل كانت تقوم للصلاة معها في بعض هذه

المناسبات، رغم أن الصلاة والصيام وغيرهما من الشعائر الدينية ما كان لها أثر في بيتها أو في محيطها الاجتماعي بأسره.

فجأة تسقط باكينام مريضة بالسرطان.

كانت ماهيتاب طالبة متفوقة في طب قصر العيني، فتسللت إلى شبابها الفتي غيوم داكنة من الحزن واللوعة والألم، وذاقت لأول مرة طعم الخوف والهلع على أمها الحبيبة وهي تراها تصارع وحشًا مفترسًا يمزق جسدها ويلتهم فتنتها قطعة قطعة، فيشحب الوجه ويستطيل، وتغور العينان الجميلتان، ويتساقط الشعر البديع بعد أن يهش ويتكسر، ويمتلئ الجسد المنهك ببثور وتقيحات كريهة، ويخفت الصوت العذب حتى يكاد يتلاشى، وتنعكس إحباطات العمر وأحزانه وانكساراته على ملامح فقدت قدرتها على التظاهر والإخفاء.

تتغير حياتها تمامًا، وينقلب البيت رأسًا على عقب، ويصحب عبد الحميد زوجته إلى الخارج في محاولة يائسة لإنقاذها، إلا أن الطب المتقدم يقف عاجزًا وتبوء جميع محاولاته بالفشل، وتُفضل هي العودة إلى مصر لتستسلم لموت بطيء بجوار ابنتها، وفي رعاية مخلصة من خادمتها السودانية مربية ابنتها، والأثر الباقي من أسرة راحلة وزمن ولَّى وخفت بريقه على مر السنين.

أما عبد الحميد فلم يفقد أبدًا قدرته على مسايرة تغيرات الزمن وعلى مقابلة جديده بوجوه جديدة مستعدة للتجاوب والتفاعل والاستمرار، فمنذ عودته من بعثته الدراسية في نهاية الخمسينيات وتعيينه عضوًا بهيئة التدريس بقصر العيني، أدرك أن كل شيء من

حوله قد تغير، وأن الزمن الذي ارتفع به إلى الحافة العليا للمجتمع قد ولَّى بغير رجعة، وأن عليه أن يبدأ من جديد ولكن بنفس آليات العهد الملكي الغارب الذي أدرك بفطنته أنها ما زالت صالحة للعمل في عهد يبزغ بمعطيات تبدو ظاهريًّا مختلفة عما مضى.

منذ محاولاته الأولى للتعرف على نجوم المجتمع الجديد ـ العسكري الثوري الجانح بقوة نحو اشتراكية مدعومة سوفيتيًّا ـ ظهر واضحًا لعينيه المدربتين على التقاط ما وراء المظاهر الخارجية، أن أفراد الطبقة التي طفت على سطح الحياة السياسية والاجتماعية في مصر خلال السنوات التالية لثورة يوليو تهفو نفوسهم بقوة لتعويض النقص الذي عانوه طويلًا، وأن نموذج الأرستقراطية المصرية القديمة لم يزل المثل الأعلى الذي يحاولون الاقتداء به بشتى الطرق، حقيقة أنهم لا يعترفون بذلك بل يرددون ما يناقضه، إلا أن تصرفاتهم وتطلعاتهم وما سعوا للاستحواذ عليه من إرث العائلات التي صودرت أراضيها ووضعت أملاكها تحت الحراسة كشف له أن الرواية الاجتماعية في مصر لم تتغير وإنما تغير فقط الممثلون الذين تبادلوا الأدوار فوق خشبة المسرح؛ لذا كان من السهل عليه أن يقتحم حياة تلك الطبقة الجديدة وأن يفرض نفسه بقوة كنجم من نجومها.

كانت شهرته كطبيب بارع في علاج حالات العقم المستعصية والولادات المتعثرة هي مدخله للتعرف على بعض رجالات الدولة، لكن ما دفع به بالفعل إلى قلب هذه الطبقة الجديدة هو ـ ويا للعجب ـ زواجه من ابنة مظفر باشا خوشتم.

وهكذا قامت باكينام بدور «ثوري» رائد، إذ كانت بجمالها الفتان

وأناقتها الأرستقراطية زينة الحفلات والدعوات العامة والخاصة التي كانا يُدعيان لها، وبدءًا من صداقتهما بكوكب الشرق أم كلثوم، مرورًا ببعض كبار الكُتاب ورؤساء تحرير العهد الجديد، وحتى رجال الجيش والمخابرات مثل حسن الدالي رجل المخابرات القوي الذي عُدت باكينام مرجعًا لزوجته ـ المتلهفة لذلك النمط الأرستقراطي ـ عند اختيار ملابسها ومجوهراتها أو عند التسوق في العواصم الأوروبية التي خبرتها باكينام جيدًا وتتحدث لغاتها بطلاقة.

والحقيقة أن باكينام أدت دورها الاجتماعي ببراعة، وعلى الرغم من ازدرائها هؤلاء القوم وسخريتها من التناقض الكبير بين شعاراتهم وتطلعاتهم، فقد قامت بدورها كزوجة حريصة على مظهر اجتماعي يتناسب وكبرياء عائلتها العريقة، كما أنها استفادت ـ كزوجها ـ من هذه العلاقات الجديدة التي فتحت أمامها أبواب السفر للخارج في سنوات الانغلاق السياسي والتقشف الاقتصادي والاستعداد للحرب، إذ كان بإمكان عبد الحميد ـ بفضل صِلاته الوثيقة برجال الحكم ـ أن يسافر للخارج أكثر من مرة خلال العام الواحد للمشاركة في المؤتمرات الطبية وهو ما مكنه من الاطلاع على كل جديد في مجال تخصصه، وأتاح لباكينام وابنتها فرصة التواصل مع أفراد عائلتها واقتناء أحدث الأزياء حتى أصبحتا المرجع الأول للذوق الراقي في مصر خلال تلك الفترة وحتى سقوط باكينام صريعة المرض القاتل.

كانوا قد انتقلوا من حي الزمالك إلى منزلهم الجديد في حي المهندسين، وأوشكت ماهيتاب على التخرج حين تقدم طارق ابن عمها أحمد يطلب يدها.

تخير أحمد إحدى الفترات القليلة التي تستقر فيها حالة باكينام الصحية ليفاتح أخاه في الأمر، قال إنه يرجو إدخال الفرح لقلب الأسرة الحزينة لذبول زهرتها الجميلة.

كان طارق قد سبق ماهيتاب إلى التخرج في كلية الطب وتخصص كعمه في أمراض النساء، إلا أنه لم يعين بالجامعة فأنهى فترة تكليفه بوزارة الصحة ثم تفرغ للعمل مديرًا طبيًّا لمستشفى الدكتور عبد الحميد للولادة.

ورغم علاقتهما الأسرية الوطيدة فلم تجمعه بماهيتاب أية علاقة عاطفية، كان معجبًا بجمالها لكنه كثيرًا ما ردد أنها «شايفة نفسها قوي»! كما كان يغيظه منظرها وهي ترتدي البكيني وتستلقي في ليدو الجزيرة أو أمام شاليه المنتزه للحصول على حمَّام شمسي، وكان قد اجتاز تجربة عاطفية فاشلة مع زميلة له في الكلية فلم يمانع حين فاتحه والداه في مسألة ارتباطه بابنة عمه الأثير لديه.

أما ماهيتاب فلم تمر بأية تجربة عاطفية طوال حياتها، ظلت منذ تفتحت زهور أنوثتها النضرة تحاول أن تدفع عن نفسها جحافل العاشقين والمعجبين والعابثين الذين حاولوا ـ دون طائل ـ اختراق السياج الكثيف الذي أحاطت نفسها به، كانت جادة بطبيعتها، حريصة على تفوقها الدراسي وعلى ممارسة أنشطتها الاجتماعية والرياضية دون ابتذال، ثم جاء مرض أمها ليصبغ حياتها بصبغة حزينة حالت بينها وبين سماع ترانيم الحب التي ينشدها الجنس الآخر من حولها.

ومع ذلك فقد كانت تشعر منذ طفولتها بميل شديد تجاه طارق، وازداد قربها النفسي منه بعد التحاقها بالكلية التي يدرس بها فتوطدت

صداقتهما، حتى قدمها لزميلته التي فهمت أنه سيرتبط بها قبل أن تفطن لانفصالهما.

كان كل شيء مهيأ للموافقة على خطبة ماهيتاب لطارق، بل للإسراع بها لإدخال السرور على قلب المريضة، لكن باكينام فاجأت ابنتها وهما منفردتان بعدم ترحيبها بهذه الخطبة.

ـ لِمَ يا مامي؟ كنت أظنكِ معجبة بطارق.

ـ لا اعتراض لي على طارق كشخص، لكني لا أحب زواج الأقارب.

ماهيتاب ضاحكة:

ـ زواج الأقارب لا يُخشى منه طبيًّا إلا في العائلات الضعيفة أو التي بها أمراض وراثية، وأظن أن عائلتنا تحمل من الصفات الجيدة ما يحسن المحافظة عليها.

ـ هل تحبينه يا ماهي؟

ـ ليس الأمر كذلك، إنما أشعر بالراحة معه وليس عندي مانع من الارتباط به إذا لم يكن عند حضرتك اعتراض.

ـ لا اعتراض لي يا حبيبتي، تعرفين أن أحمد وصافي من أقرب الناس لي وطارق نفسه إنسان ممتاز.

ثم أدارت رأسها على الوسادة ونظرت بعيدًا وهي تتمتم بصوت هامس:

ـ لكني ما كنت أتمنى أن تتزوجي من هذه العائلة.

كانت حقيقة العلاقة بين والديها قد تكشفت لها على مر الزمن، وما كان من الممكن أن تصبح طالبة في الكلية ذاتها التي يعمل بها والدها

دون أن تطلع على بعض الأمور، فهو «دون جوان» قصر العيني بلا منازع، وأصداء علاقاته النسائية تتردد على مسامعها، وقصة زواجه السري بنجمة سينمائية مشهورة أصبحت على كل لسان.

هالها الأمر في البداية وشعرت بخيبة أمل فيه وبرثاء موجع لوالدتها، أتُراها كانت تعلم بكل ذلك وتخفي أحزانها عن الجميع؟

لكن طارق يختلف تمامًا عن أبيها، حقيقة أنه أشبه الناس به من ناحية الشكل والطباع إلا أنه يختلف عنه من هذه الناحية بالتحديد، فأين والدها الذي لا يعرف صلاة ولا صيامًا والذي يشرب الخمر داخل البيت وخارجه من طارق المتدين الذي نشَّأته أمه على حفظ القرآن والالتزام بكل فرائض الدين واجتناب نواهيه، لذا فإن ماهيتاب رأت فيه حلًّا للمعادلة الصعبة، إذ تحققت فيه مزايا والدها دون عيوبه، بل إن طارق ذهب في التزامه الديني حدًّا ما كان لأحد أن يتوقعه.

وهي تغالب أحزانها القاتلة عقب وفاة والدتها، تم زفافهما في حفل صامت بدا كامتداد للعزاء، تزوجا في ذات الشقة الدوبلكس التي احتفظت فيها بأكثر مفروشات وتحف والدتها بعد انتقال والدها للشقة العلوية الصغيرة.

وقد وجدت في طارق الصدر الحنون الذي أخفت فيه أحزانها، والصديق الذي جمعتها به دراسة واحدة وشجعها على إكمال مسيرة أمها في العمل الخيري ومساعدة الأطفال المرضى والمعاقين.

منذ زواجهما اعتاد طارق أداء صلاة الجمعة في مسجد قريب من البيت والمستشفى، بعد عدة أسابيع بدأت تلاحظ أنه يتأخر كثيرًا بعد الصلاة، ثم أصبح يحرص على أداء جميع صلواته في المسجد

ويكثر من النوافل في البيت، ثم فوجئ الجميع به يستبدل بملابسه المعتادة جلبابًا أبيضَ قصيرًا وشبشبًا ويلف رأسه بعمامة بيضاء لها طرف مدلى خلف رقبته، كما فوجئوا به يقرر ترك عمله بالمستشفى كمدير طبي وأخصائي توليد ويطلب من عمه أن يعينه مديرًا إداريًّا وماليًّا للمستشفى لحاجته لمرتب شهري يعينه على الحياة!

ما كاد عبد الحميد يستوعب ما حدث من تحول سريع لطارق ويحاول التعامل معه بمرونته المعهودة، حتى فوجئ بابنته ـ المعيدة في كلية الطب ـ تحذو حذوه بخطوات أوسع، فمن الحجاب القصير إلى الخمار السميك إلى النقاب الأسود والقفازين، توالت قفزات الفتاة التي كانت قبل عام واحد مضى لا تعرف صيامًا ولا صلاة وترتدي أحدث الأزياء الغربية المكشوفة.

بدا الأمر لجميع الأهل والأصدقاء وزملاء العمل عصيًّا على الفهم، لكن طارق وماهيتاب سارا في طريقهما الجديد بإصرار غير آبهين بدهشة أو باعتراض أو باستنكار، لقد كانا بالفعل قد ولجا إلى عالم جديد له بريق أخاذ لم يعرفاه من قبل.. إنه عالم الشيخ إبراهيم عزت.

(٥)

عند تقاطع شارع العراق المتفرع من شارع شهاب مع شارع عمر بن عبد العزيز، يقع مسجد صغير بناه أحد الأشخاص في منتصف

القرن العشرين وأطلق عليه «جامع أنس بن مالك»، وقد قُدر لهذا المسجد أن يقوم بدور محوري في تشكيل خريطة العمل الإسلامي والتحول الثقافي والاجتماعي في سبعينيات القرن.

كانت الشوارع المحيطة تعج بالقادمين أفرادًا وجماعات، وجهتهم جميعًا نحو جامع أنس بن مالك، رجال وفتيان يرتدون القمصان والبنطلونات أو الجلابيب البيضاء، نساء وفتيات يرتدين الحجاب أو النقاب أو إسدالات الصلاة، شيوخ وأطفال، أغنياء جاءوا بسياراتهم الفارهة وفقراء قدموا بالمواصلات العامة من كل أنحاء العاصمة.

أشارت عقارب الساعة إلى الثانية عشرة ظهرًا، بقيت ساعة على موعد صلاة الجمعة، لكن الجموع أسرعت يسابق بعضها بعضًا وكلٌّ يمنِّي نفسه بأن يجد مكانًا يمكنه من الاستماع لخطبة الشيخ والصلاة خلفه.

ارتدت عزة بنطلونًا رماديًا واسعًا وبلوزة قطنية بيضاء بكم طويل وعقصت شعرها خلف رأسها، وأمسكت حقيبة يد كبيرة وضعت فيها طرحة الصلاة، ومضت مسرعة بصحبة ماهيتاب بإسدالها ونقابها الأسودين، ومنى التي ارتدت جلبابًا فضفاضًا وخمارًا يحيط برأسها وينسدل حتى وسطها.

منذ زيارتها الأولى العابرة لمنزل ماهيتاب، لم تنقطع عن الاتصال بها وزيارتها حتى أصبح لقاء الخميس مقدسًا بالنسبة لها، تنهي عملها مبكرة ثم تسرع إلى «المهندسين» للحاق بالدرس الأسبوعي الذي خصصت له ماهيتاب قاعة فسيحة في شقتها، فرشتها بأرائك مغربية ملاصقة للجدران وبوفات جلدية ووسائد شرقية ملونة وُزعت في

أرجاء القاعة، ومنذ الظهيرة يبدأ توافد «الأخوات» حتى إذا وصلت عزة يكون المكان قد غص بهن.

ثمة شعور رقيق بالراحة والألفة انساح في وجدان عزة منذ اللحظة الأولى التي رأت فيها ماهيتاب وقد خلعت نقابها الأسود، ثم امتد ذلك الشعور إلى الرداء ذاته حتى اختفى من نفسها تمامًا ذلك النفور الذي كانت تستشعره تجاه مَن يرتدينه في الطريق، وكأنما أصبحت تتوقع ماهيتاب أخرى بجمالها ورقتها وجاذبية شخصيتها وراء كل نقاب.

أما ماهيتاب فقد تعاملت مع عزة بذكاء وبوعي كشفا عن إمكانياتها كداعية مؤهلة لاجتذاب العديد من الفتيات إلى «طريق الهداية»، فقد امتنعت تمامًا في البداية عن التحدث معها في أمور الدين، بل كانت تسألها باهتمام عن عملها الصحفي، ثم توطدت علاقتهما إثر دعوتها لها ـ كصحفية ـ لتغطية نشاطها الخيري في رعاية الأطفال المعاقين ذهنيًّا، وهو الأمر الذي فتح بينهما طريقًا إنسانيًّا بعيدًا عن أي انتماءات دينية، خاصة أن ماهيتاب ظلت تمارس جانبًا مهمًّا من نشاطها مع جمعية الشابات المسيحيات مما ضاعف من إعجاب عزة باتساع شخصيتها التي تمكنت بمرور الوقت من احتواء صلابتها وتمردها.

ثم جاء الوقت المناسب لدعوتها للقاءات الخميس لتتعرف على مجموعة متباينة/ متآلفة من الأخوات: فمن طبيبة إلى ممرضة، ومن سيدة مجتمع إلى فنانة تائبة أو ربة بيت أو ابنة بواب، ومن أستاذة جامعية إلى بائعة جائلة أو عاملة نظافة، ومن إسدال حريري إلى خمار من التيل الرخيص، يجمعهن كلهن لقاء الخميس، يحضرن لأداء الصلاة في جماعة والمشاركة في تناول وجبة خفيفة ثم الاستماع

إلى المواعظ والدروس التي تلقيها ماهيتاب وبعض الداعيات بشكل دوري، والتي تنصبُّ في مجملها على شرح بعض أحاديث من «رياض الصالحين» أو مطالعات من كتب الرقائق المشهورة التي تتحدث عن عبادة الله وأسمائه وصفاته ومحبته ولطفه بعباده، وعن الدار الآخرة وما فيها من نعيم مقيم لمَن أطاع الله، أو عذاب أليم لمَن عصاه، فتقشعر الجلود وتلين القلوب وتنساب الدموع من المآقي حبًّا ووجدًا وخوفًا ورجاء، وينفتح الباب للجميع فيتزايد العدد تباعًا حيث تتحجب السافرة وتنتقب المحجبة، ويلوح اللقاء كعين ماء في هجير الكون تهفو إليها النفوس العطشى للخير، وينجلي ركام الدنيا وآثامها من القلوب فتُشرق أنوارًا تشع على ما حولها.

ورغم مرور شهرين على لقاءات الخميس، كانت هذه المرة الأولى التي تُدعى فيها لصلاة الجمعة خلف الشيخ «إبراهيم عزت»، والمفارقة أنها كانت المرة الأولى في حياتها التي تطأ قدماها مسجدًا.

شعرت بالحرج من رأسها المكشوف وسط هذا الطوفان الهادر من المحجبات والمنتقبات، فأخرجت بخفة طرحة الصلاة من حقيبتها وبدأت بلفها حول رأسها وصدرها قبل وصولهن للمسجد، وفي هذه اللحظة تسلل لوعيها شعور عجيب بالراحة.

يقع مصلى السيدات في الطابق العلوي من المسجد، يوصل إليه باب جانبي منفصل عن الباب المخصص للرجال، ثم سلم ضيق متعرج اكتظ بالسيدات الصاعدات وترددت في جنباته عبارات التحية والسلام وفاحت من أرجائه رائحة المسك الطيبة.

أخذت الصديقات الثلاث مكانهن وسط الصفوف، فأدَّين ركعتَي

تحية المسجد، ثم جلسن يُسبحن وهن يرقبن أفواج الداخلات عبر الباب المفتوح، حتى إذا ما بدأ الأذان الأول كانت القاعة قد اكتظت بالمصليات ملتصقات بعضهن ببعض في صفوف متراصة ليس بين كل صف والذي يليه سوى موضع يكفي بالكاد للسجود.

وفي اللحظة التي نقل فيها الميكروفون الداخلي صوت الشيخ مفتتحًا خطبته بالحمد لله رب العالمين، توثبت حواسها جميعًا وتنبه وعيها وأرهفت السمع لنبرته الدافئة القوية المقتحمة ولمخارج ألفاظه الواضحة المستقيمة ولكلماته التي تستلب اللب حتى لا يمكن لمستمع أن يسهو عنها أو أن ينفصل عن هذا المحيط الذي بدا كأنه توحد مع الشيخ في كيان واحد إنصاتًا وتفاعلًا وشعورًا وبكاءً ونحيبًا.

«... اعلموا أن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة. وأول مَن يدخل الجنة هم أهل المعروف، غاب المعروف بغياب الصلة بالله جل وعلا، غاب المعروف بغياب المحافظة على الصلاة، غاب المعروف بغياب قراءة القرآن، غاب المعروف بغياب صلاة الليل، غاب المعروف بغياب العلم بكتاب الله وبسنة رسوله، إذا أردنا أن يشع المعروف في حياتنا وأن تخضر هذه الدنيا بالخير وأن تورق بالعطاء فعلينا أن نُقبل على الله جل وعلا وأن نتعلم كلامه وأن نغير فكرنا في هذه الدنيا».

تعلو نبراته كمَن يصرخ في غائب عن الوعي ليفيق، ولا تغيب عنها رغم الصراخ ليونتها وحنانها واستقامتها وصدقها.

«... أيها الراحلون عن الدنيا إلى الله، هذه التجارة في الدنيا تجارة

خاسرة، مَن كانت الدنيا أكبر همه فرَّق الله شمله وجعل فقره بين عينيه، أيها الراحلون سافروا إلى الله قبل أن تُحملوا على الأعناق إلى الله جل وعلا».

أواه! يا للقلوب الغافلة حين تصكها صرخة الحق فتستفيق، ترسم كلماته ببراعة صورة الموت حاضرًا والدنيا غاربة والناس لاهون متغافلون عن المصير الذي ينتظرهم على بُعد خطوات.

«... وفي السماء رزقكم وما توعدون.. في السماء رزقكم، في السماء أقداركم، في السماء أقضية فُرضت عليكم لا تستطيعون الفرار منها، آجالكم تُقدر في السماء، أرزاقكم تُقدر في السماء، السعادة والشقاء يقدران في السماء، يا مَن تبحثون عن الخير وعن السعادة ابحثوا عن الأشياء عند مَن يملكها ولا تُضيعوا أوقاتكم في البحث عند مَن لا يملك».

يستفيق الغافلون، وتتردد في جنبات المكان أصداء تنهدات الصدور المكروبة الخائفة الحائرة المشتاقة إلى خالقها المتوثبة للعودة إليه.

«... وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ينبغي أن يكون همك أن تعبد ربك، همك أن تؤدي ما افترضه عليك، همك أن تتعلم ما يريد منك سيدك، أيها العبد استحِ من الله جل وعلا، رب عظيم خلقك ورزقك وأحياك وكتب عليك الموت، وستموت! فلا تنشغل بغيره، فما خلقك إلا لعبادته، أنتم جميعًا وكل الخلق عيال على موائد فضل الله، الأكل الذي تأكله صنعة مَن؟ وأجهزتك التي تهضم هذا الأكل صنعة مَن؟ استحوا من الله».

استحوا من الله.. يهتف كأب يعنف ابنه الخاطئ، نبرات تعنيفه لا تستفز لديها كبرياء ولا تمردًا، جسدها يقشعر ورأسها ينغرز بين كتفيها حياء وعيناها تعانقان الأرض أمامها في ذهول، تشعر كأنه يعنفها هي بالتحديد: «أيها الراحلون عن الدنيا إلى الله.. استحوا من الله..»، استحي يا عزة من الله، تهدأ قليلًا مع هدوء نبراته، ثم يعود إلى الصراخ فيلتاع قلبها ويرفرف بين جنبيها.

«... يا بني آدم، يا عبادي، إني لم أخلقكم لأستكثر بكم من قلة، ولا لأستأنس بكم من وحشة، ولا لأستعين بكم في أمر عجزت عنه، وإنما خلقتكم لتعبدوني طويلًا، وتذكروني كثيرًا، وتُسبحوني بكرة وأصيلًا، المالك يملك كل شيء وخزائنه مبسوطة ولكنكم لا تستحون من الله وتذلون جباهكم أمام الشرق وأمام الغرب، وليس في الذل لغير الله إلا المزيد من الذل والمهانة، مَن الرزاق؟ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، ولكن العباد توجهوا إلى العَجَزة وتوجهوا إلى مَن لا يملكون فزاد ذُلكم وزاد فقركم، وأبواب الفقر مفتوحة أمام كل مَن أعرض عن ذكر الله وعن طاعته».

«... السعيد هو مَن يفتح الله قفل قلبه ليستقبل هذا الدين، السعيد هو مَن يؤمن بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًّا ورسولًا، هذا الدين له قوة، ففي أي شيء تجادلون؟ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون، إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع».

كأنها تستمع إلى هذه الآيات للمرة الأولى، يا لقدرة الإخلاص على النفاذ إلى المشاعر، تنهمر الدموع من العيون، ويتردد النشيج

في جنبات المكان، وتنساب على خديها عبرات، ويتسلل إلى شعورها زهد في كل شيء إلا فيما يدعو إليه الشيخ، عجبًا! أوَليست كلماته تشبه ما يردده المشايخ في الراديو والتلفزيون فتسارع بإغلاقهما مللًا وتأففًا؟ أي سحر هذا الذي يكتنف كلمات الشيخ إبراهيم فتبدو على بساطتها كأنها كَشْف جديد لم يصدع به أحد من قبل؟!

«... لكن القلوب إذا غرقت في بحار الدنيا وهمومها ولذائذها حُجبت عن الآخرة، الله حرم الخمر فلماذا لا نستجيب؟ الله حرم الربا فلماذا لا نستجيب؟ الويل لمَن لا يستجيب لأوامر الله، فويل يومئذ للمكذبين الذين هم في خوض يلعبون، لعب! علامة الخسارة في الآخرة أن تكون هذه الدنيا نوعًا من اللهو واللعب وكل أعداء دينكم مهمتهم إغراقكم في الشهوات وشَغلكم باللهو واللعب، مَن يفكر؟ مَن يستجيب؟ مَن يغير همَّ حياته؟».

كأنه يسألها وكأنها تريد أن تجيبه، ترفع رأسها قليلًا ثم تعود لتُنكسه ودموعها تنساب على خديها في صمت.

«... اعقد مقارنة بسيطة بين أحوال أهل الله وبين حياتك لتعرف أين تقف، أحباب الله مشغولون بالصلاة وليس بالماتش وميعاد المسلسل، هذه اهتمامات أهل النار، ولن تستوي حياة أهل الإيمان وأهل جهنم».

الشيخ يهتف بها، وشعور بالزهد في كل شيء يكتنفها.

«... افهموا! الذي يبحث عن النعيم في هذه الدنيا يبحث عن السراب، ليس في دنياكم نعيم وليس في دنياكم راحة، مَن ينتظر

الراحة فلينتظر نومة القبر، ومَن أراد النعيم فليبحث عنه في الجنة. أما في الدنيا فلا نعيم ولا راحة سواء كنت مستقيمًا مع أمر الله أو كنت معرضًا عن أمره، واسألوا أهل الدنيا هل وجدوا الراحة والنعيم في دنياهم».

تتداعى الصور في مُخيلتها، لا نعيم في الدنيا ولا راحة، أين عبد المنعم عياد ومحسن رجب وباكينام خوشتم؟

يعاود الشيخ صراخه: افهموا، اعقلوا، أيها الراحلون أفيقوا، أيها الحائرون أقبلوا.. أيها الحائرون أقبلوا، إن أحوال القلوب لا يظهرها إلا الدعوة إلى الله جل وعلا والقلوب تتغير...

القلوب تتغير.

صافحتهما ماهيتاب بعد الصلاة وانصرفت على وعد بلقائهما في درس الخميس، ومضت عزة مع منى لتقوما بالمراجعة النهائية قبل الامتحان، ظلت ساهمة تفكر في كلمات الشيخ إبراهيم وصيحته تلاحقها، لم تتنبه إلى أنها احتفظت طول الوقت بطرحة الصلاة على رأسها حتى سألتها منى وهي تتأهب للانصراف من عندها:

ـ هل ستبقين مُحتفظة بحجابك؟

ـ حجابي؟ أوه، لقد نسيت.

أسرعت بخلع الطرحة من فوق رأسها ووضعتها في الحقيبة، فمازحتها منى قائلة:

ـ لعل يومًا يأتي نراكِ فيه منتقبة، فكل شيء الآن يتغير بسرعة.

أجابت وهي تُقبلها مودعة:

ـ لقد قرأت في هذا الموضوع وعرفت أن النقاب فرض فقط على مَن تملك وجهًا جميلًا جدًّا إلى حد أن يصبح كشفه فتنة ـ ثم مستدركة ـ كوجه ماهيتاب مثلًا.

امتقع وجه منى وبرمت شفتيها امتعاضًا وهي تقول:

ـ إنها عمومًا تظن نفسها أجمل واحدة في العالم.

استدارت إليها عزة قبل أن تضغط على زر المصعد، وقالت بنبرة عتاب:

ـ اخْص عليكِ يا منى! أنا متأكدة أنها ليست مهتمة أصلًا بهذا الموضوع.

بدت ملامح منى في هذه اللحظة غريبة وعكست تعبيرًا غير مألوف، حتى إن عزة استحضرت فيما بعد وجهها كأنها تراه للمرة الأولى وهي تتساءل في عجب: «ماذا دهاها؟».

(٦)

ـ جُن الرجل وعهد الله.

ـ يمثل ويهرج كعادته، الظاهر أنه تعاطى قرش حشيش قبل الخطاب.

ـ وهل هذه أمور يجوز التهريج فيها؟

ـ الرجل أصابه الخبل منذ أن صدق أنه زعيم بعدما ظل طول عمره مهرجًا، لكن ما قاله أمس سيجعلنا مسخرة أمام العالم.

ـ لقد أصابته مظاهرات يناير بالجنون، فقد كان يظن أن صورة الزعيم التي سوَّقها للناس خلال حرب أكتوبر ستظل كما هي رغم كل انهياراته بدءًا من الثغرة وفضائح فك الاشتباك.

ـ وها هو قائد ثورة التصحيح يرى الشعب الذي حاول خداعه يبول على زعامته.

انطلقت ضحكاتهم عالية مجلجلة قبل أن يصيح اللواء عزوز حانقًا:

ـ أليس في القوات المسلحة رجل «راضع لبن أمه» ينشه رصاصتين ويخلصنا من هذه المهزلة؟

ـ الجيش المصري مليء بالرجال، ولسوف يأتي يوم يخرج منه رجل ينفذ حكم الإعدام الذي أصدره الشعب على الخائن.

هكذا تمتم عبد المنعم عياد بصوته الواهن وقد لفت ملامحه ونبراته غلالة أسى حاول ألا يتركها تجنح به نحو يأس قاتل كأنه ما زال متشبثًا بآخر خيط يربطه بالحياة.

كانوا يجلسون في حجرة متوسطة الاتساع، مغلقة واجهتها بألواح الزجاج والألوميتال، في الاستراحة التي أقامها اللواء عزوز على ترعة المنصورية، وقد تسللت أشعة شمس نوفمبر الحانية فعكست ضوءًا باهتًا على وجوههم المرهقة، وبدت ملامح الخريف من وراء الزجاج المغلق مترعة بالشجن وقد تقاطعت على صفحة السماء سحائب رمادية لاح مخاضها، واكتست الأرض الممددة أمامهم بأوراق الشجر الصفراء الذابلة، بينما انتصبت أشجار الخريف العارية في صمود كأنها تتحدى الموت.

بدا العقيد عبد المنعم كشبح ذاوٍ تكسو رأسه ثلوج بيضاء كثيفة

وقد شحب لونه وانطفأ بريق عينيه.. أصابه الرعاش في الفترة الأخيرة واختل توازنه فأصبح يُخشى عليه من السقوط إن خرج بمفرده، لذا حرص الدكتور زكريا على اصطحابه في جولة صباحية يومية إما إلى النادي الأهلي وإما إلى استراحة المنصورية، ساعده على ذلك تركه العمل بالجيش لبلوغه سن التقاعد، مكتفيًا بسويعات قليلة يقضيها مساء في عيادته الخاصة.

كانوا شلة من الأصدقاء، جمعهم حب الوطن والإخلاص لعملهم السابق في الجيش المصري الذي وهبوه حياتهم، ووثَّق صلتهم الحزن على ما آل إليه الحال، بعضهم كالعقيدين عبد المنعم عياد وحسين ربيع من ضحايا حركة تصفيات عام ١٩٧١ التي أُطلق عليها «ثورة التصحيح»، والبعض الآخر كاللواء أركان حرب محمد عزوز واللواء طبيب زكريا مفتاح والعميد مهندس مجدي الرزاز استمروا في مناصبهم حتى أحيلوا للتقاعد، فأضحى اجتماعهم اليومي واحة خضراء يأوون إليها في هجير صحراء المجهول التي تاهت أحلامهم وسط رمالها اللامتناهية.

قال الدكتور زكريا بلهجة واثقة:

ـ لديَّ معلومات أكيدة أنه يخضع لعلاج نفسي وعصبي ويتم حقنه مرتين يوميًّا، لذا يرافقه الدكتور شعلان في رحلاته الخارجية.

فقال مجدي الرزاز:

ـ ربما كان هذا من أثر تعاطيه المخدرات في شبابه.

فعقب اللواء عزوز:

ـ معروف عنه تعاطيه الحشيش منذ بداية التحاقه بالجيش، لكني أعتقد أن هذا الانهيار العصبي سببه أحداث يناير.

عبد المنعم ساخرًا:

ـ «انتفاضة الحرامية»!

ـ وقد زاد توتره أن جميع اللقاءات التي أجراها مع القوى الشعبية بعد هذه الأحداث لم تأتِ بنتيجة، فما زال الناس ساخطين بسبب تردي أحوال معايشهم.

تساءل المهندس مجدي بقلق:

ـ هل يمكن أن يقصد بالفعل أنه على استعداد للذهاب للكنيست؟

فصاح عبد المنعم فزعًا:

ـ لا.. لا! ليس هناك مجال لهذا الهراء، فنحن لا نهزل في حياة البلد ومستقبله.

ثم محركًا رأسه المسند على ظهر المقعد الوثير كأنه ينفض عنه الفكرة المخيفة:

ـ لا يمكن أن يفكر أحد بهذه الطريقة، ثم.. ثم مَن سيوافقه على هذا الجنون حتى لو افترضنا أنه كان جادًّا؟

فقال اللواء عزوز غاضبًا:

ـ أمَا كفاه توريط الجيش المصري في ضرب ليبيا دون عقل وبلا مبرر؟!

قال عبد المنعم بأسى:

ـ أراد أن يقدم مزيدًا من فروض الطاعة والولاء لأمريكا التي

بيدها ٩٩٪ من أوراق اللعبة بضرب مخازن السلاح السوفيتي على أرض عربية شقيقة.

عقَّب الدكتور زكريا ضاحكًا بقصد إزالة التوتر الذي خيم على جلستهم:

ـ ربما أدار الحشيش رأسه فتغيرت وجهة قذائفه من جهة الشرق إلى جهة الغرب.

ابتسموا لملاحظته الساخرة في مرارة، وقال العقيد حسين بلهجة مَن قضى أكثر سنوات خدمته في المخابرات الحربية:

ـ لا شك أن حضور ياسر عرفات لهذا الخطاب يشير إلى أن هناك أمرًا يُدبر.

فتساءل الدكتور زكريا مندهشًا:

ـ وهل حضر عرفات افتتاح دورة مجلس الشعب؟ لقد كنت مشغولًا وأنا أتابع الخطاب فلم أتنبه لوجوه الحاضرين.

فأجابه عبد المنعم بأسى:

ـ نعم كان حاضرًا، وهذا مؤشر مخيف، بل الأنكى أنه كان أول المصفقين عندما تفوه الحشاش بكلماته الخبيثة.

سادت لحظات صمت لم يُسمع خلالها إلا صوت ارتشافهم القهوة، وعكست الصينية المعدنية اللامعة الموضوعة أمامهم شعاع شمس رائقًا على وجوههم، ثم تنحنح حسين ربيع عدة مرات قبل أن يقرر الإفضاء بسر اطلع عليه، فقال بعد تردد:

ـ لقد تأكد لي أنه منذ أكثر من شهر تم لقاء في المغرب بين «حسن التهامي» وشخصيات إسرائيلية مهمة جدًّا.

صدرت عنهم همهمات استنكار، وتساءل مجدي الرزاز بفضول:

ـ مَن؟

ـ «موشي ديان»!

ترددت في جنبات المكان صيحات الغضب والوعيد، وزعق اللواء عزوز بصوته الجهوري:

ـ والله لئن فعلها السادات ليكونن قد صدَّق بنفسه على الحكم بإعدامه.

* * *

إنه في يوم الأحد الموافق ٢٠ نوفمبر ١٩٧٧

مات رجل...

مات العقيد متقاعد عبد المنعم عياد.

مات أبي وصديقي وحبيبي، مرفأ الأمان ونبع الحنان الذي ارتوت منه أعوامي، مات الرجل الذي تفتحت عيناي على صورته، وتشكَّل وجداني بصفاته وانطبعت ملامحه على صحائف عمري وفي خلايا وعيي، واحتضنت كلماته دفاتر أيامي بتوقيع واحد لا يتغير: عبد المنعم عياد.

مات الذي أورثني ملامحه ومنحني اسمي الذي ارتبط باسمه برباط لا انفصام له، مات الذي تسري في عروقي دماؤه ساخنة متجددة، وتتردد في صدري نبضاته حية لا تزال رغم الرحيل، مات الذي كانت أصابعه تجفف دموع خوفي، مات الذي كانت قبضته القوية تحملني وتهدهدني وتدفعني إلى الأمام وتحمي ظهري من

غدر الأيام، مات الذي كنت أفخر حين يسألني أحد مَن والدك؟ فأجيب بثقة: عبد المنعم عياد.

مات الذي مكثت دهرًا أظن أن جميع الناس تعرفه وأن ذِكر اسمه مجردًا من أي صفة كافٍ لأن يعرف الناس مَن هو، مات الذي مكثت دهرًا أظنه أقوى الرجال وأن المرض لن يجرؤ على الاقتراب منه وأن الموت لن يفكر يومًا في اختطافه من بين أحضاني.

مات الذي أطل عليَّ في طفولتي قويًّا شامخًا مقتدرًا لا يرد له أحد طلبًا ويتطلع الجميع إلى كريم عطائه، ثم داهمني في شبابي طريدًا مريضًا بائسًا معوزًا خائر القوى حزين الملامح يائسًا من مستقبل لا يرى له أفقًا.

مات أبي.

قتله أنور السادات.

طعنه بدم بارد يوم حرَمَه من الخدمة في جيش بلاده الذي وهب له حياته وأيام عمره، حتى ظننته وهبني أنا أيضًا له حين استوحى اسمي من روح العزة التي كانت تسري فيه يوم وُلدت، ثم أجهز عليه حين رأى الرمز الأكبر لهذا الجيش يخر راكعًا مستسلمًا أمام العدو الصهيوني، لم يصدق أن القائد الأعلى للقوات المسلحة يذهب بنفسه مصافحًا رموز الكيان الغاصب مسلِّمًا لهم جسد الوطن الغالي ليتناوبوا انتهاك عِرضه وتمريغ كرامته في الوحل.

ظل أيامًا يكذِّب الأخبار التي أكدت أن السادات كان يقصد ما قاله في مجلس الشعب، وأن ترتيبات تُجرى هنا وهناك لاستقباله على

أرض فلسطين السليبة، وظن أن استقالة «إسماعيل فهمي» و«محمد رياض» ستردعه عن المضي في غيه، وبقي على رفضه تصديق أن ترتيبات الزيارة ماضية إلى منتهاها حتى فُتح باب الطائرة وبرز منه الخائن، هو بنفسه ولا أحد غيره، كانت الضربة القاضية.

سامحني يا أبي! لقد كان عليَّ أن أُصر على رفضي تركك تتابع خطاب الكنيست في اليوم التالي.

كانت الأزمة القلبية التي داهمته وهو يراه ضاحكًا لاهيًا عابثًا كعادته وسط الزفة الإسرائيلية يحيط به «موشى ديان» و«جولدا مائير» وجميع القتلة السفاحين كفيلة بالقضاء عليه، أنقذه الدكتور زكريا، وقضينا الليل إلى جواره وهو يهذي مناجيًا عبد الناصر هاتفًا بأسماء الشهيد عادل الإبياري وغيره من شهداء معارك العزة والكرامة، بينما دموعه تحفر جداول معتمة على خديه.

في اليوم التالي بدا كأن صحوة الموت أيقظته للمرة الأخيرة، طلب أن نلتف جميعًا حوله، ثم ضم أخي عادل بين ذراعيه الواهنتين، وضع رأسه الصغير على صدره وأصر على متابعة الخطاب القاتل.

بدا خلال الخطاب شاردًا ذاهلًا كأنما انتقل بالفعل إلى عالم آخر، وكلما هممت بإغلاق التلفزيون أشار لي بإصبعه فرجعت، كنت أرقب وجهه بخوف وقلق وقد تعلقت عيناي بأنفاسه بينما يعلو صدره رافعًا رأس عادل ثم يهبط، حتى وصل القاتل في خطابه إلى قوله: «لقد أعلنتُ أكثر من مرة أن إسرائيل أصبحت حقيقة واقعة، اعترف بها العالم وحملت القوتان العظميان مسؤولية أمنها وحماية وجودها،

ولما كنا نريد السلام فعلًا وحقًا فإننا نرحب بأن تعيشوا بيننا في أمن وسلام فعلًا وحقًا»، إنه إذًا الاستسلام المهين والاعتراف الخسيس وتسليم الأرض العربية بلا قيد ولا شرط.

عند هذه الجملة هبط الصدر المُضنى فلم يقوَ بعدُ على الصعود، انطلق عادل يصرخ في ذعر وهو ينظر إلى وجه أبيه الذي ما عادت ذراعاه تقويان على حمله مرة أخرى.

* * *

إنه في يوم الأحد الموافق ٢٠ نوفمبر ١٩٧٧

مات رجل...

مات العقيد متقاعد عبد المنعم عياد.

مات عبده، مات السند والأمان والستر من غدر الأيام، مات الحبيب الذي تجاوزناه إلى غيره في مقتبل العمر، فما حرَمَنَا يومَ حاجتِنا يدًا قوية أقالت عثرتنا وحمت ظهرنا وأقامت بيننا وبين صقيع اليتم والترمل جدران دفء وحنان.

مات عبده، مات الرجل الذي وفَّى للأحبة وللأصدقاء، مات الذي امتلأ قلبه بحب «مصر» فلم ترنُ عيناه إلى وطن سواها رغم مرارة الغدر وقسوة نزع السلاح، مات الذي كان زهده في رزق الغريب يعادل ثقته أن خير الوطن لا مثيل له، فما حملته قدماه على الرحيل شرقًا ولا غربًا وقال إن مصر هي الحضن الرحيب الذي يأوي إليه الجميع، فكيف نهجر حضن الكبيرة لأحضان الصغار؟

بدأت روحه تنسحب رويدًا رويدًا منذ عشرة أيام، منذ تلك الليلة الكئيبة التي أعلن فيها السادات أنه مستعد للذهاب إلى الكنيست،

خوفي من غضب إسماعيل لم يعادل خوفي على عبده، علمت أنه لو فعلها حقًّا فإنه سيقتل الرجل، كنت أعلم أن الأمر فوق احتماله، لذا تمنيت أن تكون كلماته حماس خطابة أو مجرد هذيان لا يقصد من ورائه خطوة حقيقية.

أيمكن أن تذهب كل تلك الحروب سُدى؟ أتضيع دماء الشهداء هباء؟ أيضيع دم أخي دون أن نثأر من قاتليه؟ مَن يصدق أن يذهب المسؤول الأول عن ثأر الشهداء ليصافح وليضاحك وليمازح قاتليهم، وما الثمن؟ مجد شخصي؟ كاميرات تدور فتصنع نجمًا عالميًّا تتصدر صوره أغلفة المجلات؟ أذاك هو ثمن الشهيد، أواه يا عادل، أواه يا عبده، أواه يا دماء الشهداء التي سالت لتروي وطنًا باعه الخونة بلا ثمن!

ما كنت في حاجة لأن أنتظر صرخات سهام واستغاثات عزة وبكاء الأطفال لأعلم بما حدث، كنت أراه أمامي وأنا أتابع الخطاب على الشاشة، تمنيت لو منعوه من متابعته، ما كان ليتحمل السخرية والازدراء لكل ما حمل ماضيه من مجد وكبرياء «لقد كنا نصفكم بإسرائيل المزعومة!» يا للخزي والعار، يهيل بكلماته المخزية التراب على كل ما ضحى من أجله عادل وعبده وكل وطني مخلص، يهيل التراب على أحلام شبابنا التي برزت من تحت ركام هزائم ألحقها بنا الخونة المجرمون.

أواه يا عبده، أيها المخدوع فيهم وكلهم سواء، لا فرق بين عبد الناصر الذي سَجن وعذب وقتل الشرفاء وقدم سيناء غنيمة سهلة لليهود، وبين السادات الذي أهداهم الوطن كله رِفْد زيارته

الخبيثة، ولو امتد العمر بزعيمك لفعل ما فعله غريمك، لكنك عشت مخدوعًا.. أواه أيها الحبيب الغالي الذي قضى حياته كلها وفيًّا مخلصًا للمخلصين وللغادرين على السواء.

❋ ❋ ❋

إنه في يوم الأحد الموافق ٢٠ نوفمبر ١٩٧٧

مات رجل...

مات العقيد متقاعد عبد المنعم عياد.

مات أبي الثاني بعد الحاج علي، لم يمنحني محمد الطحاوي سوى اسمه وبعض ملامحه وسرعة غضبه كما تقول أمي، أما عم الحاج علي وعمي عبد المنعم فقد صنعا كل ما تبقى.

أتعجَّب أحيانًا لاجتماع النقيضين في أعماقي ثم أتساءل: أهما بالفعل نقيضان؟

علمني الحاج علي محبة الله والمحبة لله وفي الله، علمني رابطة الطريق ومشقة الطريق وتضحيات الطريق، علمني وحدة الهدف التي تصنع الأخوة، وسقاني العقيد عبد المنعم منذ طفولتي شراب الفداء وعدم الرضا إلا بالنصر وحب الشهادة في سبيل الوطن والمبدأ.

في طفولتي كنت أظن جميع الأشجار التي أراها رُويت بدماء الشهداء، بدم خالي عادل وزملائه، كان يحدثني دومًا عنه وعن تضحياته التي صنعت نصرنا، لكني بمرور السنين أخذت أتساءل: أي نصر هذا ونحن نخرج من هزيمة لنسقط في أخرى، وهل ذهبت دماؤهم سُدى أم أنها روت أشجار مدينتنا كما اعتقدت صغيرًا؟

مات رجل ضل الطريق! ظن أن الفداء يكون لوطن أرضه من تراب

وجدرانه سجن يضيق خناقه على الشعب ليصنع منه عبيدًا لفرعون، ومن سقفه تتدلى مشانق تتأرجح عليها جثث الأحرار، وطن ارتشف دماء عادل الإبياري وصحبه فما ارتوى، ولما سقته دماء سيد قطب وصالح سرية وكارم الأناضولي اخضرت أوراقه وأينعت ثماره حتى أوشكت على النضج.

مات رجل ضل الطريق! ربط حياته بزعيم كافر وبوطن خانع مهزوم، مات رجل حاد عن طريق الحق فتقطعت به السبل وقضى أعوامه الأخيرة في ضنك وهوان حتى قتلته كلمات المجرم الخائن صنيعة الهالك ويده اليمنى وخنجره الذي طعن به مَن كانوا ينادون بحكم الله منذ البداية، نسي المسكين أن السادات ما هو إلا فرعون صغير صنيعة لعبد الناصر الفرعون الأكبر، أي غشاوة كانت على عينيه حتى ظنهما غريمين مع أن أحدهما هو الذي جاء بالآخر ولولاه ما طالعنا وجه هذا الزنديق وهو يسلم بيده دِيننا وعِرضنا إلى أعدائنا لينتهكهما أحفاد القردة والخنازير.

مات أبي الثاني الذي ربت على رأسي صغيرًا وكانت قوته وحنانه درعًا لي من قسوة اليُتم والحرمان، مات أبي الثاني الذي تعلقت به زمنًا حتى أنهى ما بيننا براءتي من المشركين ومَن والاهم، مات الذي دعوت الله كثيرًا أن يهديه ليرى الحق قبل أن يلقاه لكن الله يهدي مَن يشاء ويضل مَن يشاء.

مات الذي قاد ابنته إلى طريق الضلال فجرحت مشاعري وأحزنت قلبي زمنًا، ثم تاهت مع التائهين، وضاعت ملامحها وسط ظلام الضلال الذي خيم على حياتهم حين حادوا عن الطريق المستقيم

واتبعوا السبل التي تفرقت بهم فدوّختهم في متاهاتها وأضاعت منهم معالم الطريق.

مات رجل ضل الطريق، فما أعجب إلا من قلبي ينهرس تحت وطأة حزن وحنين لأيامه، ومن عيني تدمع أسى عليه بينما لا تفارقها صورته مريضًا مهدمًا في يقظة أو منام، أجالس أمي فأشعر رغم الصمت أنه ثالثنا، وأتساءل في حيرة: لمَ يظل أحباب طفولتنا قيدًا في أعناقنا لا نملك منهم خلاصًا وكلما قذفنا بهم خارج مشاعرنا عادوا ليطرقوا الباب وليدلفوا إلى حياتنا دون استئذان؟

لقد أدمى رحيل عمي عبد المنعم قلبي رغم ضلاله وافتراق سُبلنا، وهأنذا أعترف بأن وطأة رحيله على نفسي لا تقل عن وطأة رحيل الحاج علي، هأنذا أعترف بأن شعور اليُتم يحوطني وبأني كنت أجد في زياراتي الصامتة له شعورًا كشعور الطفل إذ يأوي لحضن أبيه، كنت أنظر إلى وجهه وهو نائم فتطالعني صورة محمد الطحاوي والحاج علي، بل أحيانًا ـ ويا للعجب ـ صورة صالح سرية.

مات عبد المنعم عياد حين سمع المجرم يقول للصهاينة المغتصبين من داخل وطننا المغتصب: «إننا نرحب بكم بيننا!»، قهرته كلمات الخيانة فقضت عليه، مات محتضنًا صغيره كأنه يريد حمايته من مصير مؤلم ينتظر جيله في بلد فتح ذراعيه ليرحب باليهود، لكني أعاهدك يا مَن حللت مكان أبي زمنًا أن أحتضن عادل الصغير بعدك لأنقذه من طريق الضلال، وأعاهدك أن يظل ثأرك في أعناقنا، نحن جنود الله، حتى نقتص من هذا الكافر العميل.

(٧)

قاربت الساعة الثالثة عصرًا حين خرج إسماعيل من باب كلية الهندسة، وقف قليلًا بجوار السور الخارجي وتلفت حوله بحذر، ثم سار متمهلًا في اتجاه كوبري الجامعة حاملًا في يده كيسًا بلاستيكيًّا كبيرًا مطبوعًا عليه بادج «شركة بيع المصنوعات المصرية».

كان الجو دافئًا خلافًا لما هو مألوف في هذا الوقت من شهر يناير.. ارتدى بلوفرًا من الصوف الخفيف مع بنطلون ينتهي أعلى كاحله، وقد بدا في سَيره المتمهل كما لو كان يريد إضاعة الوقت أو تضليل العيون الراصدة حتى يصل إلى مبتغاه.

وصل ميدان التحرير فابتاع «جريدة الأخبار»، ثم قصد «مقهى وادي النيل» واختار طاولة في ركن بجوار النافذة يمكنه منها رؤية الطريق عبر الواجهة الزجاجية.

مكث في المقهى يتناول المشروبات ويتصفَّح جريدته وهو يراقب الطريق بين فينة وأخرى حتى بلغت الساعة الخامسة، فأخرج من كيسه سويترًا وكابًا من الجلد الأسود ارتداهما ومضى باتجاه شارع سليمان باشا، ثم راح يتسكع في طرقات وسط البلد مراقبًا انعكاسات المارة على زجاج الفتارين، ولما اطمأن إلى أن أحدًا لا يراقبه عاد إلى ميدان التحرير ليستقل أتوبيسًا للنقل العام في طريقه إلى المكان الذي كان يقصده منذ غادر الجامعة قبل ساعات.

جاوزت الساعة العاشرة مساء، لف الصمت المكان وأجبر البرد القارس أصحاب الورش والمتاجر وسكان العمائر المتراصة

على أن يغلقوا أبوابها، بينما مرق إسماعيل في حذر من شارع ترعة الزمر إلى شارع العمرانية ومنها تسلل لحارة ضيقة غارقة في الصمت والظلام.

لاح كشبح أسود وقد أغلق سحَّاب سويتره وأسدل حرف الكاب ليخفي جبينه وحاجبيه.. تمهل قليلًا أمام منزل مكون من ثلاثة طوابق صغيرة مبنية بالطوب الأحمر دون دهانات خارجية، عدا الطابق الأرضي المرشوش بطلاء فيروزي، بينما دُهنت نافذته الوحيدة المغلقة والمطلة على الحارة باللون الزهري.. تلفت حوله ولما اطمأن تمامًا مرق إلى المدخل ثم صعد الدرج الأسمنتي الضيق ركضًا حتى الطابق الثالث.

كان يعلم أن ثمة لقاءً مهمًّا ينتظره بالداخل، لذا خفق قلبه وهو يطرق الباب بالطريقة المتفق عليها: طرقتان قويتان يتنحى بعدهما من أمام الباب وينتظر دقيقة قبل أن يطرق طرقة واحدة ضعيفة ثم ينتظر لحظات ويطرق ثلاث طرقات متتابعات بأطراف أصابعه، وحين يسمع من الداخل صوت نحنحة مميزة يرد عليها بصفير خافت، حينئذ ينفتح الباب.

صافحه صاحب الشقة بسرعة وأطلَّ برأسه مراقبًا السلم، ثم أغلق الباب وأمسك بيد إسماعيل ليقوده لحجرة داخلية.

وجد نفسه في أحضان وائل، تعانقا بشوق لاهف وبدت الأعوام الماضية طويلة طويلة، قبَّل جبينه ورأسه مرات، أخذ يتفحص جسده الناحل وملامحه المرهقة في الضوء الخافت المتسلل من الردهة الخارجية إلى الحجرة المظلمة التي جلسوا فيها.

ـ حمدًا لله على السلامة يا أخي، جعلها الله كفارة للذنوب ورفعًا لدرجاتك يوم القيامة.

ـ الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، رحم الله شهداءنا الأبرار وحشرنا وإياهم في زمرة الصالحين.

لاح على وجهه التأثر الشديد وهو يتمتم: «آمين»، وقد طافت بخياله ملامح صالح سرية وكارم الأناضولي اللذَيْن نُفذ فيهما حكم الإعدام قبل الإفراج عن وائل وبعض ممن أُدينوا معه وأتموا مدة سجنهم، اغرورقت عيناه بالدموع فبدت له وجوه الشباب، الذين قاموا لمصافحته ومعانقته، غائمة.

لم يكُ بالحجرة من مجموعة «البدريين» سوى وائل محمود ومصطفى علوي الذي أُفرج عنه قبل صدور الأحكام فعاود الاتصال بإسماعيل والتقيا مرات، فتعرف عن طريقه على مختار فايد صاحب الشقة، وهو شاب رقيق الحال ترك التعليم في منتصف المرحلة الثانوية ليعول أسرته بعد وفاة أبيه فعمل في مكتبة صغيرة للآلة الكاتبة وتصوير المستندات بمنطقة بين السرايات، وعن طريقه انضم للمجموعة قريبه معوض عبد الله صاحب ورشة الحدادة بالعمرانية.

أما الطبيب الشاب أيمن عبد الظاهر فقد تعرف عليه بعد عودته من الإسكندرية عن طريق صديقه زميل دراسة وائل المهندس سليم جاهين، ودأب ثلاثتهم على الاجتماع في منازلهم بالدقي والروضة والمعادي بالتناوب لإتمام حفظ القرآن الكريم ودراسة السيرة النبوية والعقيدة وأصول الفقه، قبل أن يقرروا التحرك لإقامة شرع الله في الأرض.

أما آخر الموجودين في الحجرة وقت دخول إسماعيل فكان شابًّا صغيرًا وسيمًا، عكست عيناه في الضوء الخافت ورعًا وحماسة بينما كان وائل يعرفهما:

ـ إسماعيل الطحاوي، طالب بنهائي هندسة وتلميذ الشهيد صالح سرية رحمه الله.

ثم مشيرًا للشاب الآخر:

ـ طارق عيسى أولى كلية الزراعة.

قال إسماعيل مبتسمًا وقد انداح في لاوعيه أريج زمان قديم وذكريات ما زال عبقها فواحًا:

ـ تشرفنا أخي الكريم، ها هو غراس الشهداء ينبت ويملأ الأرض زهورًا يانعة بإذن الله.

استهلوا اجتماعهم بأداء الصلاة، قدم مختارٌ وائل للإمامة، فسما بهم من خلال نبراته العذبة وتلاوته الخاشعة من فوق تراب الأرض إلى علوٍّ سامق تشف فيه الأرواح وتغتسل من أدران الدنيا وأتعابها.

مكث غير قليل يدعو ويؤمّنون خلفه، ثم آثر أن يخصص ختام دعائه لشهداء الصحوة الإسلامية كأنما ليُذكرهم بأن خطاهم المقبلة هي امتداد طبيعي لخُطى السائرين على الدرب الذين قدموا أرواحهم رخيصة لتكون كلمة الله هي العليا، وأن ثأر هؤلاء جميعًا في عنق أصغر فتى بينهم.

لم ينسَ الدعاء لشهداء المنشية ١٩٥٤ عبد القادر عودة وإخوانه، ثم أطال داعيًا لشهداء ١٩٦٥ سيد قطب وصاحبَيْه مثنيًا على قائد المسيرة ومصحح المسار سائلًا الله تعالى أن يحشرهم وإياه في

الفردوس الأعلى، ثم انهمرت دموعه غزيرة سخينة وتحشرج صوته وهو يدعو لرفيقَيْه شهيدَي الفنية العسكرية صالح سرية وكارم الأناضولي، فارتفع نشيج إسماعيل ومصطفى علوي وتصدعت القلوب حتى سكنت وخشعت رضاء بقضاء الله وعزمًا على تلبية النداء والقبض على راية الجهاد وعلى زمام قافلة التوحيد.

جلس الثمانية متقاربين، بعضهم على المقاعد القليلة الموجودة بالحجرة والبعض الآخر تربع على السرير المغطى بلحاف حائل اللون، عاد مختار بطبلية خشبية عليها أكواب الشاي وعلبة السكر وأطباق من الكعك والمنين المخبوز منزليًا، ثم جلس على مقعد صغير بجوار النافذة يراقب الطريق بين فينة وأخرى من خلال ألواح الشيش المغلق.

قال وائل:

ـ ها قد منَّ الله باللقاء، فعلينا الاجتهاد لنبدأ عملنا دون تضييع مزيد من الوقت.

سأل إسماعيل بغتة وكأنما افتقد في جلستهم أحد قياداته السابقة:

ـ ألا توجد أخبار عن «حسن الهلاوي»؟

أجابه مصطفى علوي بلهجة مَن يريد إغلاق الموضوع:

ـ انقطعت أخباره مذ تمكن من الهرب من حراسه أثناء التحقيقات، ولا نعرف هل ما زال مختبئًا داخل مصر أم لا.

فقال وائل:

ـ الأرجح أنه غادر البلاد، على العموم أبشركم أن أكثر مجموعتنا ممن أفرج عنهم سوف ينضمون إلينا تباعًا، ولو كان حسن في

مصر فسنعثر عليه بإذن الله، وسيكون تجميع شراذم المؤمنين هدفنا في المرحلة القادمة.

قال إسماعيل بحماسه المعهود:

ـ نعم يا أخي ينبغي أن نقيم عملنا على أساس توحيد الطاقات، خصوصًا أن الساحة مليئة الآن بمجموعات صغيرة ناقمة على الأوضاع، كلها تريد إقامة شرع الله لكنها لا تجد خيط البداية.

فعقب طارق:

ـ لكن لا تنسَ يا أخ إسماعيل أن مجرد التجميع ليس هدفًا في حد ذاته، وإلا أصبحنا مثل آلة الإخوان التي لا تهتم سوى بالحشد فيختلط داخلها الحابل بالنابل والعايط بالزايط.

ضحكوا جميعًا بغير صوت، وعلق وائل على ملاحظة طارق قائلًا بلهجة مُعلم ودود:

ـ هدفنا إحياء فريضة الجهاد، هذه الفريضة الغائبة عن واقعنا رغم أنها ذروة سنام الإسلام، ولأن الجهاد حركة وليس مجرد تنظير فكري، لذا سيكون من السهل علينا تجاوز بعض الخلافات الفكرية أو المنهجية البسيطة للقيام معًا بالعمل المباشر.

الدكتور أيمن محذرًا:

ـ لكن يجب أن تظل حركتنا محكومة بثابت أساسي هو العقيدة الصحيحة الخالية من أي غبش، وإلا تاهت سفينتنا وسط أمواج الجاهلية كما تاه الإخوان وضيعوا معهم العشرات من خيرة شباب الصحوة.

إسماعيل بمرارة:

ـ وها هي سفينتهم التائهة تصطدم بصخرة نبذ العنف والالتزام بالشرعية الدستورية.

فقال وائل:

ـ عبثًا يحاولون، لن يرضى عنهم الطاغوت حتى يتبعوا مِلته، ولن يمنحهم الفرصة للدعوة أو لتولي المناصب المهمة ولو أقسموا له على مصحف الديمقراطية مائة مرة.

وقال مصطفى علوي:

ـ طالما أكد الدكتور صالح رحمه الله أن الأنظمة العسكرية لن تمنح الفرصة أبدًا لمَن يريدون تكوين أحزاب إسلامية وستقف حائلًا دون نجاحها في أي انتخابات.

فعقَّب أيمن عبد الظاهر بألفاظه الواضحة الحاسمة:

ـ المشكلة ليست في وجود أحزاب إسلامية أو عدم وجودها، فهذا كله كفر بالله وبحاكميته التي لا يجوز لأحد سواء أكان فردًا أو حزبًا عسكريًّا أو مدنيًّا استبداديًّا أو ديمقراطيًّا أن ينازعه فيها بالتشريع للناس تحت زعم الديمقراطية، فالحاكمية لله وحده وليست للشعب، ومَن يجادل في هذا فهو كافر كفرًا يخرجه من المِلة قولًا واحدًا.

وأضاف إسماعيل مؤيدًا:

ـ إن فكرة الشرعية والالتزام بالقانون الوضعي الذي يجمع بين حكم الشريعة وأحكام أخرى هي نفسها فكرة «الياسق» الذي أفتى ابن تيمية بكفر التتار لمَّا أصروا على التحاكم إليه.

فضرب سليم جاهين كفًّا بكف وهو يقول:

ـ العجيب من أمر «إخواننا» أنهم أصبحوا الآن يدعون لهذه الشرعية ولمبادئ الديمقراطية كأنها أساس عقيدتهم.

خرج معوض عبد الله عن صمته قائلًا:

ـ ألم تسمعوا مرشدهم الشيخ «عمر التلمساني» وهو يقول: «نحن ندعو إلى تقنين الشريعة الإسلامية تدريجيًّا وعلى مهل حتى لا تختلط الأمور».

فتساءل مختار ساخرًا:

ـ هل أصبح تطبيق الشريعة الإسلامية خلطًا للأمور؟

أيمن مبتسمًا:

ـ لا تعجب يا أخي فهؤلاء هم الإخوان، وهذه هي الثمرة المُرة لرحلتهم الطويلة.

قال إسماعيل بنبرة عنيفة غاضبة:

ـ أليس التلمساني هذا هو مَن تفاخر يومًا بأن أول شيء فعله عندما خرج من السجن عام ١٩٧١ أن ذهب إلى قصر عابدين لتسجيل شكره للسادات متجاهلًا أن السادات هو مَن حكم بالإعدام على شهداء مسرحية المنشية.

وائل مقهقهًا:

ـ لقد تعودوا يا أخي على الذهاب إلى قصر عابدين لتقديم شكرهم، فمرة يذهب الهضيبي ليقدم شكره للملك الذي أمر بقتل مرشدهم الأول، ومرة يذهبون لتقديم شكرهم لعبد الناصر، ثم للسادات، وهكذا يروح الإخوان ويغدون إلى قصر عابدين ليقدموا الشكر على القتل والإهانة والتعذيب.

أغرقوا في الضحك المرير قبل أن يبادر أيمن قائلًا:

ـ المصيبة أنهم لم يكتفوا بهذا التحريف في حقائق التوحيد والولاء والبراء بمجرد أفعالهم الشائنة، بل لجأوا إلى تأصيله شرعًا في افتكاسة «دعاة لا قضاة» التي دوَّنها كبيرهم بإشراف المباحث العامة كما اعترفوا هم أنفسهم، لذا فإن أجيالهم الجديدة سوف تنشر في المجتمع هذا الانحراف والتميع الفكري والعقَدي.

كأنما تذكَّر إسماعيل شيئًا، فسأل مصطفى علوي:

ـ هل تعرف ضياء عبد الفتاح من اتحاد طب قصر العيني؟

شوَّح مصطفى بظهر يده وهو يبتسم باستهانة، فاستطرد إسماعيل:

ـ التقيت به الصيف الماضي في بيت الشيخ صالح العقاد وكان معه مجموعة من شباب الجماعة الإسلامية، يبدو أنهم سينضمون لجماعة الإخوان أو العكس أو شيء من هذا القبيل.

قال مصطفى:

ـ لقد تم الاندماج بينهم بالفعل، استولى الإخوان على شباب الحركة الطلابية الإسلامية بالكامل وتجري الآن عملية تسليم وتسلم لهؤلاء الشباب في القاهرة والإسكندرية وبعض محافظات وجه بحري.

تمتم مختار آسفًا:

ـ خسارة! هذا الشباب فيه خير كثير وسيستغل الإخوان حماسهم وقلة خبرتهم ليجمدوهم داخل ثلاجتهم.

وأضاف معوض:

ـ سوف يُحولون غيرتهم على الإسلام من جهاد الطاغوت إلى

الاحتشاد في المؤتمرات والهتافات الخائبة في المناسبات الدينية.

فهز سليم رأسه بأسى وهو يقول:

ـ الكارثة أن السادت يستخدم الإخوان الآن لحشد تأييد الشارع له في مواجهة القوى المعارضة لزيارته للصهاينة واعتزامه توقيع صلح منفرد معهم، لذا فهم يقومون بضم هؤلاء الشباب لضمان دعم الحركة الطلابية أو على الأقل تحييدها حتى تتم الاتفاقية وتصبح أمرًا واقعًا.

هتف إسماعيل بلهفة:

ـ لذا لا بد أن نبادر بالتحرك السريع لإجهاض هذه المؤامرة التي تدبر لإلهاء شباب الحركة الإسلامية حتى تضيع فلسطين نهائيًّا.

فقال وائل وهو يخلل لحيته بأصابعه:

ـ أعتقد أن كثيرًا من الطلبة الإسلاميين لديهم إدراك لما يدبر لهم وسيرفضون الاندماج في هذه الجماعة المنحرفة...

ثم موجهًا كلامه لطارق عيسى:

ـ قلت لي إنك على صلة بالأخ «سالم الرحال»، فهل تعرفت على أي من شباب جماعته من طلبة الثانوي أو الجامعة؟

أجابه طارق:

ـ التقيت عنده بطالب في كلية سياسة واقتصاد يبدو عليه الورع والحماس وسمعت عنه كلامًا طيبًا من بعض إخواننا، لكنني لم أتعرف عليه بشكل وثيق.

فعقب وائل:

ـ إذًا عليك أن تسعى لتوطيد علاقتك به، فمعلوماتي أنهم يتربصون بالأخ سالم وليس مستبعدًا أن يدبروا له مكيدة لترحيله من مصر؛ لذا يجب أن نكون على استعداد لضم هؤلاء الشباب الذين نسأل الله أن يكون إنقاذهم من ثلاجة الإخوان على أيدينا وأن يصبحوا خير نفع لحركتنا المباركة بإذنه تعالى.

قال سليم جاهين:

ـ أرى أن نسافر أنا وإسماعيل إلى الصعيد ونسعى لمقابلة قيادات الجماعة الإسلامية هناك وعرض الأمر عليهم.

إسماعيل مُرحبًا:

ـ ليكن سفرنا أخي في أسرع وقت، قبل أن تصل إليهم أيدي «زعماء الطلبة».

كان أيمن متربعًا فوق السرير، فحل ساقيه قافزًا في الهواء بحركة فجائية كادت تطيح بنظارته الطبية، لولا أن قبض عليها، وهو يقول بحسم:

ـ حذارِ، فالجماعة الإسلامية مكشوفة أمنيًّا ومختَرَقة تمامًا، ثم إن رؤيتهم للأمور شديدة الضحالة لا تختلف عن رؤية الإخوان نتيجة تأثرهم بالفكر الإخواني في الجامعات، فما الداعي لتعريض حركتنا للخطر بالاتصال بهم؟

صمت سليم وأومأ إسماعيل برأسه، فيما قال وائل:

ـ الأخ أيمن نسي أن كل مولود يولد على الفطرة ولا يولد إخوانيًّا،

وإنما يُؤخِون الشبابَ تركُهم لتروس الجماعة كي تلتهمهم، وهم فيهم خير كثير، فخسارة أن تُحرم الحركة الإسلامية من إيمانهم وحماستهم وفتوتهم...

ثم بنبرة توكيد:

ـ لكنك محق بالطبع فيما يتعلق بضرورة تأمين الاتصال بهم جيدًا وأخذ جميع الاحتياطات الواجبة.

قال سليم جاهين:

ـ عمومًا أعضاء الجماعة الإسلامية كلهم طلبة ورأيهم واحد، فالأفضل أن تكون بداية اتصالنا باثنين أو ثلاثة من قياداتهم الموثوق بهم الذين يمثلون الجميع ونناقش معهم آلية انضمامهم إلينا دون أن نلفت الانتباه.

فتمتم أيمن بقلق:

ـ خُذا حِذركما جيدًا، والله سبحانه وتعالى الحافظ والموفق.

قال مختار وهو يغادر مقعده بجوار النافذة متجهًا إلى الخارج:

ـ ها قد وصل عصام وخميس.

(٨)

قد يصعب تصور أن يكون لكلمة قالها الرئيس الأمريكي تعليقًا على هزيمة يونيو ١٩٦٧ كل هذا التأثير على مسار الحركة الإسلامية في مصر، لكن هذا ما حدث عندما وقعت عينا تلميذ في بداية مرحلة

دراسته الثانوية على تلك الجملة في صحيفة فقصها ووضعها أسفل زجاج مكتبه ليقرأها كلما جلس يستذكر دروسه.

قال «ليندون جونسون» بشماتة: «على العرب أن يبتلعوا ألسنتهم في حلوقهم، ويقبلوا بالحياة في هذه المنطقة تحت قيادة إسرائيل ورعاية أمريكا»، فقال «عصام القمري» بتحدٍّ: «غدًا سنرى!».

لقد غيرت الهزيمة وما تلاها من سنوات القهر مسار حياته، ودفعته باتجاه آخر بعيدًا عما خطَّط له والده أن يلتحق بكلية الطب بعد حصوله على مجموع مرتفع في الثانوية العامة، لكن عصام فاجأه بتقديم أوراقه إلى الكلية الحربية في زمن شهدت فيه عزوفًا حتى من أصحاب المجاميع المنخفضة، وحين سأله والده عن السبب أجابه بتلقائية:

ـ لكي أقوم بانقلاب عسكري!

كأنما كشفت الهزيمة للفتى على نحو غير محدد أن طريق تحرير الأرض المحتلة يبدأ من القاهرة، إلا أن ذلك الهدف الذي بدا لأسرته مجرد خيال طفولي ساذج، تبلورت ملامحه في الكلية بعدما توثقت صداقته بزميل اصطحبه إلى مسجد الجمعية الشرعية وهناك بدأ في التعرف على حقائق الإسلام وارتباطه الوثيق بالسياسة وبنظام الحكم.

كانت تلك النظرة الشمولية للإسلام أشبه بصدمة معرفية له، لذا كان الأقرب للمنطق أن يستجيب لدعوة عضو في جماعة الإخوان كان يتردد على المسجد، غير أن عصام كان قد بدأ بالفعل يقرأ كتب ابن تيمية، ويطالع فتاويه عن مرحلة تاريخية رآها مماثلة لما يعاصره ويكابده أبناء جيله، وقد كشفت له هذه القراءة أنه لا سبيل

للالتقاء مع الفكر الإخواني الذي لا يخطط للجهاد إلا بعد تربية طويلةٍ طويلة، حتى لتبدو بلا نهاية، بينما تبلور فكره حول حقيقة أن التربية الإسلامية الصحيحة لا يمكن أن تتم إلا من خلال العمل الجهادي، الذي أصبح بعد احتلال أراضي المسلمين فرض عين يلزم القيام به دون إبطاء.

وتأتي حرب أكتوبر ١٩٧٣ لتحدد معالم طريقه على نحو أكثر وضوحًا، فالملازم عصام القمري الضابط بسلاح المدرعات سيحرز تفوقًا باهرًا في تدمير عدد كبير من الدبابات الإسرائيلية ليستحق بذلك لقب «أسطورة المدرعات»، وليحصل على ترقية استثنائية ووسام عسكري، كما أنه سيتعرف أثناء خدمته في منطقة الدفرسوار على مجموعة من الشباب الذي توجه متطوعًا لقتال اليهود تحت راية إسلامية واضحة، ما عجَّل بتسرب الفكر الجهادي داخل صفوف القوات المسلحة التي أصيبت بإحباط شديد بعد أحداث الثغرة وما تلاها من وقف إطلاق النار وفض الاشتباك، لذا فإن بعض الضباط ومنهم عصام وصديقه «خميس مسلم» ضابط الصاعقة، سوف ينضمون بعد وقف القتال للجماعة التي أنشأها «سالم الرحال» الطالب الفلسطيني بجامعة الأزهر، والذي يرى ما رآه صالح سرية من قبل من أنه لا سبيل لتحرير فلسطين إلا بقلب نظام الحكم في إحدى دول المواجهة وإقامة نظام إسلامي بديل داعم للجهاد.

قام الدكتور أيمن عبد الظاهر بمهمة تقديم عصام وخميس إلى أفراد الجماعة في محاولة منه لتجميع المجموعات الجهادية الصغيرة

المبعثرة، وقد خصصوا اجتماع الليلة لتدشين الاندماج ومناقشة أسلوب التعاون بين المدنيين والعسكريين.

كان عصام يكمل كلامه وهو يضع كوب الشاي الفارغ على الطبلية:

ـ ... ولا تنسوا أيضًا أن محطات الإنذار المبكر في سيناء التي أنشأتها اتفاقية فض الاشتباك ستصبح بوابة لتمدد القواعد العسكرية الأمريكية في مصر كلها تحت غطاء دولي.

ضرب معوض الحصير الجالس عليه فوق الأرض بقبضة يده، وهو يردد بعصبية:

ـ الخائن.. العميل!

تنمرت ملامحهم غضبًا، فاستطرد عصام قائلًا بحسم:

ـ لذا يجب ضرب رأس الأفعى بالقضاء على هذا النظام الخائن، وأي تفكير في نقل العملية الجهادية لخط المواجهة قبل ذلك هو نوع من إهدار الطاقات فيما لا طائل من ورائه.

قال أيمن مصدقًا على كلامه:

ـ القاعدة الشرعية تقول إن قتال المرتد مُقدَّم على قتال الكافر الأصلي، وقتال العدو القريب مُقدَّم على قتال العدو البعيد؛ لذا فإن قتال حكام المنطقة اليوم مقدم على قتال اليهود والصليبيين.

كوَّر إسماعيل قبضته ورفعها أمام وجهه وهو يقول:

ـ أرى أن يكون هدفنا الأساسي في الفترة القادمة هو قتل أنور السادات.

رد عليه النقيب خميس مسلم بسرعة:

ـ لا، لا.. هذا أمر شديد الصعوبة.. أنت تتحدث عن القائد الأعلى للقوات المسلحة وعملية اختراق الجيش ليست بالبساطة التي تتصورها.

فترت حماسة إسماعيل فزم شفتيه بقوة تعبيرًا عن القهر، فقال وائل:

ـ رغم أن قتل هذا المرتد مُبرَّر من الناحية الشرعية، لكن بفرض أننا تمكنا من ذلك فسوف نخسر الرأي العام الذي نحتاجه لتأييد عمليتنا وتحويلها لثورة شعبية حاشدة تمنع أي تحرك مضاد لإجهاضها.

رد إسماعيل متشبثًا بفكرته:

ـ لكن السادات بفعلته المشينة أصبح مكروهًا من جميع الاتجاهات السياسية والشعبية.

فقال مختار وقد راقته الفكرة:

ـ إنني ألتقي يوميًّا في المكتبة بطلبة جامعة وأساتذة من كل الاتجاهات، ناصريين وشيوعيين، جميعهم ساخط عليه منذ ذهابه إلى الصهاينة واعترافه بكيانهم المزعوم.

وأردف معوض مؤكدًا:

ـ هذا صحيح، حتى الناس العاديون من غير المتعلمين جميعهم غاضب ولا أحد يتصور أن نصر أكتوبر تحول لهزيمة واستسلام، وعندما أعلن عن قرب توقيعه اتفاقية صلح مع الصهاينة سمعت كثيرين يدعون الله أن يأخذه قبل أن يفعلها ويُلحق العار بمصر.

وائل مبتسمًا:

ـ أؤكد لكم أن الذين يتمنون موته اليوم ويفرحون لقتله سوف يكونون أول مَن يطعن فينا ويصفنا بالوحشية والإرهاب لو فعلناها.

فقال سليم جاهين:

ـ معك حق يا وائل، ففرحة الخلاص منه لن تستمر طويلًا ثم يبدأون بعدها في كيل الاتهامات لنا، ثم مَن قال إننا سنحقق هدفنا لو قتلنا السادات؟ إن عناصر النظام موجودة في كل مكان وإن قتلنا واحدًا فربما يأتي مَن هو أشد منه كفرًا وعمالة، لذا يجب أن يكون تركيزنا على إسقاط النظام كله وليس قتل أفراد.

أومأ عصام برأسه موافقًا وهو يقول:

ـ على العموم لا يجب أن نضع فكرة قتل السادات في مخططنا لأن تحقيقها شبه مستحيل، واختراق الجيش ـ كما قال الأخ خميس ـ من أصعب ما يكون، المطلوب أن نحدد هدفنا بدقة لكي نرسم استراتيجيتنا على أساس سليم، أعتقد أن الهدف الواضح الآن هو إزاحة النظام بعمل انقلابي عسكري مدروس، ثم الاستيلاء على السلطة لإقامة نظام إسلامي يطبق شرع الله ويعيد إحياء فريضة الجهاد.

ترددت عبارات الموافقة والاستحسان في جنبات المكان، فاستطرد عصام قائلًا:

ـ إذًا علينا أن نرسم بدقة الجوانب الاستراتيجية لخطة التحرك خلال المرحلة المقبلة، ونقطة البداية هي العمل على تجميع الطاقات المبعثرة في ساحة العمل الإسلامي...

قاطعه سليم قائلًا:

ـ لقد اتفقنا قبل مجيئكما على محاولة ضم قيادات الجماعة الإسلامية في الصعيد الذين لم تصل إليهم يد الإخوان بعد.

فعقَّب عصام:

ـ فكرة جيدة، الجماعة لديها قدرة كبيرة على الحشد، ونحن سنحتاج مئات من الشباب المسلم لتدريبهم على العمليات القتالية.

خميس مؤكدًا:

ـ خصوصًا أنه من الصعب تجنيد عدد كبير من العسكريين دون اكتشاف الأمر نظرًا للمتابعات الأمنية المستمرة داخل الجيش، لذا يجب أن نعتمد في تنفيذ خطتنا على العناصر المدنية المدربة تحت قيادة عسكرية.

قال أيمن وهو يمسح زجاج نظارته بطرف قميصه:

ـ هذا أمر مفهوم، لكن طلاب الجماعة الإسلامية تعودوا على العمل العلني المفتوح وحركتنا يجب أن تظل محكومة بسرية مطلقة.

فأجابه عصام:

ـ معك حق، أنا في الحقيقة أتحدث عن تجميع للفصائل التي تتبنى منهج العمل السري كما حدث بيننا وبينكم، بحيث تندمج في النهاية في كيان واحد قادر على إحداث التغيير.

خرج مختار عن صمته موجهًا كلامه لأيمن:

ـ إن خوفك الأمني يا دكتور من شباب الجماعة مبالغ فيه، لأنه إذا

كانت الخطة كما يقول الأخ عصام تحتاج إلى مئات الشباب، فلن يصلح لها أفضل من هؤلاء الطلبة الممتلئين حماسة وحبًّا لدينهم.

أضاف إسماعيل مؤيدًا مختار:

ـ ومنهجية الحركة من السهل تغييرها عندما يقتنع المرء بضرورة ذلك لخدمة الهدف الذي يسعى لتحقيقه.

فقال أيمن بإصرار:

ـ أخشى، كما قلت لكم، من أنهم مُختَرَقون أمنيًّا.

صمتوا جميعًا، ثم قال خميس بعد لحظة تفكير:

ـ أعتقد أنه سيكون بإمكاننا الاستفادة من الرصد الأمني لهؤلاء الشباب، أو ما تسميه بالاختراق.

ابتسم عصام، فيما تساءل الباقون بدهشة:

ـ كيف؟

ـ أنتم لا تتصورون مدى الغباء الذي يتمتع به ضباط أمن الدولة والشرطة بوجه عام، فهم دائمًا ينظرون في اتجاه واحد وليس عندهم أي حس استراتيجي أو إدراك للمناورة، وهذا سيمنعهم من رصد التغيير المنهجي الذي سيطرأ على الأفراد الموضوعين تحت المراقبة وهو ما سيسهل علينا تزويدهم بالمعلومات التي نريدها لصرف انتباههم بعيدًا عن نشاطنا الحقيقي.

وأردف عصام:

ـ لكن هذا الأمر لن ينجح إلا إذا حرصنا على اختيار عناصر متميزة ومأمونة ثم وضعهم تحت الاختبار لفترة قبل دمجهم في العمل.

قال مصطفى علوي وقد تذكر شيئًا:

ـ قد ينضم إلينا قريبًا بإذن الله ضابط ملتزم من المخابرات الحربية.

تعلقت به الأعين ولهجت الألسن بالتكبير والتهليل، فيما سأله عصام باهتمام:

ـ هل ما زال في الخدمة؟

أجابه مصطفى:

ـ أعتقد ذلك، وسأبدأ في تعريفكم به بالطريقة نفسها فردًا فردًا حتى نطمئن تمامًا فندعوه لاجتماعاتنا.

فسأله أيمن:

ـ ماذا عن مرجعيته الشرعية؟

ـ المسألة تحتاج بعض التمحيص وأقترح دعوته لجلسة حفظ القرآن في منزلي الأسبوع المقبل، لكني عرفت من حديثي معه أنه بدأ طريق الالتزام بعد تردده على جامع أنس بن مالك بالمهندسين.

صاح أيمن فزعًا:

ـ الشيخ إبراهيم عزت؟

اتسعت ابتساماتهم، فيما استطرد أيمن محتجًّا:

ـ وهل يصلح أن نضم إلى تدريباتنا القتالية طلاب مدارس العظات والرقائق؟

وائل معترضًا:

ـ لقد فتح الله على الشيخ إبراهيم وجعل كلماته قادرة على تغيير حياة كثيرين ممن يسمعونها، وتنقلهم بهداية الله من الجاهلية إلى الإسلام.

قال طارق عيسى مشككًا:

ـ أعرف بعضًا من جماعة التبليغ، وقد علمت منهم أن مفهوم الجهاد عندهم هو الخروج لنشر الدعوة وتعليم الناس فرائض الصلاة والصيام وما إلى ذلك، وهم ضد الدعوة إلى تغيير الأنظمة أو السعي لإقامة الدولة الإسلامية.

فعقب وائل:

ـ لكن يجب أن نضع في اعتبارنا أن جماعة التبليغ ليست تنظيمًا له منهج حركي وإنما مجرد حركة دعوية عامة، وأفكارها لا تحمل انحرافًا عقديًّا يمنع أتباعها من الانضواء تحت راية التوحيد والجهاد، بل هم يتبعون منهج السنة والجماعة في مفهومه الصحيح.

قال عصام:

ـ حسنًا! هذا أمر في غاية الأهمية، لأن أول جوانب استراتيجيتنا الدعوة إلى الله تعالى وتعريف الناس بحقائق الإسلام ومقتضيات التوحيد والحاكمية، سواء كانوا ممن سينضم إلينا من المجاهدين أو من القاعدة الشعبية التي ستحمي ثورتنا حين تقوم.

فعاد طارق يقول بقلق:

ـ لكنهم مُغرِقون في المواعظ والرقائق والمؤثرات العاطفية، فهل يمكن لهؤلاء أن يتحملوا مسؤولية الإعداد للدخول في معركة مع نظام بمثل هذه القوة والجبروت؟

وائل مبتسمًا:

ـ اعلم أخي الحبيب أن الجهاد في حاجة لقلوب رقيقة تنبض

بحب الله، وجلود تقشعر لذِكره، ودموع تنهمر لغسل الذنوب استعدادًا لتقديم الأرواح رخيصة في سبيل الله، والشيخ إبراهيم أكرمه الله يجمع الشباب الضائع من الشوارع والملاهي والبارات ودور السينما ليطهرهم، ثم نتولى نحن الباقي، بل أظنه لن يمانع شخصيًّا في تقديم بعض العناصر الطيبة والمتميزة من جماعته لتنضم لحركة الجهاد.

أراد مصطفى تأييد فكرته، فقال:

ـ وهو لن يكون على أي حال متحزبًا مثل الإخوان الذين لا يجاهدون ولا يخلُّون بين الشباب وفعل ما يوجبه عليهم دينهم.

إسماعيل متأففًا:

ـ عُدنا لسيرة الإخوان، ألا يمكن أن يضمنا مجلس دون أن يقفزوا في وجوهنا مثل عفريت العلبة؟

أغرقوا في الضحك، ثم قال وائل:

ـ لا تنسَ يا أخي أنهم أقدم وأكبر الحركات الإسلامية على الساحة، لذا يجب الاستفادة من أخطائهم لحماية حركتنا من تكرارها.

فقال الدكتور أيمن:

ـ ليس هذا فقط! وإنما يجب أن نحذر من انحرافاتهم العقائدية التي تدفعهم لموالاة الكافرين ومعاداة المؤمنين، لذا فإن الطاغوت إذا ما شعر بقوة الحركة الإسلامية وقوة الجهاد فسوف يتحالف مع الإخوان وربما مكَّنهم من تولي مواقع مهمة داخل السلطة ليخدع الناس بهم وليضرب الإسلام باسم الإسلام.

❋ ❋ ❋

انصرفوا على مراحل كما جاءوا كيلا يلفتوا الأنظار، وكان إسماعيل قد طلب من وائل أن ينتظره في «مسجد عمر بن عبد العزيز» ببولاق الدكرور ليُحدثه في أمر ما.

أديا صلاة العصر ثم جلسا في أحد الأركان ووائل يترقب حديث إسماعيل، قال الأخير وقد أنارت الابتسامة ملامحه:

ـ لقد كنت أنتظر هذا اليوم لأفاتحك في أمر أرجو أن يلقى قبولًا لديك.

ـ تفضل يا أخي، خيرًا إن شاء الله.

ـ يشرفني أن أخطب منك الآنسة شقيقتك.

ـ إيمان؟

ـ نعم، وأرجو ألا يكون هناك مانع من قبول طلبي.. أنا الآن في السنة النهائية ويمكن تأجيل الخطوات الرسمية حتى...

قاطعه وائل بلهجة رقيقة:

ـ أنت تعرف يا إسماعيل مكانتك عندي وقد كان يسعدني تلبية طلبك لكن...

ـ لكن ماذا؟

ـ إيمان مخطوبة تقريبًا، طلبها أحد أقاربنا وأنا في السجن فاستمهله الوالد حتى أخرج، أظنه مناسبًا ويلقى قبولًا لديهم.

تلاشت ابتسامة إسماعيل وأطرق للأرض وهو يهمس بنبرة حزينة:

ـ قدَّر الله وما شاء فعل، بارك الله لهما.

فقال وائل بحماس:

ـ لكنك يا أخي أفضل منه، لذا تستحق مَن هي أفضل منها...

ثم مستطردًا بعد لحظة تردد:

ـ ما رأيك في الأخ مختار فايد؟

ـ أخ كريم ومسلم فاهم ملتزم ورجل بمعنى الكلمة، أحسبه كذلك ولا أزكيه على الله.

ـ وما رأيك في الطعام الذي تناولناه اليوم في بيته؟

نظر إليه إسماعيل مندهشًا، فلم تزايل الابتسامة وجه وائل وهو يسترسل قائلًا:

ـ شقيقته حنان هي مَن أعدت هذا الطعام، هي صغرى شقيقاته والوحيدة التي لم تتزوج بعد.

تطلع إليه إسماعيل باهتمام وقد عاود البِشْر ملامحه، فأكمل وائل:

ـ هي فتاة ممتازة من كل النواحي، أعرفها جيدًا منذ طفولتها وقد انتقبت منذ سنوات.

ردد إسماعيل جذلًا:

ـ عظيم.. عظيم.

ـ لكنك تعرف طبعًا أنهم أسرة رقيقة الحال، والدهم رحمه الله كان عاملًا بسيطًا تُوفي ولم يترك لهم مورد رزق، فانقطَع مختار عن التعليم كي يتحمل مسؤولية الأسرة من بعده.

ـ أعرف، وهذا يضاعف احترامي له.

ـ كما أن حنان حاصلة فقط على دبلوم تجارة متوسط وتعمل أحيانًا على الآلة الكاتبة مع شقيقها.

ـ عظيم جدًّا، وهل سأتزوج شهادتها لكي يهمني إن كانت حاصلة على شهادة عليا أو متوسطة؟

ـ بارك الله فيك يا أخي.. فاظفر بذات الدين تربت يداك.. الحمد لله أنك لم تخيب رجائي فيك منذ رأيتك أول مرة في مسجد الكلية قبل سنوات.

تمتم إسماعيل شاكرًا، ثم سأله بلهفة:

ـ متى يمكننا التقدم لخطبتها؟

ضحك وائل وهو يضم أصابع يُمناه ويحركها لأعلى وأسفل علامة الاستمهال:

ـ انتظر قليلًا يا أخي فما زال لدينا متسع من الوقت، أقترح أن تبدأ بالتردد على المكتبة التي يعمل بها مختار لنسخ ملزمة أو لتصوير أوراق أو أي شيء من هذا القبيل لعلك تراها، هي حقيقة منتقبة لكن ذلك لن يمنع من الشعور بالراحة أو النفور تجاهها، وهو أمر مهم جدًّا في البداية.

قال إسماعيل وهو يحرك رأسه يمينًا ويسارًا تعبيرًا عن الرفض:

ـ لا داعي لكل هذا فأنا أشعر بالراحة من الآن.

أغرق وائل في الضحك وهو يقول:

ـ لم تتغير يا إسماعيل، دائمًا في عجلة من أمرك، حسنًا.. يمكنني إذًا أن أمهد لك الطريق عند مختار، إن وافقوا مبدئيًّا فسوف تتقدم بمشيئة الله وتراها في بيتها بالطريقة الشرعية المعروفة.

ـ جزاك الله عني خير الجزاء، أسألك الدعاء.

ـ وفقك الله يا أخي، فقد حق على الله سبحانه وتعالى أن يعين الناكح الذي يريد العفاف.

(٩)

بدت القاعة بانعكاسات أنوارها الملونة، والموسيقى الهادئة المنبعثة من أركانها، موحية بمشاعر دافئة مغرية بليلة حميمية لها ما بعدها.

«توت» بداية السنة القبطية، يحمل الأمل والتفاؤل.. «توت يقول للحر موت».. هكذا عبَّر المثل الشعبي عن الارتياح لانقشاع الحر بعد صيف طويل خانق، وفي مصر يحمل الخريف ـ لا الربيع ـ رسائل الحب وخيالات حسية مفرحة، وقد صاحبت نسائم المساء المنعشة طريقهم لقضاء السهرة في «فندق مينا هاوس».

بقي أسبوعان على رحيل مصطفى، مما سهل عليها إقناع منى بقبول دعوة مايكل على العشاء كي تجتمع الشلة ربما للمرة الأخيرة قبل مرور أعوام لا يعلم عددها إلا الله.

جاءت منى بعد إلحاح، وبدت في حجابها الأزرق غريبة عن المكان الذي ازدان بالأزياء الحديثة المكشوفة والصيف لم يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد، أما هي فما زالت بعد مرور ما يقرب من عام في ثياب الحِداد السوداء، لكنها حرصت على أناقتها فارتدت فستانًا عاري الذراعين مكسمًا على الصدر والوسط ينسدل باتساع حتى منتصف الساق، وأضاءت لونه القاتم بعقد طويل متعدد الأفرع من اللؤلؤ الصناعي، مكتفية من الماكياج كعادتها ببلسم شفاه لامع بلون الكَرَز.

احتضنتها عيناه، وتمنى لو تذوق الليلة من حبات كَرَز الخريف

الشهية.. الفرصة سانحة يا مايكل فلا تضيعها، هكذا حدثته نفسه وهو يتذكر نصيحة عمه عادل «إن منحتك القُبلة فمعنى ذلك أنك ملكت قلبها!».

لم يلتقِ بها منذ تلك الليلة الغبراء التي انشقت الأرض فيها عن الشيطان الذي أفسد لقاءهما منفردين للمرة الأولى والأخيرة، ما أبشعها من ليلة، كم ملأت الكراهية قلبه تجاه الجميع حتى طالتها هي نفسها، فتمكن من طرد صورتها لشهور ارتبط خلالها بفتاة جميلة من الطائفة الإنجيلية قضى بصحبتها أوقاتًا ظن أنها ستمحو طيفها الجاثم على حياته، لكن سحائب الملل ما لبثت أن خيمت على علاقته بفتاته وانهمر رذاذها محملًا بصورة الوجه المعشوق والجسد الآخذ قسرًا بتلابيب شهوته.

لم يجرؤ ـ رغم ذلك ـ على المشاركة في عزاء والدها، همَّ بالذهاب فمنعته خشية لقاء ذلك الشيطان، تذكر موقفه المتصاغر أمامه فسب ولعن، شعر بالرغبة في التحدي والمصادمة ثم تراجع وهو يقنع نفسه بأن الخوف لم يمنعه لكنها الحكمة أن يرفض مثله النزول إلى هذا المستوى المتدني، وكما قال أسلافنا: «الصدِّيق يبصر الشَّر فيَتوارَى».

نظر إليها في ولهٍ وافتتان، فتحسست خصلات شعرها الملموم خلف رأسها وابتسمت بكبرياء أنثوية، فيما كانت منى تستشعر قلقًا لوجودها بردائها الشرعي في هذا الملهى الليلي حتى لو جاءت لتودع مصطفى الذي بات رحيله وشيكًا.

سأله مايكل دون مقدمات:

ـ لمَ اخترت جامعة ميلانو رغم أن والدتك وأخاك يقيمان في روما وجامعتها أكبر؟

أجابه مصطفى، وكان يتابع على صفحة مرآة أمامه استعدادات الفرقة الموسيقية على البيست المستدير وسط القاعة:

ـ لا تنسَ أن أمي أصلًا من ميلانو وعائلتها ما زالت هناك، لكن هذا ليس السبب لأني في كل الأحوال سأقيم في سكن الطلبة، إنما التحقت بجامعة ميلانو لأن بها برنامج دراسات عليا خاصًّا بالوثائق اللاهوتية القديمة.

هتف الأربعة في دهشة:

ـ وثائق لاهوتية؟

ـ نعم، فمعرفة التاريخ الوسيط والحديث خصوصًا ما يرتبط بنهضة أوروبا ثم توسعها الاستعماري تجاهنا لن تتأتى بغير التعمق في علم الوثائق، والوثائق الكنسية القديمة هي الأساس الذي بُني عليه هذا العلم في أوروبا كلها وليس في إيطاليا وحدها.

قالت منى:

ـ لكن هذه الوثائق لن تكون مكتوبة باللغة الإيطالية المستخدمة حاليًّا.

ضحكت عزة لملاحظتها وقالت:

ـ يبدو أن عملكِ في الشركة الإيطالية جعلكِ تعرفين عن اللغة الإيطالية أكثر مما يعرف مصطفى.

فسألها محمد باهتمام:

ـ هل أنتِ سعيدة بعملكِ الجديد؟

ـ آه.. نعم.. لا بأس، الشركة كبيرة معروفة عالميًّا وهم أصلًا عملاء مكتب أبي.

قالت عزة بأسف:

ـ خسارة يا منى أن تقنعي بالعمل في العلاقات العامة بعدما درستِ الصحافة وكانت أمامكِ فرصة لتأخذي مكاني في «صباح الخير» بعدما ذهبتُ إلى «الأهرام».

منى وهي تهز كتفيها استهانة:

ـ لم أجد نفسي أبدًا في الصحافة، ربما كانت الترجمة والعلاقات العامة أقرب إلى ميولي.

عاد محمد يسألها:

ـ المرتب كبير، أليس كذلك؟

أجابته دون اكتراث:

ـ آه.. أعتقد ذلك.

فزم شفتيه، وقال بنبرة حرص على أن تعكس شعورًا بالحنق:

ـ مؤكد أنه سيكون أكبر كثيرًا من مرتب مترجم في بنك.

كان قد حصل على وظيفة مترجم في «بنك مصر» بوساطة من مجدي ملاك، ورغم أنه طلب من مايكل السعي لدى خاله لإنقاذه من العمل في إدارة المرج التعليمية، وهي الوظيفة التي رشحته لها القوى العاملة، ورغم أن مُرتب البنك كان أكبر بكثير من توقعاته إلا أنه ظل ساخطًا خاصة أن تعيين مايكل في «البنك العربي الأفريقي» أشعره بالفارق الضخم بين الاقتصادي والمترجم في مجال العمل المصرفي، ما جعله يعاود السعي للحصول على عمل بإحدى الهيئات الأجنبية بعدما كاد يفقد الأمل.

قال مصطفى موجهًا كلامه لمنى:

ـ برنامج الدبلوم يشمل دراسة مكثفة للاتينية، وهي أساسية لدراسة علم الوثائق.

محمد بلهجة متخابثة:

ـ أعتقد أن منى ستكون أول مَن ينقل لنا أخبار مصطفى إن سافرتْ «مثلًا» في رحلة عمل لإيطاليا.

تجاهلوا مقصده، وسأل مصطفى عزة مبتسمًا:

ـ ما أخبار جريدة الأهرام؟ يقول بابا إنكِ تبلين فيها بلاء حسنًا.

أجابته بحماس:

ـ لا تتصور يا مصطفى كم هو مكان رائع، تشعر داخله أنك تتنفس الصحافة بمعنى الكلمة، منذ عُينت في قسم التحقيقات أشعر أنني أتعلم جديدًا كل يوم خصوصًا من «بهيرة مختار» التي ألقى منها اهتمامًا كبيرًا، وهي في رأيي أفضل مَن يجيد صحافة التحقيقات في مصر.

طرقع محمد بأصابعه في الهواء وغنى بطريقة ماجنة:

ـ خلي بالك من زوزو.. زوزو.

ضحكوا، ثم أشار مايكل للمتردوتيل فطلبوا تشكيلة منوعة من المقبلات اللبنانية والمشويات والعصائر الطازجة، بينما طلب مايكل ومحمد نبيذًا أحمر مع العشاء.

شعرت منى باضطراب، وعكست ملامح مصطفى رفضًا صامتًا، بينما عبثت عزة بشعرها في لامبالاة.

قال مصطفى بعد ذهاب المتردوتيل:

ـ لم يكن من الضروري أن تشربا الليلة.

محمد ضاحكًا:

ـ وهل تسمي النبيذ شرابًا؟ إنه مجرد عصير عنب نتناوله مع الطعام والكحول فيه قليل جدًّا مثل البيرة، لِمَ لا تجربه؟

هز مصطفى رأسه متأففًا، فسأله مايكل بسذاجة:

ـ لِمَ لا تشرب يا مصطفى؟

رد مصطفى بتلقائية:

ـ لأن الخمر حرام.

امتقع وجه مايكل، وابتسمت منى بخيلاء، وأغرق محمد في الضحك وشاركته عزة بينما انساب في أعماقها شعور بالضيق لم تدعه يطفو على ملامحها.

تناولوا بعض المقبلات مع الشراب.

بدأت الفرقة عزفها بمقطوعة كلاسيكية هادئة ظلت خلفية لحديثهم حول وظائفهم الجديدة، ثم انبعثت تلك النغمات الشجية التي تمهد لواحدة من أجمل أغنيات ذلك الزمن وأروع ما غنى «فرانك سيناترا» «Strangers in the Night».

كانت عزة تحدثهم عن التحقيق الذي تجريه حول استعدادات مدارس المناطق الشعبية لموسم العودة للدراسة، وبدأت تحكي بغضب عن سوء حالة المباني والفصول وعن مياه المجاري الطافحة التي اضطرت للخوض فيها حتى تصل لإحدى مدارس «أوسيم».

فجأة التقطت أذناها تلك النغمات فصمتت، تسللت إلى شفتيها ابتسامة وهي تنظر لمايكل فتجده يبادلها نظرة باسمة.

غرباء في الليل
نتبادل النظرات
نتساءل
هل ثمة فرصة لكي يجمع الحب بيننا
قبل انقضاء الليل؟

دون أن يسألها أومأت برأسها علامة الموافقة.

وقفت مغنية ترتدي ثوبًا أحمر قصيرًا أمام الفرقة وقد أمسكت بالميكروفون وأخذت تغني وتتمايل بإغراء يدفع الجميع إلى ساحة الرقص.

صعد على البيست شاب وفتاة، ثم رجل وامرأة متوسطا العمر، قام مايكل في صمت وتوجه إليها ليصحبها، فمضت معه والكلمات المنغمة العذبة تحملهما على سطحها كأمواج بحر هادئ.

غرباء في الليل
قلبان وحيدان
كنا حقًّا غرباء
فلم نعرف ماذا تخبئ لنا الأقدار
حتى التقينا

ساد المائدة صمت.. تابعهما مصطفى عبر المرآة.. أخذ محمد يلف كأسه الفارغة في يده وهو يطالع وجه منى المرمري المستدير.. «ما أجملكِ! أما كان جديرًا بنا أن نشكل ثنائيًّا أجمل منهما لولا هذه الخيمة التي تخفين داخلها جمالكِ؟ تطلعي إليه أيتها البلهاء وهو لا يشعر بكِ، الأبله الآخر يحبها هو أيضًا، لا أدري ماذا يعجبهم في

هذه الخنفساء الشرسة، على رأي أم محمد: بيضا واقصف وسمرا واوصف! تضاريس جسدها شهية لكن البياض أحلى، لو تنعتقين فقط من هذه الخيمة القبيحة».

كوَّنا دويتو بديعًا في منتصف البيست، طوق خاصرتها بيُمناه واحتضنت يُسراه كفها الصغيرة البضة وخفق قلبه بعنف...

غرباء في الليل
حين تبادلنا تحية قصيرة
ما كنا نعلم
أن الحب سيأتي مع نظرة عابرة
أو عناق خلال رقصة دافئة

تسلل عطرها إلى أنفه فضغط بحنان على خصرها بينما كان يصارع شهوة عارمة انطلقت من مكامنها.

لفحتها أنفاسه الكحولية الساخنة فشعرت بالخطر.. حركت أناملها داخل قبضته لتدفعه إلى تخفيف حدة ضغطه عليها...

غرباء في الليل
شيء ما في عينيكِ دعاني إليكِ
شيء ما في ابتسامتكِ أثارني
شيء ما في قلبي أخبرني
أنكِ يجب أن تكوني لي

هوى بشفتيه يلتهم الكرز الطازج المثير.

دفعته بعيدًا عنها وهي تقاوم قبضته العنيفة.

صرخ مصطفى وهو يدفع مقعده للخلف بقوة: المجنون!

صاح محمد بغضب هائل وهو يقوم: ابن الكلب!

في لحظة أصبحوا جميعًا فوق البيست.. توقف العزف والغناء وانفرط عقد اللؤلؤ فتبعثرت حباته البيضاء على الأرض أسفل الأقدام.

شعرت بإهانة بالغة فلطمته بقسوة على وجهه، ثم التفتت لتجد نفسها في أحضان مصطفى.

بدا لها كما لو كانت قد اختبأت داخل حضن أبيها.

روَّعه منظرهما فتسمر مكانه، فيما جاءته من الخلف صفعة رهيبة مدوية لا مثيل لها هوت على قفاه، التفت مرعوبًا فإذا بمحمد وقد نفرت عروقه وتنمرت ملامحه وهو يهوي على قفاه بكل ما اختزنه صدره من حقد.. وانفجرت عذابات السنين...

ـ آه يا ابن المرشومة يا صليبو الكلب.

هكذا عاجله بالسباب وهو يكيل له الصفعات، استرد الآخر نفسه من المفاجأة وصرخ بغضب هائل:

ـ اخرس يا وسخ يا ابن الكلب يا صايع يا شحات.

بصق في وجهه بصقة محملة بأبخرة النبيذ فجُن جنون الآخر واشتبكا بالأيدي.

اندفع عمال الملهى ليوقفوا المعركة فسحب مصطفى الفتاتين، عزة ترتجف تحت ذراعه الملتفة حول رقبتها، ومنى تتبعهما دون أن تتوقف عن النحيب.

طاردهم سباب قذر بالأم والأب والدِّين والرسل وجميع المقدسات حتى غادروا الملهى.

ساروا خطوات ثم ابتعد مصطفى ليستدعي تاكسيًا.

عاجلتها منى بنبرة عدائية انطلقت من وسط نشيجها:

ـ هل استرحتِ الآن بعدما أشعلتِ معركة بين الأصدقاء من أجل إرضاء غرورِكِ ورغبتِكِ في لفت الأنظار؟

نهرتها عزة غاضبة:

ـ ما هذا الهراء، هل جننتِ؟

لم تأبه لغضبتها، وأكملت بنفس النبرة القاسية:

ـ أفهمكِ جيدًا، لقد فعلتِ كل هذا من أجل لفت نظر مصطفى وسرقته! إذًا خذيه هنيئًا لكِ.

صاحت عزة بفزع:

ـ منى، ماذا دهاكِ؟ أأنتِ واعية لما تقولين؟

عاد مصطفى بالتاكسي، فانصرفوا صامتين وكلٌّ من الفتاتين تتحاشى النظر إلى الأخرى.

* * *

جلس مصطفى بالبيجامة على كرسي بجوار منضدة التلفون، بينما استرخى محمد على السرير قبالته وقد أسند ظهره إلى مخدة مطوية وأخذ ينفث دخان سيجارته بارتياح.

بعد فترة صمت، قال محمد بشفة مقلوبة ازدراء:

ـ لا أفهم سبب انشغالك بهذا الخنزير الذي لم يفكر حتى في الاتصال لتوديعك قبل سفرك غدًا.

ضرب مصطفى كفًّا بكف وهو يقول:

ـ إني لأعجب من موقفك العدائي تجاهه رغم الصداقة التي جمعتكما منذ ابتدائي.

أخرج محمد الدخان من فتحتَي أنفه قبل أن يقول كالمندهش:

ـ كنت أظنك ستكون أكثر مني حنقًا عليه بعد فعلته الحقيرة مع عزة، ألست تحبها؟

لوح مصطفى بظهر كفه كمَن يقول: «أغلق هذا الموضوع»، ثم قام من مكانه وتحرك نحو النافذة، وقف لحظة ثم عاد فجلس مكانه في حركة عكست توتره، عبث بأصابعه في قرص التلفون وهو يقول:

ـ ما كنت أتمنى أن أسافر والعلاقة بيننا على هذا النحو، لعنة الله على الخمر التي دفعته لهذا الفعل الأحمق فدمر صداقة العمر التي جمعتنا.

أطلق محمد ضحكته القوية العابثة وقال:

ـ إنها خمر الحب يا عزيزي، لكن ما فعله كان أحقر من أن أتركه يمر، لذا شعرت بالارتياح بعدما لقنته درسًا.

مصطفى بلهجة ذات معنى:

ـ لم يكن ما فعلته معه مجرد درس، لكنك كمَن أراد الانتقام من جريمة لم يشارك المسكين في ارتكابها.

تحسس محمد قفاه بضيق وهو يردد كلمته مستنكرًا:

ـ المسكين! هل ما زلت تعتبره مسكينًا بعد فعلته الشنيعة؟ لقد كان على وشك أن ينتهك عِرضنا.

ابتسم مصطفى بسخرية للتعبير المبالغ فيه، ثم توجه مجددًا نحو النافذة المفتوحة وقال وهو ينظر من خلالها إلى شارع وهدان:

ـ لقد لقنته عزة درسًا لن ينساه.. ربما.. ربما كنت أنا المخطئ في الحكاية كلها.

ـ ولِمَ؟

ـ ما كان ينبغي أن أدعهما يقومان للرقص بعدما شرب مايكل.. كان يجب أن أتوقع حدوث شيء ما.. إنها مسؤوليتي على كل حال.

محمد ضاحكًا:

ـ وكيف كنت ستمنعها وقد كان جسدها يتراقص مع الموسيقى من قبل أن تقوم للرقص، إنها هي التي...

قاطعه مصطفى بحسم:

ـ لا أعلم ما الذي كان يجب عليَّ فعله، لكنه بدا من البداية غير طبيعي، لذا لم أكن مستريحًا لقيامها معه، أشعر أن تقصيري هو السبب فيما حدث، لكنك أيضًا بالغت في رد فعلك كأنك كنت تنتظر أي خطأ يصدر عنه لتكيل له الصفعات والإهانات بشكل غير إنساني أبدًا.

ـ أوف، فليذهب هو وجميع النصارى إلى الجحيم، أنت لا تعرف يا مصطفى كم عانيت من حقدهم وغِلظتهم.

ـ ما الذي عانيته أيها الجاحد؟ أليس خال مايكل هو مَن توسط لتعيينك في البنك؟ ثم ألا تذكر صداقتنا الحميمة بمايكل وجوزيف وعماد؟ لست أنكر أن فعلته كانت شنيعة، لكنه لم يكن في وعيه وكان يمكننا منعه وعتابه كأصدقاء ثم دفعه للاعتذار لها، لكنك قلبتها إلى معركة مرَّغتَ فيها كرامته وأهنت مقدساته بلا مبرر.

ـ شعرت بالارتياح على أي حال، كان يجب أن أذيقه مما أذاقني منه جورج الكلب وباقي خنازيره.

ـ لكن الأب جورج كان قاسيًا ومكروهًا من جميع التلاميذ مسلمين ومسيحيين، ألا تذكر ما فعله بسامي تادرس وفضحه إياه على الملأ يوم واقعة الحمام الشهيرة؟

ـ هذا موضوع آخر، لقد أراد أن يثبت أننا جميعًا متساوون في الظلم، فبالغ في إهانة سامي، لكن الحقيقة أنهم لا يضطهدون إلا المسلمين فقط.

ـ والأقباط أيضًا، صدقني يا محمد، أنا أعرف الفرير الكاثوليك جيدًا، إنهم ينظرون للأقباط الأرثوذكس نظرة دونية باعتبارهم شرقيين متخلفين وإيمانهم المسيحي منحرفًا.

قال محمد بكبرياء مصطنعة وهو يشعل سيجارة جديدة من العقب المحروق:

ـ لكنهم جميعًا في النهاية عُبَّاد الصليب، ويجب أن يعرفوا حدودهم ويلزموا الأدب في التعامل مع المسلمين داخل بلدهم.

انفجر مصطفى ضاحكًا وهو يقول:

ـ ومالك أصبحت فجأة الشيخ محمد؟ لقد ذكَّرتني بإسماعيل عندما كان يحدثني زمان عن الدولة الإسلامية التي يحلم بها والتي سيتعاملون فيها مع أقباط مصر باعتبارهم أهل ذمة وليسوا مواطنين مثلنا.

لمعت عينا محمد، وقال بصوت متهدج من فرط السرور:

ـ إسماعيل هذا جدع وما يقوله صحيح تمامًا.

ـ لكنك لم تكن تحبه أبدًا، ثم إنه كما سيفرض على مايكل الجزية

فإنه سيقيم عليك الحدود فانتظر إذًا الجَلْد بالكرباج كلما شربت خمرًا ولأسباب أخرى كثيرة تعلمها جيدًا.

بسط محمد كفيه أمامه وهو يبتسم كأنه يقول «كفى»، فاستطرد الآخر:

ـ الحقيقة يا محمد أنك لا تختلف عن مايكل في شيء سوى أنك وُلدت فوجدت أهلك مسلمين ووُلد هو فوجد أهله مسيحيين، ولم يلتزم أيكما بفروض دِينه، لذا تعجبت من تبادلكما المعايرة بالدِّين خلال العراك الذي أساء لعزة كثيرًا، وكان يمكن أن ينتهي الموقف باعتذاره لها ثم نحرص على ألا يلتقيا مرة أخرى وتظل صداقتنا نحن به كما كانت دائمًا، وأنا متأكد أنه كان سيعترف بالخطأ ويندم على فعلته لولا أنك حولت خناقة عادية مما يحدث بين الأصدقاء إلى حرب دينية.

صمت محمد قليلًا قبل أن يسأله بلهجة مُغايرة:

ـ هل حاولت الاتصال به؟

ـ كثيرًا وفي أوقات مختلفة، دائمًا يأتيني الرد بأنه غير موجود، وقد طلبت من شقيقته أن تجعله يتصل بي لكنه لم يفعل.

ـ حاول إذًا مرة أخرى، فلم يبقَ سوى ساعات على موعد طائرتك.

أمسك مصطفى بسماعة التلفون وأدار القرص وهو يهمس:

ـ لا بد أن أعرف إلى أين يذهب طول الوقت، هل هو حقيقة خارج المنزل أم أنه ينكر وجوده ويرفض الحديث معنا؟

جاءه صوت ماريان عبر الهاتف تخبره مجددًا بعدم وجود مايكل، قال لها:

ـ لقد اتصلت به أكثر من مرة، هل أبلغه أحد؟

ـ نعم يا مصطفى أبلغته باتصالك، لكنه لا يقضي وقتًا طويلًا في المنزل.

سألها بإصرار:

ـ ماريان، أريد أن أعرف أين يذهب مايكل باستمرار وأين يقضي كل هذا الوقت.

أجابته بكبرياء ضاعفت من إحساسه بخنافة نبرتها:

ـ إنه يقضي كل وقته في الكنيسة!

(١٠)

أخذت العاصفة الخماسينية الترابية تعوي مُحدِثة جلبة كئيبة، مبعثرة أتربة الشارع وقمامته في دوائر رمادية مظلمة محملة برياح أبريلية خانقة وبرمال تلهب العيون، ومع ذلك بدت عزة وهي تسير الهُوَيْنَى على رصيف شارع الدقي كأنها لا تشعر بشيء ولا تأبه بالعاصفة التي أجبرت المارة على الفرار وسكان المنطقة على إغلاق نوافذهم والأبواب.

بدت كما لو كانت تسير على غير هدى، تلكأت أمام المتاجر المتراصة بطول الطريق ثم وقفت تتأمل صورتها المنعكسة على زجاج إحدى الفاترينات، كانت ترتدي قميصًا قطنيًّا واسعًا بأكمام طويلة أغلقت أزراره حتى فتحة العنق، وجونلة تنسدل باتساع حتى

القدمين وقد جمعت شعرها المبلل في ضفيرة واحدة أرسلتها خلف ظهرها.

كان الجو ساخنًا ينبئ بصيف لاهب، وكان داخلها يموج بأحاسيس متباينة، صراع يجنح بها إلى اليمين واليسار، يد تدفعها ويد تسحبها، قلق ثم اطمئنان ثم قلق من جديد.

لَشد ما تكره رياح الخماسين التي تحرم القاهريين من الاستمتاع بالربيع المزهر كما يستمتع به كثير من سكان المحروسة، إنها لعنة المقطم حين يقذف فوق رؤوسهم من أدرانه ما يسود وجه أبريل، لكنها اليوم في حال مختلف وقد انصرفت من عملها مبكرة ثم ألقت بنفسها وسط أمواج الخماسين.

وقفت أمام صالون الكوافير في منتصف الشارع.. جاوزته ثم عادت أدراجها إليه من جديد، فعلت ذلك مرات قبل أن تحسم أمرها وتدخل عبر بابه الزجاجي.

استقبلها صاحب الصالون الجالس وراء مكتب صغير بابتسامة ترحيب عريضة، امتقع وجهها وخفق قلبها وهي تسحب شعرها من وراء ظهرها.. أشارت ـ دون أن تنبس ـ بإصبعيها السبابة والوسطى وهي تحركهما حول ضفيرتها على هيئة المقص.

في الجهة المقابلة صفت ثلاثة مقاعد أمام لوح رخامي عريض تعلوه مرآة تحتل مساحة الحائط، ولم يكُ هناك سوى فتاة في مثل عمرها جالسة على المقعد الأوسط وقد وقف خلفها أحد عمال الصالون وأخذ يقسم شعرها المبلل إلى خصلات تمهيدًا لتسريحه.

صحبها الرجل إلى المقعد المجاور للفتاة فجلست صامتة وهو لا يكف عن الكلام، قال:

ـ شعركِ رائع يا آنسة، لذا سيستجيب بسهولة لجميع أنواع القصات.

جاهدت نفسها على الابتسام فاسترسل:

ـ هل تفضلين الكاريه؟ إنه آخر موضة، عندي كتالوج به أحدث موضات تسريحات الشعر، أتحبين مطالعته قبل أن نبدأ العمل؟

ـ ...

ـ الكاريه سيصبح جنان على وجهك، أحسن شيء أنكِ فكرتِ في قصه، فالشعر الطويل أصبح موضة قديمة، كل شيء يتغير بسرعة، قبل عامين فقط كان الشعر الطويل المنسدل هو الموضة وكانت زبوناتنا يطلبن تركيب بوستيجات طويلة، الآن عاد الكاريه والجديد فيه القصة المنفوشة من الأمام وتطلبها جميع الفتيات.

قالت باقتضاب وبنبرة مبحوحة عكست ما يموج به داخلها:

ـ أريد «ألا جارسون» قصيرًا من الأمام والخلف.

أسعده تجاوبها أخيرًا فأكمل بنفس الحماسة المصطنعة:

ـ نعم، «ألا جارسون» سيكون رائعًا عليكِ ويبرز جمال وجهك، عمومًا هي قصة لا تبطل أبدًا ومناسبة جدًّا للشابات الصغيرات خصوصًا أن الحَر هجم علينا مبكرًا هذا العام.

تنهدت وهي تردد في نفسها: «اللهم طوِّلك يا روح».

بدأ عمله دون أن يكف عن الكلام، أخذ يحل ضفيرتها وهو يسأل:

ـ غسلتِ شعرك للتو، أليس كذلك؟

أومأت برأسها متمتمة:

ـ شعري جاهز للقص.

تناول مقصًا رفيعًا وأخذ يطوحه في الهواء بحركات بهلوانية توحي بالخبرة والمهارة، تابعت يده عبر المرآة وصك سمعها صوت احتكاك طرفَي المقص متداخلًا مع ضوضاء السيشوار الذي يستخدمه الحلاق الآخر لتصفيف شعر الفتاة الجالسة إلى جوارها.

رفع إحدى خصلاتها لأعلى ليبدأ العمل فأشارت له عبر المرآة بإصبعها إلى أسفل علامة التقصير، خفض يده فخفضت يدها أكثر حتى بان له أنها تريد قص شعرها عند أدنى درجة، رفع حاجبيه متعجبًا وهمَّ بالكلام فأغمضت عينيها، وبدأت تستشعر يده وهي تتناول خصلاتها واحدة بعد أخرى وتعمل فيها المقص، غابت عن المكان حتى تنبهت فجأة على صوت الفتاة تصرخ بهلع:

ـ شعرها!

كانت خصلاتها السوداء الكثيفة تملأ الأرض حول قدمي الرجل، وحين التفتت الفتاة إلى جارتها هالها منظر رأسها يفقد ثروته في لحظات.

فتحت عزة عينيها ثم أغمضتهما دون أن تنبس كأن الأمر لا يعنيها، بينما كان الرجل يهدئ من روع الفتاة الملتاعة قائلًا بلهجة خبير:

ـ إنها الموضة يا سيدتي، وقص الشعر عمومًا يقويه ويجعله أجمل بكثير حين ينمو من جديد.

انتهت المهمة، ووقفت تتأمل رأسها أمام مرآة طويلة على مقربة من مدخل المحل، خللت خصلاتها القصيرة بأناملها ودفعتها للخلف

وبدت ملامحها محايدة تمامًا، فتحت حقيبة يدها وأخرجت إيشاربًا كبيرًا وضعته فوق رأسها ثم لفَّته من أسفل ذقنها إلى الناحية الأخرى وشبكته بدبوس طويل ذي رأس لؤلؤي، تأملت صورتها بارتياح بينما كان عاملَا الصالون والزبونة الأخرى يرقبونها بدهشة.

حين خرجت إلى الطريق كانت العاصفة قد هدأت، همت بالعودة للمنزل.. تريثت قليلًا كأن هدوء العاصفة ونسمة رقيقة رطبت الكون حملت إليها صوت الشيخ إبراهيم مناديًا: «أيها الراحلون أفيقوا.. أيها الحائرون أقبلوا».

استدارت إلى الناحية الأخرى، وانطلقت في خفة ونشاط صوب «المهندسين».

❊ ❊ ❊

ـ إسماعيل سيتزوج على العيد.

كأن نصلًا حادًّا شق قلبها وهي غافلة فنشب الألم أظفاره في أعماقها بلا رحمة، انفجر شلال الدم ساخنًا لكن شيئًا منه لم يتسرب خارج صدرها.

بدت كما لو أن الكلمات لم تصل إلى سمعها.. تطلعت ببلاهة صوب إلهام.. إنها بالفعل لم تفهم.. ماذا تقصد بكلمة العيد؟ ولمَ أوجعتها الكلمة؟ ألم تكن لهذه الكلمة في حياتها أية دلالة على فرح أو بهجة أو شيء من هذا القبيل؟ فلمَ تهاجمها الآن نصلًا حادًّا يشق قلبها؟ أم أن الخنجر المسموم انطلق من موضع آخر؟ إسماعيل سيتزوج.. نعم.. فما معنى هذا؟

جلستا متقابلتين فوق السرير في غرفة عزة، بدت إلهام في عباءتها

المطرزة كبرميل منفوخ، وقد اكتنزت وجنتاها وضاقت عيناها بفعل تراكم الشحم حولهما، وتغيرت ملامحها عبر السنين حتى أصبح جمالها كالأساطير تؤمن بها دون أن تراها.. فكت غطاء رأسها ودفعته للخلف كي تستقبل نسمات المروحة المفتوحة في ركن الحجرة علَّها تجفف حبات العرق المتساقطة حول عنقها بفعل السمنة وقيظ يوليو.

فيما جلست عزة قبالتها في ثوب منزلي من القطن الخفيف وهواء المروحة يُطير خصلاتها القصيرة لأعلى.

كان خبر حجابها قد وصل إلهام في الرياض، فحملت إليها هذا الصيف أنواعًا من الملابس تختلف عن هداياها في إجازات الأعوام الماضية.

كانت عزة تستعرض بين يديها إيشاربات حريرية ملونة وإلى جوارهما استغرق معاذ الصغير في النوم بعدما أنهى رضعته، بينما كان شقيقه وشقيقته يلعبان مع عادل في الصالة وقد تعالى صياحهم وصوت رجاء يرتفع كل فترة آمرة إياهم بالكف عن الشقاوة.

تساءلت إلهام بنبرة مشفقة:

ـ لم تعرفي أنه خطب، أليس كذلك؟

هزت عزة رأسها وهي ما زالت تنظر إلى الأخرى بدهشة كأنها لم تدرك بعد من أين انطلق النصل المميت، فقالت إلهام في غضب:

ـ لم يخبر أحدًا، حتى ماما لم تعلم بالخبر إلا عندما عادت من الرياض بعد ولادة معاذ، أما أنا وخالد فلم يخبرنا إلا بالأمس فقط بعد أن تم تحديد موعد الزواج.

هناك إذًا شيء يتعلق بإسماعيل، أتُراه يتعلق بها هي الأخرى، أم أنهم يتحدثون عن أمر لا يمت لها بصلة؟

ضاعف صمت عزة وعلامات الذعر المنعكسة على ملامحها من غضب إلهام، فقالت بحدة:

- ما عُدنا نفهم إسماعيل وأصبحت كل تصرفاته تفاجئ الجميع، ألا تذكرين إصراره على التحويل لجامعة الإسكندرية ثم عودته للقاهرة بعد عامين بلا أي منطق، وهؤلاء الشبان الذين يصاحبهم وقد حذره الأخ يسري من أفكارهم المنحرفة فلم يستمع لأحد، حتى خالد الذي كان طول عمره أقرب الناس إليه لم يعد يعلم عنه أي شيء فهو لا يرد على خطاباته إلا على سبيل سد الخانة وها هو يرفض حتى أن يناقشه في مسألة خطبته لتلك الفتاة.

برح الخفاء.. المسألة لا تتعلق بها هي وإنما بفتاة!

ابتسمت كبلهاء فاسترسلت الأخرى:

- هل تصدقين يا عزة أن يتزوج إسماعيل المهندس المرموق «ابن الناس» من ابنة عامل لم تُكمل تعليمها وتعمل «تايبست» في مكتبة ببين السرايات؟

تجمدت ملامح عزة عند تلك الابتسامة الفارغة التي عكست عدم قدرتها على إدراك المكان الذي هاجمتها منه القذيفة، فقالت إلهام في حنق:

- ماما غير راضية، ربما لهذا لم تخبرك أنت أو تانت سهام، قالت إنها حاولت إثناءه كثيرًا لكنكِ تعرفين مدى إصرار إسماعيل

على ما يريد، وقد ظل يسترضيها حتى وافقت على الذهاب معه لزيارتهم في حارة شعبية ببولاق الدكرور.

تمتمت عزة بنبرة محشرجة:

ـ بولاق الدكرور؟

ـ نعم، لماذا؟ لا أعلم، قالت ماما إن الفتاة ليس بها أي مسحة من جمال، هذا لا يهم طبعًا ما دامت تعجبه، لكن ألم يُعلمنا الإسلام مراعاة التكافؤ بين الأزواج؟

لطمتها كلمة «تعجبه» ثم أخذت بتلابيبها فلم تدعْ لها فرصة الاستماع إلى ما كانت الأخرى ترغي حوله وتزبد.. «تعجبه».. هل ضلت أعوامها الطريق؟ هل كانت تعيش في وهم أن إسماعيل يحبها هي؟ كيف «تعجبه» غيرها إذًا؟ وأين التقاها لكي «تعجبه»؟ وكيف ترك لنفسه العِنان كي «تعجبه» أخرى غيرها؟ هل افترق طريقاهما فعلًا فما تدري إلا وأخرى تستقبل حبيبها الذي ودَّعها عند المنعطف ليكمل مسارًا آخر غير ما تعاهدا على السير فيه؟ وهل كان عهدًا أم كان وهمًا يغبش الطريق بضبابه فأعمى بصرها عن الحقيقة؟ «أوجيني جرانديه».. مأساة الكبرياء حين ترغمنا على أن نحني رؤوسنا ونتعذب في صمت دون أن نقوى على الدفاع عمن نحب.. عن انتزاعه من أحضان أخرى توشك أن تسلبنا حلم العمر.

أفاقت على صوت إلهام تسألها بود:

ـ ظننتُ وخالد أنكما مرتبطان، أما كان ذلك صحيحًا في وقت ما؟

همَّت عزة بالكلام لكنها تراجعت، فربَّتت إلهام على ركبتها في حنان وقالت بلهجة ذات معنى:

ـ ماما حزينة بسبب هذا الارتباط، هي أيضًا كانت تعتقد أنك وإسماعيل متحابان، وأنه حين يفكر في الزواج فلن يختار غيرك، هل حدث شيء عكَّر صفو علاقتكما؟

تمتمت عزة بصوتها المحشرج:

ـ أبدًا.

ـ إذًا لا تتركي الأمر يمر بسهولة، ربما ظن إسماعيل أنكِ لن تقبلي به، أنا أفهم مشاعركِ جيدًا يا حبيبتي، لكننا أحيانًا نخطئ في توصيلها للآخرين فنغلق دونهم الباب دون أن نشعر بذلك أو نريده.

داهمهما صراخ الأطفال وهم يتعاركون في الخارج ورجاء تصيح بغضب:

ـ إن لم تتأدب يا علي فسوف أشكوك لأبلة إلهام لكي تعاقبك.

* * *

كان إسماعيل جالسًا في حجرته يطالع في كتاب «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» لابن قيم الجوزية حين فوجئ بعزة تدخل ثم تغلق باب الحجرة خلفها في هدوء.

خفق قلبه بعنف.. وضع الكتاب على المكتب الصغير بجواره، وأخذ ينظر إليها وهو غير مصدق.

لم تدخل هذه الحجرة منذ كانا صغيرين يلعبان، فتهيَّأ له أنه يحلم، وكاد يفرك عينيه ليتأكد من حقيقة ما يراه.

كانت ترتدي ثوبًا طويلًا أحمر اللون بكُمَّي «جابونيز» وقد أحاطت خصلاتها القصيرة بوجهها البدري فبدت كحورية تسللت من بين صفحات الكتاب.

شعر باضطراب شديد وهو يراها تتقدم نحوه ثم تجلس على حافة السرير في مواجهته دون أن تنبس بكلمة ودون أن يقدر هو على النطق.

كان الوقت عصرًا وحرارة يوليو تُذيب الحديد، لكنه شعر بأطرافه باردة كالثلج، حاول أن يستجمع قواه أمام سطوة جمالها الصامت الحزين، فتمتم بصوت مضطرب كأنما أراد أن يتأكد فقط من كونها حقيقة لا خيالًا:

ـ أهلًا عزة.. كيف حالك؟ لعلكِ استعددتِ لشهر رمضان، فالرؤية الليلة بمشيئة الله.

نظرت إليه في صمت فحملت نظرتها مزيجًا من شوق وتساؤل وعتاب، وبدت له أهدابها السوداء الطويلة كغيوم توشك أن تذرف أمطارها.. ما بالها؟ ماذا دهاها؟ هل يمكن أن تكون...

قفز فجأة من فوق مقعده كأنما يفر من وحش يطارده، استدار ناحية النافذة المفتوحة موليًا إياها ظهره، كان الموقف فوق احتماله، وكان لا بد من وضع حد له.. لماذا جاءت؟ ولماذا ارتدت هذا الثوب المكشوف بعدما تحجبت؟ ماذا تريد؟ ولِمَ لا تنطق؟

بعد دقائق من الصمت جاهدت فيها نفسها لكي تخرج كلماتها دون انفعال ودون أن تشي بضعفها، سألته بنبرة هامسة مبحوحة:

ـ هل صحيح ما أخبرَتْني به إلهام؟

التفت نحوها وقد اسودَّ وجهه بفعل دفقة الدماء المتصاعدة إليه، قال متلعثمًا:

ـ تقصدين مسألة ارتباطي؟ آه.. نعم.. آسف يا عزة فقد كنت على وشك أن أخبركم لكن كانت هناك بعض المشاكل.. حتى خالد

وإلهام لم أخبرهما إلا منذ أيام قليلة.. كنت أنتظر أن يتأكد الأمر قبل أن تعلموا.

نظرت إليه وهو يجلس قبالتها فهالها غربته عنها وغربتها عنه، كأنه شخص آخر ذلك الجالس أمامها مرتبكًا لا يعرف ما يقول، يعتذر كأنها مجرد صديقة قصَّر في إبلاغها بشيء يخصه حتى عرفته من مصدر آخر.. أوَليس هذا صحيحًا على نحو ما؟

قالت ومشاعرها تراوح بين حب مجروح وبين حقد وازدراء:

ـ هل أنت متأكد أنك اخترت الاختيار الصحيح؟

أجابها وهو يحاول استعادة ثباته أمام سطوة المفاجأة ومشاعره الحادة المتباينة:

ـ بذلت جهدي لأختار على أساس سليم، والله وحده هو الموفق.

سألته بلهجة مَن قرر الانتحار:

ـ تحبها؟

قال وهو يجاهد نفسه على الابتسام كي يلطف من لهيب الموقف:

ـ ليس في الأمر شيء من هذا.. المسألة أنني اخترت ذات الدين كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قالت وهي تهوي إلى قرار سحيق:

ـ لكن هذا لا يعني أن تتجاهل بعض الأمور التي ربما...

قاطعها بقسوة:

ـ حنان إنسانة طيبة وقد شعرت بالارتياح منذ رأيتها أول مرة...

ثم بلهجة مَن قرر أن ينهي الموقف بأي ثمن:

ـ أعتقد أنكما ستنسجمان معًا عندما تتعارفان، ألم تخبركِ إلهام أننا

اتفقنا على شراء شقة الفلسطيني التي استردها صاحب المنزل؟ أي أننا سنظل معًا كما كنا دائمًا حتى تتزوجي أنتِ الأخرى.

انخلع قلبها حين نطق باسم «حنان»، هالتها كلماته المنطلقة بلا رحمة لتدفع بها نحو مصير مجهول، فتشبثت بآخر خيط يربطهما وهي تسأله بتحدٍّ:

ـ أتزوَّج.. أهذا حقًّا ما تريد؟

تشبث بدوره بالمنطقة التي وصل إليها مستشعرًا خطورة أن يعاوده الارتباك فيفقد السيطرة على الموقف، أجابها متجاهلًا قصدها:

ـ طبعًا! فأنا أتمنى لكِ كل الخير وأسأل الله أن يرزقكِ بزوج صالح يعرف قيمتكِ ويكون خير عون لكِ في الحياة.

قالت بنبرة متهدجة مهزومة:

ـ إسماعيل.. هل أنت مُصر حقًّا على الارتباط بهذه الفتاة؟

ـ أكيد.

ـ ألا يمكنك أن تتراجع؟ أليس من المحتمل أن تتبين أن مشاعرك تسير في اتجاه آخر وأنك ربما تتورط في اختيار غير ملائم.. أقصد غير ملائم لمشاعرك؟

هبَّ من مكانه متجهًا نحو النافذة مرة أخرى، كأنه يعلن رغبته في إنهاء الحديث بينما كان داخله يمور بانفعالات صاخبة.

قال وهو يتجنب الالتفات إليها:

ـ الأمر محسوم بالنسبة لي، لقد استخرت الله تعالى واستشرت مَن أثق بهم، ولم يتبق على إتمام الزواج إلا شهر واحد.

نكست رأسها وبقيت صامتة لدقائق تحملق في بقعة قديمة حائلة

اللون بأرضية الحجرة، كانت تدافع دموعًا ملتهبة تطرق عينيها، وكلما أوشكت على النطق خافت من هطول الأمطار.

وقف موليًا إياها ظهره متأملًا انزلاق أشعة الشمس رويدًا من فوق أوراق الشجر واستعداد الأفق لاستقبال مؤشرات انسحابها حين تتباين ألوانها وتصبغ بقطرات دمها القاني طريق الرحيل.

شعر بحفيف ثوبها وهي تقوم فالتفت.. خطف قلبه جمال قوامها يستعيد استقامته بينما كانت تمد يدها لتفتح باب الحجرة.. أوشك على الكلام ليستبقيها قليلًا، لكنه تماسك، ثم تمتم بنبرة باردة لم تخلُ من ود:

ـ عزة.

تجمدت قبضتها فوق مقبض الباب ولم تلتفت، فأكمل:

ـ أرجو أن تنتبهي لكيلا تنسي حجابكِ مرة أخرى وأنتِ خارجة من البيت.

... إذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة!

كانت الرؤية غائمة أمامها فلم تلتفت لإلهام المترقبة بلهفة خارج الحجرة، كانت تسرع الخُطى وهي تصعد درجات السلم لتغلق عليها حجرتها ثم لتُطلِق لعينيها العِنان كي تجودا بدمع ساخن غزير.

الذي لا يعود

«إني لا أكتب، إني أتحدث، أتحدث لأقول شيئًا ما،
ذلك الشيء الذي يموت آخرون دون أن يقولوه»
لويس آراجون

(١)

حين تبدأ الثلوج في الذوبان ويُقبل فبراير حاسرًا مترددًا، تخلو «حديقة لوكسمبورج» من رُوادها تمامًا.

فما بين يناير الجليدي متماسكًا داعيًا للهو والتزلج، ومارس المشرق مغريًا بالعشق والإخصاب، تهل أيام فبراير غائمة مطيرة فتوحل الحديقة وتملأ ممراتها بأوراق الشتاء الذابلة مختلطة بثلوج ذائبة، يخشى العجائز أن تزلقهم، ويعافها شباب عنوانه ربيع منطلق يتنفس الحب بين أروقتها المترعة بالخضرة والجمال.

لكن مصطفى ارتدى بوتًا طويلًا ذا نعل خاص بالجليد، ومعطفًا للمطر وغطى رأسه بكاب ماضيًا باتجاه الحديقة.

ابتاع كتابًا من مكتبة بشارع «سوفلو» القريب من «البانتايون» ورغب في مطالعته وحيدًا في الحديقة الهادئة قبل أن تكتظ بروادها.

أسرع ليشعر بالدفء، وحين وصل إلى «طريق سان ميشيل» اقتحمت أنفه رائحة الكريب المقلي تتصاعد من عربة يد زجاجية صغيرة أوقفها صاحبها على الرصيف، حيث تجمَّع المارة حوله يبتاعون أقراص الكريب الفرنسي الشهية الملفوفة بحشوات منوعة.

طلب كريبًا محشوًّا بكِريمة المارون ومنح الرجل فرنكين، ثم أخذ يقضمها بلذة وهو يبتسم مستعيدًا تفاصيل الخطاب الذي وصله صباحًا من عزة تقص عليه فيه ـ كعادتها ـ تفاصيل الحياة القاهرية التي غاب عنها منذ عامين ونصف.

لشد ما اشتاق إليها.. إليهما.. مصر وعزة.. «مصر العِزة» كما كان يسميها أونكل عبد المنعم.. تحكي له عن عوالمها الثلاثة: البيت والصحافة و.. جامع أنس بن مالك!

أرسلت له في إحدى المرات صفحة من جريدة الأهرام بها تحقيق أجرته في «مدرسة التربية الفكرية» التي ألحقوا بها لولو، ومرة أخرى أرسلت جزءًا من خطاب للسادات وكتبت على هوامشه تعليقات غاضبة: الخائن.. الاستسلام المخزي.. معاهدة الخيانة والعار. فرد عليها: لو كتبتِ نصف هذا أيام ناصر لشرفنا نحن الاثنان في المعتقل.

ولا يخلو خطاب لها من ذكر نوادر شقيقها عادل مع حذيفة الصغير.. يغرق في الضحك.. «حذيفة»! أي اسم هذا؟ لكنه ابن إسماعيل فليهنأ باسم ليس له بين المصريين مثيل.

لم يُكمل عامه الأول وأمه حامل من جديد، فتنهي عزة أشغالها ثم تشاركها رعاية الصغير، وتبدو كلماتها عنه.. عنهم.. كرمال شاطئ محت أمواج الزمن آثار أقدام مَن ساروا عليه يومًا.. تُرى أما زال عصير المانجو يستهويكِ؟ فما رأيكِ في قطعة من الكريب الساخن المحشو بالمارون؟

لاحت أشجار «لوكسمبورج» تعلو قِممها ثلوج ضبابية.. لَشد ما يهوى هذه الحديقة.. ألِجيناته الإيطالية دَخْل بذلك؟ لكنه مصري..

مصري حتى النخاع.. ربما لهذا احترم «ماري دي ميدسي» الليدي القادمة من فلورنسا لتزين وجه باريس بلمسة إيطالية فاخرة.

هنا في قلب الحي اللاتيني العتيق حيث تتجسد الخصوصية الثقافية للعاصمة الفرنسية، يقف قصر لوكسمبورج بحديقته مترامية الأطراف مترعة بالفن الروماني الأصيل، من معمار وتماثيل وتصاميم بستانية ونوافير مياه.. يبدو في مخياله الشغوف بحلقات مسلسل القصة الإنسانية المترابطة كَرَايةِ استسلام ترفعها فلورنسا الغاربة في وجه باريس الساطعة.. هكذا رفعت غرناطة الراية ذاتها في وجه فلورنسا وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة قبل قرون.

ونوافير المياه لم تعرفها أوروبا قبل أن تشرق من جنوبها الغربي أنوار الأندلس ببهائها المغربي الدمشقي، تلك النوافير أُعدت خصيصًا لوضوء المسلمين واغتسالهم في زمن كان الأوروبيون يزدرون الاستحمام.. وحتى اليوم تخلو المباني السكنية القديمة في الحي اللاتيني من الحمَّامات.. في ذلك الزمن تفتحت حدائق غرناطة وقصر الحمراء في فلورنسا لتتلون بحضارة رومانية غاربة ساطعة في ثوب جديد مع عصر النهضة، وحين توشك أيامها على الرحيل تبحر غربًا لتنزرع في قلب باريس.. تتشبث بالحياة إلى حين.

حضارة تغرب وحضارة تشرق لكن لا شيء يفنى، ويبقى التاريخ شاهدًا بالوثائق والآداب والفنون والأنساق المعمارية، أدلة تتحدى كل مَن يحاول التزييف.

قال له والده وهو يقضي إجازة صيف عام ١٩٧٩ مع العائلة في منزل صغير اعتادوا استئجاره سنويًّا على ساحل «ليفورنو»:

ـ إلى باريس ولو طال السفر.

كان قد أنهى للتو عامه الدراسي الأول في جامعة ميلانو، وبقي عام آخر قبل أن يحصل على دبلوم الوثائق الذي سافر لأجله، لم يكن قد خطط لما بعد ذلك، لكن انفصال أمه عن زوجها بعدما اكتشفت خيانته مع سكرتيرته الجديدة، ثم التحاق ألبرتو بجامعة روما، ألقى على كاهله شعورًا بالمسؤولية جعله ينوي الإقامة معهما رغم نفوره الداخلي من فكرة الحياة في روما، لذا وجد في كلمات أبيه طوق نجاة.

ـ ماذا تعني؟

ـ ما دُمت قد اخترت إتمام دراسة التاريخ خارج مصر فعليك أن تتلقى تعليمًا «عليه القيمة»، وجامعة السوربون هي أعرق جامعات العالم في مجال الدراسات الإنسانية.

كان يعي ذلك، وثمَّة شعور قوي يشده للحياة في العاصمة الفرنسية، لذا استغل الفترة المتبقية له في ميلانو ليحصل على منحة دراسية في السوربون، ثم انتقل للحياة في باريس مع بداية العام الدراسي الحالي.

مرق من الباب القريب من نافورة الميدسي، ولاحت الحديقة المنبسطة أمامه لما وراء الأفق خاوية على عروشها، فلا زوار ولا أزهار وكثير من أشجارها عاري الأغصان منذ الخريف.

لمح على البُعد عامل نظافة يجمع بجاروفه ذي اليد الطويلة أكوام أوراق الشجر الجافة ويلقي بها في عربة يد يدفعها أمامه متنقلًا بنشاط من مكان لآخر.

كان الجو عاصفًا ينذر بالمطر، لم يمنعه انحسار مظاهر الحياة من

الاستمتاع بنبضها حتى وهي تزفر أنشودتها الحزينة، وقال لنفسه: لا يوجد مجنون مثلي يشعر بالمتعة وحيدًا بين أشجار عارية كالأشباح وأوراق ذابلة غاصت في أوحال الطريق.

سار مسرعًا يملأ رئتيه بالهواء النقي، ولما استشعر نشوة التوحد وسط هذا الفضاء اللانهائي، انطلق يشدو بصوت مسموع مقلدًا «إيف مونتان» في أدائه الأسطوري لقصيدة «جاك بريفير» «Les feuilles mortes»:

كم تمنيتُ لو أنكِ ما زلتِ تذكرين
أيامنا السعيدة، حين كنا متحابين
في ذلك الزمان
حين كانت الحياة أكثر بهاء
والشمس أشد إشراقًا منها اليوم
لكنها الحياة على الدوام تفرق بين الأحباب
وها هي أوراق الخريف الذابلة
تُكنَس بالجاروف في غير مبالاة
كذلك الذكريات والأحزان
تحملها رياح الشمال بعيدًا
في ليالي النسيان الباردة
إنها الحياة التي تفرق بين الأحباب
بهدوء دون جلبة أو ضجيج
كأنها أمواج البحر القادمة
لتمحو من فوق الرمال
آثار أقدام حبيبين فرقت بينهما الأيام

على مقربة من أحد التماثيل المرمرية رآها.

كان التمثال يجسد فوق قاعدته العملاقة رجلًا وامرأة من العصر الروماني ملتصقين، وقد تعرى نصفاهما العلويان بينما النصف السفلي لكل منهما مغطى بإزار ملفوف، تحمل المرأة على كتفها جرة مياه فوهتها مائلة لأسفل ويحتضن الرجل خصرها مائلًا برأسه ليشرب من فوهة الجرة.

المرأة كالماء.. أصل الحياة.. سر الحياة.. واهبة الحياة.

بدت له الفتاة وهي تنحني قليلًا ثم تستقيم شامخة برأسها كإحدى أشجار السرو المنقوشة على معابد الكرنك، فتساءل وهو يرقب ظهرها: ما الذي أتى بهذه السروة الشرقية المغطاة وسط أشجار الغرب العارية؟

وغلبته طبيعته الساخرة فقال: لست المجنون وحدي، فها هي مجنونة أخرى تستمتع بغربة فبراير لوكسمبورج!

بسطت الفتاة ذراعيها إلى جوارها وحركتهما كطائر كأنما أرادت أن تملأ رئتيها بالهواء المنعش، فضحك وهو يقول: يبدو أني سأشاهد فيلمًا فكاهيًا عوضًا عن كتاب «رجين بيرنو».

كانت الفتاة طويلة القامة تميل للنحافة، وقد ارتدت معطفًا طويلًا خاصًا بالمطر من اللون البيج ولفت حول رأسها شالًا كبيرًا من الصوف الخفيف مموهًا باللونين البني والأخضر بدرجاتهما المختلفة.

أخذ يتأمل ظهرها المفرود مقاومًا رغبة راودته في الاقتراب منها، حتى عادت للجلوس على المقعد الرخامي الطويل فانصرف إلى ناحية أخرى.

وفي اليوم التالي رآها من جديد.

كانت تجلس على نفس المقعد وتمسك في يدها بلوك نوت وقلمًا، بدت من بعيد كأنها ترسم ما تراه، إذ كانت ترفع رأسها كل برهة لتراقب ما حولها من مناظر طبيعية وتماثيل ثم تعاود النقش على الورقة.

وفي ذلك اليوم رأى وجهها فتأكد أنها شرقية الملامح.. عربية.. هي في الغالب تونسية أو جزائرية من المقيمات في باريس، لكن طريقة ارتدائها لملابسها تؤكد أنها محجبة ولم أشاهد حتى اليوم شمال أفريقية محجبة في باريس.. فلسطينية.. سورية؟ وجهها مألوف لي.. لمَ لا تكون مصرية إذًا؟ مصرية؟ نعم.. مؤكد.. كأني أعرفها من قبل.. كأني عرفتها طويلًا.. أين؟ لا أتذكر ولكن يجب أن أتحدث إليها.

اقترب ثم هتف:

ـ لكنكِ لا ترسمين!

نظرت إليه وابتسمت بود كأنها كانت ترقب مجيئه، فاسترسل مندهشًا وهو يشير للورقة البيضاء:

ـ وأنتِ أيضًا لا تكتبين، توقعت أنكِ ترسمين ما أمامكِ أو تكتبين شيئًا.

كان يتحدث بالفرنسية، فأجابته بالعربية بلكنة مصرية:

ـ ذلك أنك رأيت الصورة لكنك غفلت عن المعنى.

هتف بمرح:

ـ مصرية؟

ـ نعم، وأنت أيضًا.

نزع الكاب من فوق رأسه وهتف مبتهجًا:

ـ نعم، كنت متأكدًا أني أعرفكِ جيدًا.

اتسعت ابتسامتها، ووضعت مرفقها الأيمن فوق فخذها ثم أسندت ذقنها على باطن كفها ونظرت إليه كأنها تشجعه على الكلام، فقال وهو يجلس على طرف المقعد الرخامي:

ـ أنتِ من القاهرة، أليس كذلك؟

أومأت برأسها علامة الموافقة، فقال وهو يشير لصدره:

ـ اسمي مصطفى.. مصطفى رءوف، أدرس التاريخ هنا في باريس.

اعتدلت في جلستها وهي تقول:

ـ وأنا نهى الزيني، أدرس القانون.

ـ القانون؟

ـ ما لك فزعت هكذا؟ هل نسيت أننا نطبق القانون الفرنسي وأن المصريين اعتادوا دراسة القانون في فرنسا من أيام مصطفى كامل، أم أنك لا تعرف تاريخ مصر يا دارس التاريخ؟

أجابها وقد شعر بألفة تجمعهما:

ـ أعرف هذا بالطبع، وقد تعرفت هنا على أكثر من طالب مصري يدرس القانون، كل ما هنالك أنها المرة الأولى التي ألتقي فيها بطالبة قانون مصرية في باريس...

ثم متذكرًا:

ـ وحتى في جامعة القاهرة كانت طالبات الحقوق قليلات ولم نكن نعرفهن، في أي جامعة تخرجتِ؟

ـ جامعة القاهرة أيضًا، الأمر وما فيه أنكم كنتم تعرفون طلبة الحقوق لأنهم اعتادوا الجلوس في كافتيريا كلية الآداب، أما الطالبات فلم يكن لديهن حافز لزيارة كلية أغلب طلابها بنات.

أغرقا في الضحك، ثم أخذا يرقبان في صمت زوجين مُسنين وقد تعلقت المرأة بذراع الرجل وهما يتجولان على مهل في ممرات الحديقة.

قال كمَن تذكر أمرًا:

ـ كنت أظن أن أحدًا غيري لن يستمتع بالحديقة قبل أن تكمل الثلوج ذوبانها وتبدأ الشمس في السطوع.

هزت كتفيها وهي تقول:

ـ ما دمت تستمتع بشيء فتوقع أن آخرين يستمتعون بنفس الشيء مهما بدا غريبًا، فالبشر متشابهون بأكثر مما يمكننا إدراكه.

أعجبه منطقها وشعر بانجذابة نحوها، لكنه خاف أن يثقل عليها فاستأذن للانصراف.

لكن فبراير لوكسمبورج جمع بينهما مرات.

سألته يومًا وهما يقفان على حافة نافورة الميدسي:

ـ في أي فرع من فروع التاريخ تنوي التخصص؟

ألقى إلى حوض النافورة بوريقات شجر جافة كانت بيده، ثم أخذ يرقب انجرافها مع تيار الماء وهو يقول:

ـ عليَّ أن أحضر هذا العام محاضرات قسم الماجستير عن تاريخ منطقة البحر المتوسط في العصر الوسيط، قبل أن أبدأ كتابة رسالتي التي اخترت أن تكون عن الحملة الصليبية الأولى على الشرق.

التفتت إليه وهي تكور شفتيها وترفع حاجبيها وتومئ برأسها علامة الشغف بما يقول، فاستطرد بحماسة أشعلها اهتمامها:

ـ رغم كثرة الحملات الصليبية على الشرق إلا أني أعتقد أن الحملة الأولى تحمل الشفرة السرية للعلاقة بين الغرب والعالم العربي الإسلامي.

ـ ولِمَ؟

ـ لأنها كانت شعبية، بمعنى أن علاقة مباشرة بين الشعوب الأوروبية والعربية تكونت قبل أن تأخذ الحملة طابعها العسكري الرسمي، كما أن الكنيسة استخدمت المبررات الدينية لتدفع الفلاحين والصناع ليتركوا أوطانهم في الشمال ويتجهوا إلى الجنوب في مغامرة غير مسبوقة، أعتقد أنها أثرت كثيرًا على شخصية الإنسان العادي على جانبَي المتوسط.

قالت وهي تستحضر بعض معلوماتها العامة:

ـ لكن العامل الاقتصادي كان أساسيًّا في الدفع بالأوروبيين إلى تلك الحملة، ألا تعتقد ذلك؟

ـ نعم، بالطبع كانت هناك دائمًا أطماع اقتصادية لدى الأوروبيين في ثروات الشرق سواء في التاريخ القديم أو الحديث، لكن الدافع الرئيسي الذي حرك الإنسان الأوروبي العادي البسيط لكي يجازف بحياته في بلاد مجهولة قبل أن يعلم شيئًا عن ثرواتها كان الدافع الديني، لذا بدأت الحملة بصيحة «البابا أوربان» في الجماهير التي جاءت إلى مدينة «كليرمون» الفرنسية بأن المسيح

يدعوهم للذهاب إلى أورشليم مقابل الغفران الذي ستمنحه الكنيسة والذي يضمن لهم الملكوت.

سألته باهتمام مشوب بعدم اليقين:

ـ وهل تظن أن تلك الحملة التي وقعت قبل عشرة قرون ما زال لها تأثير على الأوروبيين رغم ابتعادهم عن الدين وانتشار الفكر العلماني منذ الثورة الفرنسية؟

أجابها بثقة:

ـ هذه بالتحديد النقطة التي أريد البحث حولها، فالأمم والشعوب تؤثر عليها أحداث طفولتها الحضارية كما تتأثر شخصية الفرد العادي بأحداث طفولته المبكرة، حتى لو نسي تفاصيلها فيما بعد فيترسب في أعماق هذه الشعوب ما يمكن أن نسميه باللاشعور التاريخي.

عكست ملامحها علامات الشك، فأكمل وهو يشير نحوها:

ـ بل إني أجد رابطًا قويًّا بين تأثيرات الحملة الأولى وبين أخذ مصر وغيرها من دول المنطقة بالنظام القانوني الفرنسي.

هتفت مندهشة:

ـ حقًّا؟

ـ هناك صلة وثيقة تربط بين التاريخ والقانون، ربما لا يراها كثيرون لكنها موجودة بالتأكيد.

تورد وجهها وابتسم هو.

وكانا يسيران يومًا في أحد ممرات الحديقة فانزلقت قدمها في

بقايا ثلوج ذائبة فأسرع يسندها بساعده كيلا تسقط، ثم جلسا على مقعد قريب فتناولت كتابه محاوِلة السيطرة على شعورها بالحرج، وقرأت عنوانه:

ـ Les hommes de la Croisade.. هه! ألا تقرأ إلا في هذا الموضوع؟

ـ بالطبع لا، لكني أستعد لحلقة دراسية ستُعقد في شهر مارس، وأرى أن رجين بيرنو من أهم مَن كتبوا عن تلك الفترة، كما أنه أشار في هذا الكتاب إلى بعض المراجع القديمة التي ستفيدني في البحث.

قالت محاوِلة استعراض معلوماتها:

ـ أخبرْتني أنك درست الوثائق القديمة، فلعلك تجيد اللاتينية التي تعد لغة أساسية لدراسة وثائق الحملة الصليبية.

فأجابها ببساطة:

ـ بالعكس، ما زلت حتى الآن أجد صعوبة بالغة في التعامل مع اللاتينية، فقط أحاول.

ـ ماذا كنت تفعل إذًا خلال دراستك في ميلانو؟

ـ الوثائق اللاهوتية مكتوبة باللاتينية فعلًا، لكن المحاضرات والمراجع كلها باللغة الإيطالية.

قالت وهي تقهقه:

ـ ربما لهذا السبب فضلتُ أن أجعل والدتك إيطالية.

انتظر حتى كفت عن الضحك وسألها مندهشًا:

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لا لا أبدًا، لا شيء.

قال وقد تذكر أمرًا:

ـ كيف عرفتِ في أول لقاء لنا أنني مصري قبل أن أخبركِ بذلك؟

ـ ملامحك مصرية تمامًا.

تساءل وهو يزيح خصلات شعره للخلف:

ـ حقًّا؟

ـ بالطبع، وهل كنت تظن نفسك خواجة؟

ضحكا، وقال لنفسه: «هناك شيء قوي يشدني لهذه المجنونة ذات الوريقات الفارغة والكلمات الغامضة».

وحين أخذت الحديقة تمتلئ بروادها مع إشراقة شمس مارس اختفت تمامًا.

انتظرها طويلًا حتى أدركه اليأس، وامتلأ قلبه شجنًا لفقدها.

لكنه سيلقاها بعد ذلك مرتين.

الأولى بعد نحو شهر من آخر لقاء لهما، إذ كان يتجول مع صديقته السويدية مارتينا طالبة الفنون التشكيلية بين لوحات البوهيميين عند «مركز بومبيدو الثقافي» بالقرب من «الهال»، وبينما هما واقفان أسفل المبنى أشار إليه قائلًا:

ـ لا شك أن المعماري الإيطالي الذي صمم هذا المركز أراد أن ينتقم بطريقة ما من باريس سارقة المجد الإيطالي القديم، فزرع في وسط مبانيها الكلاسيكية الجميلة هذا المبنى ذا الأنابيب القبيحة.

صاحت مارتينا:

ـ أوه! هكذا أنتم أبناء البحر المتوسط تقحمون العواطف في كل شيء، فأنا أرى هذا النمط ثورة في عالم المعمار، بينما تتخيل أنت أن فنانًا يمكن أن يستخدم في تصميماته أدوات الصراع الحضاري بدلًا من أدوات الرسم الهندسي.

انفجر ضاحكًا وهو ينظر باتجاه أحد الأنابيب العملاقة الشفافة، فلمحها بداخله واقفة على السلم الكهربائي تنظر إليه في حيرة بينما ترتفع بعيدًا باتجاه الصعود.

أما المرة الثانية فكانت في ذلك اليوم الذي ما زال يعده أسعد أيام حياته!

(٢)

بدا إسماعيل كالسهم المنطلق وهو يهرول خارجًا من بوابة جامعة أسيوط مصطحبًا أحد طلبتها، إذ التقى بسهم آخر ينطلق في الاتجاه المضاد داخلًا الجامعة محاطًا بمجموعة من الشباب.

تلاقت أعينهما للحظة، وبدا كما لو أن الآخر تمهل قليلًا في محاولة للتذكر، لكن إسماعيل أشاح بوجهه وأسرع خارجًا إلى الطريق.

قال عثمان عبد الكريم وهما يعبران الشارع:

ـ يبدو أنه تعرف عليك.

ـ مَن؟

ـ الدكتور ضياء عبد الفتاح، ألا تعرفه؟

ـ بلى، قابلته مرة واحدة منذ سنوات...

ثم مستطردًا بنبرة شابها الضيق والقلق:

ـ واضح أنه يمارس نشاطًا هنا في أسيوط، ألم تر مجموعة الطلبة المحيطة به؟

أطرق عثمان وهو يقول بأسف:

ـ إنهم يقومون حاليًّا بنشاط كبير في جامعتَي أسيوط والمنيا وقد ساعدتهم المعسكرات التي يقيمها الاتحاد وتحاضر فيها قيادات الإخوان.

ـ لكن الإخوان يحاضرون الآن في كل مكان في مصر.

ـ الحقيقة أن أكبر تأثير على الطلبة هنا بسبب تواجد الحاج «مصطفى مشهور» بينهم باستمرار، وأصبح يبيت معهم في المدينة الجامعية بعدما حصلوا على موافقة بفتحها خلال إجازة الصيف.

قال إسماعيل وقد توترت ملامحه وبدأت خطواته تتمهل:

ـ إذًا حدث ما كنا نخشاه، ها قد وصل الوباء الإخواني إلى وجه قِبلي كما سبق وامتص طاقات الشباب المسلم في محافظات بحري.

كأنما انتقلت عدوى التوتر إلى عثمان، فأخذ يشوِّح بيده وتجاوزت نبرة صوته حد الحذر وهو يقول:

ـ لا لا! أرأيت المجموعة التي كانت تحيط به؟ هذا كل ما استطاعوا جمعه خلال سنوات...

ثم بلهجة غلَّفتها الكبرياء:

ـ إن طبيعة الصعايدة تختلف كثيرًا عن الطبيعة المايعة للبحاروة والمصاروة، فرجولة شباب الصعيد وغيرتهم على الأعراض ورفضهم «الحال المايل» ساعد كثيرًا في رفض الفكر الإخواني المنحرف، ونحن طمأنا الأخ وائل من هذه الناحية في لقائنا معه بالقاهرة الصيف الماضي.

هرش إسماعيل فروة رأسه بإصبعه وزم شفتيه مغالبًا ابتسامة تسللت إليهما وهو يستمع إلى مقارنة الفتى بين «رجولة الصعايدة» و«ميوعة البحاروة»، ثم تمتم قائلًا:

ـ حسنًا، لكن وضح لي هذه النقطة أكثر.

انطلق الفتى مسترسلًا بلهجة خطابية:

ـ لقد صَدمت طراوة الإخوان وتسيبهم في أمور الحلال والحرام مشاعر شباب الصعيد المسلم، ما ساعدنا على تنفيرهم من هذا الاتجاه، فشيوخهم يستهينون بأمر الهَدْي الظاهر مثل تركهم إعفاء اللحى، كما فوجئنا بهم ينتقدون محاولاتنا لتطبيق شرع الله حتى داخل الجامعة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفصل الطلبة عن الطالبات في المدرجات والمعامل، ومنع صور الانحلال الأخلاقي التي كانت منتشرة بين الطالبات من ملابس خليعة واختلاط بالشباب وتجاوز الطلبة النصارى حدودهم في التعامل مع المسلمين، وهو ما واجهناه بالقوة دون أن نخشى العواقب، لكن الغريب أن أكثر الأساتذة شجعونا، على الأقل من منطلق مروءتهم الصعيدية، بينما تصدى لنا طلبة الإخوان

وحاولوا إجبارنا على الالتزام باللوائح والقوانين، كأنها أصبحت قرآنًا لهم من دون القرآن.

ابتسم إسماعيل ساخرًا وهو يقول:

ـ نعم.. الشرعية القانونية ونبذ العنف، هذا هو دين الإخوان الجديد منذ خرجوا من السجون ويسعون لنشره بين الشباب.

استطرد عثمان:

ـ واكتشف الشباب أيضًا مدى أنانية الإخوان عندما أرادوا الاستيلاء على اسم «الجماعة الإسلامية» وادعوا أنهم أول مَن استخدمه...

قاطعه إسماعيل:

ـ أعتقد أن الإخوان بالفعل أول مَن أطلق اسم «الجماعة الإسلامية» على جناحهم الشبابي والطلابي.

قال عثمان بإصرار:

ـ هذا غير صحيح أخي أبا حذيفة، فاسم الجماعة الإسلامية ابتكره الطلبة المسلمون داخل الجامعات قبل أن يخرج قادة الإخوان من السجون، ولما خرجوا وعادوا للعمل وجدوا أنهم بلا أي شعبية لذا حاولوا الاستفادة من شعبية الجماعة بين الشباب فاستولوا على اسمها ووضعوه على مطبوعاتهم.

زم إسماعيل شفتيه وأومأ برأسه متفهمًا، فاستطرد عثمان بنبرة غاضبة:

ـ وطبعًا شجعهم على ذلك مَن انضم إليهم من قيادات الاتحاد خصوصًا في القاهرة والإسكندرية، لكننا لم نسكت وصممنا

ألا نترك لهم الاسم، ومَن أراد أن ينضم لهم فليصبح من الإخوان وليس من الجماعة الإسلامية.

شعر إسماعيل بأن الموضوع أخذ من اهتمام الفتى أكثر مما ينبغي، فقال بلهجة ودود:

ـ الأسماء والشعارات ليست مهمة أخي الكريم، فكم ابتكر الإخوان خلال تاريخهم من شعارات ولكن انظر إلى ما انتهوا إليه، المهم هو الفكر السليم والعمل.

استرخت ملامح عثمان وأومأ برأسه موافقًا، فأكمل إسماعيل:

ـ ورغم تمسكهم بالاسم فإن اختلاف الشعار يوضح الفرق المنهجي بين الجماعتين، وربما كان الاختلاف أعمق بكثير مما قصدتموه حين اخترتم وضع آية «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ» بينما الآية الخاصة بشعارهم هي «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ».

تردد عثمان لحظة قبل أن يقول:

ـ لكن عموم الطلبة خارج العمل الإسلامي ما زالوا يخلطون بين الجماعتين لوحدة الاسم ولا يميزون بين الشعارين والآيتين، وأنت تعرف أهمية هذا بالنسبة لجماعة هدفها نشر الفكر السليم وتوعية الناس بحقيقة الأوضاع الحالية.

أجابه إسماعيل مبتسمًا:

ـ صدقني أخي، أنا أعرف الإخوان جيدًا ومتأكد أنهم سيتركون لكم الاسم قريبًا وسيتبرأون منه عندما تبدأ المنشورات التي تحمل شعار الجماعة الإسلامية في أداء مهمتها لتثوير الشباب ضد النظام المجرم الذي يهادنونه ويتحالفون معه.

أومأ عثمان برأسه موافقًا، وكانا قد اقتربا من «مسجد ناصر» فسأله إسماعيل:

ـ كم عدد الطلبة الذين سنلقاهم اليوم بمشيئة الله؟

نفخ عثمان صدره ومد عنقه النحيف فوق جسده الفارع قائلًا بفخر:

ـ ستكون مفاجأة لك، هذا الجامع من أكبر جوامع أسيوط لكنه الآن ممتلئ عن آخره، وخلال الفترة التي ستقضونها معنا سوف يتغير الحاضرون يوميًّا حتى يسعهم المكان.

خالط البِشْر والقلق معًا ملامح إسماعيل وهو يقول:

ـ حيًّا الله شباب الإسلام، حين كنا نأتي في الأعوام الماضية لم يكن هناك إلا بضعة أفراد.

ـ الحمد لله، الدعوة تنتشر بين الطلبة بسرعة كبيرة والحماس للعمل الإسلامي يملأ صدور الجميع.

ـ عظيم، هل المكان مُؤَمَّن جيدًا؟

ـ نعم، سيكون الجامع بأكمله تحت تصرفنا بين صلاتَي العصر والمغرب، واتفقنا مع المسؤول أن يغلقه علينا من الخارج كيلا يتسرب إلى جمعنا مَن لا نعرفه.

ـ جميعهم طلبة، أليس كذلك؟

ـ نعم، ثانوي وجامعة ومعاهد عليا ومتوسطة وكلهم معروفون لنا جيدًا، وفي المساء بمشيئة الله سيكون اللقاء مع قيادات الصعيد في النمايسة.

* * *

كان الدرس الذي ألقاه عقب صلاة العصر مُرَكزًا قوي النبرة واضح الفكرة، وتعمد أن يجعله قصيرًا مختصرًا رغم خطورة موضوعه، كي يترك فرصة أوسع لمناقشات الطلبة قبل أن يعود مقيم الشعائر لرفع أذان المغرب.

وبدا الجلوس في صفوف متحلقة حوله كأن على رؤوسهم الطير، وكأنهم يستمعون لآيات القتال وأحكامه في القرآن للمرة الأولى.

تحدث إسماعيل عن الجهاد.. ذروة سنام الإسلام.. تلك الفريضة الغائبة عن واقع المسلمين المعاصرين رغم كونها أساس الدين وطريق مستقبله والوسيلة الوحيدة لتحققه على أرض الواقع، مؤكدًا أن طواغيت الأرض لن تزول إلا بالقتال، وأن المسلمين في صدر الإسلام كانوا يبايعون رسول الله على الموت، وذكَّر الحاضرين بالحديث النبوي: «بُعثت بالسيف بين يدَي الساعة حتى يُعبد الله وحده لا شريك له»، وهو أمر تأسس مع بداية الدعوة في مكة حتى في فترة الاستضعاف، حين خاطب رسول الله طواغيت قريش قبل الهجرة قائلًا لهم: «أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح»، فكان فرض القتال مبدئيًّا وإن تأخر تفعيله تكتيكيًّا لما بعد الهجرة وتكوين الدولة في المدينة، لذا كان الصحابة في مكة يسألون الرسول عن القتال فيتنزل القرآن «كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ».

سأله أحد الشباب:

ـ أوَلسنا الآن في مجتمع شبيه بالمجتمع المكِّي فوجب كف الأيدي وإقام الصلاة؟

قال إسماعيل بحسم محاولًا تجاوز مفاجأة السؤال:

ـ أكره أن نضيع وقتنا في هذه المسائل الجدلية التي يطرحها البعض على ساحة العمل الإسلامي، لكي يجدوا رخصة أو مهربًا لترك الجهاد، فيزعمون أننا نعيش في مجتمع مكّي فعلينا أن نكف أيدينا ولا نقاتل، ولا بد ألا نلتفت لهؤلاء إذا أصروا على موقفهم ونكتفي بأن نقول لهم: عليكم إذًا أن تتركوا الصلاة إلى القبلة وفريضة الصوم وأن تتعاملوا بالربا لأنه لم يُحرَّم إلا في المدينة؛ اسمع يا أخي الحبيب، إن مكة هي منشأ الدعوة، وعندما نزلت آية «ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ» في حجة الوداع كان هذا معناه نسخ الأحكام الوقتية وأن الدين اكتمل، فنحن لا نبدأ كما بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم وإنما نلتزم بما انتهى به الشرع والدين كله.

همَّ الشاب بالكلام، فقاطعه إسماعيل بود:

ـ عرِّفنا بنفسك أولًا أخي الكريم.

ـ سالم الغطريفي.. ثالثة طب، وقد حضرت لكم محاضرة الصيف الماضي في المدينة الجامعية تحدثتم فيها عن الحاكمية وعلاقة تحكيم الشريعة بأصل العقيدة.

تبسم إسماعيل وهو يقول:

ـ نعم أذكرك جيدًا.

ثم بعد لحظة تفكير:

ـ ألستَ أنت مَن سألت عن قائمة مراجع لتقرأها؟

ـ نعم نعم كنت أنا، جزاك الله عنا خيرًا، فقد استفدنا كثيرًا من

محاضرتك ومن الكتب التي أرشدتنا إليها وأهمها «معالم في الطريق» للشهيد سيد قطب.

ندت عن إسماعيل ضحكة قصيرة، ثم قال:

ـ الآن أدركت سبب سؤالك عن المجتمع المكِّي...

فقاطعه شاب يجلس في الجهة المقابلة:

ـ هذه النقطة بالذات استوقفتنا ونحن نقرأ كتابات قطب خصوصًا المعالم والظلال.

أومأ إسماعيل برأسه، ثم قال بلهجة يقينية:

ـ الحقيقة أيها الشباب المبارك أنه لا يوجد في كل ما كتبه الأستاذ الشهيد ما يؤدي إلى هذه الفكرة المغلوطة التي يرددها مَن يودون أن غير ذات الشوكة تكون لهم، فهم أشاعوها ونسبوها إليه افتراء أو من باب الفهم المغلوط، رغم أنه أفضل مَن كتب عن الجهاد من المعاصرين، ويكفي أن ترجعوا إلى باب الجهاد في المعالم وإلى تفسيره لآية السيف من سورة براءة.

قال عثمان عبد الكريم بلكنته الصعيدية:

ـ وكما قيل: فالحَج لا يُعرف بالرجال ولكن اعرف الحَج تعرف أهله.

قال إسماعيل وهو يعتدل في جلسته مستعيدًا هيئة المُعلم:

ـ صدقت أخي، نحن نذب عن عرض شيخنا شهيد الحركة الإسلامية وننفي عنه ما لم يقله لكننا لا نبحث إلا عن الحق وندور معه أينما دار.

عاد سالم ليقول بإصرار مَن يرفض مغادرة الموضوع:

ـ لكن أكثر كتاباته تتحدث عن جاهلية المجتمعات المعاصرة التي نعيش فيها.

عاجله عثمان بضيق:

ـ لا بد أن تترك الفرصة لباقي الإخوة لإلقاء أسئلتهم على الأخ أبي حذيفة.

فرفع إسماعيل كفه موجهًا باطنها تجاه عثمان وهو يقول برفق:

ـ لا بأس يا عثمان، فالنقطة التي أثارها الأخ سالم مهمة والإجابة عنها ستوضح كثيرًا مما قلناه في درس اليوم.

علَت وجه سالم ابتسامة الظفر، وانتظر إسماعيل لحظات ليتأكد من إنصات الجميع قبل أن يبدأ حديثه ضاغطًا على مخارج الحروف:

ـ أظن أنه أصبح واضحًا لديكم الآن أن المفهوم الحقيقي للإسلام هو تحكيم الشريعة، وأنه لا يمكن أن يُعد مسلمًا مَن يرفض شرع الله أو يرضى بتنحيته عن الحكم أو يعتقد أن أي شريعة أو نظام قانوني أو سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي أصلح منه أو مساوٍ له.

ندت عن الحضور همهمات الموافقة، فاسترسل إسماعيل قائلًا:

ـ وإذا طبقنا هذه الحقيقة المؤكدة والمعلومة من الدين بالضرورة على واقعنا اليوم، فسنجد أن العالم كله يعيش في جاهلية أساسها الاعتداء على سلطان الله على عباده واستبدال حاكمية البشر بحاكمية الله، سواء كانوا أفرادًا كما في الدول الدكتاتورية كمصر وباقي المنطقة، أو كانوا جماعات وبرلمانات تمثل الشعوب كما في الدول الديمقراطية.

قال سالم بنشوة المنتصر:

ـ الواقع الحالي إذًا شبيه بالواقع في مكة وقت بداية الرسالة.

رمقه عثمان بغضب، لكن إسماعيل أكمل دون أن يفقد حماسه لتوصيل الفكرة:

ـ كلا يا أخي، فالدين اكتمل كما قلنا، وشريعة الله واجبة التطبيق كلها بلا استثناء...

ثم بعد لحظة صمت ابتلع فيها ريقه وأخذ نفَسًا عميقًا:

ـ نحن لسنا في مجتمع مكي، لأن هذا لا يصح مع اكتمال الشرع والتزامنا به كله، ولسنا كذلك في مجتمع مدني تعلوه راية الإسلام، أي أننا لسنا دولة إسلامية أو دار إسلام كما يقول بذلك البعض كالإخوان وغيرهم من المُرجئة، ولسنا أيضًا في دار كفر كامل علينا أن نهجره أو نهاجر منه إلى الكهوف والجبال وغير ذلك من شطحات بعض المخلصين غير الفاهمين، مثل جماعة شكري مصطفى رحمه الله.

علَت الحيرة ملامحهم وأرهفوا السمع، وسأله شاب صغير السن أبنوسي اللون جلس متربعًا بينه وبين عثمان:

ـ في أي مجتمع نعيش إذًا، وما المطلوب منا أن نفعل؟

ربَّت إسماعيل على ظهر الفتى في حنان قائلًا:

ـ سؤالك مهم، عرفنا بنفسك.

ـ أحمد البدري، طالب في الثانوية العامة، وعثمان عبد الكريم هو ابن عمتي.

تمتم إسماعيل:

ـ عظيم! «بدري» إن شاء الله!

ثم ملتفتًا لجموع الحاضرين:

ـ لقد سأل أخونا أحمد سؤالين منطقيين ومرتبطين ببعضهما البعض تمامًا، فالهدف هو ما المطلوب منا الآن، هذا هو السؤال الذي يجب أن يسأله كل مسلم لنفسه، وهنا يكون وصف المجتمع الذي نعيش فيه ضرورة وليس مجرد جدل بيزنطي، فهل نعيش في دار سِلم أم دار حرب؟ هل هي دار إسلام أم دار كفر؟ وعندما نُجيب عن هذا السؤال فسوف تكون الإجابة عن السؤال الثاني، وهو ما المطلوب منا؟ سهلة ومترتبة على الإجابة الأولى.

أحس أحمد بالفخر إذ توجهت نحوه نظرات الشباب الأكبر منه سنًّا، فافترَّ ثغره عن أسنان ناصعة أضاءت وجهه الأسمر، فعاد إسماعيل يربت على ظهره في حنو وهو يقول:

ـ أجمع علماء الأمة على أن أول شروط دار الإسلام أو الدولة الإسلامية أن تعلوها أحكام الإسلام وأن تُطبق فيها الشريعة، فإذا كانت أحكام الكفر هي التي تعلوها فهي دار كفر ودار حرب.

قال أحد الشباب ببساطة:

ـ مصر لا تطبق فيها الشريعة فهي دار حرب.

فاسترسل إسماعيل:

ـ لقد سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن بلد تسمى «ماردين» كانت محكومة بشريعة الإسلام ثم حكمها أشخاص أقاموا فيها حكم الكفر، فأفتى بأن هذه البلد ليست دار إسلام ولا دار حرب، لكنها قسم ثالث مركب، يعامل فيها المسلم بما

يستحق ويعامل الخارج على شريعة الإسلام بما يستحق، وإذا طبقنا هذه الفتوى على ما نحن فيه فسنجد أن مصر الآن تشبه «ماردين»، فأهلها مسلمون لكن تعلوها أحكام الكفر، لذا فنحن لسنا كما قال الأخ سالم في مجتمع مكِّي ولسنا أيضًا في مجتمع مدني، وإنما نحن في بلاد أهلها مسلمون في الأصل، وبعدما تم إسقاط الخلافة حكم بلادنا خونة عملاء للغرب أسقطوا أحكام الإسلام ووضعوا بدلًا منها أحكام الكفر، فخرجوا بذلك من الملة وأصبح قتالهم واجبًا باعتبارهم مُرتدين حتى لو نطقوا بالشهادة وأقاموا الشعائر، كما أجمع علماء المسلمين على قتال التتار رغم أنهم ادعوا الإسلام.

همهموا متسائلين:

ـ التتار؟

فاسترسل إسماعيل:

ـ ادَّعى التتار أنهم دخلوا الإسلام وأقاموا الشعائر كالصلاة والصيام وغيرهما، لكنهم نحوا الشريعة واستبدلوا بها مجموعة من الأحكام أسموها «الياسق» تشبه القوانين الوضعية حاليًّا، فهي خليط من الشريعة الإسلامية وشرائع أخرى طبقوها على البلاد التي حَكموا فيها، فأجمع علماء عصرهم على أنهم كفروا بذلك ووجب قتالهم حتى يُطبقوا الشريعة كلها بلا أي استثناء.

انطلق عثمان بانفعال حماسي:

ـ جزاك الله خيرًا أخي أبا حذيفة، فهذه هي الحالة المماثلة تمامًا لما يفعله الحكام اليوم، فهم كالتتار فرضوا علينا الياسق العصري

وتنازلوا عن بلاد المسلمين لليهود ووالوا النصارى ومكَّنوهم من البلد حتى أصبحنا نشعر بالغربة في بلادنا ونحن الأغلبية. فإلى متى نصبر على هذا الهوان؟

قال أحمد البدري وهو ينظر لإسماعيل ويبتسم بحياء:

ـ بقي السؤال الثاني: ما المطلوب منا الآن؟

طوَّق إسماعيل عنق الفتى بذراعه وهو يجذبه نحوه قائلًا بإعجاب:

ـ بخٍ بخٍ أيها المجاهد الصغير، اعلم أنه ما دام معنى شهادة التوحيد هو الإقرار بأن إقامة حكم الله وشريعته في الأرض هي أساس الإسلام ومعناه، فالقاعدة الشرعية تقول إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، لذا فالسعي لإقامة الدولة الإسلامية كنواة لإعادة الخلافة الجامعة فرض عين على كل مسلم يعيش على الأرض اليوم، وإذا كانت هذه الدولة لن تقوم بغير القتال فقد فُرض علينا القتال.

قلَّب نظره في وجوه الحاضرين، فوجدهم بين موافق متحمس أو متردد مندهش أو متسائل حائر، فهتف بحماس وقد غلبته العاطفة حتى بللت مُقلتيه الدموع:

ـ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين لا يضرهم مَن خالفهم حتى يأتي أمر الله»، فمَن يجرؤ على خذلان الرسول وهو يدعونا إلى القتال في سبيل الله؟!

صاح عثمان بصوت جهوري:

ـ والله لا نخذل رسولنا أبدًا، ومنذ التزمنا وعرفنا الحق بفضل الله

أقسمنا أن نحمل رؤوسنا على أكفنا وأن نبذل في سبيل الله أرواحنا وكل ما نملك.

سرت عدوى الحماسة في الصفوف فارتفعت الحناجر تلهج بذكر الله وتعاهده على تقديم الأرواح في سبيله، وقال قائل:

ـ إن الدعوة تنتشر بفضل الله، ونحن نتحرك منذ سنوات في كل مدن الصعيد، أقمنا مؤتمرات دعوية في الشوارع والميادين وضمت مظاهراتنا المؤيدة للثورة الإسلامية في إيران والرافضة لاستقبال الشاه عشرات الألوف رغم تحرشات الأمن.

وأكمل آخر:

ـ وقوافلنا الدعوية تتحرك الآن من الفيوم وبني سويف حتى أسوان، والشباب من كل الأعمار والاتجاهات السياسية ينضم إلينا بحماس بالغ.

وقال ثالث بزهو مفرط:

ـ وها هو أثر الحركة يظهر بوضوح في انتشار الحجاب والنقاب وما عاد واحد من الطلبة يجرؤ على الحديث مع طالبة ليست من محارمه.

فصاح رابع مذكرًا:

ـ ولا تنسوا أن حفلات الغناء والمجون التي كانت تُقام قبل سنوات في الجامعة أصبحت بفضل الله ذكرى من الماضي، لا يجرؤ الآن طالب ولا أستاذ على مجرد التفكير في إقامتها.

انتظر إسماعيل حتى هدأت الأصوات، ثم قال بصوت لم يخلُ من حماس:

ـ بارك الله فيكم أيها الإخوة الأحباب، فقد قمتم على ثغر من ثغور الإسلام وأديتم فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن...

تطلعوا إليه بارتياب، فأكمل بلهجة تحذيرية:

ـ لكن هكذا مضى نصف قرن من عمر جماعة الإخوان بغير حصاد.

علا وجوههم الوجوم وانطفأت حماستهم، وصاح عثمان بفزع:

ـ ماذا تقصد؟

ـ لا أقصد طبعًا أن منهجكم يتطابق مع منهج الإخوان، لكنَّ تصوُّر أن مجرد الدعوة بالخطب والمؤتمرات والمظاهرات ستُغير الحكم الكافر وتقيم شرع الله هذا تصوُّر نظري لم يتحقق أبدًا في أرض الواقع، والدليل أن جماعة الإخوان لم تجاوز هذا الطريق، وكلما تجمع الناس حول دعوتها تعرضت لضربات الطاغوت فانفض الناس، حتى اضطرت قياداتها في النهاية إلى التحالف مع الطاغوت والتعامل بالتقية والتنازل تدريجيًّا عن ثوابت العقيدة، حتى انتهت إلى ما تعرفون.

ارتسمت الحيرة على وجوههم، فاستطرد إسماعيل:

ـ لا بديل عن الجهاد المسلح ولا بديل عن القتال لإسقاط النظام الجاهلي وإقامة نظام إسلامي بدلًا منه، وقد أجمع الفقهاء في كل العصور على ضرورة قتال الطائفة الممتنعة، وهي التي تنطق بالشهادتين لكنها تمتنع عن تطبيق بعض الواجبات الإسلامية الظاهرة، فكيف بحكام نحوا الشريعة جانبًا وقالوا إنه لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين؟!

خيم الصمت قليلًا قبل أن يُشير عثمان ناحية شاب رفع يده في الصف الأخير قائلًا:

ـ الأخ جمال حجازي، تريد أن تقول شيئًا؟

أجابه الشاب بصوت هادئ عميق:

ـ نعم أخي، جزاك الله خيرًا...

ثم موجهًا حديثه لإسماعيل:

ـ أنا طالب في بكالوريوس تجارة، أعمل في الوقت نفسه مع أبي في تجارة تستدعي تنقلنا في مدن الصعيد وبحري، وأرى في كل سفراتنا أن روح الصحوة والمفاهيم الإسلامية تنتشر بين جميع طبقات المجتمع على نحو يؤكد بناء القاعدة المسلمة التي ستُجبر النظام في النهاية على تطبيق الشريعة.

ابتسم إسماعيل وهو يخلل شعر لحيته بأنامله، وصمت لحظات قبل أن يقول بصوت حاول الاحتفاظ بهدوء نبراته:

ـ يكفي أن تتأمل تاريخ الإخوان وما وصلوا إليه لكي تعرف أن هذا المنهج الإصلاحي الذي يدعو إلى بناء قاعدة مسلمة تفرز تلقائيًّا النظام المسلم والحاكم المسلم هو محض خيال، فمن طبيعة أهل الباطل أنهم لا يمكن أن يتنازلوا طواعية عن مواقعهم وسلطاتهم، وتجارب الحركة الإسلامية في كل البلاد تؤكد كلامي، فالغرب الصليبي هو مَن صنع هؤلاء الحكام وهو الذي يدعمهم، وأول شرط لإبقائهم وحمايتهم أن ينحوا شرع الله عن واقع المسلمين.

عاد جمال ليقول:

ـ لكن السادات شكَّل بالفعل لجانًا لتقنين الشريعة و...

قاطعه عثمان صائحًا بغضب:

ـ لماذا تجادل يا جمال؟ هل نسيت ما فعله هذا الخائن في «كامب ديفيد»؟ هل نسيت أنه وقف يخطب داخل الأرض المحتلة وفي الكنيست الصهيوني وفوقه خريطة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات؟ هل نسيت وقفته كالتيس يوم توقيع معاهدة الشؤم وزوجته ترقص مع «كارتر» وتُقبِّل السفاح «بيجين»؟ ما بالك يا أخي، ماذا أصابك؟

رغم انفعال عثمان إلا أن جمال أجابه بذات النبرة الهادئة:

ـ لم أقصد بالطبع الدفاع عن السادات، لا تنسَ أني شاركت في كل المظاهرات والمؤتمرات التي نظمتها الجماعة ضده، لكن الأخ أبا حذيفة لا يتحدث الآن عن الدعوة وإعادة الناس إلى الإسلام ولا عن النشاط السياسي المعارض وإنما يتحدث عن إسقاط الحكم بانقلاب مسلح.

توتر إسماعيل، إذ شعر أن سير المناقشة سيؤدي إلى تشتيت الشباب وصرفهم عن الفكرة الأساسية التي جاء من أجلها، فصمم على استغلال الدقائق الباقية قبل موعد أذان المغرب لتثبيت فريضة الجهاد في فكرهم ووجدانهم باستخدام جُمل قصيرة تحمل مفاهيم يقينية غير قابلة للنقاش، فقال متجاهلًا مداخلة جمال بالكلية:

ـ أنتم ولا شك تعرفون الحديث الشريف: «مَن قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون عِرضه فهو

شهيد»، وهذا الحديث أساس حكم قتال الصائل، أي المعتدي على أموال المسلمين وأرواحهم وأعراضهم، والدين والشريعة أعز على كل مسلم من دمه وماله ومحارمه، لذا كان قتال الطائفة الممتنعة أولى من قتال الصائل، بل إن الممتنع عن تطبيق الشريعة هو صائل بالضرورة وقتاله فريضة بإجماع علماء المسلمين قديمهم وحديثهم.

وصل مقيم الشعائر، فسأله سالم الغطريفي متعجلًا عن بعض المراجع المفيدة للموضوع فأجابه إسماعيل:

ـ أوصيكم بالرجوع إلى باب الجهاد من مجموع فتاوى ابن تيمية، ولو تمكنتم من نسخ هذا الباب وتصويره وتوزيعه على أعضاء الجماعة فسيكون أمرًا مفيدًا بإذن الله.

وهم يغادرون المسجد بعد صلاة المغرب رفع أحد الطلبة ذراعه اليمنى لأعلى وصاح بحماس: «إسلامية.. إسلامية»، فتعالت الأصوات من حوله مرددة: إسلامية.. إسلامية.. لا شرقية ولا غربية.. حتى ظن المارة أنها مظاهرة جديدة تنطلق من الجامع.

وقال إسماعيل لعثمان وهو يهم بالركوب خلفه فوق دراجته البخارية في طريقهما إلى النمايسة:

ـ هناك أمور كثيرة ينبغي تغييرها في أسلوب تعبير الجماعة عن أفكارها.

ـ أعلم أن مناقشة جمال حجازي أزعجتك، لكنه داعية من الطراز الأول وله تأثير كبير على الشباب، كما أنه مخلص وإيجابي في

حركته معنا، حتى إنه يضع كل ما يكسبه من عمله تحت تصرف الجماعة.

ـ كل هذا جيد يا عثمان، لكن يجب اختيار الشباب في المرحلة المقبلة بناء على قناعتهم المؤكدة بأن الجهاد هو الطريق الوحيد للتغيير.

(٣)

تلوح دار أنور شلبي كعروس وسط الدور الطينية البائسة لقرية النمايسة بمركز أسيوط، إحدى أكثر قرى الصعيد فقرًا وتخلفًا.

ففضلًا عن كون الدار مبنية بالطوب الأحمر المطلي بدهانات حديثة، فقد أُلحقت بواجهتها مندرة واسعة مبلطة مسقوفة بتكعيبة خشبية تظلل فرشًا وثيرًا، تحيط بها أشجار المانجو وعرائش الياسمين حاملة للجالسين فيها ريحًا طيبة.

ولم تكسب مندرة شلبي شهرتها من لمساتها الثرية فحسب، بل ممن استضافتهم على مر السنين من رجال الدولة، بدءًا بضباط يوليو وكبار المسؤولين التنفيذيين خلال زياراتهم للجنوب ومحافظي وأعيان الصعيد حتى مرشحي البرلمان ولجان الاتحاد الاشتراكي.

كما أن الحاج أنور نفسه ـ بطُوله وعرضه وصوته الجهوري ووجهه الأحمر الموسوم بهجين صعيدي تركي ـ يضفي على المندرة مزيدًا من الألق، حين يجلس في صدارتها مرتديًا عباءته الفخيمة معتمرًا عمامته الحريرية، محاطًا بأولاده الثلاثة الذين ورثوا جماله ووجاهته.

أما رؤية إحدى بنات شلبي، في ظهورهن النادر خارج الدار، فكان كفيلًا بإشعال قلوب شباب القرية بأحلام يقظة لم تتحقق قط، إذ تزوجن كلهن من موظفين حكوميين من أسيوط وسوهاج والعاصمة أيضًا.

أنور شلبي الذي آمن منذ شبابه بثورة يوليو وعشق عبد الناصر وأصبح عضوًا في الاتحاد القومي ثم في الاتحاد الاشتراكي العربي والتنظيم الطليعي وألحق بِكريَّه بمنظمة الشباب.

أنور شلبي الذي استفاد إلى أقصى حد ممكن من إنجازات الثورة، ومن علاقاته بالمسؤولين وأفاد أهل قريته، حتى غدت داره قِبلتهم ومندرته كديوان مظالم يَفِد إليها كل صاحب حاجة من القرية والقرى المجاورة.

أنور شلبي الذي بقي مقربًا من السلطة وفيًّا لها حتى بعد رحيل ناصر، ورغم علاقته الوطيدة برفاق من جناح «علي صبري» فإنه أيَّد السادات في حركة مايو ١٩٧١ وأخذ يردد حينها أن «أنور» قام بثورة تصحيح حقيقية أجبرته عليها تصرفات مراكز القوى، وأنه أخلص رجال يوليو لمبادئ عبد الناصر الذي اختاره بنفسه ليكمل مشواره.

أنور شلبي الذي ظل مثارًا لإعجاب أقاربه ومعارفه وأبناء بلدته ولحسد كثيرين منهم، أصبح مثارًا لرثاء الجميع بعد مصرع بِكريِّه وقُرة عينه «السيد» برصاص رجال الشرطة.

* * *

كان السيد نموذجًا تقليديًّا لشباب القرى، من الفئات المستريحة نسبيًّا، التي أُتيح لها التعليم والتطلع لمستقبل أفضل، والذين آمنوا

بكل ما تردد في الفضاء العام خلال فترة صعود الفكر القومي اليساري في ستينيات القرن العشرين.

في عام ١٩٦٦ وبينما كان تلميذًا بالثانوية الزراعية انضم لمنظمة الشباب الاشتراكي.

حفظ الميثاق عن ظهر قلب، فشكل أساسه الثقافي الذي راكم عليه ما تيسر من خُطب ناصر، ومقالات هيكل، وأشعار الأبنودي، وقصص يوسف إدريس، وكراسات أمانة الدعوة والفكر، وحتميات عبد الغفار شكر، ولا صوت يعلو فوق صوت المعركة.

وجاءت المعركة، وجاءت الهزيمة الماحقة.

بعدها ألحقه أبوه بالمعهد العالي للقطن بالإسكندرية في محاولة لتأجيل تجنيد كان يبدأ وقتها ولا ينتهي، وليقيم مع ابنَي خاله الطالبَيْن بجامعة الإسكندرية.

لم يتحمل وجدانه الغض الملتهب بروح وطني جارف صدمة انهيار الرمز والمثل، كما لم يستطب الاندماج في حياة ابنَي خاله وشِلتهما المليئة باللهو والشراب ومرافقة الساقطات، حتى نفرت نفسه من كُتيبات الجنس ومجلات الفن الرخيص التي تناثرت في جنبات شقتهم الصغيرة.

قال له ابن خاله يومًا:

ـ يا أخي إنت «فَجَري جَوي»، فلا أنت فلحت في دراستك بالمعهد ولا أنت استمتعت بمباهج الإسكندرية، أتراك اشتقت لظلام النمايسة ولقذارتها و«جَرَف» أهلها؟

ـ ولا هذا أيضًا.

ـ يا لك من خائب ترفس النعمة، البت سماح مجنونة بك وتسأل عنك منذ رأتك معنا في كليوباترا.

أشاح بوجهه ليداري قرفه منه ومن كل شيء.. العُهر.. الكذب.. النفاق، والعرب الأمجاد ينهزمون أمام عدو حقير وينهارون في ست ساعات.

رفض المشاركة في المظاهرات التي حركتها منظمة الشباب عام ١٩٦٨ ليبدو المشاركون فيها كأنهم يعترضون على الأحكام المخففة التي صدرت بحق قادة سلاح الطيران، وكأن إعادة المحاكمات ستكون تلبية من «القيادة الحكيمة» لمطالب الشعب «القائد والمُعلم».

أوشك على الخروج معهم لكنه عدل في اللحظة الأخيرة، تذكر والده وهو يشحن أبناء القرية الغلابة في سيارات نقل المواشي تحملهم للهتاف بشعارات يتم تلقينها لهم في المناسبات السياسية لتأييد السلطة.. وجبة جافة وربع ريال لكل «رأس» كما كان أبوه يسميهم، كأنها رؤوس أغنام.. رفض أن يكون رأسًا في قطيع الأغنام.

يومها ودَّع منظمة الشباب بغير رجعة، وفيما كان المتظاهرون يهتفون «غيِّر غيِّر يا جمال» كان هو يدلف إلى مسجد الجمعية الشرعية بالسيوف.

استعادت ذاكرته الآيات القرآنية التي حفظها صغيرًا في كُتَّاب القرية وطمستها كلمات الميثاق وكراسات الفكر القومي وحتميات الحل الاشتراكي.

أقبل بنَهَم على حفظ القرآن وقراءة كتب السيرة والعقيدة والتوحيد، وتنقل بين المساجد متابعًا خُطى شيوخ السلفية، حتى إنه كان يسافر

خصيصًا للقاهرة بحجة زيارة أخته وذلك لمتابعة دروس الشيخ «عبد اللطيف مشتهري» عن الدار الآخرة في مسجد الجمعية الشرعية برمسيس.

هكذا مضت أعوامه في الإسكندرية، ولما تكرر رسوبه استأجر له والده شقة مستقلة وأرسل أمه لتقيم معه وترعى شؤونه، فتمتع باستقرار دفعه لمزيد من الالتزام الديني.

أكثر من صيام النهار وقيام الليل.. حفظ القرآن والأربعين النووية.. أطلق لحيته وارتدى الجلباب الأبيض واستخدم السواك وتضمخ بالمسك.. وعزف تمامًا عن السياسة حتى لم تسترعِ انتباهه المظاهرات الحاشدة التي فجرها الطلبة مطلع السبعينيات مطالبين السادات باتخاذ قرار الحرب لاسترداد الأرض المحتلة.

كان ينظر لكل ما يموج به سطح الحياة السياسية في مصر في ذلك الوقت باستخفاف وبازدراء، وقال إنه لا نصر لنا إلا بالعودة إلى الدين وتصحيح عقيدة التوحيد وإزالة ما علق بها من خرافات وشِركيات.

في عامه الأخير بالمعهد أعطاه شاب من رفاقه في حلقة تجويد القرآن ملزمة صغيرة منسوخة بخط اليد وطلب منه أن يقرأها قائلًا إنها جزء من أحد الكتب الممنوعة للشهيد «سيد قطب».

كان عنوان الملزمة «الإسلام هو الحضارة»، واستهلت بفقرة تقول:

«الإسلام لا يعرف إلا نوعين اثنين من المجتمعات.. مجتمع إسلامي، ومجتمع جاهلي».

كانت جماعة «يحيى هاشم» تعمل بهدوء في الإسكندرية.

يحيى هاشم.

في عام ١٩٦٨ كان وكيلًا للنائب العام، فخالف العرف القضائي وقاد مظاهرة خرجت من جامع الحسين بالقاهرة تهتف لأول مرة في مصر ضد جمال عبد الناصر مُحمِّلة إياه شخصيًّا مسؤولية هزيمة يونيو.

بدت تلك المظاهرة محدودة العدد كردة فعل على مظاهرات منظمة الشباب المسيسة التي قُصد بها تحميل جناح من السلطة المسؤولية أمام الرأي العام والتضحية به للحفاظ على زعامة عبد الناصر ولإنقاذ نظام يوليو بعد هزيمته المدوية.

هو وكيل النيابة الذي تسبب القبض عليه في لقاء المستشار «ممتاز نصار» رئيس نادي القضاة بوزير العدل والحديث معه عن الحريات العامة واستقلال القضاء، وهو الحديث الذي نُقل حرفيًّا إلى رئيس الجمهورية لتبدأ بعدها الخطوات التي انتهت بمذبحة القضاء عام ١٩٦٩.

سرعان ما أُفرج عن يحيى هاشم، نتيجة تدخل النادي ولحصانته القضائية، ليبقى مجرد جملة استهلالية ـ بلا اسم ـ في رواية حركة استقلال القضاء، هكذا يذكر: «حدث عام ١٩٦٨ أن قبضت المباحث العامة على وكيل نيابة بحجة مشاركته في مظاهرة خرجت من جامع الحسين، فغضب القضاة... إلخ».

لكنه ـ باسمه الصريح ـ يمثل صفحة مهمة في رواية الحركة الإسلامية.

خرج يحيى هاشم من حجز الشرطة غير عابئ لا بالقضاء

ولا باستقلاله، فقد كان صدره يشتعل غضبًا من الهزيمة المنكرة التي جلبها مَن ملأوا الدنيا ضجيجًا حول العِزة والكرامة والصمود واجتياح تل أبيب وإلقاء إسرائيل في البحر.

قال إن غياب العدل عن البلد وتفشي الظلم والاستبداد، وما تعرض له الإخوان المسلمون من اضطهاد، في ظل صمت ورضاء شعبي، هو السبب الحقيقي للهزيمة.

بدأ يقرأ في العقيدة والتاريخ، فخلص إلى أن العرب لم ينتصروا على عدو طوال تاريخهم إلا تحت راية إسلامية.

كانت نار القهر والغضب تُلهب فؤاده، وقال لمَن حوله إن أولى خطوات النصر أن يسقط نظام الهزيمة بأكمله، وأول ما يجب إسقاطه هو الرأس.

كوَّن مجموعة صغيرة من المؤمنين بأفكاره واتصلوا ببعض الإخوان الذين أُفرج عنهم عقب الهزيمة، لكنه كان يريد الحركة وكانوا قد قرروا التجمد.. كان يتطلع إلى المستقبل وكانوا يستدفئون بحكايات الماضي.. كان يتميز غيظًا لما حاق بهم من ظلم ويشتعل ثورة على النظام الذي قهرهم فقالوا له: «ما نريد إلا الإصلاح».. كانوا يتبرأون من أفكار سيد قطب وجماعته ويُدينونهم ثم يُضيفون إعدامه ورفيقَيْه لبكائيات كربلائياتهم، ونفرت نفسه من الانتهازية.

في عام ١٩٦٩ بدأت قبضة الرقابة الحديدية تخف، فتزايد تهريب الكتب الممنوعة التي كانت تُطبع في بيروت، ووقع في يده أحد كتب سيد قطب، ومن خلال سطوره تحددت أمامه معالم الطريق.

رغم أنه أصبح الآن على يقين من جاهلية القانون الوضعي وحرمة

الاشتغال به، ومن كفر المؤسسات القائمة على رفض حاكمية الله، ومنها مؤسسة القضاء، إلا أنه أرجأ قرار استقالته مكتفيًا بالمفاصلة الشعورية بينه وبين المجتمع الجاهلي الذي يعيش فيه والمؤسسة الجاهلية التي يعمل بها، متحينًا فرصة تسنح له حتى يضع إمكانيات منصبه في خدمة الهدف المنشود.

سرعان ما تَمثل تصوره الاعتقادي في تجمُّع حركي وفي جماعة صغيرة تحيا الغربة الثانية في مواجهة جاهلية حديثة لا تَقِل ضلالًا عن الجاهلية الأولى.

انضم له أكثر من مائتَي شاب من القاهرة والإسكندرية وبعض المحافظات، وقبيل حرب أكتوبر ضموا الابن البكر لأنور شلبي.

ثم حانت الفرصة التي ترقبها لسنوات عندما قُبض على المتهمين في قضية الفنية العسكرية.

بإعجاب بالغ بشخصية «صالح سرية» وبمرافعة «كارم الأناضولي» أثناء محاكمته، أخذ رئيس نيابة دكرنس ـ زعيم الجماعة السرية الصغيرة ـ يراقب الموقف متحينًا لحظة التدخل، حين قرر استخدام خبرته لتزوير أوامر ترحيل المسجونين مخططًا لتهريبهم في الطريق.

لكن الخطة أُحبطت، فانكشفت الجماعة وفر أعضاؤها إلى الصعيد حيث رتب لهم السيد شلبي مكانًا آمنًا في نجع تابع لمديرية الزراعة التي يعمل بها، وبقوا هناك فترة كامنين يتعبدون الله ويتدربون على السلاح حتى أرشد عنهم أهالي قرية مجاورة اعتادوا أن يبتاعوا منها طعامهم القليل.

حين هاجمتهم الشرطة لم يستسلموا، بل قاتلوا بما معهم من

سلاح، وفي الاشتباك قُتل يحيى هاشم والسيد شلبي وآخرون، وفر الباقون ثم تسربوا في هدوء داخل مسارات العمل الإسلامي المختلفة.

توقف الزمن داخله عند عام ١٩٧٥، ولسنوات لم يعد يشغله إلا الثأر لابنه البكري من قاتليه، فأخذ عهدًا على ولدَيْه ألا يتركا ثأر أخيهما.. «بلغتُ الخمسين، زوَّجت البنات وعلَّمت الصبيان ويكفيني وأُمكما كسرة بتاو وشَربة ماء حتى نلقى ولدنا الشهيد في الجنة، لكني أبرأ منكما حيًّا وميتًا إن لم تثأرا لدمه».

انضم الولدان ـ الحسن والحُسين ـ تباعًا للجماعة الإسلامية بجامعة أسيوط، أما هو فقد خصص إيراد قطعة أرضه الصغيرة ومشروع تسمين العجول وعصَّارة القصب كلها للعمل الإسلامي، وفتح بيته لاستضافة الدعاة وشباب الحركة، يجلس وسطهم في مندرته يستمع لحديث جديد عليه غريب عنه لم يبُحْ له به قط الفقيد الغالي، ويتلمس في وجوههم ملامح الراحل الشهيد.

❋ ❋ ❋

كان المهندس سليم جاهين يواصل حديثه قائلًا:

ـ إن أكبر خطأ ارتكبتموه هو اللجوء لأسلوب حرب العصابات الذي لا يصلح مع الطبيعة المصرية.

فأجابه شوقي صابر، وكان من جماعة يحيى هاشم ثم انضم للجماعة الإسلامية بعد مقتله:

ـ معك حق، لكننا أُجبِرنا على ذلك بسبب الملاحقة الأمنية المجرمة.

انعكس الألم على وجه أنور شلبي وهو يجتهد لتخيل صورة مصرع فلذة كبده من خلال كلمات رفيقه.

كانوا يجلسون في المندرة وقد انقضى من الليل نصفه، ورغم أن فبراير أوشك على الرحيل فإن برودة ليالي أسيوط دفعتهم للالتفاف حول راكية الفحم المشتعلة المدفون فيها براد شاي يغلي باستمرار، والتلفع بكُوفيات صوفية سميكة أعدها صاحب الدار لاجتماعاتهم الشتوية، وقد ساعد على إحساسهم بالدفء كثرة عددهم الذي ربا على العشرين فاكتظت بهم المندرة.

عاد سليم جاهين من زيارته للمنيا مصطحبًا قيادات الجماعة هناك، ومن بني سويف وسوهاج وقنا وأسوان لبَّى الآخرون الدعوة لهذا الاجتماع المهم.

قال عثمان عبد الكريم، وقد ساءته لهجة الاعتذار في رد شوقي على ملاحظة سليم:

- صحيح أن المقاومة المسلحة تكون أحيانًا مجرد رد فعل من مجموعة مُطارَدة أمنيًا، لكن حرب العصابات موجودة في ذاكرة الشعوب كخط الدفاع الأول ضد الاحتلال، وهناك أمثلة كثيرة مثل جيفارا أسطورة المقاومة العالمية، وحروب التحرير الفيتنامية، وحتى مقاومة المصريين للإنجليز في القنال لم تكن نظامية لكنها كانت نوعًا من حرب الشوارع.

تنبه أنور شلبي عند ذكر «جيفارا» ومعارك القنال، وكان قد اعتاد الجلوس بينهم صامتًا حائرًا وهم يرددون كلماتهم العجيبة مثل: الحاكمية.. الجاهلية المعاصرة.. دفع الصائل.. العدو القريب،

وغيرها من المصطلحات التي لم تطرق مسامعه من قبل، فقال بحرارة مَن ناداه صوت حميم من جوف ماضيه:

ـ كل هؤلاء تعلموا حرب العصابات من «عبد الكريم الخطابي» بطل المقاومة المغربي ضد الاحتلال الإسباني.

ولما وجدهم ينصتون إليه باهتمام، استطرد مستعيدًا ذكرياته السماعية في لقاءات أمانة المحافظة وإذاعة صوت العرب وسهرات المندرة في الستينيات:

ـ لما علم «جيفارا» أن «عبد الكريم الخطابي» لجأ إلى مصر قرر الحضور ليلتقي بأول مناضل في العالم ضد الاحتلال الأجنبي بطريقة حرب العصابات، وهذا ما أكده الزعيم الصيني «ماو» عندما ذهب إليه وفد منظمة التحرير الفلسطينية فقال لهم: جئتم تتعلمون منا وعندكم الخطابي المعلم الأول لحرب العصابات!

صاح عثمان عبد الكريم بكبرياء حماسية صاخبة:

ـ كل أبطال العالم تعلموا من المسلمين لكننا مثل «الجَرْع» يمد لبره.

انتظر سليم جاهين حتى هدأت حماستهم، ثم قال مبتسمًا:

ـ ها قد قلتموها بأنفسكم «مقاومة الاحتلال الأجنبي»، أما مواجهة السلطات المحلية فلا بد لها من حاضنة شعبية لا تتحقق بغير اقتناع الجماهير بالعقيدة التي ندافع عنها ضد مَن يحاربونها، وإذا لم يحدث هذا فالناس ستنظر للمقاومة المسلحة على أنها نوع من الإرهاب ضد الدولة وربما ضد الشعب أيضًا.

أضاف إسماعيل مؤيدًا:

ـ والمصريون طوال تاريخهم يقدسون السلطة التي تمثل لهم الاستقرار، حتى لو كانوا يكرهونها، لذا فهم يشعرون بعدم الثقة تجاه أي محاولة للخروج عليها.

فقال شوقي صابر باستسلام:

ـ معكما حق، فمَن أبلغ الشرطة عنا كانوا من المسلمين المطحونين الذين قمنا أصلًا للدفاع عن دينهم وعن حقهم في الحياة الكريمة.

انبرى عباس الشيخ من قيادات أسوان قائلًا:

ـ هذا يؤكد أهمية نشر الدعوة وتصحيح العقيدة عند الناس حتى نصنع هذه الحاضنة الشعبية التي تحمي حركة التغيير.

فأسرع إسماعيل ليُمسك بطرف الحديث خشية انحرافه عن المسار الذي يريد، قائلًا بنبرة يقينية:

ـ الجيش هو أسهل وسيلة للتغيير بدون إهدار للدماء.

علتْ وجوههم الدهشة، وهتف أنور شلبي وقد بوغت:

ـ لكن عمل الجيش هو حرب العدو الخارجي.

أدرك إسماعيل أن لحظة التجميع لتنفيذ الخطة قد حانت، فتبادل نظرة خاطفة مع سليم جاهين قبل أن يقول بلهجته الحاسمة التي تعلَّم بمرور الزمن كيف يسيطر عليها فتؤثر في الآخرين دون أن تستفز معارضتهم:

ـ لكن يا عم أبو السيد الجهاد في الإسلام لا علاقة له بالحرب التي يخوضها الناس الآن، لأن هدف الجهاد عندنا هو إزالة الطواغيت من الأرض وتعبيد الناس لله وحده، والحرب عندنا هي حرب على حاكمية البشر في كل صورها لإعلان

حاكمية الله وحده، لذا يمكن أن تكون مع العدو الداخلي كما هي مع العدو الخارجي لا فرق ما دام الهدف واحدًا في الحالتين.

ساد الهدوء جمعهم، وامتدت الأيدي تتناول من حسين شلبي أكواب الشاي الأسود الثقيل الذي كانوا في حاجة إليه ليساعدهم على هضم وجبة البط التي تعشوا بها، وبدوا كما لو كانوا يهضمون الفكرة مع دسامة البط، فلم يُسمع في سكون الليل سوى صوت الملاعق تضرب جدران الأكواب الزجاجية الصغيرة وارتشافات أفواه تتلمس مزيدًا من الدفء.

وفجأة انطلق صوت خرق سكون الليل، حين صاح عاصم شافعي ـ من قيادات المنيا ـ بنبرته العالية موجهًا كلامه لإسماعيل:

ـ كلامك صحيح لو كنت تحدثنا عن جيش الخلافة، لكنك تتحدث عن الجيش المصري الذي أقسم يمين الولاء لهذا الخائن العميل.

تلفت إسماعيل وسليم حولهما في حذر وقد أزعجهما صدى صوت الفتى الذي تردد في الفضاء الساكن، لكن شباب الجماعة لم يأبهوا لذلك إذِ اعتادوا التعبير عن آرائهم بالهتافات الصاخبة، كما أنهم كانوا مطمئنين لتعاطف أهل القرية مع جماعتهم بفعل نفوذ آل شلبي.

داخَلَه شيء من الفتور نتيجة شعوره بصعوبة لجم جماح الجماعة وإلزامها توخي الحذر والسرية في حركتها، هذا عن القيادات فما بال القواعد؟

عكس ضوء الراكية المشتعلة نظرة عتاب لمعت في عينيه وهو يزم شفتيه ويمدهما أمامه علامة الإحباط، فحاول عثمان السيطرة على نبرته العالية بطبيعتها وهو يوجه كلامه لعاصم قائلًا:

- علينا يا إخوة توخي الحذر، صحيح أن المكان آمن لكننا نناقش أمورًا حساسة، فيجب أن نكون أكثر جدية.

شعر عاصم بالحرج فتمتم معتذرًا وحاول أن يقول شيئًا، لكن إسماعيل قاطعه برفق:

- لا عليك أخي الحبيب، كلنا يأخذنا الحماس أحيانًا، لكنا بصدد القيام بمهمة خطيرة تستدعي الالتزام بمنهج السرية الذي التزم به المسلمون الأوائل والموحدون في كل عصر، لذا ذكر القرآن الكريم على لسان أصحاب الكهف لما بعثوا أحدهم إلى المدينة «وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا»، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في غزواته: «اللهم عمِّ أخبارنا عنهم».

صدرت عنهم همهمات الاستحسان، هذه المرة بصوت هامس كأنما أرادوا إعلان التزامهم بمنهج السرية.

بعد تردد قال الشيخ عبد القوي المُدرس الشاب بالمعهد الأزهري وخطيب مسجد السيد شلبي بالنمايسة:

- أخونا عاصم محق فيما قال، فالجيش المصري ولاؤه الأول والأخير للحاكم، فإن أراد الحرب فهم معه وإن استسلم فهم معه.

وأتبعه الحسن شلبي بنبرة غاضبة حاول أن يسيطر على حدتها:

ـ لا تنسوا أن قيادات هذا الجيش رضيت بعزف السلام الوطني الإسرائيلي عند زيارة المجرم «بيجين» لمصر.

انعكس شعور الأسى على وجه إسماعيل، وبحركة تلقائية التفت إلى أنور شلبي كأنما توقع أن يشاركه إحساسه المؤلم، وطافت بمخيلته وجوه وأحداث وصور معلقة بصالة الطابق الثالث وآباء اليتيم يرحلون تباعًا مذبوحين بسكين القهر.

قال وقد خالط الشجن نبرات صوته:

ـ الحقيقة أن كثيرًا من قيادات الجيش الذين حاربوا في أكتوبر بكوا وهم يُجبرون على الانسحاب والتخلي عن سلاحهم وقبول استسلام مهين أمام الصهاينة والأمريكان...

ثم وقد غلبته عاطفته حتى اختنق صوته:

ـ ومنهم مَن مات قهرًا يوم وقف الخائن في «الكنيست» يعلن بيع الدين والقضية.

كأنما كان أنور شلبي ينتظر الفرصة لإفراغ مكنون صدره، فقال بصوت مترعٍ بالجزع:

ـ لعنة الله على القاتل المجرم عميل اليهود، أنا متأكد أن غالبية الضباط يرفضون «كامب ديفيد» ولن يسكتوا على هذه الخيانة أبدًا، ثقوا بأن الجيش المصري ولاؤه الأول والأخير للوطن.

فعقب سليم جاهين وهو يبتسم بإشفاق:

ـ المهم أن يكون ولاؤه لرب الوطن، لله سبحانه وتعالى الذي لا يتغير، وهذا هو الولاء الذي يجعل مهمة الجيش ليست مجرد الدفاع عن قطعة أرض، بل الدفاع عن حاكمية الله في الأرض.

عاد أنور شلبي لالتزام الصمت محاولًا استعادة روح ولده في تعبيراتهم الغريبة.

وقال إسماعيل بعدما أزاح كوبه الفارغ جانبًا وبدا كما لو كان قد تهيأ لإلقاء درس جديد:

ـ لذا فإن تغيير عقيدة الجيش ليصبح جيشًا مسلمًا هو الهدف الكبير الذي يمكن أن يغير وجه مصر كلها، ويقيم بها دولة إسلامية تكون نواة للخلافة على منهاج النبوة التي بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها ستعود بعد الغربة الثانية للإسلام.

سأله أحدهم:

ـ وهل تظن أن تغيير عقيدة الجيش المصري بهذه السهولة؟

فأجابه بأريحية:

ـ بالطبع لا، فلا تغيير عقيدة الجيش ولا عقيدة جماهير الشعب من العامة الذين يتبعون كل ناعق بالأمر السهل، وهذه مهمة الجهاد الذي وهَبْنا له أرواحنا والذي سيفرض علينا كثيرًا من التضحيات، ليس أولها سوء فهم الناس وإيذاءهم لنا، وليس آخرها المطاردة والسجن والقتل والتشريد، ولتكن قدوتنا في ذلك أساتذتنا وإخواننا الذين سبقونا على طريق الجهاد والاستشهاد.

وخزة ألم في صدر أنور شلبي وشعور قوي بالفخر والاعتزاز انعكسا معًا على وجهه وهو يستمع في صمت حابسًا أنفاسه، واستطرد إسماعيل قائلًا:

ـ أُبشركم بأنه يوجد بالفعل داخل القوات المسلحة عدد كبير

من الضباط الملتزمين خصوصًا من الشباب، في كافة المواقع والأسلحة حتى المخابرات الحربية والحرس الجمهوري، وهم على استعداد للتحرك في الوقت المناسب.

تمتمت أفواههم بالحمد والتكبير، وقال عثمان عبد الكريم بصوت متهدج من فرط السرور:

ـ التقينا ضابطًا برتبة مقدم مع الأخ وائل في زيارتنا للقاهرة، ما شاء الله فِكْر والتزام وعقلية وشخصية قيادية قادرة بإذن الله على تغيير ما نحن فيه.

فقال سليم جاهين بفخر:

ـ الأخ منصور الذي التقيتم به هو المسؤول عن تدريب مجموعة الشباب المسلم على القتال والعمليات العسكرية لتكوين فِرَق مدنية مسلحة جاهزة للقيام بدورها عند اندلاع الثورة أو للدفاع عن الحركة إذا ما تعرضت لا قدر الله لضربة مفاجئة من العدو.

لاحظ إسماعيل تساؤلات صامتة عكستها ملامحهم فقال موضحًا:

ـ الدفاع عن جسد الحركة ضروري حتى لا يتكرر معنا ما حدث مع جماعة الإخوان في ١٩٥٤، ١٩٦٥ عندما وجه لهم النظام الضربة تلو الأخرى واعتقل آلافًا منهم دون أن يكون لديهم أي آلية للردع.

انتاب أنور شلبي شعور فطري بالقلق فأخذ يقلب عينيه بين وجهَي ولدَيْه، ثم قال بلهجة تُوحي بمضمون يختلف عن ظاهر الكلام:

ـ لا تنسوا أن مجموعة صغيرة من داخل الجيش قامت بأكبر حركة

تغيير في تاريخ مصر، وعندما تمكن الضباط الأحرار من السلطة وجدوا الشعب يلتف حولهم ويؤيد ثورتهم.

فقال شوقي صابر بنبرة عتاب:

ـ سامحك الله يا عم أبو السيد، هل تريد أن تشبه الثورة الإسلامية بانقلاب يوليو العلماني المرتد؟

فأسرع إسماعيل ليؤكد بيقين:

ـ ثورة يوليو بدأت إسلامية، لا تنسوا أن الضباط الأحرار بايعوا المرشد وأقسموا على المصحف والمسدس، وكان الإخوان في ظهورهم ووفروا الدعم الشعبي لحركتهم.

وأكمل سليم جاهين:

ـ لذا كان القصاص لدم الشهيد «حسن البنا» هو المبدأ السابع من مبادئ الثورة التي أعلنوها في البداية ثم حذفوه بعدما سيطروا على البلد وكشفوا القناع عن وجوههم وساروا في الطريق اليساري الإلحادي.

امتقع وجه أنور شلبي وزاغت عيناه وشعر بأن أطرافه تتجمد وبأنه يتراجع ليغدو نوعًا من الكائنات الخرافية المنقرضة.

وكأنما أحس إسماعيل بما يعانيه الرجل، فقال بأسلوب تصالُحي صادق:

ـ باختصار، الضباط الأحرار اتبعوا الوسيلة الصحيحة والحاسمة للتغيير وهي الانقلاب العسكري، لكن هدفهم لم يكن مشروعًا فضيعوا البلد، أما الحركة الإسلامية بهدفها الشرعي السليم فإن اتباعها نفس الوسيلة سيؤدي بمشيئة الله إلى التغيير الذي ترجوه الأمة وتعيد به أمجادها.

صمت قليلًا وهو يراقب ملامح وجوههم على ضوء الراكية المشتعلة حتى اطمأن إلى استيعابهم الفكرة، فاستطرد وهو ينظر ناحية عباس الشيخ:

ـ وهنا تأتي أهمية تكوين الحاضنة الشعبية عن طريق استمرارنا في الدعوة إلى الله ونشر المفاهيم الإسلامية الصحيحة كما قال الأخ عباس، أما أن تظل الدعوة خارج مسار الخطة المتكاملة للثورة فهذا لن يضيف شيئًا للعمل الدعوي الموجود بالفعل على الساحة والذي علمتنا تجارب الحركة الإسلامية أنه لن يغير شيئًا في الواقع.

قال سليم جاهين مستهدفًا تأكيد الفكرة لا معارضتها:

ـ عفوًا أخي أبا حذيفة، فليست تجارب الحركة الإسلامية فقط مَن علمنا هذا لكنه المنهج الرباني في القرآن الكريم الذي بيَّن أن عامة الناس لا يتبعون الحق إلا إذا انتصر بالقوة «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا»، فالنصر يتحقق أولًا ثم بعده تأتي الأفواج وتأتي الجماهير.

أومأ إسماعيل برأسه موافقًا وأردف متبسمًا:

ـ جزاك الله خيرًا أخي أبا مصعب، والتاريخ الإنساني كله يؤكد هذه الفطرة الربانية، فالناس لا يتبعون إلا المنتصر والنصر لا يتحقق بغير القوة، ومنهجنا هو اتباع الحق المدجج بالقوة والذي يضرب الله به قوة الباطل فيدمغه بإذنه تعالى...

ثم وهو يومئ لعثمان عبد الكريم بإشارة خفية:

ـ وأهم أسباب قوة المسلمين كانت دائمًا اتحادهم «وَاعْتَصِمُوا

بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا»، فالنصر لا يأتي أبدًا بغير هذا الاتحاد وتجميع الجهود وتوحيد الكلمة حول كلمة التوحيد.

التقط عثمان الإشارة، فقال موجهًا كلامه للقيادات:

ـ في آخر لقاء لنا مع الإخوة وائل ومنصور اتفقنا على ضرورة توحيد العمل ودمج جماعتَيْنا في جماعة واحدة.

ما كاد يلفظ عبارته حتى تعالت أصواتهم واختلطت بين مُرحب ومعترض ومتسائل، وهو ما كان يتوقعه منذ ناقش الفكرة مع وائل في القاهرة ثم مع إسماعيل في أسيوط، فقال بنبرة حاول جهده أن يجعلها هادئة لينة:

ـ لقد أخبرتهما بالطبع أن مرجع الأمر إليكم، وهذا الموضوع بالذات يتطلب الموافقة بالإجماع.

سأله أحدهم:

ـ لنفرض أننا وافقنا، فهل هم الذين سينضمون إلينا أم سيحدث العكس؟

فصاح آخر معترضًا:

ـ مستحيل أن يحدث العكس، فالجماعة الإسلامية هي الأكبر عددًا على الساحة في كل تيارات العمل الإسلامي.

وقال ثالث:

ـ إذًا المنطقي أن مجموعة القاهرة هي التي تنضم إلينا.

تبادل إسماعيل وسليم النظر قبل أن يقول الأخير:

ـ الفكرة المطروحة للنقاش أن يتكون من الجماعتين مجلس شورى واحد، أي مجلس قيادة مشترك.

وأسرع إسماعيل في محاولة لطمأنتهم:

ـ الغرض من الدمج هو توحيد الجهود والتحرك لتغيير نظام الحكم المرتد وإقامة الدولة الإسلامية، ونحن لسنا كجماعة الإخوان، كل همها وضع يدها على أي تجمع إسلامي على الساحة لتجميد حركته، بل نحن على استعداد للتعاون مع الجميع لمصلحة الإسلام، لكن فريضة الوقت تُلزمنا بالتحرك في إطار خطة استراتيجية موحَّدة.

فسأله الحسن شلبي بارتياب:

ـ وإذا حدث الاندماج بين الجماعتين فلمَن ستكون الرئاسة؟ يعني هل سيكون رئيس مجلس الشورى الموحد منا أم منكم؟

أجابه إسماعيل بثبات مَن كان يتوقع السؤال:

ـ القيادة الميدانية ستبقى طبعًا للعسكريين ليتولوا عمليات التخطيط والتدريب، أما الرئاسة العليا فيجب أن تكون لواحد من العلماء الشرعيين.

الشيخ عبد القوي مؤيدًا:

ـ هذا ضروري حتى تكون حركتنا مضبوطة بالضوابط الشرعية.

سليم جاهين هامسًا كأنه يفشي سرًّا:

ـ الإخوة في مصر يرون الشيخ «رفاعي سرور» مناسبًا لهذه المهمة.

فسأله الشيخ عبد القوي مستنكرًا:

ـ ومَن هو الشيخ رفاعي سرور؟

ـ صاحب كتاب «أصحاب الأخدود» وغيره من المباحث المهمة للحركة الإسلامية.

ـ اسمع يا أخي، مع تقديرنا لكل المساهمات الفكرية للحركة لكننا الآن نحتاج لعالِم شرعي كما قال الأخ أبو حذيفة، فنحن مقدِمون على تحرك ستكون فيه مسائل تتعلق بالدماء والأموال مما يحتاج إلى استفتاء فقيه معتبر عالِم بأمور الحلال والحرام والضرورة وإلا تاهت سفينتنا وخسرنا الدنيا والآخرة والعياذ بالله.

صاح عثمان عبد الكريم كمَن وجد مخرجًا:

ـ ما رأيكم في الشيخ «عمر عبد الرحمن»؟

فقال الشيخ عبد القوي بارتياح:

ـ نِعم العالِم الفقيه، أظنه أنسب مَن يتحمل هذه المسؤولية.

وقال الحسن شلبي بنبرة فرح:

ـ إذا أصبحت رئاسة مجلس الشورى للشيخ عمر فأنا أول الموافقين على دمج الجماعتين.

تساءل إسماعيل وهو يقطب جبينه محاولًا التذكر:

ـ أليس الشيخ عمر عبد الرحمن هو صاحب فتوى عدم جواز الصلاة على الهالك عبد الناصر؟

ـ نعم، وهو عالِم كبير وأستاذ في جامعة الأزهر، ومن أقوى الأصوات التي عارضت عبد الناصر ثم السادات وتعرض للاعتقال، لكنه لم يهتز وأخذ يدعو في كل مكان، وعندما يلقي محاضراته في جامعة أسيوط يحتشد لها الناس من الصعيد كله.

قال سليم جاهين بلهجة عكست رضًا لحد الابتهاج:
ـ سمعت بعض دروسه على شرائط كاسيت كان يعارض فيها «كامب ديفيد» ويدعو للجهاد في سبيل الله وقتال اليهود.
فقال عثمان ولمَّا تزايله حماسته:
ـ لقد سافر الشيخ للسعودية هربًا من الاضطهاد، ولما عاد أحضر معه جهازًا حديثًا لطباعة شرائط الكاسيت ليتمكن من نشر محاضراته في كل مكان.
هز إسماعيل رأسه جذلًا وهو يقول:
ـ عظيم جدًّا، هذا بالضبط ما فعله «الإمام الخميني» لحشد الجماهير الإيرانية لتأييد الثورة الإسلامية.
وأضاف سليم جاهين:
ـ مع الانتشار الكبير للأمية تصبح التسجيلات أمرًا مهمًّا...
ثم مستطردًا بلهجة ذات معنى:
ـ أعتقد أن الشيخ مُلم بالواقع، وهذا من أهم شروط العلماء المجاهدين.
فتمتم شوقي صابر بنبرة عكست نوعًا من الاعتراض:
ـ لكن الشيخ ضرير ونحن نتحدث عن قيادة عُليا للجماعة، فهل ولاية الضرير تصلح من الناحية الشرعية؟
شوَّح إسماعيل بيده قائلًا:
ـ نحن في حاجة لقائد شرعي ومفتٍ فقيه، أما القيادة الميدانية فستكون كما قلت لأحد العسكريين لكونهم الأصلح للأعمال التنظيمية والقتالية.

وخاطب سليم جاهين شوقي ضاحكًا:

ـ لا تنسَ أن الشيخ فقيه، لذا فإن سؤالك هذا سيكون أول ما نستفتيه فيه...

ثم بلهجة مغايرة:

ـ هذا بالطبع إن وافقت قيادتنا على المبدأ.

فسأل إسماعيل عثمان في محاولة لحسم الموضوع:

ـ هل بإمكانك أن تهيئ لنا لقاء مع الشيخ عمر قبل عودتنا للقاهرة؟

فالتفت عثمان لأحد الشباب متسائلًا بدوره:

ـ أيمكن أن ترتب لنا لقاء مع الشيخ في بني سويف؟

أومأ الشاب برأسه متمتمًا:

ـ أفعل إن شاء الله.

فقال إسماعيل وهو يفرك يديه بقوة علامة الظفر والْتماسًا للدفء من صقيع السَّحَر:

ـ عظيم، إذًا حاوِل أن يكون موعد اللقاء بعد صلاة الجمعة القادمة حتى نمر على بني سويف ونحن في طريقنا للقاهرة.

(٤)

بين يوم وليلة تتغير الدنيا وتتبدل أحوال البشر.

تؤوب الروح من غربتها حين تلقى روحًا أخرى تشبهها، كأنما كانت تبحث عنها لتُكمل نقصها.. طول الزمن.. مذ هبطا معًا من

عالم الذر ثم تفرقا وتاه كلٌّ في عالمه.. يلتقيان ليعاودا الرحيل معًا إلى غربة لا أَوْبَة منها.

هل بإمكانه أن ينسى ذلك اليوم؟

سيبقى محفورًا في أخاديد عقله وثنايا روحه، رغم أحداث كبار ستغدو به وتروح وتزلزل العالم من حوله، لكن ذلك اليوم يظل قائمًا كجدار صلد يفصل بين ما مضى وما هو آتٍ.

الجمعة ١٥ مايو ١٩٨١

كان نائمًا حين طرقت مارتينا الباب، كان الوقت مبكرًا لا يزال، وجاءت هي من غرفتها المقابِلة لغرفته في سكن الطلبة تبحث عن مبيض للقهوة بعدما نفد ما عندها وهي تستعد للحاق بمحاضرة صباحية.

ما الذي حدث؟ ولِمَ اهتاج جسده وقد جاءت مرات ومرات وذهب عندها دون أن تحرك فيه شهوة، جميلة؟ نعم، لكنه لم يعبأ بذلك من قبل، هل كانت صباح اليوم أكثر جمالًا؟ هل تعمدت إثارته؟ هل تلك اللحظات بين النوم واليقظة هي أضعف حالات الرجل أو أشهاها كما قالت وهي تعبث بشعره؟

اقتربت منه وداعبته ثم تسللت بشفتيها إلى فمه وهو شبه نائم، لِمَ استغرق في قُبلتها؟ ولماذا ضمها إلى صدره وارتشف شفتيها بقوة؟ ولِمَ حدث له ما حدث بعدما غادرته مبتهجة على وعد بلقاء في المساء؟

مصطفى رءوف الملا.. أيها الشاب التائه بين هويتيك، الخفية.. الغائرة.. الموجعة، والصريحة المعلنة، الضائع في دهاليز صراع

إنساني يتمدد فوق صحائف التاريخ.. ظالم ومظلوم.. قاتل ومقتول.. غالب ومغلوب، المتسكع على نواصي المستقبل لم تحدد معالم طريقك حتى بلغت الخامسة والعشرين، يا مَن عاهدت نفسك مذ كنت صغيرًا ألا تكرر خطيئة أبيك في الارتباط بأجنبية، يا مَن تعلقت وأنت في الرابعة عشرة تعاني مما يعانيه الوالجون للمجهول بابنة عمتك التي تخطت العشرين، كنت تأنس لها وربما شجعتك هي على الاقتراب منها، لكن الأمر لم يجاوز أحلام يقظة ومشاعر دافئة وبعض مداعبات عابثة، ثم تزوجت وأعطتك بنفسها علبة الملبس الفضية.

وعزة؟ كان إسماعيل دومًا هناك.. ملاعب الطفولة وأصدقاء العمر منذ عودتك المبكرة لوطنك الأصلي «مصر»، ثم صرختها المذعورة وقد أوشكت سيارة مسرعة أن تصدمكما معًا: إسماعيييييل!

لكنك كنت أكثر منها استجابة لنصائحه: صيام رمضان والصلاة في وقتها، وكان هناك نهر الحنان.. تانت حكمت.. تمنيت لو أنها كانت أمك.. بولا وحكمت.. شتان!

لكن الأبله لم يدرك أن عزة أنصع تجلياتها، ثم لم يدرك بعدُ كثيرًا من الأشياء، وبقي القلب مغلقًا على صورتها وإن كانت العيون تستعذب الجمال أينما كان والجسد تتأجج نيرانه وهو يتنقل في طرقات موطن العشق والجمال «باريس».

سرعان ما اغتسل وصلى ركعتين، ثم قضى صباحه في القاعة الرئيسية لمكتبة السوربون، حاول التركيز فيما يقرأ، نسخ فقرات من كتاب، ثم أخذ يتأمل جداريات القاعة برسومها الكلاسيكية وألوانها

المبهرة.. الفنون الجميلة.. مارتينا.. ضغط بقدمه على الأرض كمَن يضغط على كابح سيارة.

وجد نفسه يتسكع في شارع «كوجاس»، كان الجو نقيًّا منعشًا والشمس مشرقة والزهور تبسم بإبداعاتها اللونية في كل الوجوه.

وضع يديه في جيبَي السويتر وأخذ يصفر وقد أنعشه الهواء الطازج المُحمَّل بلمسات شعاع رقيق.

سار على غير هدًى حتى وجد نفسه وقد اجتاز شارع «موفتار» بأكمله، كانت الساعة قد جاوزت الواحدة ظهرًا وقرصه الجوع.

أخرج من جيبه بون وجبة المطعم الجامعي، نظر فيه ثم أعاده لجيبه ومضى في طريقه كما لو أن هناك قوة خفية تدفعه نحو شارع «جورج دوبلا»، من بعيد لاحت القباب الخضراء المميزة، وكلما اقترب اتضحت تفاصيل زخارف الفُسيفساء الملونة الشبيهة بزخارف مساجد قرطبة...

جامع باريس الكبير.

لم يكن قد صلى الجمعة منذ غادر مصر قبل سنوات اكتفاء بصلاة الظهر التي حان وقتها الآن وقد قاربت الساعة الثانية.

لم ينصرف بعد الصلاة حتى خلا المسجد من المصلين، جلس مسترخيًا فوق البساط وقد ذهب عنه الجوع وداخَلَه شعور بالارتياح رغم رتابة الخطبة التي لم تختلف كثيرًا عن خطب مساجد الأوقاف المصرية، باستثناء لكنة الخطيب الجزائرية.

ما كُنه تلك القوة التي دفعته للانتظار كأنما كانا على موعد؟ وما سر تأثير الصوت البشري في وجدان البشر؟ يبدو أحيانًا كما لو كان نداءً سماويًّا يهتف بالغرباء ليُقبلوا، وها قد أقبل.

اقترب تدفعه يد خفية ليزحف من مكانه حتى أصبح على بُعد خطوات من مصدر الصوت السماوي العذب.

جلس الشاب يتلو القرآن وقد أمسك في يده مصحفًا صغيرًا لم ينظر فيه تقريبًا طوال تلاوته، كان شابًّا أسمر اللون، قليل الحجم، دقيق الملامح، ذا شعر أسود مجعد ولحية قصيرة، وصوت لم يسمع له مثيلًا، وتلاوة تختلف تمامًا عما اعتاد سماعه من المقرئين المصريين، فأحس كأنه يسمع القرآن للمرة الأولى في حياته.

كان الفتى يتلو آيات «قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى...».

أتُراه بالفعل كان يسمع القرآن للمرة الأولى في حياته؟

ما إن انتهى من دعائه الهامس عقب التلاوة ومسح وجهه بكفيه وهمَّ بالنهوض، حتى عدل مصطفى وضعه ليصير في مواجهته.

نظر إليه الشاب وابتسم بترحيب المتوقع، فعاجله مصطفى:

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

ـ تلاوتك جميلة جدًّا.

ـ إليك الشكر.

ـ يبدو أنك تحفظ القرآن.

ـ الحمد لله توجد جزوء حافظة عندي.

كان يتحدث بلكنة غريبة وبدا كما لو كان لا يتقن العربية، فسأله مصطفى:

ـ جزائري؟

ـ لا، أنا فرنسي لكن في الأصيل أنا من المغرب.

كتم مصطفى ضحكة كادت تفلت منه وهو يستمع لهذا المغربي الذي لا يعرف العربية، لكنه كان ممتلئًا لا يزال بنبراته الشجية وهو يتلو آيات عربية، رغب بشدة في الاقتراب منه أكثر فسأله:

ـ هل تدرس هنا؟

ـ أنهيت دراستي وأعمل عند «إكولة»...

صمت لحظة قبل أن يسأله:

ـ هل تعرف الفرنسية؟

ـ نعم.

كأنما شعر الآخر براحة، فانطلق يتحدث الفرنسية بلكنة باريسية غير مشوبة:

ـ أنا مدرس فيزياء في الثانوي، آسف لأني مضطر للحديث معك بالفرنسية فلا أستطيع التعبير جيدًا بالعربية.

ارتفع حاجبا مصطفى دهشة، وقال وهو يشد جلد رقبته:

ـ لكنك كنت تقرأ العربية منذ قليل.

ـ لا بد من تلاوة القرآن الشريف بالعربية وهذا مَنحني مفردات لغوية كثيرة فأصبحت أفهم جيدًا مَن يتحدثون العربية أمامي، لكن مشكلتي أني لا أُحسن تكوين الجملة العربية لذا لا أستطيع التعبير بها بشكل جيد.

ضحك مصطفى بتلقائية، ثم قال:

ـ غريب ألا يُحسن عربي التحدث بالعربية، ربما أنت تعيش في فرنسا منذ زمن طويل؟

أجابه الشاب وقد تغير وجهه:

ـ أنا فرنسي المولد وعشت في فرنسا طوال عمري.

ـ لكنك عربي الأصل كما قلت لي.

ـ لم أقل إني عربي.

ـ آسف، اعتقدت أنك قلت إنك مغربي.

ـ أنا فعلًا مغربي الأصل لكني لست عربيًّا، فوالداي أمازيغيان هاجرا لفرنسا قبل ولادتي.

ـ أمازيغيان؟

ـ نعم، بربر كما يطلقون علينا هنا وأيضًا عندكم في المشرق، أنت لبناني أليس كذلك؟

دفع مصطفى خصلات شعره القصيرة للخلف، وقال وهو يضغط بقوة على الحروف:

ـ أنا مصري.

ـ أوه، مصر أم الدنيا!

قالها بالعربية وهو يضحك، فابتسم مصطفى وهمَّ بالعودة إلى المسألة التي حيرته، وكأن الفتى قرأ ما يدور بخَلَده فعاجله:

ـ أنتم المشارقة تعتقدون أن المغاربة كلهم عرب مع أنهم خليط من العرب والبربر الذين هم أهل البلاد الأصليون.

فقال مصطفى وقد جذبه كالعادة حديث الهويات:

ـ أعرف هذا، فأنا طالب تاريخ في السوربون، وتاريخ المغرب العربي كان جزءًا من برنامجنا الدراسي بجامعة القاهرة.

خالطت نبراته الحِدة والسخرية معًا وهو يقول:

ـ المغرب العربي! طبعًا فأنتم المصريين قررتم أن تكون جميع البلاد حولكم عربية شاء أهلها أم أبوا، ألستم صُناع القومية العربية والوطن العربي من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر لبيك عبد الناصر؟!

قال الجملة الأخيرة بالعربية محاولًا تقليد اللكنة المصرية وهو يضحك فخفف ذلك من حِدة المناقشة، والحقيقة أن مصطفى لم يتحمس قط لفكرة القومية العربية، كان يريد فقط أن يؤكد مصريته.. بفرعونيتها.. بعروبتها.. بإسلامها، لا يهم، المهم أنه مصري له انتماء واحد.. أما هذا الرجل ذو اللحية القصيرة والسمت الإسلامي والتلاوة السماوية فغريب حرصه على التبرؤ من العروبة كأنها داء.

كان الشاب قد بدأ يصلح هندامه ويتحرك استعدادًا للنهوض، فقام مصطفى وصافحه مبتسمًا وهو يقول:

ـ اسمي مصطفى رءوف.

ـ وأنا نور الدين بوتبان.

ـ هل تصلي الجمعة هنا باستمرار؟

ـ أحيانًا، أسعدَتني معرفتك، نلتقي الجمعة المقبلة بإذن الله.

وهو يخرج من رواق الجامع لمح رفيقة اللوكسمبورج واقفة على محطة الأتوبيس في الاتجاه المقابل.. كانت نهى الزيني بالتأكيد.. أسرع نحوها عابرًا نهر الطريق لكن السيارة التي استقلتها كانت قد

تحركت بالفعل قبل وصوله.. همَّ بالعدو خلفها فتلاقت أعينهما وهي تستدير لتجلس في المقعد الخلفي.

خُيل إليه أنها أومأت له برأسها وأن وجهها امتلأ بابتسامة واسعة.

❋ ❋ ❋

في الجمعة التالية وصل الجامع قبل الثانية عشرة، لم يكن هناك سوى العمال يجففون الأرض المغسولة ويعيدون ترتيب الأبسطة.

تنقل بين مصلى الرجال ومصلى النساء ينظر من بعيد علَّه يعثر عليها.

استمع عقب الصلاة إلى تلاوة سماوية تنسكب بحروف عربية فصحى من شفاه تجحد انتماءها العربي.

كان أثناء تجواله في الجامع قبل موعد الصلاة قد لمح المقهى الشرقي الملحق به، فدعاه لتناول مشروب بغية توطيد معرفتهما، ولما أخذا مكانيهما حول طاولة صغيرة مستديرة طلب نور الدين شايًا أخضر فطلب مصطفى مثله.

جاء النادل بالشاي في أكوابه الزجاجية الصغيرة المذهبة بنقوش مغاربية، ولما ارتشف مصطفى الرشفة الأولى صاح معبرًا عن إعجابه بالنكهة المميزة:

ـ الله! إنه بالنعناع...

ثم متخابثًا:

ـ لعله حنينك لنكهة الشاي العربي.

رفع نور الدين كتفيه استهانة، وقال وهو يومئ بطرف ذقنه تجاه طاولة بعيدة:

ـ الفرنسيون أيضًا مغرمون بالشاي الأخضر المغربي وليس العربي، انظر هناك.

كانت الطاولات حولهما قد امتلأت بالزبائن، أكثرهم فرنسيون من الجنسين، فبدا المقهى من هذه الناحية كسائر مقاهي باريس وإن أَضْفَتْ ديكوراته المغاربية ونادله الجزائري وشايه الأخضر الشفاف في أكوابه الخاصة طابعًا مميزًا ينقل مَن يدخله إلى عالم شمال أفريقي، لعل هذا سِر ولع الفرنسيين به.

أثار نور الدين شغف مصطفى بمعرفة ما يدفع مغربيًّا للإصرار على التمسك بهوية فرنسية طارئة ولا شك، فسأله دون مقدمات:

ـ ألم تذهب إلى المغرب أبدًا؟

أجابه الفتى باستنكار:

ـ بلى! أذهب سنويًّا تقريبًا فلي ثلاث شقيقات تزوجن هناك، كما أحب أن أزور باقي عائلتي، خصوصًا بعد وفاة والديَّ رحمهما الله.

تنهد مصطفى وهو يقول بلهجة شابَها الحنين:

ـ ما أجمل العودة للوطن حتى لو قضى الإنسان عمره كله في بلاد غريبة!

فقال نور الدين بحسم وهو يضع كوبه الفارغ على الطاولة:

ـ لكني لست في بلاد غريبة، فأنا فرنسي ولدت وعشت هنا وتزوجت فرنسية أيضًا.

صاح مصطفى كمَن بُوغت:

ـ عجيب!

ـ وما العجب في ذلك؟

ـ لا أبدًا لم أقصد، ربما تَديُّنك جعلني لا أتوقع أن تكون زوجتك أجنبية.

فقال نور الدين بهدوء:

ـ لكنها ليست أجنبية فكلانا فرنسي، ثم بفرض أنها أجنبية فما المشكلة؟

ـ لا مشكلة طبعًا، أنا نفسي أبي مصري وأمي إيطالية.

ـ أوه، حقًّا؟ يبدو ذلك بالفعل.

أزاح مصطفى شعره للخلف بحركة تلقائية وهو يسأله:

ـ كيف يبدو ذلك؟

ـ أعني أن ملامحك تكشف عن دماء أوروبية تسري في عروقك.

امتقع وجه مصطفى، واستطرد نور قائلًا:

ـ ابني الصغير مثلك، له ملامح مغربية لكنه أشقر وعيناه زرقاوان.

جاهد مصطفى نفسه على الابتسام وهو يسأله مجامِلًا:

ـ صحيح، ما اسمه؟

ـ أمناي.

ـ أمناي؟

ـ اسم أمازيغي معناه الفارس، اخترناه لأنه سهل النطق بالنسبة لأمه.

تمتم مصطفى بصوت هامس:

ـ ليس بول على أية حال.

ـ ماذا؟

ـ لا شيء، وكم عمر الفارس الصغير؟
ـ ثلاث سنوات، فقد تزوجنا أنا وأمه منذ أربع سنوات، وننتظر مولودًا جديدًا.
ابتسم مصطفى بود، فقال نور الدين وهو يهم بالقيام:
ـ ما رأيك أن تزورنا الأحد المقبل لتتعرف على عائلتي الصغيرة؟
ـ بكل سرور.
ـ أسكن في ضاحية «سان دوني»، إليك العنوان.

* * *

في أحد شوارع الضاحية الفقيرة بشمال باريس، والتي تضم تجمعًا كبيرًا للمهاجرين من الشمال الأفريقي وأفريقيا الفرانكفونية وبعض الطلبة والعمال من جنسيات أخرى كالشوام والأتراك والمصريين، يقطن نور الدين بوتبان مدرس الفيزياء وأحد سبعة أبناء لمهاجر فقير من جبالة الريف المغربي، عمل في كل شيء حتى تمكن من المشاركة في دكان لتجارة الفاكهة بالحي ذاته الذي نشأ فيه نور الدين ولم يغادره حتى الآن.

عمل كأبيه في كل الأعمال اليدوية.. غسل الصحون في المطاعم، تنظيف المستشفيات، حراسة العقارات ليلًا، بيع الزهور في الأسواق المتنقلة، وقلي الكريب على العربات الزجاجية في الحي اللاتيني، حتى تمكن من إتمام تخصصه الجامعي في الفيزياء، ثم استقر به الحال مُعلمًا بإحدى مدارس الحي الثامن عشر.

بدا مصطفى متلذذًا بقطعة الفطير الساخن في فمه، محاولًا استنتاج سر نكهتها المميزة.

كانوا يجلسون في إحدى الغرفتين اللتين تُكوِّنان ـ مع حمام وركن

للطهي ـ الاستديو الذي تقطنه عائلة نور الدين في إحدى البنايات القريبة من «كاتدرائية سان دوني».

سرعان ما تعلق أمناي بمصطفى كأن شفافية طفولته كشفت له ما بينهما من تشابه، أما الأخير فقد كان عشقه للأطفال كفيلًا بصنع هذه الجاذبية التي تدفعهم تجاهه دومًا، لذا أصر الصغير على الجلوس ملتصقًا به فوق الكنبة السرير أسفل النافذة المفتوحة، فيما جلس نور الدين وزوجته على مقعدين مقابلين.

قال مصطفى موجهًا كلامه لكلودين:

ـ هذه الفطائر لا يشبه طعمها أي شيء آخر ذُقته من قبل.

أجابته:

ـ إنها فطائر بربرية تعلمت صنعتها في المغرب.

نور الدين ضاحكًا:

ـ في كل مرة نذهب إلى تطوان تعود كلودين بوصفات جديدة تتعلمها من نساء العائلة هناك.

بولا تيزوني، صانعة الفطائر في محل بيع الخمور، وزوجة ابن العالم الأزهري.

نظر إليها وهي جالسة أمامه، مرتدية ثوبًا طويلًا فضفاضًا من اللون الرمادي الفاتح وإيشاربًا أبيض كبيرًا عقدته أسفل ذقنها وتركت طرفيه منسدلين فوق صدرها، بدت بجمالها المترفع وسمتها الرصين وعينيها الواسعتين الصافيتين كبحر أزرق عميق، وبملامحها الرقيقة الهادئة المستسلمة لمشيئة الرب نسخة مكررة من تمثال العذراء العطوف «بييتا» في كنيسة «سان بترو».

نام أمناي بجواره، فقامت كلودين لتحمله وتذهب به للغرفة الأخرى، فتابعهما بعينيه ومشاعر متضاربة تموج بداخله، بين لذعة حرمان ناشبة في الأعماق من قديم الزمن وراحة مبهمة، بين غربة وانتماء، بين حيرة واطمئنان.

انتظر حتى أغلقت باب الغرفة الداخلية، ثم التفت لنور الدين قائلًا:

ـ يبدو أن لك تأثيرًا كبيرًا في الآخرين حتى استطعت إقناع سيدة فرنسية بارتداء الحجاب.

أجابه مبتسمًا:

ـ أنت يا عزيزي تخلط كثيرًا بين الأمور، فكلودين لم ترتدِ الحجاب لأنها تأثرت بي أو تزوجتني، وإنما لأنها أصبحت مسلمة.

سأله مصطفى:

ـ تقصد أنك تزوجتها وهي مسلمة؟

ـ نعم وكانت محجبة أيضًا...

ثم وهو يضحك:

ـ لشد ما كانت قبل ذلك تكره الإسلام وتحتقر المسلمين، ولا تتصور أن امرأة حرة عاقلة ترضى بأن تغطي جسدها بالكامل بهذا الشكل.

بانت على وجه مصطفى علامات الشغف وأومأ برأسه يحثه على الإفضاء بالمزيد، فقال الآخر:

ـ لي صديق من أصل تركي، ابن شريك والدي، وقد نشأنا معًا منذ الصغر فلم نفترق أبدًا، وهو يعمل طبيبًا بأحد المستشفيات، وهناك التقى ممرضة وقعت في غرامه فدفعها ذلك لمحاولة

التعرف على عالمه وعلى الدين الذي ينتمي له، فقرأت في الإسلام وسألت وتعمقت حتى اهتدت للإيمان والتزمت بجميع الفروض، ثم أخذت تحثه هو على معرفة حقائق دينه فكانت تهدي له الكتب الإسلامية المتاحة بالفرنسية والتي قرأناها معًا، ما أدى إلى معرفتنا بديننا فاكتشفنا أننا لم نكن ننتمي له قبل ذلك إلا بالاسم فقط.

تمتم مصطفى:

ـ عجيب!

فاستطرد نور:

ـ وهي مَن أرشدنا إلى المركز الإسلامي في الجامع الكبير، ويوم ذهبنا معها لكي تشهر إسلامها هناك قبل زواجها من آدم كنا نشعر أنا وهو أننا ندخل بدورنا في هذا الدين العظيم، وأننا نولد من جديد.

صمت برهة قبل أن يقول بصوت أقرب للهمس:

ـ هذه الممرضة هي ميشيل شقيقة كلودين، التي ما إن علمت بإسلامها حتى هاجت وماجت واتهمتها بالجنون وانضمت إلى والديهما في الإساءة لها ومقاطعتها، لكن ثبات ميشيل على دينها وحب كلودين لها جعلهما يعاودان الاتصال حتى أقنعتها بأن تقرأ عن الإسلام ولها بعد ذلك كامل الحرية في الاختيار، وفي هذه الفترة تعرفتُ على كلودين وأحببتها وكنت واثقًا أنها ستختار الطريق الصحيح، وبالفعل سرعان ما أعلنت إسلامها والتزمت بكل الفروض وبالرداء الشرعي، وأصبح همها إقناع

والديها بالتحول للإسلام، لكنهما ما زالا على عنادهما حتى اليوم.

تنهد مصطفى وهو يقول:

ـ هذا ما يجب أن يكون، أما الزواج بأجنبية غير مسلمة لمجرد الإعجاب بجمالها فهو ما يسبب تشتت الأسرة بعد ذلك.

قال نور الدين وقد أدرك ما وراء كلمات مصطفى:

ـ هذا ما كان يمكن أن يحدث لي لولا أنْ هَدَى الله القديسة ميشيل للإسلام...

ثم مستدركًا:

ـ نحن نطلق عليها لقب القديسة لأنها مَن أرشدنا بفضل الله للطريق المستقيم، وهي أيضًا مَن عرفنا على زياد سعادة.

زمَّ مصطفى حاجبيه وهز رأسه برفق علامة التساؤل عن صاحب الاسم، فقال نور الدين:

ـ هو طبيب سوري يقيم في باريس منذ أكثر من عشرين عامًا، ولديه عِلْم إسلامي كبير، لذا نعتبره قائدًا ومُعلمًا لنا، ونلتقي معه بشكل دوري لحفظ القرآن الشريف ودراسة السنة المطهرة والتفسير.

قال مصطفى وهو يعبث بجلد رقبته متفكرًا:

ـ لعل «سانت ميشيل» تحل يومًا محل فتاة «أوجين دولاكروا» عارية الثديين، لتقود بدلًا منها ثورة المحرومين.

صاح نور الدين بحماس، وقد أعجبته المقابلة بين المرأتين:

ـ سيحدث هذا حتمًا يا أخي، فالإسلام هو ثورة الحرية الحقيقية، بل هو الإعلان العالمي لتحرير الإنسانية كما يقول زياد سعادة.

ـ لقد شوقتني للتعرف على صاحب هذه الأفكار المبدعة.

فقال نور مشجعًا:

ـ إذًا تعالَ لصلاة الجمعة معنا في المسجد الذي يُلقي فيه الرجل دروسه وسأصف لك العنوان.

مصطفى متعجبًا:

ـ لكنك تصلي الجمعة في الجامع الكبير.

ـ ليس دائمًا يا عزيزي.

ـ إذًا فقد كانت مصادفة سعيدة أن نلتقي هناك في ذلك اليوم.

فقال نور الدين بلهجة ذات معنى:

ـ ليس بإمكان الصياد أن يحصل على السمك إذا لم يذهب إلى البحر.

* * *

كان الدكتور زياد يقول:

ـ عندما يبلغ الصبي الثالثة عشرة يقيمون له حفلًا للبلوغ «بار ميتسفا» يتعهد فيه أمام الجميع باحترام الشريعة، وبأن تكون كل أعمال حياته القادمة من أجل رفعة إسرائيل.

فسأله آدم:

ـ تقصد إسرائيل الدولة؟

ـ بل إسرائيل الأمة، شعب إسرائيل، أما الدولة المحتلة لفلسطين فهي مجرد رمز صغير لسيطرتهم على العالم.

كانوا يقفون في الشرفة المطلة على المعبد اليهودي، يرقبون خروج المصلين شبابًا وعجائز وأطفالًا لا يزيد عمر بعضهم على

الخامسة، وجميعهم ـ كبارًا وصغارًا ـ يضعون فوق رؤوسهم طاقية الكيباه المنسوجة بزخارف أنيقة تتوسطها نجمة داود.

يقطن زياد سعادة في شقة فسيحة بإحدى بنايات ممر «مارسيل سيردان» تطل على المدخل الأمامي لمعبد «ماسي» الكبير، وتتميز «ضاحية ماسي» في جنوب باريس بالجمال وبالهدوء وبنقاء جوها وباتساع طرقاتها، مع انتشار المساحات الخضراء والبحيرات الصناعية والبنايات الأنيقة متناسقة المعمار، مثلها في ذلك مثل سائر الضواحي التي طالها التخطيط العمراني الحديث نسبيًّا بعيدًا عن قلب باريس الصاخب المزدحم، مما شجع كثيرًا من أبناء الطبقة الوسطى على الانتقال للسكن بها، خاصة مع توافر وسائل المواصلات التي تسير على طرقات ممهدة كالحرير، شُقت وسط المروج الخضراء المترامية على مد البصر.

لم يشأ مصطفى في أول زيارة له لبيت زياد أن يضيع وقتًا، فاستقل مبكرًا قطار الأنفاق السريع وكان بالفعل أول مَن وصل، تبعه نور وكلودين مع آدم وميشيل، وأخيرًا وصل الشاب التونسي عرفة قادمًا من حي «بارباس» حيث يعمل ويقطن في غرفة مشتركة مع بعض المهاجرين من شمال أفريقيا، بينما تقيم زوجته ورضيعها في بيت زياد سعادة.

كان مصطفى قد تعرف على الجميع في مسجد عقبة بن نافع القريب من «بارباس»، وهو مسجد صغير بمئذنة قصيرة أقرب لأن تكون مجرد علامة رمزية تشير إلى أن هذه الحجرة المستطيلة هي دار عبادة للمسلمين.

لكن زياد سعادة كان هناك، بهيبته وسطوته وكاريزماه الطاغية وتدفق حديثه بعلم موسوعي وافر وفكر عميق وجدة حديث عن الإسلام...

إسلام أوروبي.. عالمي.. ثوري.. يحطم التابوهات المتكلسة ويقفز كفرس أصيل متخطيًا الحواجز التقليدية الرتيبة.

هكذا كان مصطفى يفكر وهو يستمع إلى الرجل الذي جاوز منتصف أربعينياته متنقلًا عبر حركات تحرر وطني وفكر عروبي وحدوي وانتماء بعثي اشتراكي، حتى وقف يومًا يسأل نفسه: هل كان «ميشيل عفلق» وهو يصيغ شعار البعث «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة» يقصد «رسالة الإسلام»؟ ربما! أما زياد سعادة فقد أوغل بكُليته في الطريق، ثم لحق به، بعد سنوات طويلة وتساؤلات حائرة عديدة، مصطفى رءوف الباحث دومًا عن طريق لسعادة البشرية.

لم تروِ إجابات عمه القاضي المتدين - على عكس أبيه - ولا مطالعاته في مؤلفات جده الأزهري عطش أسئلته، كان يردد بينه وبين نفسه: «ما هذا الفكر الديني الخامل الكسول الذي يزين الكتب ويمنح أصحابه وجاهة اجتماعية دون أن يتحرك ليُغير أي شيء في واقع الناس؟».

وقد ترددت في جنبات بيت جاره ورفيق صِباه آيات القرآن الكريم، وأدعية الهلاك على الظالمين، وحكايات لا تنتهي عن عذابات المعتقلين وصلابة المجاهدين، وإسماعيل يحدثه صغيرًا عن «مجد الإخوان»، وكبيرًا عن «خيبة الإخوان»، ثم ينغلق كصندوق أسود ويتوارى عنه كغريب.

أما زياد سعادة فقد كان يقول وهم يدلفون من الشرفة إلى غرفة الجلوس:

ـ هم حريصون على أن تكون «كيباه» الأطفال مزخرفة بشكل مبهج كي يعلموهم منذ الصغر أن وضع هذا الشيء الجميل فوق رؤوسهم معناه أن الشريعة تعلو الرؤوس، وأنهم خاضعون لها وملزمون بها في كل جوانب حياتهم.

فقال عرفة بنبرة قاتمة:

ـ أين هذا من تفلت زعمائنا من المطالبة بحكم الشريعة ورضاهم بالتحالف مع النظام البورقيبي المجرم.

اكتملت جلسة السبت الصباحية بانضمام النساء، بعدما شاركن في إعداد إفطار عكست أصنافه المنوعة مهارة دمشقية لا تخطئها عين ولا شهية أثارتها نسائم الصباح العليل.

جلسوا في الغرفة الفسيحة، بعدما انضمت لهم ميشيل وشقيقتها كلودين، ونوال زوجة عرفة، وعائشة ابنة زياد وهي طالبة جامعية في العشرين أجبر جمالها الصارخ ـ رغم حجابها السادل الفضفاض ـ الشباب على غض أبصارهم وتحاشي النظر تجاه الركن الذي جلست فيه بجوار حامل كتب من الزجاج والفرفورجيه، يفصل على نحو رمزي بين مجلسَي النساء والرجال، بينما بقيت زوجة زياد في الجناح الداخلي مع أبنائها الصغار وأطفال ضيفاتها.

قالت نوال مُعلقة على كلام زوجها، وهي تضع إبريق الشاي على منضدة جانبية صغيرة:

ـ مُحير والله أمر الأخ راشد، فكيف يأمن لبورقيبة بعد كل ما فعله بنا من اعتقالات وتشريد خارج بلدنا؟!

فصاح عرفة غاضبًا:

ـ ليس هو وحده، حتى الإخوة «عبد الفتاح مورو» و«بن عيسى الدمني» والآخرون لا يدركون أنهم بموافقتهم على حل الجماعة والانضمام للحياة الحزبية إنما يُسلمون رقابهم للطاغية.

تساءل نور الدين متهكمًا:

ـ هل توجد في تونس حياة حزبية؟

فضرب عرفة الهواء بظهر يده تعبيرًا عن اليأس، وسأل زياد:

ـ هل قرأت يا دكتور البيان التأسيسي لما أطلقوا عليه «حركة الاتجاه الإسلامي»؟

ـ أعطتني إياه الأخت نوال ولم أرَ فيه جديدًا، فالحركات الإسلامية في المنطقة كلها تُعيد سلسلة أخطائها بلا ملل، ما بين مهادنة للحكام تنتهي بضربة إجهاضية أو الدخول في صراع صفري معهم بغير أدوات، حتى أصبحوا مثل البطل القدَري في الميثولوجيا الإغريقية يسير نحو حتفه رغم علمه بالمصير المأساوي الذي ينتظره في نهاية الطريق.

فقالت نوال وهي تضحك بمرارة:

ـ وهل غادرنا القدَر البورقيبي حتى نسير نحوه من جديد؟ نحن ما زلنا غاطسين فيه لآذاننا ولا نعرف أي مصير كان ينتظرنا بعد هروبنا من تونس، لولا استقبالكم لنا وإيواؤنا في بيوتكم.

تمتم زياد وهو يخلل خصلات شعره الفاحم بأنامله الطويلة:

ـ لا ترددي هذا القول يا ابنتي، أنتم هنا في بيتكم.

قال عرفة بامتنان:

ـ جزاكم الله خيرًا...

ثم بنبرة غاضبة:

ـ المشكلة أن «راشد الغنوشي» نفسه كان ينتقد موقف الإمام «حسن البنا» لترشحه في البرلمان في الأربعينيات، وكان يردد دائمًا أن الديمقراطية في بلادنا ما هي إلا أداة لتخدير الشعوب كيلا تثور على حكامها المستبدين.

رن جرس الهاتف، فقامت عائشة لترد.

كان الهاتف موضوعًا على طاولة خاصة في مرمى بصره، اضطرب وهو يستمع لنبرات صوتها تتحدث ثم تدعو أباها للرد على مكالمة المستشفى، وفي عودتها التقت أعينهما فتورد وجهها البارز كقمر مكتمل.

شعر بفورة ساخنة تصعد إلى رأسه وبخفقة مؤلمة في صدره.. ما هذا؟ لم يداهمه شعور كهذا من قبل، حتى عندما كان يرقب عزة ويسعده خطوها نحوه وتسره صحبتها ومشاغباتها.. ما بالك تبدو اليوم كرجل يلقى امرأة للمرة الأولى في حياته؟ وكأنما الكون من حوله ساكن صامت إلا من حفيف ثوبها وهي عائدة إلى مقعدها ثم وهي تجلس.

اضطربت أنفاسه فلم تهدأ حتى عاد زياد إلى مجلسهم ليقول معلقًا على كلام عرفة:

ـ الديمقراطية والثورة في بلادنا تؤديان للنتيجة نفسها...

فقاطعته ميشيل قائلة بيقين:

ـ لكن ثورات الشعوب بإمكانها أن تغير هؤلاء الحكام المستبدين وتأتي بمَن تريد كما فعلت الثورة الفرنسية.

ـ الثورات لا تؤدي في كل الأحوال إلى التغيير، خصوصًا في بلادنا التي لا يستمد حكامها سلطتهم لا من شعوبهم ولا حتى من بطشهم وقوتهم، إنما تمنحها لهم القوى التي تحكم العالم وتطلق أيديهم في شعوبهم بشرط أن يحققوا مصالحها وأن يحافظوا على نموذج التبعية الذي صنعته الإمبريالية العالمية.

تساءلت عائشة بحماس:

ـ ألا يمكن الخلاص من هؤلاء المستبدين حتى بقتلهم؟

النعومة والجمال والقتل والدماء، ما أحلى التضاد.. بودي لو تطلعتُ اللحظة إلى ملامحها.. هذه الفتاة تُزلزل كيانك.

أجابها زياد بهدوء:

ـ القتل ليس حلًّا يا حبيبتي، فلو تم اغتيال «حافظ الأسد» أو «بورقيبة» أو «أنور السادات» فسوف يأتون بعملاء آخرين ربما أشد إجرامًا، بل ربما يستغلون هذه الرغبة لدى حركات المقاومة فيمهدون لها الطريق كي تخلصهم من العملاء الذين استنفدوا أغراضهم وأصبحت متاعبهم أكثر مما يمكن أن يقدموه لسادتهم.

فسأله نور الدين:

ـ أين الخلاص إذًا؟

ـ لن يأتي الخلاص إلا بقطع رأس الأفعى وبعدها تسقط تلقائيًّا كافة ذيولها في بلادنا، فالعدو الحقيقي هو الأنكى، وهو في زمننا العدو البعيد وليس القريب.

تساءل آدم بلهجة المستريب:

ـ لا يمكن أنك تقصد أن علينا الذهاب لمحاربة أمريكا؟

أجابه زياد بثقة:

- الإسلام لا يبدأ الحرب والعدوان أبدًا وإنما أمريكا هي التي ستأتي إلينا، وها قد بدأت تسن سيوفها للحرب على «محاور الشر الكافرة» على حد تعبير رئيسهم الجديد.

- لكن «ريجان» يقصد الاتحاد السوفيتي واحتلاله أفغانستان.

- هذا هو المُعلَن حاليًّا، لكن علينا أن نعرف الخلفية الأيديولوجية لريجان وللمحافظين الجدد الذين يحكمون أمريكا حاليًّا، ولو قرأت أطروحات مُنظريهم مثل «ليو شتراوس» و«مايكل لادين» لعرفت أنهم بصدد الإعلان عن حرب صليبية وقتال رسالي مستمر للسيطرة على العالم بأسره.

سرت همهماتهم المتسائلة، فصمت زياد لحظة ثم استرسل:

- لقد استنفدت الشيوعية أغراضها، وهي في سبيلها للاضمحلال والانسحاب من العالم، وعندما يحدث هذا فإن حركة الجهاد التي أعلنها اليمين المسيحي سوف تجد نفسها في مواجهة حركة مضادة هي حركة الجهاد الإسلامي، وقتها لا مناص من أن تزحف الأفعى ليصبح رأسها تحت أقدامنا.

قال عرفة وقد تذكر أمرًا:

- كثير من شباب الدول الإسلامية يتطوع الآن للانضمام إلى المقاتلين الأفغان.

وقال مصطفى:

- لا تنسوا أن أمريكا هي مَن ترعى هذا التطوع بمساعدة الأنظمة الحليفة لها في المنطقة، خصوصًا مصر والسعودية.

فصاح نور الدين بحماس:
ـ ربما كانت تسعى إلى حتفها وهي لا تدري.
فقال له آدم مشككًا:
ـ ما تقصده صعب التحقق وأعتقد أنه لا يخطر على بال أحد.
فعاد زياد يقول:
ـ ما يحدث الآن في أفغانستان من تجمع عابر للأعراق هو ما كان يجب أن يحدث في فلسطين منذ أكثر من ثلاثين عامًا، لولا تحويل الصراع مع اليهود إلى قضية عربية.
اتسعت حدقتا نور الدين وهو يسأله باهتمام:
ـ تقصد أن...
ـ لن يتحقق قطع رأس الأفعى وتحرير البشر في كل الأرض إلا عن طريق تجمع إسلامي ينصهر فيه العربي والأمازيغي والتركي والفرنسي والإيطالي والأمريكي، ووقتها لن تكون ثمة تنظيمات قُطْرية وإنما حركة إسلام عالمي.

(٥)

حين بدأت تباشير الضوء الخافت تتمدد عبر الأفق البعيد مقتفية آثار ليل لملم أطرافه استعدادًا للرحيل، كانوا يجلسون صفوفًا صامتين إلا من وسوسات تسابيح خافتة تنساب كقطرات غيث تردد رجيعها صحارى تحوطهم من كل اتجاه.

كانوا نحو أربعين شابًّا يافعًا، وقد أنهوا مسيرات التحمُّل الليلية الشاقة في صحراء «أبو رواش» عدوًا وزحفًا على بطونهم، وقفزًا فوق حواجز أعدوها من الحجارة الضخمة وعوارض خشبية بكر، بإشراف أحد ضباط الصاعقة، يرافقهم في تحركاتهم صياد ثعابين شاب من أهالي القرية، نجح مدرب عسكري في تجنيده بالترغيب والترهيب ليتولى وشقيقه الأصغر حمايتهم من الحيات والعقارب التي برزت من جحورها منذ مستهل الصيف، فكانا يتحركان من حولهم يحمل كل منهما في يده اليمنى عصا طويلة يتناول بها ما يصطاده بخفة ومهارة ثم يضعه في كيس من القماش السميك مربوط في طرف عصا أخرى يمسكها بيده اليسرى، وقد تعود الصيادان القيام بعملهما ـ الذي يُدر عليهما دخلًا جيدًا من بيع هذه الكائنات السامة للباحثين ومعامل الأمصال ـ دون أن يشغلا نفسيهما بما يجري حولهما من تدريب.

يبدأ البرنامج بتجمعهم في المكان المحدد مساء، ليقوموا بتدريبات الصاعقة متلفعين بالظلام حتى الثلث الأخير من الليل، فيصطفوا للتهجد ثم لصلاة الفجر، ويستريحوا قليلًا قبل أن يعاودوا التدريبات الصباحية، ثم يتوجهوا إلى ميدان ضرب النار.

في الظهير الصحراوي لقريتَي دهشور وأبو رواش، وفي هضبة المقطم وطريق الواحات، وفي بعض الأندية الرياضية الكبرى بالعاصمة، وفي جبال الصعيد النائية، بدأ مئات الشباب معسكراتهم الجهادية وتدريباتهم القتالية دون توقف، ودون أن يلفتوا أنظار الأمن، مذ نجحوا في تجميع أنفسهم تحت قيادة موحدة.

احتضنتهم أذرع الشمس الحانية وهي تتسلل برفق لتملأ الأرض نورًا.

كانوا يتقافزون في غبطة ونشاط يملأون صدورهم بالهواء العليل خلال تسخين أبدانهم قبل التدريبات العنيفة، وينشدون في حماس «غرباء»:

غرباء ولغير الله لا نحني الجباه

غرباء وارتضيناها شعارًا للحياة

إن تسل عنا فإنا لا نبالي بالطغاة

نحن جند الله دومًا دربنا درب الأباة

غرباا.. غرباا

أقبل إسماعيل مهرولًا يتلفت حوله حتى وصل إلى حيث جلس وائل محمود وسليم جاهين وأيمن عبد الظاهر ومختار فايد تحت مظلة من القماش، مربوطة أطرافها في قوائم خشبية غُرست في الرمال يحتمون بها من شمس الظهيرة، في استراحة قصيرة قبل أن يواصلوا تجوالهم عبر المواقع المتعددة ليتابعوا التدريبات القتالية، وليعملوا على توفير المهمات المطلوبة بصفتهم أعضاء في «لجنة العدة» بمجلس الشورى الموحد.

قال متأففًا وهو يلقي بجسده المتعرق فوق الرمال:

- متى أتحرر من العمل الحكومي المزعج، فأصبح حر الحركة مثلكم؟

عاجله مختار قائلًا:

- العمل الحر لا يوفر دخلًا سريعًا ولا استقرارًا ماليًّا، ولا تنسَ أنك ستستقبل ضيفًا جديدًا قريبًا بمشيئة الله.

أجابه مشاكسًا:

ـ يبدو أن «عصام القمري» كان محقًّا في نظريته بعدم زواج المجاهدين.

فعقَّب أيمن عبد الظاهر بجدية:

ـ الأخ عصام لم يقصد التعميم، بل كان يتحدث عن رأي فقهي يحرم زواج المجاهد في دار الحرب إذا خشي على زوجته وأبنائه من الوقوع في يد العدو.

قام إسماعيل من رقدته، فجلس وهو يقول بقلق واضح:

ـ لكنه طبَّق هذا الرأي على نفسه، أتراه...

قاطعه وائل بُغية تغيير الموضوع:

ـ هذا أمر يقدره كل شخص حسب ظروفه وهو يختلف في حالتنا تمامًا، كما أن من أهدافنا توفير حاضنة شعبية تحمي حركتنا وتحافظ أيضًا على أسر المجاهدين إن وقعوا في الأسر لا قدر الله.

صمت لحظة وهو يتفرس في وجوههم، ثم غيَّر لهجته قائلًا لإسماعيل:

ـ لنحمد الله أن رئيس القسم يحبك ويسمح لك بالتغيب والانصراف مبكرًا متى شئت، لذا علينا أن نستفيد من فترة عملك في مؤسسة الكهرباء إلى أقصى حد ممكن.

قال إسماعيل:

ـ هذا ما يهمني حقًّا...

ثم ملتفتًا إلى سليم:

ـ ما أخبار المخزن؟

سأله سليم باهتمام:

ـ هل وصلت البضاعة؟

ـ على وشك.. ربما قبل نهاية الأسبوع.. المهم أن يكون المخزن معدًّا لكي ننقل ما نحتاجه مباشرة قبل إدراجه في كشوف المؤسسة.

ـ المخازن المتاحة إما مرتفعة الإيجار أو غير آمنة، ما زلت أبحث.

فقال أيمن:

ـ لا عليك أخي خذ وقتك لتأمين المكان جيدًا...

ثم مخاطبًا إسماعيل:

ـ عيادتي جاهزة لاستقبال البضاعة حتى لو وصلت اليوم.

فقال وائل:

ـ ممتاز! ستكون عيادة الأخ أيمن وورشة الأخ معوض مكانين مؤقتين لتخزين الأسلحة والمعدات الكهربائية لحين نقلها إلى مخزن آمن.

تساءل إسماعيل هامسًا:

ـ هل بدأوا في إخراج الأسلحة من الجيش؟

أجابه وائل مباهيًا:

ـ نعم يا أخي، بارك الله في إخواننا العسكريين، بالأمس ملأوا الورشة بالعتاد اللازم لتسليح الشباب وإعدادهم لساعة الصفر.

فرك إسماعيل يديه بحماس، وهو يتساءل بصوت حالم:

ـ متى تحين هذه الساعة؟

فقال وائل وهو يضحك ملء فيه:

- دائمًا في عجلة من أمرك يا إسماعيل، اصبر يا أخي، فخطتنا أمامها سنوات حتى تكتمل، الأخ منصور يرى أننا لن نتمكن من التحرك قبل عام ١٩٨٥.

قال مختار بزهو وهو يشير ناحية موقع الرماية المتواري عن أنظارهم، وإن كانوا يسمعون صوت دوي الطلقات:

- ها قد وصلت الدفعة الأخيرة من الشباب إلى مرحلة ضرب النار.

فأردف إسماعيل منتشيًا بصوت الرصاص:

- فلتكن أول طلقة من بنادقنا في صدر السادات.

ضحكوا جميعًا قبل أن يستعيد وائل هيئة القائد وهو يقول:

- لقد خُلقتما أنت وصهرك من عجل، فما زالت فكرة قتل السادات تراودكما رغم أن هذا الفرض لو تحقق جدلًا لكان معناه إجهاض الثورة الإسلامية التي نخطط لها، والتي ستخلع بإذن الله النظام المرتد من جذوره، هل نسيت يا إسماعيل كلمات الدكتور صالح رحمه الله؟

نكس إسماعيل رأسه متمتمًا بنبرة ملؤها الشجن:

- القصاص يا أخي.. القصاص.

- مَن قتل أحباءنا هو النظام بأكمله، فما فائدة قطع رأس شيطان له مئات الرؤوس التي ستبرز لتعادي ديننا وتنتقم من المجاهدين.

قال سليم:

- معك حق يا وائل، فالطريق أمامنا طويل وعلينا أن نتحلى بالصبر.

فعاد وائل ليخاطبهم بلهجة ودود:

ـ نحن بالكاد ما زلنا نتدرب على استخدام السلاح، وعندما نستكمل العتاد اللازم سنتدرب على عمليات النسف والتفجير وبعدها يأتي دور العمليات الخاصة والاستعداد لتنفيذ الخطة الشاملة وآليات تثوير الجماهير لإسقاط النظام بأكمله.

أضاف أيمن مؤيدًا:

ـ كما أن الخطة الدعوية لإعادة الجماهير المسلمة إلى طريق الله، وكسر حاجز الخوف الذي يمنعهم من تأييد الثورة تحتاج لسنوات طويلة.

بان الفتور على وجهَي إسماعيل ومختار، فقال وائل بعد فترة صمت شرب خلالها جرعة ماء من زجاجة صغيرة بجانبه:

ـ الرؤية الواسعة مطلوبة يا إخوة، خصوصًا أننا مسؤولون عن مجموعات تضم مئات الشباب، وأي تحرك خارج إطار الخطة الشاملة سيؤدي إلى انفراط العقد وبدلًا من القضاء على النظام المجرم سنقدم له خيرة شباب البلد ليقضي هو عليهم.

تنهد إسماعيل مستسلمًا وهو يقول:

ـ قتل الخائن حلم يراودني في اليقظة والمنام، لكنه لا يعني بالطبع أني أدعو للخروج على الخطة المتفق عليها.

أجابه وائل مشجعًا:

ـ أعرف مدى انضباطك أخي الحبيب، وأن ما تردده أحيانًا عن قتل المجرم ما هو إلا تعبير عن أمنية داخل أعماقك، لكن متى كانت الأحلام والأمنيات سبيل المجاهدين؟

فقال مختار بإصرار:

ـ هذه ليست أمنيته وحده لكنها أصبحت الآن أمنية أغلب المصريين، ومَن يعلم ربما سبقنا لتحقيقها آخرون.

فهز وائل كتفيه استهانة وهو يقول:

ـ إذا كان على قتل السادات فتأكدوا أنه هدف سهل لنا، وهناك أخ في الحرس الجمهوري يمكنه إصابته من مسافة قريبة وينتهي كل شيء، لكن ما سيحدث بعدها هو الأمر الخطير الذي يجب أن يكون ماثلًا في أذهاننا حتى تكتمل الخطة بعون الله وتوفيقه.

تناهت إلى أسماعهم أصوات طلقات متتابعات وصدى صيحات الشباب الصاخبة تتردد في الفضاء الصامت، فتساءل أيمن مدفوعًا بهاجسه الأمني:

ـ أليس الأفضل تقسيم الشباب لمجموعات عددها أقل، مراعاة للناحية الأمنية؟

أجابه وائل:

ـ أعتقد أن هذا توجُّه الأخ منصور، لكن تنفيذه يتطلب كمية أكبر من السلاح، ونحن نراعي الناحية الأمنية في حدود المتاح، لا تنسَ أن مجموعات الشباب لا يعرف بعضها بعضًا ونحن الرابط الوحيد بينها وهم أيضًا لا يعرفون مَن نحن بالتحديد ولا موقعنا في الجماعة.

قال سليم:

ـ أخبرني الأخ منصور أنهم يُعدون برنامجًا خاصًّا للتدريب على كشف المراقبة الأمنية والهروب منها.

عاد وائل ليكمل حديثه، محاولًا طمأنة أيمن:

ـ لا تنسَ أن مبدأ السرية يحكم عمل الشباب، فهناك قيود صارمة على حركة المعلومات داخل الجماعة وقد أصبحوا كلهم والحمد لله مقتنعين أنه ليس من حق أي منهم أن يعرف غير قيادته المباشرة وما تكلفه به شخصيًّا.

لزم أيمن الصمت، فاستطرد وائل:

ـ هذا لا ينفي بالطبع أن الأفضل إعادة التقسيم لمجموعات أصغر، لكنا نراعي القيود الأمنية في حدود ما تسمح به إمكاناتنا الحالية.

تعالت الأصوات فبان الضيق على وجه أيمن، وتساءل مستنكرًا:

ـ وموضوع صلاة العيد في الخلاء الذي تطرحه الآن قيادات وجه قِبلي، أليس في هذا عودة لأسلوب صخب الجامعات؟

قال مختار محاولًا مداراة غيظه بضحكة خفيفة:

ـ الدكتور أيمن ما زال يستهين بشباب الجماعة الإسلامية، رغم أن حركتنا حاليًّا معتمدة عليهم بشكل أساسي.

فقال أيمن بتواضع غير مصطنَع، وقد هاله اتهام مختار:

ـ أعوذ بالله يا أخي أن أستهين بإخوة الإسلام وبهذا الشباب المبارك، لكني أخشى من تعريض الحركة كلها للخطر بسبب حماسهم الزائد.

إسماعيل بنبرة اعتذار:

ـ لقد بذلتُ وسليم جهدنا في محاولة تقويم طريقة تعبيرهم عن مشاعرهم، لكن هذا أقصى ما وصلنا إليه.

فقال وائل وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة رضا:

ـ لا عليكما، هذا نبت طيب جزاكما الله عنه كل خير...

ثم ملتفتًا لأيمن:
ـ أُذكِّرك أخي الحبيب بما قاله عصام وخميس من أن غباء جهات الأمن نعمة كبيرة ستتيح لنا تأمين حركتنا عن طريق إشغالهم بالنشاط العلني الصاخب للشباب.
صاح إسماعيل بنبرة الظفر:
ـ جزاك الله خيرًا أخي وائل لتذكيرنا بهذا الأمر، سوف ينشغل الأمن فعلًا بمعركة الصلاة في الساحات والميادين العامة ويظنون أنها كل ما يشغل شباب الجماعة خلال الفترة القادمة.
مختار بلهفة:
ـ عيد الفطر سيكون بإذن الله في بداية أغسطس.
فقال وائل:
ـ لو اتفقنا في مجلس الشورى على هذا الأمر فعلينا البدء بالتجهيز، حتى إذا انتصف شهر رمضان بإذن الله كانت الملصقات والمنشورات التي تدعو الناس للصلاة في الخلاء جاهزة لتوزيعها في كل مكان.
عقَّب أيمن:
ـ لكن المصريين اعتادوا على صلاة العيدين داخل المساجد، أليس الأفضل تأجيل هذا الأمر لأعوام مقبلة حتى نقوم بتهيئتهم لفكرة الصلاة في الميادين؟
أجابه مختار بحدة عجز عن كبحها:
ـ صلاة العيد في الخلاء سُنة مؤكدة يا دكتور، وهذا الشعب مسلم.
فأسرع وائل ليقول بهدوء:

ـ كل أمر بخلاف ما اعتاده الناس يكون صادمًا في المرة الأولى، ثم يعتادون عليه بعد ذلك فيصبح هو الأصل، والمدة الباقية على العيد كافية لكي يقوم علماؤنا الكرام بتهيئة الناس وشرح هذا الهَدْي النبوي لهم في المساجد، الشيخ كشك هنا والشيخ عمر في الصعيد والشيخ المحلاوي في الإسكندرية والشيخ السماوي والمطراوي وغيرهم، خطبة واحدة من كل منهم كفيلة بجعل الجماهير المسلمة تترقب يوم العيد بفارغ صبر حتى يطبقوا السنة النبوية التي غُيبت عنهم لأجيال.

سليم جاهين ضاحكًا:

ـ وهي كفيلة أيضًا بصرف أعين الأمن عن تدريباتنا وأسلحتنا ومخازننا.

فتساءل إسماعيل بلهجة مشككة:

ـ هل سيمكننا الحصول على كل ما نحتاجه من ذخيرة من مستودعات الجيش؟

أجابه سليم وهو ينظر لوائل:

ـ لا طبعًا، فتهريب أسلحة الجيش ليس سهلًا وتكراره سيعرض إخواننا للخطر.

أيمن عبد الظاهر:

ـ عليهم أن يكونوا في غاية الحذر.

صمت وائل قليلًا قبل أن يقول:

ـ سيُكررون العملية على فترات متباعدة، لكن يجب أن نعتمد أكثر على شراء الأسلحة من الصعيد والسودان.

فسأله مختار:

- وهل تكفي ميزانيتنا لتغطية هذه التكلفة الكبيرة؟

هز إسماعيل رأسه قائلًا:

- لا أعتقد أن الاشتراكات وحصيلة المعارض يمكن أن تغطي شيئًا من هذه التكلفة.

تطلعوا جميعًا لوائل الذي تنحنح قليلًا قبل أن يميل بنصفه الأعلى إلى الأمام كمَن يتهيأ للإفضاء بسِر:

- الإخوة في اللجنة الاقتصادية قدموا بالأمس اقتراحًا للشيخ عمر لمضاعفة تمويل النشاط.

تساءلوا هامسين كأنما انتقل إليهم الإحساس بالغموض:

- كيف؟

- بالاستيلاء على أموال التجار النصارى، خصوصًا أصحاب محلات الذهب.

اتسعت أحداقهم دهشة، وتمتم إسماعيل متسائلًا:

- هل هذا جائز من الناحية الشرعية؟

سليم بلهجة محذرة:

- هذا الموضوع قد يصل إلى حد سفك الدماء، لأن هؤلاء التجار لن يتركونا بالطبع نأخذ أموالهم دون مقاومة.

فقال وائل بهدوء:

- ما زالت المسألة مجرد فكرة مطروحة، سنناقش جميع أبعادها في مجلس الشورى بعد أن يصدر الشيخ عمر فتواه الشرعية بشأنها.

فسأله أيمن باهتمام وهو يمشط لحيته بأصابعه:

ـ وبماذا رد الشيخ على الإخوة عندما طرحوا عليه الفكرة؟

ـ قال إن الأصل من الناحية الشرعية هو حِل أموال النصارى المحاربين، لكن يجب بحث كل حالة بمفردها.

ـ كيف؟

ـ طلب منهم أن يأتوه بمعلومات عن التجار الذين يُمولون الكنيسة في حربها ضد المسلمين، وأن يراقبوهم لفترة حتى يتأكدوا بالدليل أنهم ضالعون في أعمال التخريب وإشعال الفتن.

(٦)

تعجب إسماعيل حين أخبرته حنان، وهو يهم باستبدال ملابسه عقب عودته من العمل، أن عزة طلبت أن يتصل بمحمد عبيد بمجرد وصوله، وتركت لها رقم الهاتف.

ـ محمد عبيد.. صاحب مصطفى.. لمَ؟

ـ لا أدري! فقط قالت لا تَدَعيه يجلس قبل أن يتصل به.

قال ضاحكًا:

ـ إذًا فقد اتفقتما على حرماني من الغداء قبل تنفيذ الأوامر.

ـ عمومًا أمامكَ وقت، حذيفة ما زال نائمًا وعليَّ إرضاع خديجة قبل تحضير السفرة.

ـ كيف حال الأولاد؟

ـ بخير الحمد لله.. إليك رقم الهاتف.

ـ إذًا ناوليني من فضلك مفتاح شقة ماما.

تنهدت وهي تفتح علبة صغيرة في الدولاب لتأخذ منها المفتاح:

ـ وحشتنا!

ـ أخبرتني في آخر مكالمة أن إلهام لن تلد قبل نهاية سبتمبر بإذن الله، وستبقى معها حتى الأربعين على الأقل.

ـ تمنيت لو أنها حضرت ولادة خديجة، لشد ما تشبهها.

أجابها وقد أدرك مغزى كلامها:

ـ تعرفين يا حنان أن إلهام وحيدة في الغربة، وأولادها صغار محتاجون لرعاية ماما.

ـ طبعًا طبعًا.. ربنا يقومها بالسلامة، إليك المفتاح.

تساءل متأففًا وهو يتجه ناحية باب الشقة:

ـ ماذا يريد محمد عبيد؟ لم أره منذ سنوات، ثم إن علاقتنا لم تكن وطيدة أبدًا، ألم تخبركِ بشيء؟

ـ يبدو أنها هي الأخرى لا تعلم، كانت الدهشة بادية عليها وهي تعطيني الرقم ثم انصرفت مسرعة، أليس من الوارد أنه يريد...

ـ لا لا، هذا مستبعد تمامًا، هو شخصية تافهة وهي كانت دائمة السخرية منه.

ـ الناس تتغير يا إسماعيل.

فقال بعصبية وهو يغادر الشقة:

ـ ما لي أنا وهذا كله، لست خالها أو عمها على أي حال.

ثم وهو يُحدث نفسه: «ها قد سافر «بول» وترك لنا بقايا فرقة الرقص والغناء»!

أتاه صوت محمد عبر الهاتف مختنقًا من فرط الانفعال:

ـ النجدة يا أخ إسماعيل، إنهم يقتلون المسلمين.

ألجمته المفاجأة، فاستطرد الآخر بانفعال متصاعد:

ـ النصارى يقتلون المسلمين!

ـ مَن؟ ماذا.. لمَ.. لماذا.. ماذا تقول؟

ـ الرقم الذي تتصل عليه الآن هو رقم بيت خالتي في «الزاوية الحمراء» وأنا عندهم من المساء، لم أذهب للعمل اليوم، فقد استغاثوا بي بعدما أطلق الأقباط النار على المسلمين وهم يصلون العشاء فقتلوا منهم عددًا مهولًا.

ـ وأين الشرطة؟

ـ لم يحضروا إلا بعد ساعات من المذبحة ولم يتدخلوا لوقفها، بل طوقوا المكان من الخارج وتركوا الوحوش يواصلون قتل الأبرياء المساكين.

ـ وما العمل؟ يعني ما هو المطلوب الآن؟

ـ لا بد أن يحضر هنا كل إنسان غيور على دينه لحماية المسلمين والرد على هؤلاء الكفرة، وأنا أعلم من زمان مدى تدينك وإيمانك.

ـ جزاك الله خيرًا على حُسن الظن، لكن هذا عمل الشرطة، ووجود غرباء في المكان قد يزيد النار اشتعالًا.

صاح الآخر، وقد أفزعه احتمال إحباط ترتيبه:

ـ إذا كانت الحكومة تخلت عن المسلمين، فهل نتركهم نحن ليقضوا عليهم؟ الأقباط يأتون مسلحين من كل مكان، ولَواري

ضخمة تخرج الآن من الأديرة محملة بالسلاح الآلي ليُبيدوا المسلمين في كل المحافظات.

ابتسم إسماعيل ساخرًا من المبالغة التي شككته في صدق الواقعة الأصلية، وقال محاولًا إنهاء المكالمة:

ـ على أي حال أنا مرتبط بعمل عاجل ولو انتهيت منه في وقت مناسب فسأحاول الحضور.

أجابه الآخر بصوت محبط تمامًا:

ـ أرجو أن تستطيع، سأكون في انتظارك عند مصنع العلف بجوار «مسجد النذير» الذي حدثت فيه المذبحة.

وهو يستدير بعدما أغلق شقة أمه، فوجئ بمختار يصعد الدرج عدوًا وهو يلهث فصاح مفزوعًا:

ـ خيرًا!

ـ تعالَ معي بسرعة.. سنذهب إلى الزاوية الحمراء.. نصارى قتلوا المسلمين هناك والنيران مشتعلة في الحي كله.

سأله وهو يلتفت بردة فعل تلقائية تجاه باب الشقة المغلق:

ـ كيف عرفت؟

ـ جاءنا الخبر آخر الليل من بعض إخوة الزاوية.

ـ علينا إذًا أن نتداول الأمر مع وائل قبل الذهاب.

ـ الأخ وائل هناك منذ الصباح وطلب مني أن آتي بك.

ـ أليس في وجودنا في هذه الظروف خطر علينا.. أقصد من الناحية الأمنية؟

ـ كان هذا رأيي في البداية، لكن الإخوة قالوا إن وجودنا في هذا

الموقف أمر طبيعي، وعلينا أن نحاول إطفاء هذه الفتنة التي يريد النظام تركها لتتفاقم ثم يستخدمها لضربة جديدة للحركة الإسلامية.

ـ معقول جدًّا.

ـ لو رأيت المنظر لتأكدت من تآمر النظام، فالمكان الذي حدثت فيه الجريمة قريب جدًّا من قسم الزاوية ومع ذلك لم تتحرك الشرطة إلا بعد ساعات، ورغم انتشارها حول المكان فالمعركة ما زالت مشتعلة ولم يتدخلوا للقبض على النصارى المجرمين الذين بدأوا بإطلاق النار، بل تركوهم ليُكملوا جريمتهم، وطبعًا أهالي الحي والأحياء المجاورة لم يسكتوا فأخذوا يتوافدون منذ الصباح ليدافعوا عن المسلمين ويحموا المسجد.

ـ وكالعادة ستترك الشرطة النصارى يُكملون جريمتهم، وعندما يدافع الأهالي عن ذويهم تصبح التهمة جاهزة: التطرف الإسلامي والجماعات الإسلامية.

ـ تمام! هذا ما قاله الأخ منصور بحكم خبرته، لذا قمنا بالاتصال ببعض الدعاة المشهورين كي يأتوا لتهدئة الأهالي، أما دورنا نحن فهو القبض على المجرمين الذين أطلقوا النار على المصلين لنمنع هروبهم حتى تتسلمهم الحكومة وبذلك نجهض مؤامرتها.

ـ إذًا دعني أبلغ حنان كيلا تنتظرني على الغداء.

ـ لقد أبلغتها، وستأتي إحدى شقيقاتنا للبقاء معهم الليلة لأننا سنبيت هناك.

ـ في الزاوية؟ لمَ؟

ـ سبب المشكلة أن نصارى حاولوا وضع أيديهم على قطعة أرض ملحقة بالمسجد ومخصصة لتحفيظ الأولاد القرآن الكريم فأطلقوا الرصاص عليهم، لذا سنقضي الليلة هناك لحراسة المكان، ثم تقام غدًا بإذن الله صلاة الجمعة، فلا يستطيع مخلوق بعدها الادعاء بملكية أرض أقيمت عليها شعائر الجمعة.

حين وصلا إلى شارع منشية الجمل كانت آثار الموقعة بادية للعيان: واجهات المنازل محروقة.. المتاجر والصيدليات مهشمة وآثار السلب والنهب ظاهرة واضحة.. الناس يتوافدون بكثافة من كل مكان راكبين ومترجلين مطالبين بالثأر والقصاص، صائحين بهتافات: «واإسلاماه».. «الموت للكفرة عُباد الصليب».. سيارات الشرطة منتشرة في المكان دون تدخل كأنها تترقب ساعة الصفر التي لم يحن موعدها بعد فيما الدماء تسيل في الطرقات، وصبية يتقافزون بنشاط يرسمون بأصابع الطباشير علامة الصليب على بعض البيوت لتحديد هوية سكانها قبل أن تقتحمها الجموع الغاضبة الهائجة.

ومحمد عبيد واقفًا بجوار سور مصنع العلف، يرقب ساحة الصراع المقدس بغضب ظاهر وبسرور خفي عظيم، وهو يمرر باطن كفه على قفاه برفق ودوائر اللذة المتشابكة تحمله خفيفًا إلى فضاء بعيد لامُتناهٍ.

❋ ❋ ❋

ما إن قبَّل يده، ثم جلس في مقعد مجاور، حتى صاح مزمجرًا:

ـ لم يعد بإمكاننا السكوت أكثر، فالظلم جاوز كل الحدود.

بقي القس صامتًا وابتسامة هادئة ترتسم على شفتيه، فيما قال نبيل:

ـ اهدأ يا مايكل، يبدو أن أبانا يحمل لنا اليوم أخبارًا مفرحة.

جلس ثلاثتهم حول طاولة مستطيلة في إحدى قاعات «كنيسة مار جرجس» بالساحل، وكان قد بقي بعض الوقت على موعد اجتماع الشباب.

أصبح «القمص يوأنس» أقرب إنسان لمايكل منذ سلمه له الدكتور نصيف، وهو في قمة السعادة بعزوف ابنه عن أوهام خاله وهرطقات عمه وعودته سالمًا إلى بيت الرب.

أما نبيل مرقص، الابن الوحيد لمُحضر المحكمة البسيط، ربيب عزبة النخل، السالك في دروب التفوق الدراسي والطموح المشروع للانعتاق من قبو الفقر والحاجة، فلن ينسى كلمات أبيه: «مع رئيس قلم مسلم قد تستريح وقد لا تستريح، أما الرئيس القبطي فحتمًا سيذيقك الويل ويطلّع دين أهلك ليثبت أنه ليس متعصبًا بل ليس مسيحيًّا من الأساس، والحقيقة المؤكدة أن المسيحي والمسلم كلاهما ابن كلب!».

أراده طبيبًا، ثم مات في عامه الدراسي الأول، كان المشوار طويلًا والمعاش ضئيلًا والأم مريضة، فحوَّل أوراقه لكلية الصيدلة ليغدو زميلًا لماريان، ربيبة جاردن سيتي ونوادي الصفوة والسيارات الخاصة وصيدليات ملاك ونصيف الكبرى بفروعها في أنحاء العاصمة.

أما الجمال.. فتتضاءل قيمته أمام الثراء والأبهة، وأما الحب.. فقد أحبته وضغطت على أبيها للقبول به خطيبًا لها ومديرًا لصيدلية الزمالك، وأما هو.. فأقنع نفسه بأنها فتاة طيبة متواضعة، وأنه إنما عمل بنصيحة أب اعترافه حين خطبها.

قال لنفسه يومها: «امرأةٌ فاضِلة مَن يجدها لأن ثَمنَها يَفوقُ اللآلئ»،

أما ما سوى اللآلئ من يواقيت الحُسن فهو يعرف طريقها جيدًا خارج البيت والعمل، الذي نجح فيه كعادته بفضل اجتهاده واتباعه نصيحة أمه بأن يغمس لسانه في العسل قبل أن ينطق أية كلمة.

وقد ظل مؤمنًا في قرارة نفسه بالوحدة الوطنية، فما دام الجميع أقباطًا ومسلمين أولاد كلب واحد، فليَحْيَ الهلال مع الصليب في الثالوث المصري الخالد: الفقر والجهل والمرض! أما أنت فانجُ بنفسك وتعامل مع كل طرف بما يرضيه ولا تخسر أحدًا أبدًا مهما حدث.

تطلع مايكل إلى وجه القمص يوأنس، وسأله برجاء:

ـ صحيح يا ابونا؟

أومأ الكاهن برأسه وهو يقول بنبرته الهادئة الودود:

ـ اطمئن يا بني، فسيدنا لن يسكت هذه المرة.

قال نبيل مفتعلًا الحماس:

ـ ذهاب قداسته للاعتكاف في «دير وادي النطرون» رسالة ستهز الدنيا.

تساءل مايكل مشككًا:

ـ وهل هؤلاء الذئاب سيفهمون رسالته الروحية؟

أجابه القمص يوأنس:

ـ لا تنسَ ما يقوله الكتاب المقدس: «الرَّبُّ يُقاتِلُ عنكم وأنتم تَصمُتون».

ـ لكن الرب يقول أيضًا: «لا تَخفْ، بل تكلَّم ولا تَسكتْ لأني أنا مَعكَ».

ـ اعتكاف سيدنا في الدير أقوى من أي كلام، والرسالة هذه المرة ليست موجهة للحكومة وإنما للعالم كله.

اتسعت أحداقهما وتطلعا للمزيد، فلما عاود الصمت قال مايكل بلهجة حماسية:

ـ فليعلم أعداؤنا أن الدول الكبرى لن تقف صامتة أمام اضطهاد المسيحيين في مصر.

هز الكاهن رأسه، وقال بلهجة ذات معنى:

ـ لا توجد قوة على الأرض يمكنها مساعدتنا إلا إذا توحد الشعب القبطي نفسه، وازداد ارتباطًا بكنيسته.

فقال مايكل، وقد تضاعف حماسه:

ـ الأقباط طوال عصور الاضطهاد لم يجدوا غير حضن الكنيسة ليحتموا به، وهو ما يجعلنا نستغيث بقداسة البابا ونتمنى أن يتكلم ولا يسكت.

وأردف نبيل بصوت أفرغ فيه من نبرات الأسى ما استطاع:

ـ وهل وُجد عصر اضطهاد أكثر مما يحدث الآن؟ ومتى نتوحد إذا لم تُوحِّدنا مذبحة الزاوية التي فاقت في بشاعتها مذابح «هيرودس»؟

فعاود مايكل الغضب وتقلصت شفته وهو يصيح مشوحًا بيديه:

ـ قتل.. حرق.. تخريب.. سرقة.. نهب.. تدمير.. ما هذا؟ هل عُدنا إلى العصور الوسطى المظلمة؟ ماذا يريد منا هؤلاء الأوغاد وهذه بلدنا التي احتلوها بالسيف والقتل والنهب، وإلى متى الصمت والخوف منهم؟

بقي القمص يوأنس ساكتًا يعبث بشعيرات لحيته حتى سكنت فورة انفعال الفتى، فمد يده ليربت على كفه التي كانت تدق الطاولة بعصبية شديدة، وقال مؤيدًا كلامه لكن بنبرة هادئة:

- لقد استغلوا تسامح المسيحيين معهم ومحبتهم التي تتسع لكل الناس، فتحنا لهم بلدنا وقلوبنا لكنهم نسوا الجميل وعضوا اليد التي أحسنت إليهم، لكنْ لكل شيء حدود، وما حدث في الزاوية الحمراء لن يمر دون عقاب كما قلت لكما.

قال نبيل مستهدفًا مجاملة الكاهن:

- مَن كان يصدق أن يذبحوا رجل دين مسالمًا داخل بيته بهذه الطريقة الوحشية؟

ترقرقت الدموع في عينَي يوأنس وهو يقول:

- لقد وضعوا السكين على رقبة الشهيد «القمص مكسيموس» وطلبوا منه أن ينطق بشهادة الإسلام، فلما رفض ذبحوه بدم بارد ونال إكليل الشهادة...

ثم بنبرة حادة:

- أي دين هذا الذي يدعو الناس للدخول فيه بذبحهم؟

هزت حكاية القمص المغدور مايكل من أعماقه فغلب على صوته البكاء، وهو يقول:

- حتى النساء والأطفال حرقوهم أحياء داخل بيوتهم، ثم نهبوا أملاكهم دون أن يتدخل شرطي واحد للدفاع عن هؤلاء المساكين.

فقال نبيل متماهيًا كعادته مع الموقف:

ـ الشرطة أصلًا متواطئة مع المجرمين، لقد حاصروا المكان ليمنعوا هروب المسيحيين من المذبحة، وسمحوا في الوقت نفسه بدخول الذئاب ليفترسوا ضحاياهم.

مال القمص يوأنس بنصفه الأعلى تجاههما، وقال بصوت هامس:

ـ السادات له تصريح خطير عندما كان مسؤولًا عن المجلس الإسلامي في الستينيات وسافر للسعودية وأراد أن يجاملهم فقال: إنه خلال عشر سنوات سيتحول أقباط مصر إلى مسلمين أو إلى شحاذين وماسحي أحذية. لذا بمجرد وصوله للحكم بدأ يخطط لتنفيذ وعده.

الْتمعت عينا نبيل وهو يقول:

ـ الآن تتدفق عليه أموال السعودية لإنفاقها على حلفائه من الجماعات الإسلامية، وعلى زرع المساجد في كل شبر في البلد.

فقال مايكل بكبرياء الرفاهة:

ـ كنيسة المسيح ليست في حاجة لأموال الجاز، فشعبها مستعد للتضحية بكل ما يملك لتقوية أعمالها.

يوأنس وعلى وجهه ابتسامة رضا:

ـ الرب يبارك عملك يا بني.

نبيل متخابثًا وقد لذعته الغيرة:

ـ لكنك تجهز أوراقك الآن للهجرة وترك البلد.

أسرع الكاهن بالحديث، وهو يدرك حقيقة ما يعتمل في الصدور رغم المظاهر:

ـ الهجرة يا نبيل لا تعني ترك البلد، فمصر وطن المسيحية تعيش فينا ونحملها معنا في كل مكان، هي ملاذ العائلة المقدسة وأرض الإيمان الصحيح والكرازة المرقسية التي وصلت إلى كل ولايات أمريكا ببركة أعمال القديس كيرلس وقداسة البابا شنودة المعظم، وارتباط المهاجرين الآن بمجتمعهم القبطي تزايد ليدعموا أعمال كنيستهم من مواقعهم خارج مصر.

ابتسم مايكل لأول مرة منذ جلس، وسأله بحياء فطري:

ـ إذًا فقد أصبحت تُبارك هجرتي؟

أجابه الكاهن بحنان أبوي:

ـ يسوع يباركك يا بني، لقد أصبحت مطمئنًا عليك وأنك مسيحي مخلص مثل أبيك...

ثم مبتسمًا:

ـ ولست مثل صديقي القديم عادل روفائيل.. «ربنا يحاول معاه ويجيبه زي ما جاب شاول».

قال مايكل مدافعًا عن عمه المحبوب:

ـ أونكل عادل مؤمن في قلبه يا ابونا، لكنه عندما هاجر لم تكن خطة أسلمة مصر قد بدأت، ولم يكن جيلكم يسمع في الشوارع كل يوم هتافات: إسلامية.. إسلامية.

قال الكاهن بحدة جاوزت حرصه المعتاد:

ـ مصر ستظل قبطية ولو هتفوا كل يوم «إسلامية»، مصر أرض المسيح والمسيحية وقريبًا ستتحرر من الغُزاة وتعود لأهلها، كما عادت إسبانيا بعد ثمانية قرون من الاحتلال الإسلامي.

انبسطت ملامح مايكل للحظة، قبل أن تعاود التقلص وهو يقول بانفعال:

ـ ووقتها سنتخلص من هذه الوجوه العكرة التي تُطالعنا وتُضيق علينا بلدنا.

قال القمص يوأنس، وقد استعاد رصانة الواعظ:

ـ وقتها سيعلمون الفرق بين ديننا ودينهم، وأننا في أعمالنا نسلك في محبة الرب لأن إلهنا محبة، وأمرنا أن نحب أعداءنا ونُبارك لاعنينا ونُحسن إلى مُبغضينا ونُصلي لأجل مَن يُسيئون إلينا، وعندما تعود مصر إلى مسيحيتها ستصبح أرض السلام بحق، لأن الأقباط دينهم يمنعهم من استخدام العنف.

تحسس مايكل خده الأيسر، وانداحت في أعماقه صور الغدر والخيانة، والحب الذي بذله لمَن لا تستحق، والصداقة التي منحها لمَن لا يُقدِّر ولمَن خان ولمَن لم يحفظ الجميل.

قال بنبرة موجعة متوجعة:

ـ إذًا سنظل نعاني ما دام ديننا يمنعنا من العنف، ودينهم يأمرهم بالعنف وبالغدر وبالقتل.

قال الكاهن بصوت جمع بين نبرتَي الأب والأضحية معًا:

ـ هذا ما أخبرنا به ربنا ومُخلِّصنا يسوع المسيح: «تأتي ساعةٌ فيها يَظنُّ كُلُّ مَن يَقتُلكم أنه يُقدِّم خِدمةً لله، وسيفعلون هذا بِكُم لأَنَّهم لم يَعرِفوا الآب ولا عَرفوني».

تجاذبه شعورَا التسامي في الألم والرغبة في الانتقام لكرامته الجريحة، فصمت برهة قبل أن يعاود التحدي:

ـ إذًا سيسكت الأقباط هذه المرة أيضًا، كما سكتوا على الخانكة والإسكندرية وكل جرائم العصابات الإسلامية، التي يخطط لها المجرم السادات ثم يحميهم من العقوبة عنها.

قال القمص يوأنس بلهجة الناصح:

ـ إذا نحن سكتنا يا بني فإن إلهنا لا يقبل الظلم، علينا فقط أن نصلي ونمد أيدينا للسماء لأنه إذا كنا نحن مساكين مسالمين فإن عصا الله شديدة...

ثم بصوت هامس، وهو يرقب بحرص باب القاعة المفتوح:

ـ أؤكد لك أن هذا الرجل ستكون نهايته سوداء كوجهه.

(٧)

اندفعتْ من باب المصعد حين انفتح في الطابق الرابع متجهة نحو الممر الأيمن، حيث أخذت مسارها تنظر من خلال النوافذ المطلة على مكاتب كبار الكُتاب ورؤساء الأقسام، قابضة بيدها على عدد اليوم من جريدة الأهرام.. الأحد ٦ سبتمبر ١٩٨١.

أخيرًا لمحته، فتحت الباب وهي تقول:

ـ كنت متأكدة أني سأجدك هنا.

دخلتْ وأغلقت الباب، ثم انطلقت تتحدث دون توقف:

ـ أرأيتما المصيبة الجديدة؟ هذا الرجل مَن يظن نفسه؟ فرعون؟

يعتقل شعب مصر كله بجميع انتماءاته من اليمين إلى اليسار، لم يترك أحدًا...

ثم وهي تلوح لهما بالجريدة:

ـ مَن المسؤول عن هذا المانشيت الفضيحة؟ «إعلان ثورة العمل الداخلي» يا سلام! ثورة تصحيح، ثورة عمل داخلي وثورة رقص على الطبول، أووف!

انفجر رءوف ضاحكًا، فيما أشار لها زهير لتجلس وهو يقول متهكمًا:

ـ اهدئي يا «حاجة» عزة واجلسي، المفروض أن تكون الفتيات المحجبات وديعات غير متمردات كالمتبرجات.

جلست أمام مكتبه في المقعد المواجه لرءوف، وقالت بلهجة مغايرة:

ـ ألا تستطيع أن تُخرج موضوع الحجاب من رأسك؟ مع أنك تعرف جيدًا أني لم أتغير بعدما ارتديته.

رفع حاجبيه دهشة وأشار بسبابتَي كفيه في اتجاهين متضادين وهو يقول:

ـ لم تتغيري؟ هه، شتان ما بين عزة الجميلة الأنيقة، والشيخة عزة التي تمشي مجرجرة جلبابها كالفلاحات.

تنمرت ملامحها، ورمقته بنظرة نارية:

ـ على فكرة، لن تستطيع استفزازي بكلامك، ثم إن هذا أمر يخصني وحدي.

ـ أنتِ حرة، لكني حريص على مصلحتك، فهذا الحجاب سيقف بينكِ وبين طموحكِ المهني.

ـ أنا صحفية يا أستاذ ولست ممثلة أو عارضة أزياء.

ـ افهمي يا بنتي، المسألة ليست مجرد شكل أو ملابس، إنما طريقة تفكير ونمط حياة، فكيف يمكنكِ بهذا الإعلان عن توجهكِ الديني أن تنفتحي على العالم المتقدم؟ وكيف يمكن اختياركِ لسفريات خارجية وأنتِ بهذا الشكل؟ مع أن السفر مهم جدًّا للصحفي.

رفعت أمامه باطن كفها وهي مقطبة علامة الرغبة في إنهاء الحديث، وقال رءوف:

ـ يبدو أن الجيل الجديد كله يتغير، فعندما ذهبنا إلى باريس في عز يوليو لنقضي أيامًا مع مصطفى «قضَّاها معانا صيام»! تخيل، أنا أحصل على إجازتي خلال شهر رمضان لأسافر فأستفيد من رخصة الإفطار وابني يصوم الشهر كله في باريس، الظاهر أن دولة العلم والإيمان ستجعل أبناءنا كلهم مشايخ.

ضحكوا، وقالت عزة بنبرة شجية:

ـ مصطفى يا أونكل يصوم رمضان كله منذ كنا صغارًا.

علق زهير ساخرًا:

ـ ربنا يهني سعيد بسعيدة.

فقالت عزة:

ـ حتى لو استمرت «غلاستك» فلن تستفزني...

ثم وهي تفرد الجريدة أمام وجهه:

ـ ليتك استخدمت هذه الغلاسة لكي تمنع فضيحة مانشيت الثورة الساداتية.

ابتسم مغتبطًا، فما زال يستمتع بمشاكساتها رغم غيظه من حجابها، وقال بجدية:

ـ مانشيت الأهرام لا يقارَن بمانشيت الجمهورية «ثورة جديدة للسادات»!

قلبت شفتيها ازدراء وهي تتمتم:

ـ «محسن محمد»!

فقال رءوف ساخرًا:

ـ يشبِّه قرارات التحفظ بالثورة العرابية والسادات بأحمد عرابي، أليس للنفاق حدود يا ناس؟

فقال زهير وهو يرفع إحدى الصحف من فوق مكتبه:

ـ الحقيقة أن مانشيت الأخبار أكثرهم مهنية «قرارات ضرب الفتنة».

قالت عزة وقد تنبهت لشيء:

ـ عزل البابا شنودة لن يمر ببساطة، لا عند الأقباط ولا العالم الخارجي، مَن أوحى له بهذه القرارات المجنونة؟

أومأ رءوف برأسه وهو يقول:

ـ السادات ينتحر بالفعل.

فتساءلت، وهي تنقل بصرها بين الرجلين:

ـ ماذا سيكون موقفنا بالنسبة للصحفيين المعتقلين والمُبعَدين عن أعمالهم؟

أجابها زهير بغير اكتراث:

ـ هذه مهمة النقابة ولا شأن لنا بها.

فصاحت بغضب:

ـ أكبر صحفي عربي الذي جعل للأهرام قيمة عالمية يُقبض عليه، والمفروض أن نلزم الصمت؟

سكتنا، فأكملت صياحها:

ـ وزميلنا محمد سلماوي يُنقل لوظيفة إدارية ونلزم الصمت أيضًا؟

ثم بنبرة أقل حدة وأشد مرارة:

ـ لو كنا في زمن هيكل لاختلف الأمر ولوقف بكل قوة في مواجهة هذا الجنون، لكن إبراهيم نافع وعبد الباري.. هه.. هل يمكن أن يكون لأيهما موقف؟ لا أظن.

اندفع زهير، وقد استفزته السيرة التي يمقتها:

ـ اسمعي! أنتِ بصراحة لا يهمك لا سلماوي ولا زعبلاوي، كل ما أغضبكِ هو اعتقال صنمكم المعبود، إلى متى تبقون مخدوعين في هذا الرجل؟ ثم كيف وأنتِ ابنة أحد ضحايا حركة ١٩٧١ تُحسنين الظن بمهندسها الرئيسي؟

غمز له رءوف محذرًا، وسألته هي:

ـ ماذا تقصد؟

لم يلتفت لتحذير رءوف، واستطرد مواجهًا عزة وهو يحاول السيطرة على انفعاله لتخرج كلماته واضحة:

ـ هذا «الهيكل» الذي ترونه رمزًا ما هو إلا أكذوبة كبرى، هو لم يعارض الرئيس السادات إلا بعدما أزاحه من الأهرام وليس العكس كما يدعي، فقبل ذلك كان مستعدًا لأن يصنع منه أسطورة كما فعل مع عبد الناصر، لكن السادات ذكي وعمل لسنوات

داخل مطبخ الصحافة ويعرف هذا الشخص جيدًا فتركه يخطط لإزاحة مجموعة مايو، وبعدها لم يأمن له حتى أخرجه من المشهد تمامًا، وها هو يعتقله...

قاطعه رءوف:

ـ ليس في هذه القرارات أي ذكاء، فقد قدم لخصومه أكبر خدمة وأولهم هيكل، الذي أظنه الآن في غاية السعادة، لأن حبسه لأيام سيصنع منه بطلًا لسنوات.

لزمت عزة الصمت وهي تستمع لهما بذهول، ثم قالت لزهير بصوت خفيض وإن لم يخلُ من حدة:

ـ تقول إن الأستاذ اشترك في انقلاب مايو، فهل لديك دليل، أم أنك فقط تبوح بمكنونات نفسك؟

ضرب الرجل كفًّا بكف تعبيرًا عن اليأس وهو ينظر لرءوف، الذي قال موجهًا كلامه لعزة:

ـ ما قاله الأستاذ زهير معروف وموثَّق، وقد بدأه هيكل بمقال «عبد الناصر ليس أسطورة» استخدم فيه أسلوبه المعروف في قول الحق الذي يُراد به باطل ليهيل التراب على رجال عبد الناصر وزمنه بحلوه ومُره...

ثم مستدركًا بلهجة مغايرة:

ـ الأستاذ هيكل صحفي عبقري لكنه إنسان بلا مبادئ، هو يستخدم موهبته الفريدة في الترويج للفكرة وعكسها، وفي صناعة الرموز ثم هدمها حسب مصالحه الشخصية.

حملقت عزة في وجهه مذهولة، فقد كانت المرة الأولى التي

تسمعه يتحدث عن هيكل بهذه الطريقة.. المسألة إذًا ليست مجرد أحقاد زهير.. همت بالكلام، فسبقها زهير متشجعًا بصراحة رءوف:

ـ وشهد شاهد من أهلها...

ثم موجهًا كلامه لعزة:

ـ هيكل يا ابنتي أسطورة مزيفة آنَ لجيلكم المخدوع أن يكشف حقيقتها وحقيقة تآمرها على الوطن.

شجعه صمتها، فقام إلى خزانة الكتب وأخرج منها دوسيهًا ضخمًا يحوي مواد أرشيفية تناول منها ورقة، ثم عاد لمقعده وهو يقول:

ـ «الأستاذ» يفخر دائمًا بوثائقه، ونحن أيضًا لدينا وثائقنا...

ثم وهو يناولها الورقة:

ـ إليكِ صورة من مقال كتبه عام ١٩٤٤ بمناسبة ذكرى جلوس الملك فاروق على عرش مصر.

ترددت قبل أن تتناول الورقة من يده كأنها تمسك ثعبانًا، وهي تتساءل بصوت مخدوش:

ـ الملك فاروق؟

ـ المقال عنوانه «في يوم عيدك يا مولاي»، انظري لكلمات النفاق التي أغدقها على الملك، ثم وهو يستشهد كعادته بالأجانب للتدليل على صدقه، فيحكي أن ضابطًا أمريكيًّا لم يتمالك نفسه حين رأى فاروق في حفلة فانطلق يهتف: «ليحفظ الله الملك»، ثم قال لهيكل: «إنني لم أهتف حتى لروزفلت نفسه ولكن ملككم هذا رجل عظيم»!

انفجر رءوف مقهقهًا، فيما قبضت هي بأصابعها على المقال وأخذت تقفز بعينيها بين سطوره وقد ألجمها الذهول.

❊ ❊ ❊

وهي تجتاز شارع الجلاء بسيارتها البيضاء نصر ١٢٨، التي ابتاعتها أخيرًا بالتقسيط، كانت تسترجع كلماته التي كتبها تعظيمًا للملك الذي وصفه فيما بعد بالفاسد، تقارنها بفقرات حفظتها قديمًا بعدما قصتها من الجريدة لتصنع منها أرشيفًا خاصًّا رافق عمرها، مذ نحَّت حكايات سندريلا جانبًا واحتضنت بكفيها الصغيرتين جريدة الأهرام تتطلع لصورته الواثقة وتصدق صراحته.. «بصراحة»! الصحافة.. الخيانة باحتراف.

امتلأت عيناها بالدموع، وخايلها شبح الآخر النقيض على زجاج السيارة الأمامي في شموخه القديم وفي استقامته وإخلاصه، الإخلاص.. ذاك الميراث الذي أثقل كاهلي..

العقيد عبد المنعم عياد.. بابا.. وحشتني.

انسابت دموعها ساخنة، وباغتها حنين جارف لمصطفى فابتسمت، في آخر خطاباته أخبرها بعزمه قضاء إجازة أعياد الميلاد بمصر.. يااه، أخيرًا، ثلاثة أعوام كاملة، تُرى ماذا فعل الزمن بنا جميعًا؟

اشتاقت لأصدقاء الماضي، لم تستبدل بهم صداقات العمل التي ظلت دومًا على المحك ممزوجة بالغيرة المهنية وبالمقالب المنحطة، قالت لها «بهيرة مختار» يومًا: «إنها خصوصية العمل الصحفي، إما أن تنجحي وإما أن تحتفظي بصداقات حقيقية». وهي اختارت النجاح، بل التألق، أما أصدقاء العمر فأين هم؟

لو لا حماقة مايكل وعنف محمد وغباء مني لاستمرت صداقتنا، لكن مهلًا، هل كانت مني غبية فعلًا حين اتهمتها بالاهتمام بمصطفى؟ اتسعت ابتسامتها وشعرت بحنين إلى صديقتها.

تجمدت علاقتنا منذ ليلة «مينا هاوس»، ولما علمتُ بوفاة والدها ذهبتُ لأعزيها فقابلتني بفتور أرجعته لصدمة رحيل الأب.

والجميلة ماهيتاب؟ قضت شتاء عام ١٩٧٩ تتدرب في الولايات المتحدة، فانتقل درس الخميس إلى منزل أخت أخرى، ولما عادت لم تستعده واستغرقها إنجاز رسالة الدكتوراه فانكمشت علاقتنا إلى حدود المهاتفات التلفونية في الأعياد.

وابتلعتني دوامة العمل والمنافسة فانقطعت عن دروس الشيخ «إبراهيم عزت» مكتفية بسماع خُطَبه المسجلة على شرائط كاسيت، حتى هو اعتقلوه.. تحفظوا عليه، لمَ؟ الرجل لا يتحدث إلا عن عبادة الله وتهذيب النفوس، لكن يبدو أن كل أفعال الإنسان في حقيقتها سياسة كما كان يردد مصطفى.. وحشتني يا بول.

نظرتْ في ساعتها، ما زال الوقت مبكرًا ومنذ قبضتُ مرتبي وأنا أريد شراء حقيبة جديدة، وسط البلد مزدحم رغم أن اليوم الأحد، لكن كثيرًا من المحلات أقلعت عن الإغلاق يوم الأحد وأصبحت تغلق فقط وقت صلاة الجمعة، فلأذهب للتسوق في شارع جامعة الدول العربية، المكان هناك هادئ والبوتيكات التي بدأت تفتح في المهندسين أرقى كثيرًا من محلات وسط البلد.

في زحام شارع الدقي، والسيارات تزحف زحفًا، التفتت يسارها فلمحت طارق شتا يقود سيارة أوبل وإلى جواره سيدة

منتقبة.. ماهيتاب.. هتفت مغتبطة وهي تمرق بين السيارات لتلحق بهما، أضاءت إشارة المرور الحمراء في اللحظة التي حاذت فيها سيارتهما، أخرجت رأسها من النافذة لتلفت نظرهما، استدارت السيدة المنتقبة ناحيتها لحظة ثم أولتها ظهرها بحركة متوترة، ليست ماهيتاب، مَن تكون؟ منى! التقت عيوننا فلا مجال للشك، أعرف عينيها اللوزيتين البُنيتين جيدًا ونظرة منى لا أخطئها أبدًا ولو تنقبت، متى ارتدت النقاب؟ ولمَ ارتبكت حين رأتني؟ ولماذا تركب السيارة مع طارق؟

أضاءت الإشارة الخضراء، فانحرفت السيارة الأوبل إلى اليسار باتجاه شارع وزارة الزراعة، وانطلقت هي بسيارتها إلى شارع البطل أحمد عبد العزيز.

لم يُلهِها التسوق عند «سور نادي الزمالك» عن التفكير في المنظر الغريب الذي باغتها عند إشارة الدقي، وفي حوالي الخامسة عصرًا كانت تضغط جرس شقة صديقتها القديمة.

فتحت منى الباب ولم تبدُ عليها المفاجأة كأنها كانت تتوقع حضورها، لم يغب عن عزة برودة قُبلاتها ولا أنها اصطحبتها لحجرة الجلوس وليس لغرفتها الخاصة كما اعتادت قديمًا.

ما كان الموقف يحتمل مزيدًا من الاستفسار عن الأحوال أو عن صحة الوالدتين الأرملتين، فسألتها عزة دون مقدمات:

ـ هل تعرفين لمَ جئتُ الآن وبغير اتصال؟

أجابتها منى دون اكتراث، كأنها هيأت نفسها مقدمًا لهذا الموقف:

ـ أعرف طبعًا، وكنت أتوقع مجيئكِ بعدما تقابلنا في شارع الدقي.

ـ لم يخطئ حدسي إذًا، أنتِ التي كنتِ في السيارة مع طارق زوج ماهيتاب.

ـ وزوجي أنا أيضًا.

ـ ماذا؟

صاحت عزة بفزع وهي تحملق في وجه منى الذي بدا جامدًا كأنها لم تُلقِ للتو قنبلة، أعادت السؤال بصوت هامس كمَن يخشى سماع الإجابة:

ـ قلتِ زوجكِ؟ هل تزوجتِ طارق شتا؟

ـ نعم، ما لك؟

ـ كيف حدث هذا ومتى ولماذا؟

ـ تزوجنا من حوالي عام، بعد وفاة بابا الله يرحمه.

ـ وهل وافقتْ ماما وإخوتك؟

بان على وجه منى العزوف عن الجدل حول هذا الأمر، فأجابتها بلهجة حاسمة:

ـ وافقوا طبعًا، أخي الأكبر كان وكيلي في عقد الزواج وأُقيم أنا وزوجي مع ماما كما ترين.

سألتها عزة بإشفاق:

ـ وماهيتاب، هل عرفت؟

ـ أخبرها طارق قبل زواجنا بفترة لتعمل حسابها.

ـ تعمل حسابها؟

ـ أقصد فيما يتعلق بتفاصيل الحياة وترتيبات تنقله بين البيتين.

ضغطت عزة بأطراف أصابعها على صدغيها وهي تقول:

ـ لا أصدق أن منى رجب هي التي تتحدث أمامي بهذه البساطة عن موضوع مخيف كهذا.

تكلفت منى ابتسامة متعالية، وهي تتناول كوب عصير من فوق الطاولة لتقدمه لعزة، قائلة:

ـ تتكلمين كما لو أنكِ لستِ مسلمة ولا تعرفين شيئًا عن شرع الله.

تمتمت عزة بذهول، وهي تزيح يد منى الممسكة بالكوب بعيدًا عنها:

ـ شرع الله؟

ثم تساءلت بإشفاق:

ـ ماذا كان موقف ماهيتاب حين أخبرها زوجها أنه سيتزوج عليها؟

أعادت منى كوب العصير إلى الطاولة، ووضعت ساقًا على ساق وهي تقول:

ـ تقبلت الأمر بهدوء، فأنتِ تعرفين أنها مسلمة ملتزمة بشرع الله وتعلم أن تعدد الزوجات من حق الرجل، بل واجب عليه في مثل هذه الحالة.

ـ أية حالة؟

ـ ماهيتاب لم تُنجب رغم مرور سنوات طويلة على زواجهما، وأنا الآن حامل والحمد لله.

أوشكتْ أن تقول «مبروك» على سبيل التهكم إلا أنها لم تقوَ على نطق الكلمة، وسألتها باهتمام:

ـ هل عرضتْ نفسها على الأطباء بالخارج؟ والدها أكبر أستاذ في علاج العقم والتلقيح الصناعي فلماذا لم تلجأ هي وطارق...

قاطعتها منى بقسوة:

ـ ماهيتاب مريضة بالسرطان.

صرخت عزة بالْتياع وهي تغلق فمها بباطن كفها بحركة تلقائية:

ـ السرطان؟

ـ للأسف نفس حالة والدتها، أرأيتِ أن طارق كان معذورًا حين فكر في الزواج.

كادت تستدير إليها لتصفعها، لكنها كبحت انفعالها وهي تقوم من مقعدها وتسحب حقيبة يدها لتمضي مسرعة نحو باب الحجرة قائلة:

ـ سأنسى هذه الزيارة كي أُبقي على ذكريات صداقة قديمة انتهت تمامًا لأني منحتها لإنسانة أخرى ماتت اليوم، أما أنتِ فقد فقدتِ ضميركِ وإنسانيتكِ أيضًا.

ضحكت منى باستخفاف مستفز، وقالت وهي تنهض لتُشيعها للخارج:

ـ أما أنتِ فلم تتغيري أبدًا، ما زلتِ متسرعة في أحكامك، وتظنين نفسكِ تعرفين كل شيء وأنكِ مسؤولة عن نظام الكون والآخرين لا يفهمون مثلكِ ولا يحسنون التصرف، وأصبحتِ تجادلين حتى في الدين وفي الشرع، ربنا يهديكِ.

كادت تنفجر فيها لكنها أحجمت ليس إيثارًا للسلامة بل استخفافًا بها، رمقتها بنظرة ازدراء ثم فتحت باب الشقة وانطلقت، وبعدما تجاوزت بضع درجات من السلم الصاعد للشقة العلوية سمعت صوت الباب يُغلق بعنف، فاقتحمها شعور غير متوقع بالراحة وقد أدركت أن علاقتها بمنى انتهت إلى الأبد.

* * *

فتحت المربية السودانية العجوز الباب، سألتها عن ماهيتاب فأخبرتها أنها تقرأ كتابًا في غرفة نومها.

لم تكد المربية تدعوها للدخول حتى وجدت نفسها في أحضانها، تعانقتا طويلًا قبل أن تتهاوى ماهيتاب على مقعدها، فيما جلست عزة على طرف السرير المجاور مائلة بجذعها ناحيتها مسندة مرفقيها على يد المقعد كأنما تخشى أن تفر من بين يديها.

تطلعت إليها طويلًا فتراءت لها كملاك أنهى مهمته على الأرض ويستعد للصعود، كانت تلبس رداء منزليًّا أبيض اللون وقد بهتت بشرتها حتى صارت في لون الرداء، واستحالت ظلالها الوردية القديمة هالات زرقاء حول عينيها المنهكتين وعلى خديها الغائرين وكفها المعروقة المستسلمة كطائر مهيض بين كفَّيْ عزة اللتين احتضنتاه بحنان، وقد جمعت ما تبقى من شلالها الذهبي داخل بونيه تراجَعَ للخلف قليلًا كاشفًا عن خط الشعر الأمامي المنحول.

رفرف قلب عزة بين ضلوعها حين رأتها، هذه الشمعة النبيلة التي احترقت وهي تنير الطريق للآخرين، ها هي تذوب وتتلاشى، لم تقوَ على الكلام خشية أن تخونها دموعها فأخذت تتأملها صامتة فطالعها نوع جديد من جمال قادم من الأعماق انعكس نوره على وجه صاحبته وعلى كل ما يحيط بها.

قالت ماهيتاب بصوت ضعيف:

ـ اطمئني يا حبيبتي، فالطب أحرز تقدمًا كبيرًا في علاج هذه الحالة، وقد أخذْتُ بالأسباب وأخضع الآن لعلاج جديد أسأل الله تعالى أن يجعله سببًا للشفاء، وكل شيء عنده بمقدار.

سألتها بنبرة مرتعشة وقد اغرورقت عيناها بالدموع:
ـ هل استشرتِ الأطباء بالخارج؟
ـ سافرت إلى أمريكا في شهر مايو بمجرد اكتشافي للمرض، دخلت المستشفى هناك لفترة وأخبرني الأطباء أن حالات كثيرة مماثلة عولجت وشُفيت تمامًا بفضل الله تعالى.
تنبهت عزة لشيء ما فسألتها لتتأكد:
ـ هل قلتِ إنكِ اكتشفتِ المرض في مايو من هذا العام؟
ـ نعم، شعرت بالتعب في منتصف أبريل تقريبًا فأجريت تحاليل سريعة ثم في أقل من شهر كنت في «كليفلاند كلينيك»، والفضل لله وحده فقد تيسرت الإجراءات بشكل غريب رغم أن قائمة الانتظار كانت ممتلئة عن آخرها لاقتراب جدول إجازات الأطباء هناك.
ترددت عزة قليلًا قبل أن تفصح عن مغزى سؤالها:
ـ هذا يعني أنكِ أُصبتِ بالمرض بعدما فعل طارق فعلته.
ـ أية فعلة؟ تقصدين زواجه من صديقتك؟
رفعت عزة كفها بحسم، وأشاحت بوجهها بحركة تلقائية وهي تقول:
ـ ليست صديقتي بعد الآن.. انتهى!
ربتت ماهيتاب على ركبتها برفق، وابتسمت قائلة:
ـ لا تكوني قاسية على منى فهي إنسانة مسكينة ضعيفة وليست قوية الشخصية مثلك.
لمحت عزة عَبَرات تترقرق في عينيها رغم بسمة الشفاه، فقامت

من مكانها وجلست القرفصاء أمامها على الأرض واحتضنت ساقيها بحنان بالغ:

ـ إنه لا يستحقك يا ماهي، هل طلبتِ الطلاق؟

هزت ماهيتاب رأسها علامة النفي، ووضعت يدها على كتف عزة وهي تقول بنبرة متماسكة:

ـ مشكلتكِ أنكِ مثالية، لذا تطلبين الكمال في كل مَن حولكِ، وهذا أمر لا ينتمي لواقع البشر فالناس تتباين كثيرًا وما تقدرين عليه أنتِ لا يقدر عليه آخرون، فالضعف إحدى سمات البشر.

ـ هل تقصدين أن ضعفكِ تجاه طارق يمنعكِ من طلب الطلاق؟

عادت ماهيتاب تهز رأسها نافية وهي تقول:

ـ لم أكن أتحدث عن نفسي، فعلاقتي بطارق تجمدت نهائيًّا منذ زواجه، وهذا تم بشكل تلقائي دون أن نقرره أو نتحدث بشأنه، لكني مع ذلك لن أطلب الطلاق.

ـ لمَ؟

ـ كي ينشأ أبناؤه بيننا في هدوء دون حساسيات تؤثر على بيئتهم التربوية.

صكت عزة جبينها بأناملها وهي تهتف ضاحكة:

ـ أوه! تتهمينني بأنني أنا المثالية، فما بالكِ أنتِ؟

ـ ما أقوله ليس مثالية لكنه قبول للواقع والتعامل معه كما هو، اسمعي! طارق لن يبقى لمنى وحدها وإنما سيتزوج غيرها ربما أكثر من مرة، فهو بطبعه تعدُّدي المشاعر ويغطي ضعفه بغطاء شرعي يحميه من تأنيب الضمير.

ـ آه، شرع الله كما يقولون، ألا يوجد في شرع الله غير موضوع تعدُّد الزوجات هذا؟

خبطت ماهيتاب كتف عزة برفق وقالت معاتبة:

ـ الشريعة عظيمة ولا يجوز إنكار تعدُّد الزوجات ولا الاستخفاف به، المشكلة ليست في الحكم الشرعي نفسه، لكن في كيف يفهمه الناس وكيف يطبقونه ولماذا، وهنا قد يختلف المسلمون من النقيض للنقيض.

فسألتها عزة باهتمام:

ـ ماذا تقصدين؟

ـ الشريعة الإسلامية كالأفق الواسع ليس له حدود، لكن البشر يختلفون، فمنهم القوي والضعيف، والذكي والغبي، ومُتَّسِع الرؤية وضيقها، وليس معنى إسلام شخص أو التزامه أنه سيفقد صفاته الأصلية، فالناس معادن كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالضعيف سيظل ضعيفًا، ومَن في قلبه مرض سيبقى كذلك بعد تدينه والتزامه، وكما أن بعض الناس لديهم قِصَر نظر لا يرون إلا الأشياء القريبة، وبعضهم يرى أبعد وأبعد ويبقى الأفق أبعد من كل الناظرين، فكذلك الشريعة ليس هناك مدى لاتساعها لكن كل شخص يرى منها على قدر نظره وفهمه وهواه أيضًا.

ـ تعترفين إذًا بأن الهوى يدخل في الموضوع، فهل الشريعة نزلت لنستخدمها في تغطية نزواتنا ونزعاتنا الشريرة؟

ـ طبعًا لا، الشريعة نزلت لتُهذب أهواء الناس وتحميهم من الاندفاع غير المحكوم، فالرجل الضعيف تجاه النساء سيُعدد

ارتباطاته سواء في الحرام أو في الحلال، والشريعة تحمي الإنسان من ذل علاقات الخفاء، وتحمي المجتمع من نتاجها كالأطفال اللقطاء الذين أصبحوا الآن ظاهرة تهدد البلد.

قامت عزة من مكانها على الأرض، ووقفت تعيد ترتيب ملابسها وهي تقول بلهجتها المتحدية:

ـ ولِمَ لا يكون التدين دافعًا لِلَجْم هذه الأهواء، فلا يظل الرجل فارغ العينين ولا تخطف «واحدة نذلة» رجلًا من زوجته.

ـ هذه هي المثالية الخيالية التي أخشى عليكِ منها، الإسلام دين واقعي، ولأن شريعته من الله سبحانه فهي تتعامل مع خلق الله باختلافاتهم وتنوعاتهم، فهي تنظم وتحمي وتقنن وتعاقب، لكنها لا تصنع من البشر ملائكة بلا ضعف وبلا أخطاء.

تناولت عزة حقيبة يدها استعدادًا للذهاب، فسألتها ماهيتاب:

ـ ما أخباركِ أنتِ؟ منذ فترة طويلة لم أقرأ اسمكِ على تحقيق جديد.

أجابتها ضاحكة وهي تعلق حقيبتها على كتفها:

ـ الأهرام مشغولة بثورات الزعيم...

ثم مستدركة بجدية:

ـ لكن خطر لي الآن موضوع تحقيق جديد عن ظاهرة أطفال الشوارع، ولو وافقوا عليه فستكونين أنتِ أول مصادري لخبرتكِ الطويلة في مجال الأطفال.

بعدما قبّلتها وهي ممسكة بكتفيها لتمنعها من القيام لتوديعها، قالت ماهيتاب:

ـ عزة، لا تكوني قاسية على منى فهي إنسانة طيبة لكنها ضعيفة...

ثم أسندت رأسها على ظهر المقعد ونظرت بعيدًا وهي تتمتم بنبرة راحلة:

ـ وطارق أيضًا.

* * *

الإثنين ٢٨ سبتمبر ١٩٨١

انتصف الليل، لملمت أوراقها وراحت تستعد للنوم حين تذكرت أنها نسيت أشياء مهمة في السيارة، وضعت طرحة الصلاة فوق رأسها ونزلت مسرعة.

وهي تغلق حقيبة السيارة بعدما تناولت أغراضها، التقت عيناها بعينيه لحظة خاطفة قبل أن يسترد بصره وقد ارتسم على وجهه تعبير كالدهشة.

تسمرت مكانها، فقد كان يشبه صورة قديمة لأبيها في بداية التحاقه بالجيش، جسده القوي الممشوق، ملامحه الرجولية المقتحمة، عيناه العميقتان، ذقنه الحليق، وشاربه الأسود الأنيق، لكن ملابسه كانت مختلفة تمامًا حيث ارتدى جلبابًا أبيض اللون وغطى رأسه بشال كبير لفه حول رقبته وصدره.

تلفت حوله بحذر، ثم مرق مسرعًا من المدخل الخاص لبيت الفلسطيني، تاركًا إياها واقفة مكانها تتساءل بفضول عمَّن يكون.

(٨)

ـ خالد الإسلامبولي.

ـ ...

ـ ملازم أول «خالد الإسلامبولي».. ضابط بسلاح المدفعية.

بُوغت رغم انتظاره للضيف.

كان عثمان عبد الكريم يعرِّفه، فقاموا يصافحونه ويعانقونه فيما بقي إسماعيل يتطلع للوجه الذي باغته كقذفة ضوء في عيونٍ وَسْنَانة.

العقيد.. الملازم.. عبد المنعم.. خالد، كأنه انتفض من رقدته الأبدية فأرداه صبيًّا يتعلق بعنقه ويحتمي بساعده القوي من غيلة اليتم.

صافحه وهو يتساءل بنبرة لم تتملص بعد من شراك البغتة:

ـ شقيق أخينا «محمد الإسلامبولي»؟

أجابه عاصم شافعي:

ـ نعم، والأخ خالد انتظم معنا في العمل الإسلامي منذ فترة.

سأله جمال حجازي بإشفاق:

ـ ما أخبار الأخ محمد؟

تمتم خالد:

ـ لله الحمد والمنة، حاولنا أن نحصل للوالدة على تصريح لزيارته لكنهم رفضوا بكل خسة.

صاح مختار بغضب وقد تكورت قبضته:

ـ لا بد أن يدفع المجرم ثمن حبس وتشريد الآلاف من خيرة شبابنا.

فقال خالد بصوت هادئ عميق:

ـ هذا ما جئت من أجله الليلة، لقد قررت أن أقتل فرعون!

توالت حملات اعتقال المعارضين طوال شهر سبتمبر، وطالت عشرات من شباب الجماعة الإسلامية في الجامعات ممن قاموا بأنشطة دعوية وحسبية علنية أو شاركوا في المظاهرات المعارضة لاتفاقية السلام مع إسرائيل، ففر عدد كبير منهم واختفوا في أماكن غير مرصودة، وهكذا انتقلت حنان بطفليها إلى شقة حماتها بالطابق الثاني ليتمكن إسماعيل من استضافة بعض الشباب الفارين من مداهمات الشرطة على منازل أُسرهم بالصعيد، والذين ظلوا يتنقلون ـ وقد حلقوا لحاهم وغيروا من هيئاتهم ـ بين بيتَي إسماعيل ومختار وشقة مستأجرة ينزل بها والد جمال حين يأتي للقاهرة لبعض أعماله.

فيما هم في هروبهم وترقبهم ينظرون، بلغهم نبأ القبض على «نبيل المغربي» متلبسًا بحقيبة مملوءة بالسلاح، فأدركوا أن أول خيطٍ للتنظيم المسلح قد وصل ليد الأمن، وأن التمويه عن طريق الأنشطة العلنية ما عاد يُجدي.

كانت الضربة قوية والتهديد مخيفًا، فتشتت الجمع، وأحيط لقاء الليلة بين خالد والرجال الستة ـ من أعضاء مجلس الشورى الموحد: إسماعيل، مختار، أيمن، عثمان، عاصم وجمال ـ بأعلى درجات السرية.

تطلعوا لوجهه فاسترسل:

ـ تم اختياري للمشاركة في العرض العسكري لاحتفالات ٦ أكتوبر ووضعتُ خطة كاملة لقتل السادات أثناء طابور العرض.

قالها ببساطة كأنما يتحدث عن مناورة روتينية.. حبسوا أنفاسهم محاولين استيعاب ما قال، وسأله أيمن عبد الظاهر بارتياب:

ـ ألم تلفت نظرك مفارقة أن يتم اختيارك للمشاركة في عرض عسكري أمام رئيس الجمهورية في نفس توقيت اعتقال شقيقك؟

تشتت انتباههم لحظة وقد أحسوا بما تحمله المفارقة من مخاطر، لكنَّ خالد أجابه بنفس البساطة:

ـ هذه المسألة لفتت انتباهي فعلًا، خصوصًا أن قائد اللواء منحني إجازة للسفر للاطمئنان على والديَّ بعدما أريته اسم محمد منشورًا في الجريدة ضمن المُتحفظ عليهم.

عقَّب أيمن بلهجة المنتصر:

ـ إذًا الموضوع واضح، ووراء الأكمة ما وراءها.

فقال خالد بثقة:

ـ هذه الأمور كانت أمامي بل طرحتها صراحة على قائد الكتيبة، فأجابني بأن كل شخص مسؤول عن عمله، وأنه لا يوجد في ملفي ما يمنع اشتراكي في العرض، ومع ذلك حاولت الاعتذار عن الاشتراك عدة مرات لأني أعرف أني مراقَب من أمن اللواء، وسبق استدعائي للمخابرات الحربية بتهمة أنني أُصلي بالجنود وأرتل القرآن أمامهم.

ضحكوا بمرارة، وقال أيمن:

ـ كل هذا يؤكد مخاوفي.. لكنك تقول إنك اعتذرت، فماذا حدث؟

ـ رفض قائد الكتيبة قبول اعتذاري وأصر على مشاركتي في العرض، مؤكدًا أنه لا توجد لديه أوراق رسمية بمتابعتي أو

باستخدام أسلوب خاص في التعامل معي، خصوصًا وقد سبق اشتراكي في مثل هذه العروض، ولما وجدت إصراره لمعت الفكرة في رأسي وارتاحت لها نفسي وعلمت أن مشيئة الله اختارتني لإنجاز هذه المهمة المقدسة، فقلت له: «لتكن مشيئة الله».

قطَّب أيمن جبينه وهمَّ بالكلام، فاندفع مختار فايد قائلًا:

ـ إذا قدر الله سبحانه أمرًا أنزل العمى في عيون أعدائه «فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ».

هز أيمن رأسه معترضًا وهو يتمتم:

ـ أخشى أنهم يبصرون جيدًا ويخططون لأمر ما.

فزم مختار شفتيه قهرًا، وتساءل إسماعيل:

ـ لكن ماذا يستطيع شخص بمفرده وسط قوات مسلحة تحيط بالهدف المطلوب؟

فقال خالد بحماس:

ـ لقد وضعت خطة متكاملة لتنفيذ المهمة.

ـ كيف؟ هل لك أن تشرح لنا كيف يمكن لضابط من بين آلاف الضباط المشاركين في العرض أن يقتل القائد الأعلى للقوات المسلحة؟

تطلعت عيونهم إليه، فبدأ يتحدث بنبرة هادئة ولمَّا تزايل الابتسامة وجهه:

ـ بعد تكليفي رسميًّا قمت مع وحدتي بعمل تجربة لطابور العرض على الطبيعة، ودرست جيدًا المساحة وخط السير والمسافة

بيننا وبين المنصة الرئيسية، ثم حدث أمر آخر جعلني أتيقن أن اشتراكي في العرض سيكون بإذن الله سببًا لتخليص مصر من فرعون.

فسأله مختار بشغف:

ـ ما هذا الأمر؟

اتسعت ابتسامة خالد وهو يجيبه بحماس:

ـ عندما توجهت يوم الخميس الماضي لموقع تمركز قوات العرض لأرتب أفراد الوحدة اكتشفت غياب ثلاثة منهم، فشعرت أن هذا من أقدار الله، لذا لم أُبَلِّغ بغيابهم كما هي العادة لأتمكن من الاستعانة بثلاثة من الإخوة وتسهيل دخولهم لمنطقة التجمع، باعتبارهم جنودًا ملحقين بالوحدة، ثم يركبون جرار المدافع الذي أقود طابوره بحيث نقوم نحن الأربعة بإطلاق النار بمجرد وصولنا لأقرب نقطة من المنصة الرئيسية.

انتقلت حماسته إليهم، فهتف مختار وعثمان وعاصم بصوت واحد:

ـ الله أكبر.. الله أكبر.

فيما بقي أيمن وجمال صامتَيْن، وسأله إسماعيل:

ـ ومَن هم الرجال الثلاثة الذين سيحلون محل الجنود المتغيبين؟

أجابه خالد بنفس الهدوء:

ـ عرضت الأمر على أخ ملتزم كان ضابطًا بالجيش وتركه احتجاجًا على اتفاقية «كامب ديفيد»، تردد في البداية وحاول إقناعي بالعدول عن الفكرة، ولما شرحت له الخطة بكل

تفاصيلها فهو برؤيته العسكرية اقتنع وتحمس للاشتراك معي، وقال إنه سيبحث عن اثنين من الإخوة العسكريين وسيخبرهما بأن هناك مهمة استشهاد في سبيل الله، وأنا متأكد أنه سيجد رجالًا كل أمنيتهم أن يخلصوا الجيش والبلد من هذا المجرم الخائن.

فسأله مختار:

ـ وما هي المساعدة المطلوب أن نقدمها لكم؟

ـ سنكون بحاجة إلى ذخيرة حوالي ٢٠٠ طلقة منها طلقات خارق حارق، وقنابل يدوية وإبر ضرب نار، وقد نحتاج لأخوين مُدرَّبَيْن على الرماية ليشاركا معنا إذا لم نجد البديل بسرعة.

لزموا الصمت وهم يتبادلون النظرات، وأخيرًا قال أيمن في محاولة لإنهاء الموضوع:

ـ نحن لسنا مُخولين بالموافقة على هذا الأمر إلا بعد الرجوع إلى قياداتنا.

عثمان معترضًا:

ـ لكنك تعلم يا دكتور أن الأخ وائل معتقل، والأخ منصور هرب منذ بدأت حملة الاعتقالات، وحتى الشيخ عمر مختفٍ ولا نعرف طريقه.

قال إسماعيل موجهًا كلامه لخالد:

ـ ما زال أمامنا أسبوع كامل قبل موعد العرض، فاطمئن يا أخي الحبيب أننا سنبحث الموضوع جيدًا ولن نتخلى عن مسؤوليتنا.

وهمس خالد لإسماعيل وعثمان وهما يودعانه عند الباب:

ـ سأنفذ الخطة بإذن الله سواء وافقت الجماعة أو لم توافق.

قالها بنبرة حاسمة ثم ولَّى مسرعًا.

❋ ❋ ❋

ران عليهم صمت ثقيل، وكلما هم أحدهم بالكلام تراجع منكسًا رأسه في محاولة للفرار من عيون الآخرين.

وأخيرًا خرق أيمن عبد الظاهر جدار الصمت، متسائلًا بلهجة توحي بالإجابة:

ـ لعل أحدكم لم يأخذ كلامه مأخذ الجد؟

فسأله مختار متحديًا:

ـ ولِمَ، هل داخَلك شك في إخلاصه؟

ـ لا أبدًا، إن وجهه يشع إخلاصًا، لكن الإخلاص وحده لا يكفي مع شخص شديد الاندفاع والتهور كما رأيتم.

لاح الغضب على وجه مختار، وقبل أن ينطق قال عاصم شافعي معاتبًا:

ـ اسمح لي أخي الكريم، أنت مخطئ في تقييمك لأخينا خالد، فلم يُعرف عنه يومًا النزق أو التهور بل على العكس فهو إنسان متزن وحكيم، لكن التربية العسكرية تجعل صاحبها حازمًا في أمره وإذا وصل إلى قرار مضى في تنفيذه دون نظر للمخاطر.

وأضاف مختار:

ـ قرار خالد يعكس شجاعة وليس اندفاعًا أو تهورًا كما تقول، الرجل مُقدِم على شهادة في سبيل الله، فهل بعد هذا الكلام كلام؟

أحس أيمن بالحرج، إذ بدا كأنه انزلق دون قصد إلى تقييم سلبي لشخصية الفتى، فقال بنبرة مغايرة أفرغ فيها ما وَسِعَه من ود:

ـ لا أختلف معكما في تقييمكما للأخ خالد، لكن هذا لا يعني أن نخالف منهج الجماعة ونخرج عن الخطة الأصلية التي سِرنا عليها طوال الفترة الماضية للوصول إلى ثورة شاملة تقتلع النظام من جذوره.

تذكر إسماعيل محاوراته مع وائل، فعاوده الصراع الداخلي بين مشاعره وقناعاته، بين رغبة القصاص المختمرة في أحشائه منذ سنوات، وبين خطة طويلة الأمد بايع عليها معطيًا صفقة يده وثمرة قلبه.

تمتم كأنه يحدث نفسه محاولًا الخروج من أزمته بقذفها في اتجاه آخر:

ـ خالد مصمم على تنفيذ خطته سواء وافقت الجماعة أو لم توافق.

وقال عثمان بلهجة تحريضية:

ـ أنا على يقين من أنه سيمضي فيما انتواه، ولن يتراجع مهما حدث.

فأسرع مختار كأنه كان ينتظر الإشارة:

ـ المسألة إذًا خرجت من أيدينا وعلينا أن نتعامل معها باعتبارها حدثًا طارئًا خارج خطتنا كحملة الاعتقالات مثلًا، والخطط عمومًا أمر قابل للتعديل، فهي ليست أصنامًا تُعبد من دون الله.

عاد أيمن ليقول بلهجته الحاسمة الخالية من الود:

ـ قَتْل السادات قبل إحكام سيطرتنا على الأهداف معناه إجهاض فرصة الثورة الشعبية وأن تمضي سفينتنا إلى المجهول.

فصاح مختار، وقد استفزته كالعادة تلك اللهجة التي توحي بالتعالم:

ـ ألم تدرك بعد يا دكتور أن سفينتنا بالفعل في قلب بحر المجهول، وأن السادات قرر تصفية الحركة الإسلامية كلها وسيفعل بنا ما فعله عبد الناصر بالإخوان لو صمتنا واستسلمنا كما استسلموا.

توتر الجو، وتناول إسماعيل طرف الحديث في محاولة للتهدئة فقال موجهًا كلامه لأيمن:

ـ الحقيقة أن المتغيرات التي حدثت أخيرًا، خصوصًا حملة الاعتقالات والقبض على الأخ نبيل أثناء نقله للسلاح، تفرض علينا معاودة النظر في الخطة الأصلية حتى لا نؤخذ بغتة وتتم تصفية الجماعة قبل أن نفعل أي شيء.

وأردف مختار متشجعًا بميل إسماعيل لرأيه:

ـ ولو لم ننفذ نحن هذه العملية فقد ينفذها آخرون من خارج الحركة الإسلامية كلها.

فقال عثمان عبد الكريم:

ـ أخبرني أخي خالد أن هناك حالة تذمر داخل الجيش خصوصًا بعد تفجير طائرة «الفريق أحمد بدوي»، فالضباط يعتقدون أنها مؤامرة من السادات لتصفية أبطال حرب أكتوبر، وكثير منهم يتمنى قتل السادات انتقامًا لدماء وزير الدفاع والقادة الذين قُتلوا معه، لذا رأى خالد أن أبناء الحركة الإسلامية أَوْلَى من غيرهم بهذا الشرف.

خرج جمال حجازي عن صمته معبرًا عن بعض ما يموج بداخله:

ـ لكن الفرق أن الحركة الإسلامية لا تتصرف هكذا بغير ضوابط شرعية.

سأله عثمان وقد بُوغت:

ـ ماذا تقصد؟

ـ قصدي واضح، فقد اتفقنا من البداية أن نعرض جميع المسائل المتعلقة بالدماء والأموال على الشيخ عمر لإبداء الرأي الشرعي فيها.

صرخ فيه عثمان بصوت تجاوز حدود التخفي والأمان:

ـ الشيخ عمر هارب الآن، فهل تريد أن نُجمد حركتنا حتى يقبضوا علينا جميعًا ونتعرض لأهوال التعذيب في سجون المجرمين؟

نهض جمال من مقعده وهمَّ بالانصراف، وهو يقول بنبرة أسيفة:

ـ لا فائدة من المناقشة في هذا الجو المتوتر، فلنؤجل الحديث حتى تستريح أعصابنا.

أسرع إسماعيل ليلحق به، فأعاده لمقعده وهو يقول:

ـ الوقت ضيق ويجب أن نصل لقرار سريع حتى لا تفلت الأمور من أيدينا...

ثم موجهًا كلامه لعثمان:

ـ فلنهدأ قليلًا يا إخوة ولنتناول لقمة معًا وبعدها نكمل المناقشة.

وهم يأكلون سندوتشات الفول والطعمية الجاهزة، ويحبسون بأكواب الشاي بالنعناع الذي أعده مختار، قال عثمان بنبرة هادئة:

ـ للشيخ عمر درس مسجل على شريط يؤكد فيه كفر الحاكم الذي لا يحكم بما أنزل الله.

وأضاف عاصم شافعي:

- والسادات تجاوز ترك الحكم بما أنزل الله إلى السخرية من أحكام الشرع، وإهانة العلماء، وموالاة اليهود، وإعلان الحرب على الإسلام.

فقال إسماعيل مخاطبًا جمال:

- السادات مُرْتَد بلا جدال، وعقوبة المُرْتَد القتل لم يختلف أحد من علماء الأمة على ذلك.

جمال محاولًا شرح وجهة نظره:

- لا أختلف معك يا أخ أبا حذيفة، لكني كنت أقصد النظرة الشرعية لحساب المصالح والمفاسد من هذه العملية، وهو أمر أكد عليه الشيخ عمر في عمليات سابقة.

قال أيمن بلهجته التقريرية:

- الأمر محسوم من الناحية الشرعية، فالسادات مُرْتَد لا يحل قتله فقط وإنما يتوجب قتله، لكن اعتراضي على التوقيت لأنه سيؤثر على استراتيجية حركتنا.

فعقب عثمان:

- خالد يطلب بعمله هذا الشهادة وهو يعلم أنه سيُقتل هو ورفاقه فور تنفيذ عمليتهم، وبذا فإن أحدًا لن يعرف علاقته بالجماعة.

مختار متحمسًا:

- الخلاص من السادات معناه إزالة العقبة التي تعترض طريق العمل الإسلامي، ومَن يأتي بعده سيرتدع بقتله وسيتعلم الدرس فيضطر لتحكيم الشريعة.

ابتسم أيمن نصف ابتسامة، وقال بلهجة ساخرة:

ـ وربما لا يرتدع ولا يتعلم!

رحل إسماعيل بفكره عنهم قليلًا، وبدت ملامحه مستريحة كأنه وصل إلى حل وهو يستلهم أحداث عام ١٩٧٤ ودروسها وخطة «صالح سرية» لتغيير نظام الحكم ومن ثَمَّ الزحف لتحرير الأرض المقدسة.

تساءل بنبرة رائقة متحمسة دون انفعال:

ـ لِمَ حصرنا مناقشتنا للموضوع بين فرضين لا ثالث لهما، إما السكون والتجمد اتقاء لضربات النظام، وإما الاكتفاء بمساعدة خالد لتنفيذ خطته وقتل السادات؟

سأله مختار باهتمام:

ـ فيمَ تفكر؟

ـ يجب توجيه ضربة شاملة للنظام كله.

ـ كيف؟

ـ سواء نجح الإخوة في قتل السادات وحده أو في «كنس» المنصة بأكملها، فهذا سيصنع فراغًا كبيرًا يسهل لنا السيطرة على البلد على نحو أسرع وأقوى مما كان مقررًا في خطتنا الأصلية.

سكت لحظة وهو ينظر إليهم، حيث عكست ملامح مختار وعثمان وعاصم انطباعًا جاوز حد الاقتناع إلى التأييد المطلق، فيما أطرق جمال حجازي إلى الأرض وقد ارتسم على وجهه مزيج مُرَكَّب متجانس من الرفض والتسليم، من عدم الاقتناع بجدوى العملية كلها ومن الورع الذي يدفعه للانضواء تحت جناح الجماعة وعدم مفارقتها شِبرًا خشية أن يموت ميتة جاهلية!

أما أيمن عبد الظاهر، فقد تجمدت ملامحه على تلك الابتسامة النصف بما تحمله من رسالة مفادها: «لديَّ الصبر لأسمع هذا الهراء إلى النهاية، لكني لن أتزحزح عن رأيي!».

استرسل إسماعيل، وقد اطمأن إلى أن الأغلبية في صفه تأييدًا أو انقيادًا:

- يجب تعديل الخطة لتصبح ساعة الصفر للتحرك هي سماع صوت إطلاق الرصاص على المنصة وتوقف إرسال الراديو والتلفزيون، فتتوجه مجموعة القاهرة للسيطرة على غرفة عمليات القوات المسلحة وقيادة الأمن المركزي ومبنى الإذاعة والتلفزيون والسنترالات، وفي التوقيت نفسه تتحرك مجموعة وجه قِبلي للسيطرة على مديريات الأمن في الصعيد، ثم يبدأ الزحف إلى وجه بحري وتبدأ إذاعة بيانات الثورة الإسلامية، فتتحرك الجماهير في كل مكان لتأييدها.

صفق مختار بيديه جذلًا وهو يهتف:

- أيَّدك الله بنصره يا أخي، هكذا يكون مصرع الخائن سببًا لتنفيذ خطة سنوات في أيام معدودة.

تساءل جمال بنبرة يائسة:

- وكيف نتمكن من السيطرة على مديريات الأمن في وجه قِبلي وكلنا ما بين معتقل أو متخفٍّ أو هارب خارج محافظته؟

أشار عثمان بباطن يده بحركة تلقائية كأنما يتقي بها تثبيط عزيمته، قائلًا بنبرة مفعمة بالثقة:

- بالنسبة لأسيوط، عندي الوسيلة للاتصال بجميع الإخوة في

أماكن هروبهم، والوقت المتبقي قبل ساعة الصفر يكفي بإذن الله للاستعداد لمعركتنا الفاصلة.

وقال عاصم بذات الحماسة:

ـ أما المنيا وسوهاج، فدعوا أمرهما لي، والله سبحانه الموفق والمعين.

فعقَّب مختار بصوت متهدج من فرط الانفعال:

ـ حيَّا الله شباب الإسلام، هكذا تكون الهمة والرجولة.

قال أيمن موجهًا كلامه لإسماعيل:

ـ لنفترض جدلًا نجاح الإخوة في السيطرة الأمنية على محافظات الصعيد، فكيف تتمكن من السيطرة على الجيش وليس لك حتى الآن تغلغل قوي داخله، إنما هي مجرد مجموعات صغيرة إذا انضمت إليك فستجد باقي وحدات الجيش تهاجمك فتشل حركتك وتقضي عليك.

لم تبقَ لمختار قدرة على كبح جماح غضبه من هذا المتعالم المتعالي، فصاح فيه:

ـ لماذا تحاول دائمًا تثبيط عزائمنا؟

ربت إسماعيل على كتفه داعيًا إياه إلى الصمت، وهو يقول لأيمن الذي بقي ناظرًا نحوه متجاهلًا هجوم مختار:

ـ مخاوفك في محلها أخي الحبيب، لكنِّي أرى أن عدم استثمار عملية خالد بسرعة وبهذه الصورة الشاملة سيؤدي إلى تصفية الحركة كلها بعدما انكشف بالفعل أول خيوطها.

لم يبدُ على أيمن الاقتناع أو أنه على استعداد لأن يحيد عن

رأيه، فاكتفى بهز رأسه ومط شفتيه تعبيرًا عن الرفض، فيما استرسل إسماعيل:

ـ ما عرضته عليكم خطة مبدئية قابلة للتغيير، وسوف أرسل بإذن الله رسالة للأخ منصور مع أخ يعرف مخبأه أبلغه فيها بكل ما دار في لقاء الليلة وننتظر رأيه.

قال مختار بنبرة هادئة، وقد استراح لتمسك إسماعيل برأيه:

ـ إذًا لنسرع فالوقت ضيق...

ثم وهو ينظر لأيمن من طرف خفي:

ـ فبطء السلاحف ما عاد يُجدي لمواجهة الخطر المحدق بنا من كل مكان.

فقال أيمن بنبرة أكثر هدوءًا، وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة كاملة:

ـ لعلك نسيت يا أخي أن أول ما تعلمناه في الصغر كان درس السلحفاة التي سبقت بخطوها المتمهل الدؤوب خطوات الأرنب العجول.

(٩)

ـ هذا الكُسْكُس اللذيذ هو بلا شك أهم إنجازات الحزب الاشتراكي.

هكذا قال مصطفى، وهو يمسح فمه بطرف الفوطة قبل أن يُكومها بجوار طبقه الفارغ عن آخره.

أيَّدوه ضاحكين، وأشار نور الدين للنادل كي يأتي بأطباق الحلوى والأتاي المنعنع.

جلسوا حول مائدة مستطيلة في أحد المطاعم الجزائرية بحي «بارباس»، التي تعلق في صدارتها رخصة تقديم اللحوم المذبوحة وفقًا للشريعة الإسلامية «حلال»، وقد أصر نور الدين على دعوتهم بمناسبة موسم العودة للدراسة ورفع الرواتب والإعانات العائلية ضمن حزمة الإصلاحات الاجتماعية التي بدأ «فرانسوا ميتران» تنفيذها عقب انتخابه في شهر مايو كأول رئيس اشتراكي لفرنسا.

اتفقوا على اللقاء حول مائدة غداء كل يوم سبت لأربعة أسابيع قادمة احتفاء بهذا التحسن الملموس في الدخول، وعلى سبيل التغيير سينطلق الرجال وتتجمع النساء بأطفالهن في بيت زياد سعادة مع زوجته وابنته الكبرى ليتدارسن الأمور الخاصة بفقه النساء والمنهج الإسلامي في تربية الأبناء.

وقد استهل نور الدين برنامج التغيير، بأن دعاهم لتناول وجبة من الكُسْكُس بلحم الغنم والمقروط المقلي بالعسل على الطريقة الجزائرية، على أن تكون عزومة آدم الأسبوع التالي، ثم يدعوهم زياد سعادة لرحلة خارجية بالقطار لقضاء يوم خريفي في «وادي اللوار» وتناول وجبة من أسماكه البيضاء الشهية..

مصطفى أيضًا سيشارك بدعوتهم خلال فترة التغيير، فقد زادت المنح الدراسية بدورها وصُرفت تسوية الزيادة عن عدة أشهر بأثر رجعي، فحصل مصطفى على مبلغ محترم قرر أن يضعه جانبًا ليغطي

ثمن تذكرة سفره إلى مصر خلال إجازة أعياد الميلاد، وكتب تفاصيل ذلك في آخر خطاباته لعزة.

أما عرفة، فقد قال مازحًا:

ـ ها قد قطفت البورجوازية الكرم كعادتها ولم تترك للبروليتاريا سوى الحِصْرِم.

قالها وهو يخبط بباطن كفه على صدره، فأغرقوا في الضحك قبل أن يسأله آدم:

ـ ألم تنتفع بقرارات تخفيض ساعات العمل الأسبوعية؟

أجابه ساخرًا:

ـ حين يكون صاحب العمل عربيًّا فلا تحدثني عن ساعات عمل ولا إجازات ولا أية حقوق، فلدينا موهبة لا تُضاهَى في استغلال بعضنا والالتفاف على القانون.

فقال نور مجاملًا:

ـ لكنك كنت محاميًا في تونس، أي أنك بورجوازي أصيل.

ـ البورجوازي في بلادنا بروليتاري في فرنسا يا أخي.

تناول الدكتور زياد كوب الأتاي الزجاجي وأخذ يبرمه بين كفيه ليتقاسم معه الدفء والبرودة، وهو يقول كأنه يجاريهم في مزاحهم:

ـ لا تنسوا يا أحباب أن الثورة الفرنسية هي ثورة البورجوازية بمعنى الكلمة، وكل إنجازاتها كانت تعبيرًا عن هذه الطبقة...

قاطعه مصطفى:

ـ لكن كانت هناك دائمًا ثورات للمحرومين، باريس تحديدًا شهدت أول كمونة اشتراكية في العالم.

فربت زياد على ظهره بكفه الدافئة، وهو يقول:
ـ وماذا كان مصير كمونة باريس؟ لقد كتبت دماء العمال التي سالت في الشوارع أول بيان لصعود الرأسمالية الأوروبية، ربما أخرت حروب القرن العشرين وبزوغ الاتحاد السوفيتي مآلات الصراع بعض الوقت، لكن النتيجة المحتومة في الغرب وريث الإمبراطورية الرومانية هي انتصار الرأسمالية لأنها الأكثر شراسة والأقل إنسانية.
فعقب نور الدين، وهو يمرر بينهم سرفيس الحلوى:
ـ ربما يشير حصول الاشتراكيين على مقعد الرئاسة إلى تغيير في المسار.
وأردف آدم:
ـ «ميتران» فاز بأصوات المهاجرين وأكثرهم من العمال والمتبطلين.
فقال زياد:
ـ هذا صحيح لكنه ليس العامل الحاسم، ربما كان السبب الحقيقي هو رغبة الفرنسيين في التمايز عن نموذج بريطانيا/ أمريكا، لكن اليسار الفرنسي يميل رويدًا ناحية اليمين حتى أصبح يقف في منطقة وسط رغم بعض الشعارات المتبقية من الماضي.
عرفة متنهدًا بحرقة أزمته:
ـ كالعادة ينحاز المغلوب ناحية الغالب ثم عليه أن يستعد لمزيد من ضرباته.
ابتسم زياد متجاوزًا الوقوف عند أزمة عرفة التي تفاقمت منذ

شهر يوليو، بسبب الضربة الأمنية العنيفة التي وجهها النظام التونسي لحركة الاتجاه الإسلامي واعتقال قياداتها، بعدما وافقوا قبل شهر واحد على حل الجماعة والمشاركة في العملية السياسية، قال زياد:

- هذا ما حدث بالفعل، فبعد شهور قليلة بدأت تتلاشى الفوارق التي برزت بين الاشتراكيين والمحافظين خلال الحملة الانتخابية.

ندت عن مصطفى ضحكة وهو يحاول بلا طائل غرس الشوكة في قطعة جافة من المقروط فأزاح الشوكة جانبًا وتناولها بيده وهو يسألهم:

- هل علمتم كيف رددنا على الانتقادات الفرنسية لحملة الاعتقالات التي يقوم بها «السادات»؟

هزوا رؤوسهم نفيًا، فاسترسل:

- صدر بيان من الحزب الوطني المصري، نعم حزب مقابل حزب، قال فيه إن بيان الحزب الاشتراكي يعد تدخلًا في شؤوننا الداخلية، وإن الشعب المصري قال كلمته وأيد قرارات الاعتقال بنسبة ٥ , ٩٩٪.

أغرقوا في الضحك، وقد هبت عليهم نسائم دافئة خارقة حارقة من أوطان لا تقل نتائج استفتاءاتها على حكامها أو على قراراتهم عن ٩٩٪.

ضغط عرفة بسبابتَيْه على صدغيه، ودندن مقلدًا اللهجة المغربية:

- إلما شربت أتاي ما يتحلوش عيناي.

ابتسم نور وأشار للنادل ليحضر مزيدًا من الشاي، فيما قال زياد:

ـ رغم كل شيء، فعلى مسلمي أوروبا دعم أحزابها اليسارية لأنها تمثل حاليًّا تيار المقاومة الوحيد أمام الاجتياح الرأسمالي القادم من وراء المحيط.

تطلعوا إليه باهتمام، فاسترسل:

ـ «ريجان» في أمريكا و«تاتشر» في بريطانيا، يعملان على تمكين رأسمالية متوحشة تحوِّل الإنسان إلى آلة لجمع الثروة وتهدر حقوق الأغلبية لمصلحة أقلية من محتكري الثروات، لكن هذا التوافق اللحظي بين الاثنين لا يجب أن يعمينا عن رؤية الخلاف العميق الذي سيبرز يومًا ليفكك هذا التحالف بين العالَمَيْن القديم والجديد...

ثم خبط برفق على كتف مصطفى، مضيفًا:

ـ وهنا تبدو أهمية القراءة العميقة للتاريخ وعدم الوقوف عند ظواهره السطحية.

تساءل مصطفى مدفوعًا بشغفه بكليهما، الرجل والتاريخ:

ـ كيف؟

ـ هل تذكر أنك حدثتني يومًا عن نظرية اللاشعور التاريخي التي تتبناها في بحثك عن الحملة الصليبية؟

أومأ مصطفى برأسه، فاسترسل زياد:

ـ إذا طبقنا هذه النظرية على العلاقة بين أوروبا وأمريكا، سندرك أن الصِّدام أمر حتمي، وأن التمرد مترسخ في العمق الأوروبي ولا يعبر عنه ظاهريًّا في الوقت الحالي إلا اليسار.

فعقَّب نور الدين:

ـ لكن الغرب الأمريكي والأوروبي كلاهما وريث للإمبراطورية الرومانية.
ـ هذا صحيح، لذا تجد عديدًا من السمات المشتركة الموروثة عن تلك الإمبراطورية مثل الشوفونية والاستعلاء وعدم التأثم من استغلال خيرات الآخرين والتوسع على حسابهم.

تساءل آدم:

ـ هل تقصد أن صِدام الطرفين سيكون بسبب تشابههما؟
ـ هذه نقطة مهمة، لكن البذرة الأصلية للصراع كامنة في النظام الجيني والطفولة الحضارية للأمة الأمريكية التي تكونت أولى طبقاتها من البيوريتانز المنقلبين على الكنيسة الإنجليكية والذين فروا بدينهم من القارة العجوز كما فر بنو إسرائيل من مصر ليصنعوا أورشليم، فالذين أسسوا أمريكا اعتقدوا أن دور اليهود انتهى تاريخيًّا وأنهم أصبحوا بدلًا منهم الشعب المختار وأمريكا هي أورشليم الجديدة.

فقال آدم مشككًا:

ـ أنت تتكلم عن أمر حدث قبل أربعة قرون.

أجابه مصطفى، مدافعًا عن النظرية التي يزداد إيمانًا بها كلما تعمق في البحث:

ـ استخدام التحليل النفسي في البحث التاريخي كشف أن طفولة الشعوب كطفولة البشر، هي التي تحدد شخصيتهم ومستقبلهم.

فأومأ زياد برأسه مؤيدًا، وقال:

ـ عندما وصل ركاب السفينة الإنجليزية إلى الساحل الأمريكي في

أوائل القرن السابع عشر ليؤسسوا «نيو إنجلاند»، وضعوا ميثاقًا أطلقوا عليه اسم سفينتهم «ماي فلاور» كان البذرة الأولى لوثيقة الاستقلال وللدستور الأمريكي الحالي، وهذا الميثاق يكشف تمامًا فكرتهم عن أنفسهم بأنهم المتطهرون المضطهَدون الذين شهدوا انحراف الكنيسة الإنجليزية عن المسيحية وفشلوا في إصلاحها، فعاهدوا الرب على الفرار بدينهم الصحيح إلى عالم جديد ليؤسسوا «مدينة فوق التل» تحكمها الشريعة وتصبح منارة يهتدي بها العالم كله.

عاد آدم لتساؤلاته المشككة:

ـ هل تعتقد أن هذه الأمور ما زال لها تأثير على أكبر بلد علماني على وجه الأرض؟

أجابه زياد بثقة:

ـ الحقيقة يا دكتور آدم أن العلمانية سواء في أوروبا أو في نسختها التركية المشوهة تختلف تمامًا عن العلمانية الأمريكية، فالعلمانية الأوروبية تأسست على فكر فلسفي إلحادي، أما العلمانية الأمريكية فأساسها فكر ديني ربوبي يفصل بين الدولة والكنيسة، هذه الربوبية اعتنقها عديد من الآباء المؤسسين وأكثرهم علمانية «توماس جيفرسون»، ومع ذلك فقد اقترح شعار الدولة الجديدة «بنو إسرائيل في البرية تقودهم سحابة في النهار وعود نار في الليل»، فالعلمانية الأمريكية ترفض البابوية الرومانية والكنيسة البروتستانتية الإنجليكية، لكن الدين موجود في لُب نشأتها وتكوينها.

قال نور الدين مؤيدًا:

ـ الدولار الأمريكي حتى اليوم مكتوب عليه In God we trust.

استرسل زياد:

ـ الدين بالنسبة للأمريكيين هو المؤسسة السياسية الأولى، وهو أيضًا أساس الاقتصاد الرأسمالي، لأن الكالفينية البيوريتانية تعتبر النجاح المادي والثراء علامة النعمة والخلاص الإلهي.

تمتم مصطفى، ولما يفتر شغفه:

ـ للأسف معلوماتي عن التاريخ الأمريكي محدودة.

قال زياد:

ـ ستجد كثيرًا من الوثائق الأصلية المتعلقة بالموضوع في «المكتبة الوطنية»، وأنت تعلم طبعًا العلاقة الوطيدة بين فرنسا والثورة الأمريكية.

هز مصطفى رأسه موافقًا، فيما عاد آدم يتساءل:

ـ وما تأثير هذا التاريخ كله على الواقع الحالي؟

ـ هذه الأفكار الدينية لم تتغير على طول الزمن، وهي التي حكمت دائمًا السياسة الأمريكية، فقد وقف الرئيس «هاري ترومان» الذي كان وراء إنشاء الدولة الصهيونية في احتفال بهذه المناسبة وأخذ يهتف: «أنا كورش، أنا كورش»! وكان يردد أن القانون الأساسي للأمة الأمريكية تلقاه موسى فوق جبل سيناء، كما أن انتصار الصهاينة عام ١٩٦٧ دفع بالإيفانجليكيين المتابعين لخُطى الحُجاج الأوائل إلى واجهة القرار الأمريكي، لأنهم أقنعوا الرأي العام أن انتصار الدولة العِبرية على قوى الشر

العربية المحمدية هو تحققٌ حرفيٌّ لنبوءات الكتاب المقدس، واليوم يتحدث «رونالد ريجان» في خُطَبه عن بلاده فيصفها بأنها «مدينة متألقة فوق التل» ويعلن حربًا صليبية على محور الشر الذي هو حلف وارسو والاتحاد السوفيتي الشيوعي الملحد الذي يسميه «يأجوج ومأجوج»، وقد صرح منذ أيام بأنه ربما نكون نحن الجيل الذي يشهد«هرمجدُّون».

سأله نور:

ـ وما هرمجدُّون؟

فأجابه مصطفى:

ـ معركة حربية مذكورة في سِفر رؤيا يوحنا اللاهوتي، آخر أسفار العهد الجديد، هي التي تمهد للعودة الثانية للمسيح ليحكم العالم ألف سنة.

أضاف زياد:

ـ وهذه المعركة مذكورة في أدبيات الأديان الكتابية الثلاثة، التي تتفق على أنها ستكون في نفس المكان من بلاد الشام.

فتساءل عرفة متعجبًا:

ـ وهل الإسلام به هرمجدُّون؟

ـ نعم يا بني، وقد وردت تفاصيلها في حديث طويل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا الحديث مهم جدًّا معرفته، فما رأيكم أن نقرأه معًا ونحن جلوس على نهر اللوار بإذن الله؟

أومأوا برؤوسهم علامة الموافقة، لكن آدم قال بتحدٍّ لم تعكسه نظراته ولا نبرات صوته:

ـ لا يمكنني الاقتناع بأن هذه الأمور التاريخية يمكن أن تخلق صِدامًا بين الأوروبيين والأمريكيين، خصوصًا أن أوروبا هي أصل الحروب الصليبية، والإنجليز هم مَن أنشأوا دولة إسرائيل بوعد بلفور.

قال مصطفى بلهجة تقريرية:

ـ كل صراع بين الأمم لا بد أن يكون له جذر تاريخي يتجاوز العلاقات الظاهرية.

أضاف نور موجهًا كلامه لآدم:

ـ حتى من الناحية الظاهرية يوجد بالفعل صِدام حضاري بينهما، ألا تستمع إلى سخرية الفرنسيين من السياح الأمريكان «رعاة البقر» الذين يأتون بنقودهم الكثيرة وببربريتهم ليفسدوا الذوق الفرنسي؟ ألم تر كيف هاج الشباب معترضين على فتح مطعم «ماكدونالدز» في الحي اللاتيني ثم قاطعوه تمامًا؟

عاد زياد ليقول:

ـ هذه أعراض خارجية لتمرد موجود فعلًا في العمق الأوروبي، ومنذ ما يقرب من عشرين عامًا كتب «جان ماري بنوا» محذرًا من الأيديولوجيا الأمريكية، وأن الأمم الأوروبية لو انساقت وراءها فسوف تفقد قِيَمها الحضارية وتتحول إلى مجرد منتج مستغل أو مستهلك مبهور، وهذا ما بدأ يحدث بالفعل، وأتوقع مزيدًا من الهزيمة الحضارية الأوروبية أمام النموذج الأمريكي حتى تصل إلى مرحلة يتحول فيها التمرد الكامن إلى ثورة، ووقتها سنكون نحن هناك.

عكست أعينهم تساؤلًا، فاستطرد وقد ملأت وجهه ابتسامة واسعة:

ـ عندما تشعر أوروبا أنها تغرق في مستنقع القِيَم الكالفينية التي لفظتها قبل قرون، فستكون سفينة الإسلام القادمة من جنوب المتوسط هي المنقذ الوحيد لها.

عقَّب عرفة بلهجة ساخرة:

ـ لكن أوروبا لفظت القِيَم الإسلامية قبل أن تلفظ الكالفينية، وحطمت السفن القادمة من الجنوب الغربي والشرقي؛ الأندلس ثم البلقان.

قال زياد وهو يهز رأسه نافيًا:

ـ الحقيقة أن أوروبا لم تلفظ قِيَم الإسلام، بل لفظت أمراض الشرق التي جئنا بها إليها وقدمناها على أنها جزء من الإسلام، أما قِيَم الإسلام الحقيقية فقد ترسبت في العُمْق الأوروبي وساهمت في صنع نهضتها.

فصاح مصطفى بحماس:

ـ هذا حق، والدراسات الأوروبية لا تنكر تأثير حضارة الأندلس ونظريات ابن رشد وابن خلدون وغيرهما من علماء المسلمين على أفكار عصر النهضة.

عاد زياد ليقول:

ـ كما أن قِيَم التعايش الإنساني المخالِفة للنزعة الرومانية الإقصائية استقتها أوروبا الحديثة من المسلمين، وقد قرأت مقالًا أيام الانتخابات الماضية يشرح أسباب تدني شعبية اليمين المتطرف في مدن الجنوب، وأرجع الكاتب الفرنسي ذلك إلى ترسخ ثقافة

التسامح والتعددية هناك منذ أن حكمها مسلمو الأندلس وظلوا بها لعقود قبل هزيمتهم، كل هذا التأثير رغم قِصَر المدة، ورغم أننا أتينا فاتحين ومُحمَّلين بأمراض التعصب والاستبداد وثقافة الخيمة والقبيلة، أما اليوم فعلينا أن نقدم لهم الإسلام خاليًا من أمراضنا التي بررناها بأسانيد فقهية لتصبح كأنها الإسلام، علينا أن نقدم لهم دواء يعالج أمراضهم «هم» دون أن يكون مُحمَّلًا بميكروباتنا «نحن»، وأول خطوة ألا ننسحب من حياتهم لنصنع لأنفسنا «جيتو» نتصور أننا سنعيش إسلامنا بداخله.

قال الجملة الأخيرة وهو ينظر لآدم مبتسمًا، فعقَّب الأخير:

ـ هكذا إذًا أمكنك إقناع ميشيل بتغيير رأيها في موضوع سلافا، لقد كانت مُصرة على إلحاق البنت بالمدرسة الإسلامية، بينما أنا ضد عزل أطفالنا عن مواطنيهم.

هز زياد رأسه مؤيدًا وهو يقول:

ـ لقد عارضتُ منذ البداية فكرة إنشاء مدرسة خاصة بالمسلمين، لأنها ستفرض عزلة اجتماعية وثقافية على أبنائنا، ثم كيف يكون المسلمون شهداء على الناس وهم منعزلون عنهم، وكيف نقدم النموذج الإنساني البديل للنموذج الأوروبي اللاإنساني الذي يعيشون فيه ونحن غرباء عنهم لا نشعر بأوجاعهم، وكيف نصبح رحمة للعالمين ونحن نختبئ ونتجهم في وجوه العالمين؟

كان مصطفى يتطلع للرجل وهو يتحدث بحماس مَن يشعر بالواجب تجاه البشر جميعًا، هذا الشعور المنغرز في خلاياه هو من قديم الزمن.

استرسل زياد بنبرة مغايرة:

ـ الأخت ميشيل إنسانة رائعة رجَّاعة للحق ولا تتشبث برأيها، أذكر حوارًا مشابهًا دار بيننا عندما اتخذَتْ قرارها بالدخول في الإسلام، فقد كانت تريد تغيير اسمها وكانت مترددة بين زينب أو آمنة فقلت لها: بل تبقين «ميشيل»، فأنتِ فتاة فرنسية واسمكِ جميل ومهمتكِ المقدسة في دعوة الفرنسيات لطريق الحق وفي نقلهن من البؤس للسعادة ستكون أسهل وأنتِ تحملين اسمًا فرنسيًّا مثلهن، لأن الاسم العربي سيضع حاجزًا صناعيًّا بينكِ وبين الناس الذين تمدين يديكِ لتنقذيهم من معاناتهم.

ثم التفت لمصطفى وهو يقول:

ـ أنت أيضًا ينطبق عليك نفس الكلام.

صاح مصطفى وقد بُوغت:

ـ أنا.. لماذا؟

ـ لاحظت خلال الأيام التي قضاها ألبرتو هنا أنه كلما أراد مناداتك يُوشك أن يقول «بول» لكنه يستدرك بسرعة «موستافا».

ـ الحكاية أني علمت أنهم في روما ما زالوا يتحدثون عني في غيابي بهذا الاسم، لكنهم يعرفون أنه يُغضبني، لذا يرتبكون عندما أكون معهم ويضطرون لمناداتي باسمي الحقيقي.

ـ ولماذا تغضب من اسم بول؟

ـ لأن اسمي المكتوب في شهادة ميلادي هو مصطفى، وأنا مسلم ومصري.

ـ نصفك فقط مصري ونصفك الآخر إيطالي.

أزاح مصطفى شَعره للخلف بقوة وهو يسأله بحدة غير معهودة:

ـ ما هذا يا دكتور، هل نحن نَتْبَع آباءنا أم أمهاتنا؟

فربَّت زياد على كتف الفتى المنفعل، وهو يقول:

ـ لم أكن أتحدث عن هذا بالطبع، بل قصدت أنك تحمل جينات عربية وأخرى أوروبية، وتحمل في ملامحك وفي شخصيتك حضارتَي الشمال والجنوب معًا، وهذا يُسهل عليك التعامل مع الشخصية الأوروبية.

شعر مصطفى بضيق بالغ، وتقاطعت في وعيه صور رهبان المدرسة ينادونه «بول» أمام زملائه ويُرغمونه على الرد، وعمَّاته يُحذرنه من استخدام هذا الاسم الكافر، واسم جده «مصطفى الملا» بارزًا مذهبًا فوق المجلدات العتيقة في البيت الكبير، وبولا تيزوني تصرخ بجنون وهي مخمورة طالبة الطلاق ثم تتخلى عنه، بينما يحل زيو ماتيو محل أبيه في الفراش.

عكسَ وجهُه أحاسيس داخلية مؤلمة، فعمد زياد إلى تغيير الموضوع، وكانت الساعة قد قاربت الخامسة فقاموا لصلاة العصر.

تفرقوا بعد الصلاة، وسار مصطفى مصاحبًا زياد بلا اتفاق مسبق حتى وصلا محطة «جار دو نورد»، فقال الأخير:

ـ أمامي ساعة كاملة قبل موعد المستشفى، فما رأيك في جولة عند هضبة «مونمارتر»؟

فوجئ مصطفى، فقد كانت هذه وجهته بالفعل ولم يكن أفصح عن ذلك، يتعجب أحيانًا من قدرة هذا الرجل على قراءة أفكاره، كم

يشعر معه بالدفء الإنساني كأنه كان أباه في عالم الذَّر وكأنه عاش معه العمر كله.

قال زياد وهو يتأبط ذراع الفتى الصامت:

ـ هذا مكان للفن وللتاريخ وللهوية.

صمت برهة ليتأكد من تركيز الآخر، ثم أكمل:

ـ هوية المكان لا تتشكل من عناصر ثابتة جامدة، وأنت ترى هذا في النمط المعماري الذي يجمع عناصر حضارية متنوعة لكنه يبقى على تفرده، فلا يذوب عنصر فيه لحساب آخر.

أدرك مصطفى ما يرمي إليه الرجل، فأنصت باهتمام دون أن يقاطعه.

وقفا أمام «كنيسة ساكركور»، وفرد زياد ذراعه على طولها مشيرًا لمدينة باريس القديمة التي يطلان عليها من موقفهما فوق الهضبة، وقال:

ـ إرث حضاري يتراكم كالأحقاب، كل يحمل خصائصه ويفيد مما قبله، هكذا يكون السلام الحقيقي الذي يبدأ من داخل النفس ثم يمتد ليعم العالم، ليست هناك هوية خالصة أو ثابتة لفرد أو لشعب وإلا تعطنت البشرية، كلنا هذا الإنسان المركب من هويات متعددة، لكننا نجادل ونخلق من لا شيء صراعات داخل ذواتنا ومع الآخرين.

نظر في عينيه بقوة وبمحبة، وأردف:

ـ أنت مصطفى.. نعم، وأنت بول أيضًا، لا تخلق صراعًا وهميًّا بينهما، ولا تغتل أحدهما لحساب الآخر، بل اصنع تعايشًا

بينهما، ثم استخدم هذا الثراء الإنساني لتحقيق رسالتك في إسعاد الناس جميعًا.

أخذ نفَسًا عميقًا، ثم استدار بخفة شاب في العشرين، وواصل:

- في يوم من الأيام قريب أو بعيد، سيجعل الفرنسيون من هذه الكنيسة جامعًا كبيرًا يصدح الأذان من فوق بُرجه العالي لتحمل الريح نداء التوحيد إلى كل مكان، لكنه مع ذلك لن يصبح كالجامع الأموي في دمشق أو كالجامع الأزهر في القاهرة، بل سيبقى «جامع القلب المقدس»، هويته المتفردة من تعدد عناصر تكوينه، فإذا اغتيل عنصر لحساب آخر ضاع نمطه وتاريخه وجماله.

رآه كحامل شعلة أو كسَاريةِ عَلَم غُرست فوق أعلى الهضبة ليهتدي بها الغرباء على الطريق، لا تخرج الكلمات من فمه بل من أعماق قلب متوهج بالحب يتوق لمنح الآخرين قِطعًا حية من روحه، حرارة كلماته أدفأت برودة رياح المساء السبتمبرية القادمة من بعيد.. هذا الرجل الأربعيني، سوري الأصل، فرنسي الثقافة، ماركسي التكوين، تروتسكي المبتدأ، إسلامي الخبر والجذر والساق والفروع والثمار والماضي والحاضر والمستقبل، إسلامي الأممية والثورة العالمية الدائمة، إسلامي الحرب والسلام، الصخب والهدوء، الثورة والبناء.

تطلَّع لعينيه السوداوين المتألقتين ببريق عجيب، وتساءل في نفسه: كيف يمكن أن تكون باريس من غير زياد سعادة؟

«باريس سعادة» هكذا يجب أن تكون.

* * *

الثلاثاء ٦ أكتوبر ١٩٨١

كان جالسًا بعد الغداء في مكتبة الجامعة، وقد انكب على كتاب يقرؤه، حين دخل شاب إلى القاعة متوجهًا إليه مباشرة، كان طالبًا عراقيًّا تعرف إليه عرَضًا ذات يوم ولا يذكر اسمه ولا تخصصه الدراسي، لكنه ما زال يذكر جنسيته لأنه يشبه «صدام حسين» إلى حد مخيف.

التفت إليه، فسأله الآخر بصوت متهدج تجاوز ارتفاعه الحد المسموح به داخل المكتبة:

ـ أنت مصري، مو؟

أومأ مصطفى برأسه وهو يتلفت حوله حرجًا، فقال الشاب بنبرة لم يحاول التحكم فيها علوًّا وانفعالًا:

ـ مبروك أخي مبروك، السادات قُتل.

تطلع مصطفى لوجهه دون أن يستوعب ما قال، فكررها الآخر وهو يضغط على مخارج حروفه بقوة:

ـ أقول لك قتلوا «أنور السادات».

كان يعلم كم يكره الطلبة العرب السادات بسبب صلحه مع إسرائيل، العراقيون يكرهونه أكثر منذ قصفت إسرائيل مُفاعلهم النووي في يونيو الماضي بتآمر مع السادات كما يقولون، لكن الشعور بالكراهية شيء وإحداث ضجيج محرج بالمكتبة التي تعج بالباحثين شيء آخر، ثم إن مزاح شبيه «صدام حسين» لم يكن خفيف الظل بالمرة.

أدرك العراقي أن المصري لا يصدقه، فدعاه للحديث خارج قاعة

المطالعة، وفي الخارج احتشدت مجموعة من الطلبة والطالبات العرب: عراقيون، سوريون، فلسطينيون، ليبيون، توانسة وجزائريون، يتبادلون التهاني والعناق ويتصايحون في بهجة صاخبة لفتت أنظار الطلبة الفرنسيين الذين وقفوا يرقبونهم بدهشة، حتى تقدم أحدهم من المجموعة ليتحقق مما إذا كانوا بالفعل مغتبطين لخبر مقتل السادات الذي أذاعته وكالات الأنباء قبل دقائق، وهو خبر اعتبره الفرنسيون محزنًا بكل المقاييس.

في صباح اليوم التالي، كانت صور السادات تتصدر جميع الصحف الفرنسية والأجنبية بلا استثناء، وجميع المانشيتات الرئيسية تحمل خبر اغتياله أثناء جلوسه في منصة العرض العسكري المُقام احتفالًا بذكرى انتصار السادس من أكتوبر ١٩٧٣.

ذكرت الصحف والإذاعة والتلفزيون أن قتلة السادات ضباط بالجيش المصري، وعلى مدى يومين متتاليين انطلقت التحليلات الإخبارية تتحدث عن انقلاب عسكري في مصر، لكن السؤال المطروح في الإعلام الفرنسي كان عمَّن يقف وراء عملية الاغتيال.

ابتاع مصطفى عدة صحف دفعة واحدة: لوموند الدولية، كوتيديان الباريسية، ليبراسيون اليسارية، كوربيرا دولاسيرا الإيطالية، وكلها تحمل عناوين متشابهة وافتراضًا لا يتزحزح بوجود قوة خارجية خلف عملية الاغتيال التي نفذتها فرقة من الجيش المصري.

«معمر القذافي»؟

لقد أعلن ابتهاجه صراحة، وعرض إرسال قوة عسكرية لدعم

الجيش المصري في حركته المباركة، ودفع الإعلام الليبي إلى التلميح بأن الأخ العقيد هو المحرك الحقيقي للأحداث في مصر.

«صدام حسين»؟

العدو اللدود للرئيس المصري، المُحرِّض على المقاطعة العربية لمصر بعد توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل، وصاحب الثأر في جريمة قصف المفاعل النووي بتآمر مفضوح مع السادات.

البيت الأبيض؟

اعتاد الأمريكيون التخلص من عملائهم بعدما تنتهي أدوارهم وتصبح كلفة الحفاظ عليهم عالية دون عائد مُجْزٍ.

«مناحم بيجين»؟

ربما يكون التخلص من السادات وسيلة لتتخلص إسرائيل من التزامها بتسليم سيناء للمصريين.

«ياسر عرفات»؟

احتمالات عديدة ناقشها الإعلام الفرنسي طوال يومين، حبس فيهما الجميع أنفاسهم قبل أن يتلقوا المفاجأة المدوية مساء يوم الخميس ٨ أكتوبر، إذ تبين أن جماعة إسلامية راديكالية مُسلحة هاجمت أقسام الشرطة بمدينة أسيوط في صعيد مصر عقب صلاة عيد الأضحى وسيطرت على المدينة ليوم كامل قبل أن ترسل القاهرة تعزيزات أمنية تشتبك معهم في معركة يُقتل فيها العشرات من المسلحين ورجال الشرطة والمواطنين، ثم يتم القبض على أعضاء الجماعة لتنكشف العلاقة بين عمليتَي أسيوط والمنصة، ويتراجع السؤال الذي طرحه الإعلام حول مَن قتل السادات؟ لينشغل

بمناقشة حقائق الخبر المذهل بوجود تنظيم إسلامي راديكالي داخل الجيش المصري!

تسأل عائشة سعادة والدها، فيجيبها:

ـ من المنطقي أن تكون المخابرات الأمريكية مسؤولة عن حماية السادات منذ صلحه مع إسرائيل، والظاهر أنهم أحدثوا ثغرة لتشجيع الإسلاميين الغاضبين للقيام بعملية الاغتيال فيضربون بذلك عصفورين بحجر: التخلص من كارتهم المحروق، ودفع الحركة الإسلامية إلى الظهور على السطح ليقوموا بتصفيتها.

ولما رأى حيرة مصطفى وهو يتابع أخبار عملية أسيوط، قال له:

ـ لا جديد في أسلوب الحركة الإسلامية العربية، فإما تحالف مع السلطات المستبدة وإما صراع عنتري معها بغير أدوات، وبعد تصفية رموزها تبدأ دورة جديدة من الهدنة يعيدون فيها تكرار أخطائهم بلا كلل ولا ملل.

كأنما كانت تلك الأيام فرصة لتوحد الطلبة العرب في جامعة باريس، وأصبح مصطفى وغيره من المصريين قِبلتهم، يهللون لمرآهم، ويستقبلونهم باحترام، وينصتون إليهم باهتمام كأنهم يعلمون من خبايا الواقعة وتطوراتها ما لا يعلمه غيرهم.

توالت الأخبار القادمة من الوطن: الشارع المصري يخلو من المواطنين الذين يلزمون بيوتهم لا يغادرونها طوال أيام عيد الأضحى وحتى انتهاء مراسم جنازة السادات يوم السبت ١٠ أكتوبر، البيت الأبيض يعلن عدم مشاركة الرئيس «رونالد ريجان» في الجنازة لأسباب أمنية ويحضر بدلًا منه ثلاثة رؤساء سابقين: «ريتشارد

نيكسون»، و«جيرالد فورد»، و«صديقي كارتر»، تخلو الجنازة من الزعماء العرب باستثناء السوداني «جعفر نميري»، بينما يتصدر المشهد «مناحم بيجين» معزيًا الشعب المصري في مصابهما المشترك بفقدان رجل السلام!

يتداول الطلبة العرب صور الجنازة المنشورة في الصحف الفرنسية ويقارنون بينها وبين جنازة جمال عبد الناصر، ويحتفظ عدد منهم بصور الضابط الوسيم قاتل السادات ويطلقون عليه «خالد إسلم إيده» بدلًا من «خالد إسلامبولي»، وتتوالى أخبار اعتقال مئات من أعضاء التيار الإسلامي وإحالتهم للمحاكمات.

وفي كل يوم خبر جديد من مصر، يُطيره مراسلو وكالات الأنباء ليتصدر الصحف الفرنسية ونشرات الأخبار وبرامج التحليل السياسي، ومصطفى يفكر طول الوقت في شخصين اثنين فقط: إسماعيل و.. عزة.

(١٠)

أوقفت عزة سيارتها بمحاذاة رصيف شارع شريف وبالضبط أسفل اللافتة المرورية «ممنوع الوقوف»، أعطت الشرطي بقشيشًا ووعدًا بأن تعود سريعًا، كانت متعجلة والشوارع المحيطة مكدسة بالسيارات، وقد تأخرت بالفعل عن موعدها مع مصطفى الذي ينتظرها أمام «عمارة الإيموبيليا».

الأيام تمر مسرعة.. اقترب ولا شك موعد سفره الذي ما زال يخفيه، ربما لم يحدده بعد، لكنها تشعر منذ مجيئه في نهاية شهر ديسمبر أن اليوم التالي ـ وكل يوم تالٍ ـ يلوح بالفراق، ها قد انتصف شهر فبراير وكلاهما ما زال يتجاهل الكلام عن موعد الرحيل، بينما يحرصان على اللقاء بشكل يومي تقريبًا، وقد أبلغته تلفونيًّا في الصباح أنها ستلتقي ظُهرًا بشخصية مهمة وتريده أن يحضر معها هذا اللقاء.

سألها، وهما واقفان بانتظار مصعد الإيموبيليا، عمَّن تكون الشخصية المهمة التي سيقابلانها، فهزت كتفيها وهي تجاهد نفسها على الابتسام:

ـ لا أدري.

ـ أوه عزة، أنتِ تمزحين.

ـ أبدًا والله، نحن سنصعد الآن إلى مكتب العقيد حسين صديق المرحوم بابا، وقد وعدني بترتيب لقاء مع صديق له صلة بقضية إسماعيل، هذا كل ما قاله، وأنا أخبرته أنك ستأتي معي، على فكرة هو يعرف أونكل رءوف جيدًا.

ـ حسنًا.

قال العقيد متقاعد حسين ربيع وهو يُعرفهما إلى الضيف القادم:

ـ الأستاذ «فريد عبد الكريم» السياسي الوطني المعروف والمحامي الكبير المتطوع للدفاع عن الأبطال الذين خلصوا مصر من الخائن.

فعلق الرجل بتواضع:

ـ أنا مجرد واحد من خمسة وثلاثين محاميًا في هيئة الدفاع، ولو فُتح الباب لرأيت نقابة المحامين بأكملها تدافع عنهم.

نظر حسين إلى عزة ومصطفى قائلًا بزهو:

ـ أكبر رموز المحاماة في البلد تدافع عن المتهمين في هذه القضية التاريخية.

فقالت عزة بنبرة أسيفة:

ـ ومع ذلك لا يُسمح للإعلام بتغطية الجلسات، سمحوا لنا بحضور جلستين فقط في شهر نوفمبر، فتشونا خلالهما وبهدلونا، ثم أعلنوا أن الجلسات ستكون بعد ذلك سرية، هل هذا قانوني؟

أجابها فريد عبد الكريم:

ـ القانون يسمح بذلك في بعض الأحوال، واللواء «سمير فاضل» رئيس المحكمة أعلن أن سبب سرية الجلسات هو المحافظة على أسرار القوات المسلحة، لكن هذه ليست المسألة.

تطلعوا إليه مستفسرين، فاسترسل:

ـ هناك اتجاه واضح خلال إجراءات المحاكمة لإنكار الدور العسكري في الاغتيال.

صاح حسين ربيع وقد صدمته العبارة:

ـ كيف؟ إذا كان المتهم الأول في القضية ضابط جيش والثلاثة الذين شاركوه العملية اثنان منهم ضابطان سابقان والثالث رقيب متطوع.

قالت عزة بنبرة تنز افتتانًا:

ـ في الجلسة العلنية الأولى، وقف «خالد» في القفص وصاح

بأعلى صوته أمام وكالات الأنباء: «أنا قاتل السادات.. أنا قاتل فرعون».

فعقب المحامي، وعلى شفتيه ابتسامة إشفاق:

ـ أخذته الجلالة عندما سأله رئيس المحكمة السؤال التقليدي: «مذنب أم غير مذنب؟»، فأجابه: «مذنب»، لكن الدفاع قاطعه وطلب من المحكمة أن نتحدث معه قبل إعادة توجيه السؤال، فأجاب هذه المرة: «غير مذنب وأنا قتلت السادات».

تساءل مصطفى:

ـ هل هناك فارق بين الإجابتين؟

ـ فارق كبير من الناحية القانونية...

منعه حسين ربيع من الاسترسال في الشرح القانوني مقاطعًا إياه بحدة:

ـ ضابط جيش يعترف أمام المحكمة وأمام العالم كله بأنه قتل رئيس الجمهورية، فكيف يمكنهم إنكار الدور العسكري في العملية، ولماذا؟

تناول فريد عبد الكريم رشفة من فنجان قهوته، ثم تحدث بهدوء:

ـ الحقيقة أن هذا الاتجاه اتضح لنا من البداية، أي منذ صياغة قرار الاتهام على نحو يؤكد هذا المعنى، فالوحيد الذي أشار القرار إلى صفته العسكرية هو الملازم أول خالد الإسلامبولي، بينما أشار إلى شركائه عبد الحميد وعطا وحسين باعتبارهم من المدنيين الذين تمكن من إدخالهم منطقة العرض.

ـ ولِمَ فعلت النيابة العسكرية ذلك؟ هذا الأمر يسيء لصورة

الجيش باعتبار أن مجموعة من المدنيين تمكنت من اختراق جهازه الأمني على هذا النحو الخطير.

ـ الظاهر أن صورة الأمن العسكري المُختَرَق بدت لهم أهون من صورة الجيش المنقلب على قائده الأعلى، وهي نفس وجهة النظر التي جعلت النيابة تحيل للمحاكمة عشرين متهمًا إضافة إلى الأربعة الذين نفذوا العملية.

سألته عزة بلهفة:

ـ ما الوضع بالنسبة لهؤلاء الذين لم يكونوا داخل العرض ولم يشاركوا في الاغتيال؟

رد دون أن يفطن لمغزى سؤالها:

ـ هذه المجموعة الإضافية من المتهمين تشمل عسكريين أيضًا، لكن قرار الاتهام تجاهل هذا بالكلية، فأورد بعضهم على أنه طبيب أو مهندس أو صاحب مهنة أخرى دون أن يشير إلى وضعهم أو رُتبهم العسكرية، باستثناء خالد فقد كان من المستحيل إخفاء صفته العسكرية وهي سبب اشتراكه في العرض أصلًا.

تنهد العقيد حسين وهو يقول بأسى لم ينزع كبرياءه:

ـ هكذا دومًا قدَر أبطال الجيش المصري، أن يبذلوا أرواحهم فداء للوطن ثم يأتي الأغبياء من بني جلدتهم فيجحدوا أدوارهم في مواقف الشرف.

فعقب فريد عبد الكريم بانفعال صادق:

ـ لقد أبى جنودنا الأبطال إلا أن يرفعوا رؤوسنا عندما غسلوا عنا

عار الهزيمة في ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ثم عادوا ليغسلوا عار الخيانة في ٦ أكتوبر ١٩٨١.

أضاءت وجه العقيد حسين ابتسامة فخر، وامتلأت عينا عزة بدموع اعتزاز وافتقاد، وسأله مصطفى محاولًا الحصول على إجابة للسؤال الذي طرحته عزة قبل لحظات:

- ألا يوجد اختلاف في الوضع القانوني بين المتهمين العشرين الإضافيين والأربعة الذين نفذوا الاغتيال؟

مط الأستاذ فريد شفتيه مفكرًا قبل أن يجيب:

- بالنسبة لخالد ورفاقه الثلاثة، فإنهم يصرون على أنهم قتلوا السادات، وقد أكدوا لنا مرارًا أنهم اعتبروا أنفسهم شهداء منذ يوم ٦ أكتوبر، أما الباقون فمتهمون بالاتفاق الجنائي لقيامهم بمساعدة المنفذين وبتسهيل العملية، وأتوقع أن يتم ضمهم لقضية الانتماء لتنظيم مدني مسلح التي تحقق فيها نيابة أمن الدولة حاليًّا مع مئات المعتقلين.

فسألته عزة بنبرة مرتعشة:

- هل يعني هذا أن الحكم بإعدام قتلة السادات جاهز كما ذكرت مجلة أكتوبر في عددها الأخير؟

بان الغضب على وجه الرجل وهو يجيبها:

- عار على القضاء وعلى مصر كلها أن ينشر «أنيس منصور» الأحكام في مجلته قبل أن تنتهي جلسات المحاكمة، بل وأن يربط تنفيذ هذه الأحكام بانسحاب إسرائيل من سيناء، لكن مع الأسف يبدو أن هذا ما سيحدث فعلًا.

ثم موجهًا كلامه للعقيد حسين:

ـ لكن ما نجح فيه الدفاع حتى الآن هو تحويل محاكمة قتلة السادات إلى محاكمة للسادات نفسه ولنظامه كله.

فعقبت عزة بفخر وطني ممزوج بالإحباط:

ـ هذا بلا شك سبب إضافي لإصرار المحكمة على أن تظل جلساتها سرية للنهاية.

وسألها مصطفى وهما يعبران كوبري ٦ أكتوبر في طريقهما إلى الدقي:

ـ ماذا قال العقيد حسين وهو يشير نحوي ويهمس لكِ قبل نزولنا من مكتبه؟

كتمت ضحكة شقية، فقد سألها حسين همسًا عما إذا كان «مصطفى» هو السبب الحقيقي وراء رفضها جميع الخُطَّاب الذين يتقدمون لها.

أجابته، دون أن تجيبه:

ـ لقد كان في مهمة عمل في إيطاليا خلال إقامة أونكل رءوف هناك، ويتذكر ولادتك جيدًا؛ لذا فهو يعرفك باسمك القديم «بول».

فقال بتلقائية أذهلتها وأزعجتها في آن:

ـ اسمي القديم والجديد معًا، فأنا «مصطفى» وأنا «بول» أيضًا!

كان يقود سيارتها فيما جلست هي في المقعد المجاور، وثمة شعور لذيذ تسلل إليها وهي تناوله حلقة مفاتيحها ليتولى القيادة بدلًا منها أو ليتولى القيادة بها.

تُرى ما وراءك يا صديقي؟ لا تحاول أن تقنعني بتصرفاتك الحميمية القديمة أنك لم تتغير، قلبي يخبرني أن تغيرًا عميقًا قد حدث، حتى ما عدت أرى صورتي وحدها مطبوعة على عدستيك الرائقتين، بل تطالعني انعكاسات صور غرباء، فمَن هؤلاء يا ترى؟

كان الجو صحوًا، فأمكنها استنشاق هواء منعش رغم الازدحام المروري فوق الكوبري، حاولت التبسم وهي تقول:

ـ لم يعد اسم «بول» يُغضبك إذًا.. حسنًا! أرى تغيرًا كبيرًا قد حدث.

ـ سمِّيه تغيرًا إن شئتِ، لكني أراه في الحقيقة نوعًا من استرداد الوعي.

ـ استرداد الوعي؟

ـ نعم، لقد أدركت أننا كثيرًا ما نصنع صراعًا وهميًّا بين عناصر هويتنا لكي نمحو بعضها ونبقي على البعض الآخر، بينما لو تركناها تتعايش داخلنا لأضافت ما يساعدنا على تحقيق أهداف حياتنا.

مر الوقت في حديث مُتبادَل عن مفهوم الهويات، كان حديثًا فلسفيًّا هادئًا فلم يستفز حماستها الوطنية المعهودة حتى عندما تكلم عن «الشوفونية المصرية»، ربما لأنه قال إنها ليست صفة أصيلة في الشعب المصري وإنما تبدو كردة فعل باطنية لمظالم المحتلين والمستبدين الذين تعاقبوا على حكم البلاد، وفيما بعد ستفكر كثيرًا في كلماته وستذكر كيف استشعرت، رغم موضوعيتها الظاهرة، أنها تعكس نوازع شخصية، وكيف كانت تشعر بالفزع من غيوم الرحيل التي خيمت على لقائهما الأخير.

سألته دون تمهيد:

ـ هل أعدت التفكير في موضوع العمل في مركز الدراسات الاستراتيجية؟

ـ العرض مُغْرٍ بالفعل، وقد شعرت بالحماس خصوصًا بعد لقائي بالأستاذ «السيد ياسين»، لكن التفكير الجدي في الموضوع مؤجل لما بعد انتهائي من رسالة الماجستير.

ليتك تبقى، ليس من أجلي أنا ولكن من أجلك أنت كيلا تفقد ذاتك وانتماءك في الغربة، لكنك تخاطبني اليوم بحديث الهويات المتعددة، فهل هذا تمهيد لرحيل دون عودة؟

قالت ممازحة:

ـ يبدو أن هوية الصحافة تصارع بداخلك هوية التاريخ.

فقال متجاوبًا مع مزاحها:

ـ لا مجال لصراع بينهما، فكلاهما يحتضن في داخله كل الحقائق وكل الأكاذيب أيضًا.

سألته، وقلبها يرفرف فزعًا من الإجابة:

ـ إذًا ستعود للعمل في مصر بعد حصولك على الماجستير مباشرة؟

إذا كنتِ تريدينني أن أبقى فلمَ لا تقولينها صراحة؟ لو نطقتِها فقط لتغير القرار، فالحنين يشدني بجنون إليكِ وإلى مصر وإلى ذكريات حياتي الماضية.

أجابها بلهجة مَن يفكر داخل نفسه بصوت مسموع:

ـ لم أتخذ قرارًا بهذا الخصوص، ربما بقيت لفترة أخرى في

باريس، أو ذهبت للإقامة مع ماما وألبرتو في روما، أو عدت لمصر، الحقيقة أنني لم أحسم أمري بعد.

يا للألم الذي يشوي أعماقي، لو تركت لنفسي العِنان لتشبثت بك ولقلت لك ابقَ، فأنا في أشد الحاجة لوجودك، لشد ما يحرمنا الكبرياء.

عند مدخل شارع عكاشة سألها:

ـ ما رأيكِ في شوب عصير قصب قبل الذهاب؟

أفرجت عن ضحكتها المكبوتة وهي تجيب:

ـ أما زلتَ تذكر عصير القصب؟ لو طلبته منهم اليوم لأوسعونا سخرية.

عند الناصية لاح محل العصير القديم، وقد تم تجديده بالكامل وطُليت واجهته بألوان الباستيل، تعلوه لافتة عريضة كُتب عليها بأنوار النيون «Flower of Dokki - Fresh Juice»، عندما وقفت السيارة أمام المحل أسرع إليهما نادل شاب يرتدي «يونيفورم» أحمر اللون ويحمل في يده صينية من الستانلس ستيل المستورد، سألهما بأدب مُصطنَع عن طلبهما، ولما طلب مصطفى عصير القصب بدا على وجهه عدم الفهم، ثم أخذ يردد بطريقة ميكانيكية وبلغة إنجليزية بائسة أسماء الأصناف الموجودة:

ـ لدينا «هوت شوكلت دارك آند وايت».. «هوت كابتشينو».. «أورانج».. «ليمن».. «كوكتيل».. «ميلك شاك».. «فروت سموثي».

تبادلا نظرات باسمة، ثم طلبا كوبين من كوكتيل الفواكه، قال لها:

ـ يبدو أننا من الآن فصاعدًا سنلتقي على أرض محايدة، فلا عصير قصب ولا مانجو أيضًا.

وهما يرشفان العصير البارد عادا لتبادل الحديث عن المحاكمة العسكرية وعن إسماعيل وأحوال أسرته، انطلقت تتحدث بحرارة غابت عنها منذ الصباح، وبحماسها القديم الذي ما عاد يجده إلا حين تتحدث عن «إسماعيل»، صمت وهو يتطلع إليها كأنه يراها للمرة الأولى، لشد ما تشبه أباها، فكلاهما أفنى أيامه مخلصًا لفارس لا يأتي ولوهم لا يتحقق، وهم صغار كان يستمع إليه وهو يتحدث بحماسة عن أحداث ٩، ١٠ يونيو، وعن إصرار الشعب العربي على التمسك بزعامته لكي تقود البلاد إلى النصر، فيما بعد ألح عليه سؤال حائر لم يطرحه أبدًا على الرجل أو ابنته: كيف لمَن كانوا سببًا في هزائمنا أن يقودوا خُطانا إلى النصر؟

بدأت الغيوم الداكنة تحتشد في الأفق وتتكاثف تمهيدًا لسكب قطرات تودع بها شتاء مصر القصير، تنازعته رغبتان متضاربتان: أن يضمها لصدره، وأن يفر منها، كان يقول لنفسه: هذا الوطن الحبيب مقبرة للأحلام ومزرعة للأوهام، فلأفر من ضيق أوهامكم إلى حلم يسع الناس جميعًا.

أدرك أن الرحيل بات حتميًّا، وأنه رحيل دون وداعٍ ودون إياب، احتقنت عيناه بالدموع فتناول كوبها الفارغ ومضى إلى المحل دون انتظار النادل، وقف هنيهة يتطلع إلى السماء الملبدة

بالغيوم ويتمنى لو جادت بأمطار غزيرة كي يتعلل بها لو خانته عيناه المغرورقتان.

نظرت لشبحه المتلاشي خلف الزجاج المغبش بدموع الفراق، وقالت لنفسها: لا بد أن يفنى شيء بداخلنا لكي يولد شيء جديد، فهل بإمكاني أن أتحمل أعباء ذاك الفناء؟